أينَ المَفَرّ

رواية

أينَ المَفَرّ

رواية

تأليف :

د.خولة حمدي

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

مراجعة لغوية :

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2017/26716

الترقيم الدولي: 978-977-820-049-2

إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دونَ إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أينَ المَفَرّ

د.خولة حمدي

رواية

إهداء

إلى الذين قالوا، قد كانت ثورة!

وإلى الذين قالوا، لم تكن ثورة!

اجمعوا كلماتكم، آراءكم ومراءكم.. وانصرفوا!

آن أن تنصرفوا!

إهداء ثانٍ

إلى المزوّرين الذين سرقوا رواية تحمل العنوان ذاته

لقد أعدت كتابتها، خصيصًا لأقول:

موتوا بغيظكم!

موطني.. موطني!

الجلال والجمال، والسّناء والبهاء

في رباك، في رباك!

-١-

حطّت طائرة الخطوط التّونسيّة القادمة من جينيف في رحلتها رقم ٧٠١ في مطار تونس قرطاج، في السّاعة الثّانية ظهرا، يوم ٢٢ مارس ٢٠١١. كانت رحلة هادئة تخلّلتها اضطرابات جويّة خفيفة، والطّقس في الخارج ربيعيّ مشمس. ترجّل نجيب كامل، الرّجل السّتينيّ، وابنته الشّابة ليلى من مقصورة الدّرجة الأولى، وتقدّما في اتّجاه مكتب الجمارك. تأبّطت ليلى ذراع والدها، ورنت إليه بنظرة مشفقة. هذه الحماسة التي تقرؤها في عينيه، تكاد تنفجر بها تقاسيمه، لا يمكنها أن تتماهى معها بعد. لم يكن الرّبيع في نظرها سوى فصل قد حلّ منذ أيّام، أمّا الرّبيع العربيّ الذي لم يفتر عن ذكره لأسابيع، فدخيل على قاموسها!

لم يدم انتظارهما سوى دقائق قليلة، حتى يحين دورهما للتثبّت من هويّتيهما. استظهر نجيب بجوازات السّفر الدّيبلوماسيّة، ثمّ وقف مترقّبا. كانت الوثيقة التي بحوزته سارية المفعول، رغم انقضاء فترة تكليفه كسفير للبلاد التّونسيّة في سويسرا منذ فترة.

استلم منه موظّف الجمارك الوثائق، رقن الأسماء على جهازه، ثمّ عبس. استدار ليوشوش زميله في المكتب المجاور، ثمّ عاد ليرقن على الجهاز.

ـ هل كلّ شيء على ما يرام؟

بادره نجيب مستفسرا.

ـ لحظة واحدة يا سيّدي.

بينما كان الموظّف يتابع عمليّاته المعقّدة التي لا تنتهي، اقترب رجلا

أمـن بالـزيّ الرّسـميّ مـن المكتـب ووقفـا يترقّبـان في صمـت بدورهمـا. انحنـت ليـلى عـلى والدهـا وهمسـت في قلـق باللغـة الفرنسـيّة:

ـ ما الذي يجري؟

ـ لا تقلقي.. لعلّها إجراءات أمنيّة روتينيّة.. بسبب الثّورة!

هـزّت رأسـها في تفهّـم، بينمـا رسـم والدهـا عـلى شـفتيه ابتسـامة مطمئنـة.

صـار مولعـا بمصطلـح «الثـورة» في الفـترة الأخـيرة. كلّ نشـاط يقـوم بـه وكلّ فكـرة تـرد عـلى خاطـره متّصلـة سـببًا أو نتيجـة بالثّـورة! لقـد حسـبت ليـلى أنّ السّياسـة انسـحبت مـن حيـاة والدهـا منـذ انتهـت مهمّته الرّسـميّة بالسّـفارة، بعـد عقديـن مـن التّكليـف في مختلـف المناصـب الدّيبلوماسـيّة. كانــت السّــنتان الأخيرتــان هادئتــين بشــكلّ خــاصّ، دون كثــير لغــط ولقـاءات ونـدوات وسـفرات خارجيّـة. لكـنّ رجـل الأعمـال ارتـدى فجـأة عبـاءة السّـياسيّ مـرّة أخـرى، وصـارت الثّـورة كلّ مـا يشـغله.

في الحقيقــة، لقــد تحــوّل كلّ تونــسيّ عرفتــه في المهجــر إلى ســياسيّ محنّـك في ظـرف أيّـام مـن انـدلاع الحركـة الثّوريّـة في تونـس! منـذ أحـرق البائـع المتجـوّل الشّـابّ «محمّـد البوعزيـزي» نفسـه في السّـوق الأسـبوعيّة بسـيدي بوزيـد، انطلقـت الألسـن بالتّحليـل والتّنظـير كمـا لـم تفعـل مـن قبـل.

ـ سعادة السّفير، هلّا تبعتنا رجاء؟

كان ضابـط يحمـل نجمتـين عـلى كتفيـه قـد اقـترب مـن نجيـب الآن. رمقـه نجيـب بنظـرة متفحّصـة. جـواز سـفره غـير المختـوم بـين كفّـي الضّابـط، وذراعـه تشـير إلى المكتـب الدّاخـليّ لحـرس الحـدود. مـا إن قـدم الضّابـط حتّى أحـاط بـه رجـلا الأمـن مـن الجانبـين، لتشـجيعه عـلى الانصيـاع دون مقاومـة.

ـ آنستي، من هنا أرجوك.

تسـلّمت ليـلى جـواز سـفرها المختـوم في ذهـول، بينمـا كان والدهـا يتحـرّك مبتعـدا محفوفـا بحارسـيه. كان الموظّـف يشـير إليهـا لتسـير في اتّجـاه قاعـة تسـلّم الأمتعـة! ارتبكـت نظراتهـا، وهتفـت في صرامـة:

ـ سأنتظر والدي.. إلى أين تأخذونه؟

التفت نجيب، وقال مطمئنا:

ـ لا تخافي، سيكون كلّ شيء على ما يرام!

كان عليهـا أن تثـق في ملامـح والدهـا المطمئنـة، وعينيـه المشـجّعتين. لـم يفعـل شـيئا يسـتحقّ القلـق. إنّـه مجـرّد إجـراء روتيـنيّ. هـزّت رأسـها موافقـة، وازدردت ريقـا مـرّا علـق بحلقهـا. تابعتـه بعينـين فزعتـين حـتّى اختفـى بالدّاخـل. جلسـت في قاعـة الانتظـار، ضامّـة كفّيهـا في حجرهـا، سـاقها ترتجـف في حركـة لا إراديّـة، وعيناهـا معلّقتـان بالبـاب. هـذا الإجـراء الرّوتيـنيّ قـد دام طويـلا. مـرّت سـاعة مـذ اختفـى والدهـا داخـل المكتـب المغلـق.

تفكّـر الآن، مـا الـذي يكـون سـبب احتجـاز والدهـا. لقـد حاولـت أن تقنعـه بـألّا يسـتخدم جـواز السّـفر الدّيبلومـاسيّ! خمّنـت أنّ كلّ مسـؤول ذي علاقـة بالنّظـام المنهـار لـن يكـون محـلّ ترحـاب مـن قبـل مواطنيـه الثّائريـن والغاضبـين. لكنّـه لقّنهـا درسـا طويـلا في الـولاء للوطـن والـبراء مـن النّظـام! كان يعتـبر ولاءه للوطـن وحـده، لا لنظـام أو رئيـس. هكـذا هـي المهمّـات الدّيبلوماسـيّة. وهكـذا يشـهد لـه كلّ مـن عرفـه. لقـد خـدم البـلاد، رغـم اسـتيائه مـن النّظـام الدّيكتاتـوريّ وتبرّئـه مـن ممارسـاته المخزيـة. والآن، وقـد انزاحـت الغمامـة، ألا يحـقّ لـه الاحتفـال مـع مواطنيـه ومشـاركتهم نشـوة الحريّـة؟ كان يطمـع في تقاعـد هـادئ ووديـع في كنـف الوطـن المحـرّر.

لكنّها كانت على حقّ. لقد جاهر بهويّته أكثر ممّا يجب.

الحركـة لا تتوقّـف في المطـار. طائـرات تحـطّ وأخـرى تقلـع. مسـافرون يجيئـون، وآخـرون يرحلـون. مـرّت عليهـا ثـلاث سـاعات وهـي تصـارع القلـق والتّوتّـر. ثـمّ أدركـت أنّ أمـرا مـا يحصـل. وقفـت، وسـارت في اتّجـاه المكتـب المغلـق. أوقفهـا رجـل أمـن بحـدّة:

ـ هذه مساحة ممنوعة على غير الموظّفين!

هتفت بصوت قويّ رغم ارتجافها:

ـ لقـد أخـذوا والـدي إلى هنـاك منـذ ثـلاث سـاعات.. أريـد أن أعـرف مـاذا يجـري!

التفت إلى زميله الواقف غير بعيد عنه وقال مستفسرا:

ـ هل هي أجنبيّة؟ ما شأنها؟

انتبهـت إلى أنّ لغتهـا الفرنسـيّة لـم تكـن تناسـب الموقـف، أعـادت عليـه طلبهـا بعربيّـة مـتردّدة، ذات لكنـة أجنبيّـة. كانـت تجتهـد لتنطـق الحـروف بوضـوح. رمقهـا الموظّـف بنظـرة متعاطفـة، ثـمّ قـال:

ـ ما اسم والدك؟ سأستطلع الأمر من أجلك.

بعد دقيقتين، عاد يجرّ قدميه ببطء، ثمّ قال معاتبا:

ـ مـا كان عليـك الانتظـار كلّ هـذا الوقـت.. لقـد أخـذوا والـدك منـذ زمـن!

ـ أخذوه؟ إلى أين؟ لم أره يخرج!

ـ لا شكّ أنّهم أخرجوه من الباب الخلفيّ!

ـ باب خلفيّ؟ لماذا لم يخبرني أحد؟ إلى أين ذهب؟

ـ لا أدري، عـودي إلى البيـت يـا آنسـتي، واسـألي عنـه صباحـا في دائـرة التّفتيـش والمحاسـبة.

ـ تفتيش ومحاسبة؟ ما الذي تعنيه؟

ـ هـذا كلّ مـا عنـدي.. انـصرفي الآن! هنـاك حظـر تجـوّل بعـد السّـاعة التّاسـعة.

تجاهلهـا، وسـار مبتعـدا، يجـرّ قدميـه بنفـس السّـماجة. بينمـا توقّـف الزّمـن بالنّسبة إلى ليـلى عنـد تلـك اللّحظـة. تجمّـدت مكانهـا وقـد سـيطر عليهـا الجـزع، ثـمّ هرولـت بـين المكاتـب. سـألت موظّفـا آخـر، ثـمّ آخـر.. ولـم تختلـف الإجابـة كثـيرا. خرجـت أخـيرا، بعـد سـاعة أخـرى، لتجـد حقائبهـا مركونـة إلى جانـب شريـط النّقـل المتوقّـف. السّـاعة تشـير إلى السّـابعة مسـاء، وهـي تتضـوّر جوعـا.

وقفـت عـلى الرّصيـف أمـام المطـار، لا تـدري إلى أيـن تذهـب. لـم تكـن تعـرف أحـدا في تونـس. كانـت زيارتهـا الأولى خـلال الأربـع والعشريـن سـنة الماضيـة.. والـتي تمثّـل كلّ مـا انقـضى مـن عمرهـا. أو هـذا عـلى الأقـلّ مـا تذكـره. لـم تكـن قـد رافقـت والدهـا في سـفراته الحديثـة الخاصّـة بالعمـل، ولـم تكـن تحسـب أنّ لهـا عائلـة تجـدر بهـا زيارتهـا في الوطـن. أو لعلّهـا فعلـت في وقـت لا تذكـر عنـه شـيئا؟ لـم تكـن واثقـة. لكـنّ وقوفهـا المرتبـك ذاك عـلى رصيـف المطـار كان يحمـل طعـم «المـرّة الأولى».

هـذا وطنهـا الـذي لا تعرفـه، وهـي تواجهـه وحدهـا، بكفّيهـا العاريتـين. هـذه معركـة غـير متكافئـة!

كانـت الحركـة خفيفـة في بدايـة المسـاء، بسـبب حظـر التّجـوّل. لـم تكـن بحوزتهـا أيّـة أرقـام هواتـف، فقـط عنـوان خالهـا الـذي لـم تلتقـه قـطّ. تذكّـرت حجـز الفنـدق. بطاقـة الحجـز مـع والدهـا، لكنّهـا تعـرف اسـم الفنـدق عـلى الأقـلّ. هـل يسـمحون لهـا بالـنّزول في الغرفـة، والحجـزُ باسـم والدهـا؟ كانـت بحوزتهـا بعـض العملـة السّـويسريّة.. يمكنهـا أن

تدفـع ثمـن إقامتهـا لبضـع ليـالٍ، لا أكـثر. يجـب أن تجـد حـلّا قبـل أن ينفـد مـا لديهـا مـن مـال. تذكّـرت، لديهـا بطاقتهـا الائتمانيّـة. يمكنهـا السّحب مـن رصيدهـا في البنـك السّـويسريّ متى شاءت! زفـرت في ارتيـاح عنـد ذلـك الخاطـر. لـم تسـدّ أمامهـا كلّ السّـبل بعـد.

أوقفـت سيارة أجـرة، وأعطـت السّـائق اسـم الفنـدق. الفنـدق الوحيـد الـذي تعرفـه في العاصمـة. كانـت رؤيتهـا ضبابيّـة طيلـة الطريـق. ليـس بسـبب دموعهـا، ولا سرحانهـا في أفكارهـا. كانـت الطّريـق مظلمـة حقّـا، وشـبه مقفـرة. ولـم يتوقّـف السّـائق عـن التّذمّـر. كان يخاطـر بحياتـه لإيصالهـا في مثـل تلـك السّـاعة المتأخّـرة.. إن واجهـه كمـين في طريـق العـودة، فسـيكون ذلـك بسـببها! لحسـن حظّهـا، كانـت لافتـة الفنـدق مضيئـة عـن بعـد، وكان السّـائق يعـرف الطّريـق. نقدتـه ورقـة مـن فئـة العشريـن فرنـك، فسـارع يسـاعدها في إنـزال الحقائـب ويوصلهـا حـتّى بوّابـة الفنـدق الدّاخليّـة، وقـد أنسـاه كرمهـا أمـر حظـر التجـوّل والكمـين.

كانـت هنـاك غـرف شـاغرة. حصلـت عـلى واحـدة بسـهولة. تذمّـرت كذلـك موظّفـة الاسـتقبال. لـم يكـن الموسـم سـياحيّا بعـد في بدايـة الرّبيـع، والثّـورة قـد قضـت عـلى السّـوق الفندقيّـة تمامـا. دخلـت الغرفـة، وطلبـت وجبـة خفيفـة مـن قائمـة خدمـة الغـرف. عقلهـا يعمـل بشـكل أفضـل حـين لا تكـون جائعـة. تناولـت طبقهـا عـلى مهـل وهـي تفكّـر.

يلزمهـا أن تبحـث عـن محـامٍ. لكنّهـا غريبـة، لا معـارف لديهـا ولا صـلات. ربّمـا إن تمكّنـت مـن زيـارة والدهـا، سـيدلّها عـلى بعـض العناويـن. في الانتظـار، لـم يكـن بوسـعها إلّا أن تتّصـل بخالهـا. كان دليـل الهاتـف عـلى منضـدة الغرفـة. فتحـت الكتـاب الضّخـم وأخـذت تبحـث عـن اسـم نبيـل القاسـمي المقيـم في ضاحيـة «سكّرة». لـم تجـد الرّقـم في الدّليـل. اتّصلـت بمكتـب الاسـتقبال وطلبـت خدمـة الدّليـل الصّـوتيّ. أملـت الموظّفـة الاسـم وانتظـرت. كان ردّهـا سـالبا.

ـ نعتذر، الرّقم على اللّائحة الحمراء!

لعنت قانون الخصوصيّة الذي يسمح للأفراد بحجب أرقام هواتفهم من الدّليل. فلتجرّب الشّركة إذن. حاولت أن تتذكّر الاسم. القاسمي للتّجارة؟ القاسمي وشركاؤه؟ لم تكن واثقة. طلبت لائحة الشّركات التي تحوي اسم القاسمي. كان هناك حوالي عشرين اسما.. ولم يكن من بينها أيّ من تخميناتها! ماذا ستفعل الآن؟ هل تتصل بها كلّها، تطلب من الاستقبال أن يوصلها بسكرتيرة المدير، ثمّ تقنع السكرتيرة بأنّها ابنة شقيقة المدير، فإذا ما صدّقتها وقبلت تمرير الاتّصال مرّت باستجواب إثبات هويّة؟ عشرون مرّة.. كثير جدّا.

عليها أن تزور خالها في الغد.

***

توقّفت سيّارة أجرة أمام البوّابة الرّئيسيّة لقصر نبيل القاسمي، في ضاحية «سكّرة» بالعاصمة التّونسيّة. نزلت الرّاكبة الوحيدة ليلى كامل، نقدت السّائق أجره ثمّ تقدّمت لتضغط على الجرس. وقفت تنتظر لبرهة ريثما يطالع من بالدّاخل صورتها على الشّاشة الدّاخليّة، ويتّخذ قرارا باستقبالها. السّاعة مازالت لم تتجاوز السّابعة والنّصف صباحا. ليس وقتا مناسبا للزّيارة. لكنّه وقت تضمن فيه أن تجد خالها في قصره. إذا تأخّرت، سيكون عليها اللّحاق به إلى الشّركة.

حين فتحت البوّابة بشكل آلي، خالجها بعض التوتر. لقد خلّف حديث والدها عن عائلة خالها انطباعا غريبا لديها. لم تكن تشعر بالارتياح وهي تقطع المسافة التي تفصل بين البوّابة الخارجيّة والمدخل المفضي إلى البهو. لكنّها مضطرّة. لا يمكنها اللّجوء إلى أحد

آخـر. هـذا مقـرّ إقامـة خالـك يـا ليـلى، خالـك الـذي لا تعرفينـه. لـم ينتظـرك أحـد في المطـار، وهـا أنـت تصلـين مثـل الغربـاء. لكنّـك اليـوم لسـتِ بصـدد زيـارة عائليّـة ترتـق عـرى المـودّة المنبتّـة، بـل أنـت في مهمّـة. تذكّـري ذلـك.

ضغطـت عـلى حقيبـة يدهـا بأنامـل مرتجفـة، تلـك الارتجافـة الخفيّـة الـتي لا ينتبـه إليهـا إلّا مراقـب عـن كثـب، ثـم سـارت بخطـوات واسـعة في اتّجـاه المبـنى. ألقـت نظـرة شـاملة عـلى الحديقـة متراميـة الأطـراف، ثـم اسـتدارت لتتأمـل واجهـة القـصر الشـامخ المنتصـب أمامهـا. حاولـت أن تضبـط إيقـاع تنفّسـها. عـلى الأقـلّ، لـم يكـن عليهـا القلـق بشـأن ثقـوب ذاكرتهـا. لقـد تعرّضـت لمواقـف محرجـة كثـيرة منـذ حادثـة السـيّارة، عـلى الطريـق الجبليّـة، في سـويسرا. لكنّهـا لا تحمـل هـمّ المـآزق ذاتهـا في تونـس. هـذه بدايـة طازجـة، لا علاقـات سـابقة ولا سـجلّ تاريخـيّ مشـترك!

تحرّكـت أصابعهـا لتسـوّي مقدّمـة شـعرها في لازمـة لا إراديّـة، وتقدّمـت بخطـى ثابتـة لتصعـد درجـات السّـلم الرّخامـيّ المـؤدّي إلى المدخـل. انحـنى أمامهـا الخـادم العجـوز ثـم سـبقها إلى الدّاخـل. انتبهـت إلى الرّجل القصـير الأصلـع الـذي وقـف يترقّبهـا في البهـو، في بدلـة رسـميّة كاملـة، يدفـع كرشـا مسـتديرة أمامـه وعـلى شـفتيه ابتسـامة ودودة. خالهـا، نبيـل القاسـمي. تقدّمـت لتعانقـه في حـرارة متكلّفـة وتبـادلا عبـارات الترّحيـب.

ـ أعتذر على الزّيارة المبكّرة.. أرجو ألّا أكون قد أزعجتك!

ـ أبدا.. كنت أتناول قهوتي الصّباحية وأطالع الجريدة.

أشـار إلى الأريكـة حيـث كانـت الجريـدة، وفنجـان قهـوة مـليء إلى النّصـف، ودعاهـا إلى مشـاركته الجلسـة.

ـ أين نجيب؟ ظننتكما ستصلان معا!

ـ نعم، كانت تلك هي الخطّة.. لكن حصل ما لم يكن في الحسبان.

قصّــت عليــه تفاصيــل مغامرتهــا في المطــار باقتضــاب. لقــد ألقــي القبــض عــلى والدهــا أثنــاء إجــراءات الوصــول. هــذا مــا كان يجــب أن يعرفــه. كانــت تُنهــي روايتهــا، حــين تناهــت إليهــا ضوضــاء قادمــة مــن الطّابـق الأول، ثـم ظهـر شـابّ ثلاثيـنيّ حنطـيّ البـشرة أخـذ يـنزل الـدّرج. حـدّق فيهـا في دهشـة، قبـل أن يبـادر نبيـل معرّفـا:

ـ هــذا ياســين ابــني الأكــبر.. تعــال يــا ياســين، هــذه ليــلى ابنــة عمّتــك نجــاة.. لقــد تعرّفــت إليهــا بالتّأكيــد.

تجاهلــت ليــلى ملاحظتــه الأخــيرة. لقــد كان وجههــا مألوفــا بالنّســبة إليهــم جميعــا. هــذا مؤكّــد. لكــن لــم يكــن العكــس صحيحــا. بالنّســبة إليهــا، كانــوا جميعــا غربــاء.

بعـد لحظـات شـخوص وارتبـاك، اسـتعاد ياسـين هـدوءه، وانضـمّ إلى الجلسـة. كان شـبهها الشـديد بشـخص آخـر يعرفـه جـدّ المعرفـة، جعـل ردود فعلــه تشــهد حالــة بــطء وتبلّــد. العينــان اللّوزيّتــان الخــضراوان والشّــعر الكســتنائيّ السّــبط، وتلــك الملامــح الدّقيقــة والمتحفّــزة. إنّــه يعرفهـا كلّهـا حـقّ المعرفـة.

في كلمــات قليلــة، أوجــز نبيــل بــدوره وصــف المســتجدّات. قــال ياســين عــلى الفــور:

ـ لا تقلق، سأهتمّ بالأمر.

هــزّ نبيــل رأســه في استحســان. يعــرف أنّ بإمكانــه الثّقــة في أكــبر أبنائــه حــين يتعلّــق الأمــر بحــلّ أزمــات العمــل أو غيرهــا مــن المهــامّ. ليــس غريبــا أن يكــون ذراعــه اليمــنى في الشّركــة. قــال مخاطبــا ليــلى بلهجــة مطمئنــة:

ـ أرأيت؟ ياسين سيهتمّ بهذه المسألة البسيطة.. والآن، أين حقائبك؟

ـ في النّزل.

ـ مـاذا؟ لا! هـذا غـير ممكـن! ابنـة أخـتي تقيـم في نـزل وفيـلا خالهـا مفتوحـة؟ سـتأتين للإقامـة معنـا، حـتّى يخـرج والـدك بالسّـلامة!

كان يتكلّم كمن يقرّر، لا يُخيّر. التفت إلى ياسين وقال آمرا:

ـ رافقهـا إلى الـنّزل، وأحـضر حقائبهـا وحاجياتهـا.. سـتقيم في غرفـة حنان مـن الآن وصاعـدا.. صابـر، اقـترب.. بلّـغ الآخريـن بالأمـر، يجـب أن تكـون الغرفـة جاهـزة فـور عودة الآنسـة.

انحـنى الخـادم العجـوز، ثـمّ ابتعـد ليلـبّي مطلـب سـيّده، بينمـا تمتمـت ليـلى في إحــراج:

ـ شكرا لك.. ولكن...

ـ ليـس هنـاك لكـن.. قُـضي الأمـر يـا عزيـزتي. هيّـا أحـضري حقائبـك! ياسـين، مـاذا تنتظـر؟

حين صارت وياسين أمام المدخل، التفتت إليه وقالت:

ـ يمكنني إحضار حقائبي بنفسي.. لا تتعب نفسك.

لـم تكـن فكـرة ركـوب سـيّارة رجـل غريـب، حـتّى لـو كان ابـن خالهـا، تروقهـا. ابتسـم ياسـين وأشـار بإبهامـه إلى الدّاخـل:

ـ أعرف أنّ بإمكانك تدبّر أمرك.. لكنّها أوامر الرّئيس!

ـ إذن، سأسبقك إلى النّزل، لأجمع حاجياتي.. ثمّ يمكنك اللّحاق بي.

فكّـر. لـم يكـن قـد تنـاول وجبـة إفطـاره بعـد. وهـي عـلى مـا يبـدو لا ترغـب في رفقتـه. يمكنـه أن يجاريهـا. قـال وهـو يهـزّ رأسـه:

ـ اسم النّزل؟ وأيّ ساعة تناسبك؟

***

عـادت إلى الـنّزل وحيـدة. جمعـت حاجياتهـا بسرعـة وتركـت حقائبهـا عنـد مكتـب الاسـتقبال. أنبأتهـم أنّ سـيّارة سـتأتي لأخذهـا حـوالى السّـاعة العــاشرة، وزوّدتهــم بهويّــة المســتلم، ثــمّ غــادرت. ســتترك لياســين توصيـل الحقائـب، وسـتهتمّ بالبحـث عـن والدهـا. كانـت تشـعر بالخيبـة. لـم يبـد لهـا أنّ خالهـا وابنـه يقـدّران مـا هـي فيـه مـن قلـق. لـن تسـتطيع الاسـترخاء والاسـتمتاع بضيافتهمـا وهـي لا تعلـم بعـد مـا الـذي حـلّ بوالدهـا!

استـقلّت سيّارة أجـرة، وطلبـت مـن السّـائق إيصالهـا إلى دائـرة التّفتيـش والمحاسـبة. سـألها بشـكل آليّ:

ـ التّابعة لأيّ منطقة؟

فأغلق عليها الأمر. قالت في ارتباك:

ـ أقرب واحدة للمطار!

فهزّ الرّجل رأسه في عجب.

ســيكون عليهــا المــرور عــلى ســتّ دوائــر بالعاصمــة الكــبرى، دون نتيجـة تذكـر. تنتظـر في كلّ مـرّة سـاعة أو نحوهـا حـتّى يهتـمّ بهـا أحـد الموظّفـين.. ثـمّ ترجـع خاليـة الوفـاض. لا أحـد يعلـم شـيئا عـن والدهـا. سـيفجعها عـدد الأهـالي المتكدّسـين في قاعـات الانتظـار، يسـألون عـن ذويهـم الغائبـين أو المختطفـين. سـيفزعها قـول امـرأة متّشـحة بالسّـواد، بإيمـان خالـص وصـوت ثابـت:

ـ إنّهم يعلمون ولكنّهم لا يقولون شيئا! حسبي الله ونعم الوكيل!

عـادت في المسـاء إلى قـصر نبيـل القاسـمي، منهكـة ومسـتنزفة. اسـتقبلها خالهـا بنظـرة لـوم وعتاب:

ـ ليـلى، ليـلى! لقـد أغضبـت خالـك اليـوم! لمـاذا لـم تـتركي ياسـين يتــصرّف؟

التفتت إلى ياسين الذي عقد ذراعيه أمام صدره ولسان حاله يقول: ألم أقل لك؟

ـ لقد عرفنا مكانه.. إنّه في سجن الإيقاف. سيأخذك ياسين غدا لرؤيته ورؤية المحامي أيضا.

هزّت رأسها في استسلام. ستفعل. كان عليها أن تدرك أنّ صلات خالها ستجدي نفعا وهو يجلس إلى مكتبه، أكثر من جهودها الفرديّة وهي تركض دون توقّف من دائرة تفتيش إلى أخرى. فكّرت فجأة بالمرأة المتّشحة بالسّواد. كم عليها أن تنتظر، دون صلات وعلاقات، لتعرف مكان زوجها أو ابنها؟

ـ صابر، دلّ الآنسة على الغرفة المعدّة لها.. ليلى، لقد كان يومك طويلا، فلتستريحي حتّى موعد العشاء.

هزّت ليلى رأسها موافقة، وتبعت الخادم إلى سلّم الطابق الأوّل. اضطربت أنفاسها وهي تدلف إلى غرفتها.. غرفة حنان سابقا. كانت غرفة واسعة، بحمّام ملحق، وشرفة مظللة تطلّ على الحديقة الخلفيّة. تعرف حنان، شقيقتها التّوأم، من خلال حديث والدها. لم تلتقها قطّ. والداها انفصلا في وقت مبكّر، وعاشت كلّ واحدة من التوأمين مع أحد الوالدين. والدتها كانت تقيم هنا في قصر شقيقها، مع حنان.

استلقت على السّرير وهي تزفر في إعياء. عادت بأفكارها إلى الأسابيع القليلة الماضية، حين فاتحها والدها بموضوع العودة النّهائيّة إلى أرض الوطن. قال ببساطة: «تعالي نعش أجواء الثّورة!» كم كان رومانسيّا حالما! فكّرت في سخرية. هكذا يقابلك وطنك الذي جئته متلهّفا! بالشّكوك والتّخوين!

تمنّت لو تستيقظ صباحا، لتجد الكابوس قد انقضى.

لـم تـدرك كـم مـضى عليهـا مـن الزّمـن في سرحانهـا، حـتّى تناهـى إليهـا صـوت طـرق خفيـف عـلى البـاب. فتحـت عينيهـا واسـتقامت في مجلسـها. تناهـى إليهـا صـوت رجـالي يقـول:

- ليلى.. هل يمكنني الدخول؟

- من؟

- أنا أمين.. هل أنت نائمة؟

فتحت الباب ليطالعها وجه أمين المبتسم. ابن خالها الأصغر.

- هـل أيقظتـك؟ لـم أسـتطع تأجيـل التّرحيـب بـك حـتّى موعد العشـاء.. أنـا أمـين، سـتّ وعـشرون سـنة، كليّـة التّجـارة.. مـسرور لرؤيتك!

كان أمـين فـتى وسـيما بأتـمّ معـنى الكلمـة، ربّمـا بشـكل مبالـغ فيـه بالنّسـبة إلى ليـلى. أدركـت منـذ الوهلـة الأولى أنّـه مـن النّـوع الـذي تلاحقـه الفتيـات في الجامعـة، وتعتـبر طلّتـه مثـالا يحتـذى ضمـن شـلّة الصّبيـان الذيـن يتزعمهـم. كان في عينيـه السّـوداوين العميقتـين شيء مـن الطّفولـة. يصفّـف شـعره الأسـود الناعـم بعنايـة، مسـتعينا بأطنـان مـن الهـلام المعطّـر.. أمّـا تلـك البـشرة البيضـاء الصّافيـة، فإنّهـا تحسـده عليهـا! ملامحـه الحـادّة لافتـة، لكنّـه بـدا ودودا للغايـة، مثـل جـرو صغـير جـذّاب.

- لا تتأخري عن موعد العشاء بعد نصف ساعة.. أراك لاحقا!

قبـل أن يتـوارى عـن ناظريهـا، عـاد ليطـل برأسـه مـن فتحـة البـاب وهمـس:

- فراس سيكون معنا على العشاء!

طبعـا، إنّهـا تعـرف مـن يكـون فـراس. بوسـعها أن تجهـل كلّ شيء عـن أمـين وياسـين، لكـن ليـس فـراس! إنّـه زوج حنـان، أو أرملهـا بعبـارة أدقّ.

كانـت توأمهـا قـد توفّيـت في حادثـة، منـذ ثـلاث سـنوات.. بعـد سـنة واحـدة مـن زواجهـا. تنهّـدت ثـمّ شرعـت في توضيـب ملابسـها في الصّـوان بتـأن وعقـل غائـب. لـم تكـن مسـتعدّة للقـاء دراميّ مـن هـذا النّـوع. تمنّـت أن يكـون قـد عـاش حـداده بمـا يكفـي وانتقـل إلى محطّـة أخـرى. غـيرت ملابسـها وغـادرت الغرفـة.

حـين دلفـت إلى قاعـة الطّعـام، توجّهـت إليهـا الأنظـار. رمقهـا ياسـين بنظـرة جانبيـة، في حـين ابتسـم أمـين وأشـار إلى المقعـد المجـاور لـه يدعوهـا إلى الجلـوس. أمّـا فـراس فقـد أشـاح بوجهـه متجاهـلا وجودهـا. قـال نبيـل في اسـتياء:

ـ فراس.. ألن تلقي التّحيّة على ابنة عمّتك؟

اضطـرب تنفّـس ليـلى وهـي ترقـب ردّة فعلـه. لوهلـة شـعرت بـأنّ شـيئا مـا سـيحدث، لكـنّ فـراس لـم يرفـع عينيـه إليهـا أبـدا. كانـت قبضتـاه متشـنّجتين عـلى ركبتيـه، ورأسـه مطرقـا. أخـيرا تحرّكـت شـفتاه ليهمـس بصـوت بـارد وعـدائيّ:

ـ مرحبا.

غمغمـت في سرّهـا سـاخرة، يـا للحفـاوة! وقـف نبيـل ودعـا ليـلى إلى الجلـوس قربـه. كان يـترأّس المائـدة، عـلى يسـاره ياسـين، في حـين بقـي المقعـد عـلى يمينـه شـاغرا عـلى شرف الضّيفـة. جلسـت إلى جـوار أمـين، في حـين كان فـراس عـلى الجانـب الآخـر، إلى جـوار ياسـين.

اسـتمعت إلى أمـين يثرثـر طيلـة العشـاء، في حـين أكل الباقـون في صمت. أمّـا ليـلى، فقـد انشـغل بالهـا باسـتقبال فـراس الغريـب. لقـد توقّعـت كلّ أنـواع ردود الفعـل.. مـن التأثّـر البسـيط إلى الاحتفـاء البالـغ انتهـاءً بالانهيـار العصبي، بمـا يتناسـب مـع عمـق العلاقـة الـتي جمعتـه بزوجتـه الرّاحلـة. لكـنّ مـا رأتـه لـم يكـن شـيئا ممّـا سـبق! فكّـرت.. إنّهـا تلتقيـه

للمـرّة الأولى، مثـل الآخريـن تمامـا، ولا تاريـخ مشـتركا أو علاقـة سـابقة بينهمـا. لكنّـه اتّخـذ منهـا موقفـا بالفعـل!

حالمـا رجعـت إلى غرفتهـا، فتحـت حاسـبها الآليّ المحمـول، ورقنـت اسـم حنـان عـلى محـرّك البحـث. لقـد مـرّت بهـذه الخطـوات نفسـها منـذ ثـلاث سـنوات، حـين عرفـت بأمـر حنـان للمـرّة الأولى. تتصفّـح مواقـع التّواصـل الاجتماعـيّ، وتميّز عـلى الفـور صفحـة حنـان مـن بـين مجموعـة الصّفحـات الـتي أفرزهـا البحـث. لقـد كانـت حنـان تشـبهها حـدّ التّطابـق. تـوأم حقيقـيّ.

عليهـا أن تعـترف، لقـد خبـا فضولهـا تجـاه شـقيقتها بسرعـة مثلمـا اشـتعل فجـأة! سـألت كثـيرا في الأيّـام الأولى، عـن الأسـباب والدّوافـع الـتي أدّت بـكلّ منهمـا لتعيـش في معـزل عـن الأخـرى. حاولـت أن تعـرف عنهـا مـا أمكنهـا، تريـد اكتشـاف أوجـه الشّـبه والاختـلاف بينهمـا. لكـنّ كلّ ذلـك تجـلّى سريعـا نوعـا مـن العبـث. تسـاءلت بعـد ذلـك، مـا جـدوى الفضـول تجـاه شـخص ميّـت؟ لـم تكـن قـد عرفـت بوجودهـا إلّا حـين طالعـت نعيهـا. كانـت لديهـا أخـت، وقـد توفّيـت. انطفـأت الإثـارة خـلال أسـابيع قليلـة، ونسـيت أمرهـا أو كادت.

مـرّة أخـرى، حملقـت بعينـين مأخوذتـين في صـور توأمهـا الـتي كانـت تبـدو في كلّ منهـا في كامـل زينتهـا وأناقتهـا، في حفـلات صاخبـة ومناسـبات باذخـة. تصفّحـت الصّـور ذاتهـا، باهتمـام أكـبر. لـم تكـن هنـاك صـورة واحـدة لفـراس. بعـد انجـلاء الصّدمـة، دقّقـت في التّفاصيـل. كان آخـر منشـور لهـا منـذ أربـع سـنوات تقريبـا. وكانـت صـور الحفـلات تتوقّـف منـذ خمـس سـنوات، قبـل زواجهـا. أمّـا المنشـورات الأخـيرة، فهـي سلسـلة مـن المقـولات المأثـورة، والاقتباسـات الحزينـة!

***

قبيـل السّـاعة السّـابعة صباحـا، كانـت عـلى أهبـة الاسـتعداد. ترقّبـت في غرفـة الطّعـام دون أن تلمـس شـيئا مـن الأكل أمامهـا. بعـد نصـف سـاعة ثقيلـة، ظهـر خالهـا.

ـ أنت مبكّرة كعادتك!

قـال ضاحـكا. ربّمـا يجـد لهفتهـا مسـلّية! لكـنّ قلقهـا لـم يفـتر منـذ الأمـس. لـن تسـتريح قبـل أن تـرى والدهـا بـأمّ عينيهـا. بعـد دقائـق قليلـة، وصـل ياسـين هـو الآخـر، ليتنـاول إفطـاره. نظـر إلى سـاعته وقـال في بـرود:

ـ مكتـب المحامـي لا يفتـح قبـل التّاسـعة! خـذي وقتـك، وتنـاولي إفطـارا جيّدا.

بادره نبيل فجأة:

ـ أين زوجتك؟

ـ عند والدتها.

بـدا الامتعـاض عـلى وجـه نبيـل، بينمـا شرع ياسـين يـأكل في لامبـالاة. انتظـرت ليـلى في صـبر وأنـاة، بينمـا اسـتمرّا يدردشـان بشـأن أمـور العمـل، متجاهلـين وجودهـا تمامـا. لـم يظهـر أمـين أو فـراس، حـتّى صـارت الثامنـة والرّبـع. نظـرة أخـرى مـن ياسـين إلى سـاعته، ثـمّ غـادر ثلاثتهـم. ركبـت ليـلى في المقاعـد الخلفيّـة، إلى جـوار خالهـا في سـيّارته المرسـيدس الفاخـرة، وركـب ياسـين إلى جـوار السّـائق.

كان المحامـي بانتظارهـم. نبيـل القاسـمي يعتـبر واحـدا مـن حرفائـه المهمّـين، وكان بإمكانـه تأجيـل أيّ قضايـا أخـرى للنّظـر في حاجتـه. تصافـح الرّجـلان، ثـمّ جلـس الأربعـة حـول طاولـة اجتماعـات مسـتديرة. قـال المحامـي مطمئنـا:

ـ لقـد اطّلعـت عـلى الملـفّ.. إنّهـا مجـرّد دعـوى كيديّـة! هـذا أمـر

متكـرّر منـذ بدايـة الثّـورة. كثـيرون وجـدوا أنفسـهم محـلّ شـكاوى لمجـرّد اضطلاعهـم بمهـامّ رسـميّة في ظـلّ النّظـام السّـابق! لا شـكّ أنّ أحـد الحاقديـن عـلى السـيّد نجيـب كامـل أراد أن يصفّـي حسـابات قديمـة، فرفـع دعـوى ضـدّه! سـيتمّ التّحقيـق في القضيّـة وإطـلاق سراحـه سريعـا حـين يتجـلّى الطّابـع الكيـديّ للقضيّـة.. لا داعـي للقلـق!

تنفّست ليلى الصّعداء، ثمّ قالت:

ـ ألا يمكن إطلاق سراحه بكفالة؟ ريثما تنظر المحكمة في القضيّة؟

ـ للأسـف، في هـذه الفـترة الحسّاسـة، لا يمكـن إطـلاق سراح المتّهمـين بقضايـا فسـاد بكفالـة ماليّـة! سـيكون علينـا الانتظـار قليـلا، ريثمـا تسـتقرّ أوضـاع البـلاد.

صافـح خالهـا المحامـي مبديـا امتنانـه، ثـمّ غادرهـم إلى شركتـه وأعماله الـتي أجّـل بعضهـا مـن أجـل قضيّـة صهـره. بعـد ذلـك، خرجـت ليـلى برفقـة ياسـين والمحامـي في اتّجـاه سـجن الإيقـاف. لـم يـدم الانتظـار طويـلا، حـتّى سُـمح لليـلى والمحامـي بلقـاء نجيـب، بينمـا كان عـلى ياسـين البقـاء خارجـا.

عانقـت ليـلى والدهـا بحـرارة وبكـت بـين ذراعيـه. كان يبـدو هزيـلا، وهـالات سـوداء عميقـة ترتسـم أسـفل عينيـه. بـدا مسـنّا في ثياب السّـجن، كأنّمـا قـد شـاب في يـوم وليلـة. لـم يمـض سـوى ثمـان وأربعـين سـاعة عـلى فراقهمـا، لكنّهـا بـدت دهـرا لكليهمـا. إن كانـت قـد عانـت في اليومـين السّـابقين، فمعاناتـه أشـدّ. لقـد كان يهتـمّ بمظهـره كثـيرا، والإهمـال جعـل حالتـه تبـدو أسـوأ ممّـا هـي عليـه في الحقيقـة.

تكلّـم المحامـي ليـشرح لنجيـب نـوع القضيّـة ويطمئنـه إلى بسـاطة المسـألة. ثـمّ تركـت ليـلى العنـان لأسـئلتها الـتي لا تنتهـي، عـن وجباتـه ونومـه ونظافتـه الشّـخصيّة، والمقيمـين معـه في الزّنزانـة ومعاملة السـجّان

وظـروف السّـجن، والفسـحات والزّيـارات وإمكانيـة توفـير طعـام مـن الخـارج، والرّعايـة الصّحيّـة.

وكان نجيـب يجيبهـا بابتسـامة لا تفـتر. كلّ شيء عـلى مـا يـرام. طالمـا أنّـه اطمـأنّ عليهـا، فهـو بخـير. كان كلّ مـا يشـغله في سجنه هـو مصيرهـا. إنّهـا غريبـة، ولا تعـرف أحـدا. لكنّهـا تدبّـرت أمرهـا، وهـذا يشـعره بالرّاحـة. ولـم تسـتوعب ليـلى تفاؤلـه رغـم كلّ شيء. ألـم يخـب ظنّـه في هـذا الوطـن وثورتـه؟ أمـا زال يلمحهـا بعـين الرّضـا والأمـل؟ لقـد كان يومـا مشـؤوما يـوم فكّـر بالعـودة! لقـد كانـا بخـير في سـويسرا!

افترقـا بعـد سـاعتين، وأدهشـها أن تجـد ياسـين ينتظـر بالخـارج، حـتّى بعـد انـصراف المحامـي. قـال بلهجـة ودودة:

- تبدين مجهدة.. تعالي، سأوصلك إلى البيت.

كان السّـائق ينتظـر أمـام السّـجن. أرسـله خالهـا بعـد أن وصـل إلى الشّركـة. مـرّة أخـرى، جلـس ياسـين إلى جـوار السّـائق، وتـرك لهـا المسـاحة الخلفيّـة. نزلـت أمـام بوّابـة القـصر، ثـمّ انطلقـت السـيّارة مـن جديـد إلى الشّركـة. طـوال الطّريـق، لـم يسـألها سـؤالا واحـدا. فكّـرت ليـلى، هـذا شـخص يُعتمـد عليـه.

اجتمعـت العائلـة مـرّة أخـرى عـلى العشـاء، وكان موضـوع والدهـا حديـث الجلسـة. سـألها خالهـا مـرارا وتكـرارا عـن ظـروف نجيـب واحتياجاتـه، ووعدهـا بتوفـير كلّ سـبل الرّاحـة لـه حـتّى يتـمّ الإفـراج عنـه. ثـمّ قـال عـلى حـين غـرّة:

- ليلى، هل زرت شقّة والدك أم ليس بعد؟

- لم يتسنّ لي ذلك.. نظرا للظروف المفاجئة.

- طبعـا، طبعـا.. كمـا وعدتـك سـابقا، سـيهتمّ ياسـين بـكلّ شيء.. وسـيتابع القضيّـة مـع المحامـي ويمـدّك بالمسـتجدّات أوّلا بـأوّل.. لا

تشـغلي بالـك بـشيء.. اتّفقنـا؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب، فأضاف:

ـ فـراس، ربّمـا يمكنـك أن تلقـي نظـرة عـلى الشّـقّة مـع ليـلى صبـاح الغـد؟

بوغـت كلاهمـا بالاقـتراح. علـت ملامـح فـراس نظـرة مكفهـرّة ولـم يعلّـق، في حـين واصـل نبيـل:

ـ فـراس مهنـدس معمـاريّ كمـا تعلمـين.. وقـد عرفـت أنّ نجيـب يريـد تجديـد الشّـقّة.. يمكـن لفـراس أن يمـدّ يـد المسـاعدة لتسريـع العمـل.

حين لم يصله ردّها، استطرد على الفور:

ـ أعلـم أنّـك لسـت في مـزاج لهـذا الآن، لكنّـني أؤكّـد لـك.. قضيّـة والدك بسـيطة.. ثـمّ، ألا تريـن أن مفاجأتـه بتجديـد الشـقة سريعـا ستسـعده؟ لقـد كان ينـوي ذلـك عـلى كلّ حـال.. سـنوفّر عليـه الجهـد والوقـت.. هـا، مـاذا قلـت؟

عرفـت ليـلى أنّ خالهـا مـن النّـوع الـذي يسـتمتع بأخـذ القـرارات عـن الآخريـن. لا يهـمّ اعتراضهـا، فسـيكون كلّ شيء حسـب رغبتـه. لكـنّ أمـرا واحـدا كان يقلقهـا. مشـاركة فـراس في العمليّـة.

ـ لا بـأس يـا خـالي.. لـديّ بعـض العناويـن، يمكنـني أن أهتـمّ بالأمـر بمفـردي إن كان ابـن خـالي مشـغولا.

ـ لا بأس، يمكنني تخصيص بعض الوقت.

قاطعها فراس بشكل غير متوقّع.

ـ إذا تركـت المفاتيـح مـع حـارس العمـارة بعـد زيـارة الشـقة، يمكنـني أن ألقـي نظـرة مـتى انتهيـت مـن مواعيـدي الصّباحيّـة.

هـزّت رأسـها في استسـلام. لكـنّ الأمـر لـم ينتـه عنـد ذلـك الحـدّ، إذ

أصرّ نبيل:

ـ ولماذا تترك المفاتيح عند الحارس؟ حين تنتهي من مواعيدك، مرّ عليها هنا واذهبا سويّا إلى الشقّة.. أنت تحتاج رأي صاحبة الشقّة في التغييرات التي ستحدثها! أليس كذلك يا ليلى؟

شعرت ليلى بأنّها محاصرة من العيون الثمانية التي ترقّب ردّها. لم تكن فكرة مرافقة فراس إلى شقّة والدها تبدو مريحة على الإطلاق! لقد بدا عدائيّا بشكل غير مفهوم، كأنّ وجودها نفسه يضايقه. أسعفتها سرعة بديهتها بردّ لبق ومناسب، فقالت على الفور:

ـ سيكون من الأفضل لو يأخذ المهندس مقاسات الشقّة بمفرده، فهذه عمليّة شاقّة وتحتاج وقتا، ثمّ نناقش التغييرات على الورق.. وعلى كلّ حال، سأذهب لزيارة والدي صباحا، وربّما أتأخّر عليه.

ـ كما تشائين يا ابنتي.

هدأ تنفّس ليلى المضطرب وأطلقت زفرة خافتة وهي تعود إلى قطعة الحلوى في طبقها. لكنّ التفاتة منها إلى جانب المائدة جعلت الدّماء تنسحب من وجهها دفعة واحدة. كانت نظرات فراس موجّهة إليها هذه المرّة بشكل سافر، وعلى شفتيه تكشيرة جانبيّة ساخرة. هل يدرك المغزى وراء تجنّبها التلفّظ باسمه، وذكره بالـ«مهندس»، منذ قليل؟ لوهلة، شعرت بأنّ جميع الأفكار التي دارت بخلدها منذ لحظات كانت مكشوفة تماما.

-٢-

حين استيقظت، كانت السّاعة قد تجاوزت الثّامنة ببضع دقائق. كانت لا تزال تشعر بالتّعب وبحاجة ملحّة إلى النوم. كانت قد سهرت مرّة أخرى، تطالع تاريخ حنان على مواقع التّواصل. فضولها قادها إلى البحث عن صفحة فراس أيضا.. لكن بدا أنّه لا يملك واحدة! لا أثر له على الشّبكة على الإطلاق! تقلّبت في مكانها ولفّت الملاءة على جسمها من جديد. ثمّ تذكّرت مواعيدها الصّباحيّة، ففرّ النّوم من عينيها مباشرة. قفزت من مرقدها وسارعت بتغيير ملابسها.

لم يكن أحد قد نزل لتناول طعام الإفطار بعد. جلست إلى المائدة بمفردها. شربت قهوتها مع قطعتي كرواسان بالزّبدة، قبل أن يعلن العم صابر وصول سيّارة الأجرة التي طلبتها، فخرجت على عجل.

حالما ابتعدت سيّارة الأجرة لشارعين، اختفت ملامح حيّ خالها الرّاقي بقصوره ذات الأسوار العالية والحدائق الشّاسعة، وظهرت مبانٍ عشوائيّة متلاصقة، أغلبها آجر أحمر بغير طلاء. صارت الشّوارع أضيق، والنّوافذ المعوجّة تطلّ مباشرة على الشّارع، في مشهد غير حضاريّ. وقرب أحد المنعطفات، زكمت أنفها رائحة كريهة نفّاذة، قبل أن تبدو للعيان كومة نفايات لم يتمّ رفعها منذ أسابيع ربّما. انتبه السّائق إلى تكشيرة الازدراء التي ظهرت على وجهها فقال وهو يطالعها عبر المرآة العاكسة:

ـ عمّال البلديّة في إضراب!

ـ لماذا؟

ـ يطالبون برفع الأجور.. مثلما يفعل الجميع!

يطالبـون برفـع الأجـور؟ فكّـرت، هـل يسـاومون الدّولـة بصحّـة أفرادها؟ سـمعت السّـائق يتمتم:

ـ البلد كلّه أصبح مزبلة ضخمة! شيء مقرف!

اسـتعادت فجـأة تفاصيـل المطويّـة الـتي ترسـلها وزارة السـيّاحة التّونسـيّة كلّ عـام، للتّعريـف بمعالـم البـلاد وحضارتهـا وجلـب السـيّاح الأوروبيّـين. تسـتحضر الصّـور الخلّابـة لتونـس عرفتهـا طيلـة حياتهـا بلقب «الخـضراء».. شـواطئ فردوسـيّة رمالهـا بيضـاء وبحرهـا فـيروزيّ، ملاعـب غولـف فاخـرة، وأشـجار زيتـون ولـوز وخـوخ وارفـة الظّـلال، صحـارى صافيـة الرّمـال جِمالهـا شـاهقة ونخيلهـا باسـق، آثـار رومانيّـة وفينيقيّـة وبونيّـة وإسـلاميّة، فسيفسـاء دقيقـة بألـوان مبهجـة، شاشـية حمـراء وخلخـال فـضيّ وجبّـة حريريّـة. كلّ شيء جميـل في وطنهـا رأتـه عـلى تلـك المطويّـة، لكنّهـا منـذ وصولهـا لـم تـر إلّا سـحبا ملبّـدة مـن البشـاعة!

عـلى جوانـب الطّرقـات، شـجيرات متفرّقـة خضرتهـا شـاحبة وأزهارهـا جافّـة، حيطـان مشـوّهة بمخلّفـات المتظاهريـن الذيـن مـرّوا مـن الشّـارع، شـعارات ورسـومات متمـرّدة، سـواد يشـهد عـلى حريـق غابـر أضرم هـا هنـا، والمزيـد المزيـد مـن الفضـلات المكوّمـة في تحـدّ صـارخ لقواعـد الصحّـة والـذّوق العـام. إنّهـا لا تـرى ربيعـا! تنهّـدت. هـل كان ينبغـي سـحق الواقـع الحـاليّ، تدمـير المـدن، إبـادة المجتمعـات، حـتّى تقـوم الثّـورة؟ كانـت تتوقّـع ألوانـا أكـثر وإشراقـا أكـبر. بريقـا يليـق بمسـمّى الرّبيـع. هـل كانـت جامحـة في خيالهـا؟

توقّفـت أمـام سـجن الإيقـاف. كان المـكان قـد غـدا مألوفـا لديهـا بعـد زيـارة الأمـس.. لكـنّ الولـوج إليـه لـم يكـن بالبسـاطة الـتي حسـبتها! أنبأها الموظّـف الوقـح بـأنّ عليهـا الحصـول عـلى بطاقـة زيـارة أوّلا! كان قدومهـا

بـدون المحامـي مضيعـة للوقـت. ركبـت سـيّارة أخـرى وقصـدت مكتبـه ثانيـة. لـم يكـن موجـودا! يـا لهـذا الحـظّ العاثـر! لامـت نفسـها. ألـم يكـن عليهـا الاعتمـاد عـلى ياسـين كمـا أمـر خالهـا؟ لـم يكـن بيدهـا أن تفعـل شـيئا ذلـك الصّبـاح. مواعيـد الزّيـارة تنتهـي قريبـا، وهـي لا تـدري شـيئا عـن الإجـراءات اللّازمـة. قـرّرت، سـتطلب مـن ياسـين الاهتمـام بالأمـر. نظـرت إلى سـاعتها. كانـت تشـير إلى الحاديـة عـشرة صباحـا. يمكنهـا أن تشـغل نفسـها بعمـل آخـر في الوقـت الحـالي. تناولـت الهاتـف واتّصلـت ببعـض الأرقـام الـتي سـجّلتها ليلـة الأمـس، ثـمّ ركبـت سـيّارة أجـرة ثالثة.

كان مـن العسـير العثـور عـلى صديقـات حنـان، فصفحتهـا كانـت مليئـة بالشـبّان، وصورهـا تحصـد منهـم عبـارات الإعجـاب وكلمـات الإطـراء والغـزل. لكـنّ المنشـورات الأخـيرة كانـت أقـلّ شـعبيّة بكثـير! كان عليهـا أن تنقّـب باجتهـاد حـتّى تصـل إلى بنـات دفعتهـا في كليّـة الفنـون الجميلـة، وقـد كانـت مهمّـة عسـيرة اسـتنفدت سـاعات السّـهرة كلّهـا!

توقّفـت السـيّارة هـذه المـرّة أمـام كليّـة الفنـون الجميلـة، فنزلـت وتوجّهـت إلى كافيتيريـا تقـع قبالـة الجامعـة. حـال دخولهـا، تناهـى إليهـا صـوت جوليـا بطـرس يصـدح مـن مكـبّرات الصّـوت المبثوثـة في الفضـاء المفتـوح:

أنا بتنفس حريّة.. لا تقطع عنّي الهوا.

انتظـرت زهـاء السّـاعة وهـي تتنـاول وجبـة خفيفـة، عـلى نغمـات الثّـورة والحريّـة، وتتوقّـف مـن حـين لآخـر لتـدوّن في مفكّرتهـا الأسـئلة الـتي كانـت تراودهـا بخصـوص حنـان. كانـت قـد أنهـت شـطيرتها حـين وصلـت فتاتـان تماثلانهـا سـنّا. مـا إن وقعـت نظراتهمـا عـلى ليـلى، حـتّى صرختـا في دهشـة:

ـ أنت حقّا شقيقتها التّوأم!

تأمّلتا ليلى في ذهول، ولاحظتا مرارا وتكرارا كم تشبه حنان، حتّى أنّ إحداهما انفجرت باكية، وكان على ليلى تهدئتها لبضع دقائق.

ـ للأسف لم أعرف حنان مطلقا.. وكنت أريد التّواصل مع صديقاتها، لأعرف عنها أكثر.

تبادلتا نظرات أسف، ثمّ سكتتا. لم تبادر إحداهما، حتّى قالت ليلى مشجعة:

ـ أريد أن أعرف كلّ شيء.. مهما كان بسيطا.. أيّ ذكريات، صور، أحداث مميّزة.. لا شكّ أنّ الحياة الجامعيّة كانت حيويّة وزاخرة بما يستحقّ أن يُروى!

استمرّ الصّمت للحظات أخرى، ممّا أثار قلق ليلى. قالت إحداهما أخيرا:

ـ حنان المسكينة.. لم تكن محظوظة! لقد كانت على قدر وافر من الجمال والثراء.. لكنّها كانت تعيسة.

سكتت ليلى مبهوتة. لم تتوقّع أن يسير الحوار في هذا الاتّجاه منذ الكلمات الأولى. لكنّها بعد الاطّلاع على صور حنان كانت قد توصّلت إلى الاستنتاج نفسه.. حنان كانت تعيسة. ابتسامتها تعيسة، وتظاهرها بالسّعادة منتهى التّعاسة. لكن أن يكون هذا معروفا لدى زميلات الجامعة بشكل واضح، فهذا ما لم تتوقّعه.

ـ من المؤسف أنّها قد تزوّجت في سنّ مبكّرة.. لقد كان زواجا تعيسا!

أمّنت الثّانية على قولها:

ـ زواج الأقارب أمر سيّئ.. لكنّه في وضع حنان كان سيّئا تماما!

وهذه صدمة أخرى! هؤلاء البنات يعرفن أيضا أنّ حنان لم تكن سعيدة في زواجها؟ أغلقت مفكّرتها، ووضعت جانبا الأسئلة التي كانت

قـد أعدّتهـا وسـألت في اهتمـام:

- هـل كانـت حنـان تتحـدّث إليكمـا بأسرارهـا الشـخصيّة وتصارحكمـا بـكلّ شيء؟

كان الأمـر يثـير اسـتغرابها، فالفكـرة الـتي تكوّنـت لديهـا هـي أنّ حنـان لا تصاحـب البنـات، وليسـت لديهـا صديقـة مقرّبـة واحـدة. لـم تكـن تطمـع في أكـثر مـن بعـض الذّكريـات عـن فتـاة مـرّت مـن هنـا، وشـاركت ربّمـا في رحلـة جامعيّـة، أو أثـارت الانتبـاه في مسـابقة رياضيّـة أو فنيّـة!

- في الحقيقــة، حنــان كانــت مشــهورة جــدًّا في الجامعــة.. الجميــع في دفعتنــا وفي الدّفعــات التاليــة يعــرف قصّتهــا.

- ماذا؟ أيّة قصّة؟

- لقد نشرت القصّة، حين حاولت الانتحار.

- حاولت الانتحار؟ نشرت قصّة؟ أين؟!

- عــلى موقــع الجامعــة! أظــنّ أنّ الصفحــة قــد أحيلــت إلى الأرشــيف الآن.. لكــن يمكنــك الرّجــوع إلى الموقــع والبحــث عــن المنشــورات منــذ خمـس سـنوات تقريبـا.

تكـرّرت الكلمـات نفسـها في الموعـد التّـالي. لـم تكـن حيـاة حنـان سرًّا بالنّسـبة لأحـد. إحـدى الفتيـات تحدّثـت بتفاصيـل أكـبر عـن محاولـة الانتحـار. حنـان نـشرت قصّتهـا الحزينـة عـلى موقـع الجامعـة، ثـمّ صعـدت عـلى سـطح المبـنى، وهـدّدت بإلقـاء نفسـها مـن عـلٍ. لكـنّ الموقـف انتهـى عـلى خـير.

ركبـت سـيّارة أجـرة أخـرى. أعطـت السّـائق عنـوان شـقّة والدهـا هـذه المـرّة. شـعرت بالتوتّـر حـين ألقـت نظـرة عـلى سـاعتها. لقـد تأخّـرت! إنّهـا الثّالثـة عـصرا. أمضـت أكـثر مـن سـاعة في مقهـى انترنـت، تبحـث في أرشـيف موقـع الجامعـة عـن رسـائل حنـان.. دون جـدوى. دعـت أن

يكـون فـراس مشـغولا جـدّا، فـلا يكـون قـد مـرّ عـلى المبـنى بعـد! لكـنّ أملهـا تبـدّد، حـين لمحتـه وهـي تـنزل مـن السـيّارة، يقـف أمـام المدخـل، يجـادل الحـارس!

حثّـت خطواتهـا نحوهمـا في حـرج. لقـد وعـدت أن تـترك المفاتيـح مـع الحـارس قبـل ذهابهـا لزيـارة والدهـا.. لكـن لا هـي زارت والدهـا، ولا تركـت المفاتيـح!

ـ آسفة، لقد تأخّرت!

كانت محرجة للغاية تجاه الرّجلين. انبرى الحارس يؤكّد:

ـ أرأيـت؟ قلـت لـك.. لا أحـد تـرك مفاتيـح لـديّ اليـوم! لكـنّ السـيّد المهنـدس مـصرّ عـلى أنّـني نسـيت، أو أحـاول خداعـه!

رمقهـا فـراس بـبرود، ولـم يعلّـق. كان يقـف مشـدود عضـلات الوجـه، وقـد وضـع كفّيـه عنـد وسـطه، يرتـدي بدلـة رسـميّة سـوداء، وقـد رفـع نظّارتـه الشّمسـيّة عـلى رأسـه. اعتـذرت ليـلى منهمـا مجـدّدا، ثـمّ طلبـت مـن الحـارس أن يقودهـا إلى الشّـقّة. لـم ينطـق فـراس بكلمـة، وثلاثتهـم يصعـدون السّـلالم إلى الطّابـق الثـاني، ثـمّ يدلفـون إلى الشّـقّة. وقفـت ليـلى جانبـا وهـي تشـعر بالحـرج، بينمـا بـدأ هـو عـلى الفـور في التقـاط الصّـور وأخـذ المقاسـات، متجاهـلا وجودهـا تمامـا. كان الحـارس يحدّثهـا عـن المبـنى والسّـكّان وأشـياء كثـيرة أخـرى لا تهمّهـا في شيء.. بينمـا سرح تفكيرهـا فيمـا يجـب عليهـا فعلـه الآن. كانـت ترغـب في الرّحيـل أوّلا، فهـي لـم تتوصّـل بعـد إلى قصّـة حنـان عـلى موقـع الجامعـة، ولا طلبـت إذن الزّيـارة مـن المحامـي. لكنّهـا محرجـة بسـبب تأخيرهـا، وقـد يبـدو انصرافهـا الآن كأنّهـا تثمّـن وقتهـا الخـاصّ ولا تقـدّر وقتـه هـو! وهـو يبـدو غاضبـا إلى درجـة نسـيان وجودهـا!

بعـد سـاعة مـن وقوفهـا المتململـ، انتهـى فـراس مـن عملـه. ألقـى

عليهـا نظـرة جانبيّـة وقـال في لامبـالاة وهـو يجمـع أدواتـه:

- أنت هنا؟

كان الحارس قد انصرف منذ زمن، ولبثت وحدها تنتظر.

- إن كنت عائدة إلى الجامعة.. يمكنني أن أقلّك في طريقي.

عائـدة؟ إلى الجامعـة؟ ازدردت ليـلى ريقهـا بصعوبـة وهـي تحـدّق فيـه في ارتبـاك. لـم يرفـع نظـره إليهـا، وبـدا منهمـكا تمامـا، لكنّهـا لمحـت تلـك التّكشـيرة السّـاخرة في زاويـة فمـه. كأنّـه يقـول.. أمـرك مكشـوف يـا ليـلى! هـل تعقّبهـا؟ هـل أرسـل مـن يراقبهـا؟ هـل اتّصلـت بـه إحـدى صديقـات حنـان اللـواتي التقتهـنّ تلـك الظّهـيرة؟ تقلّـب الاحتمـالات كلّهـا في رأسـها في سرعـة فائقـة، تبحـث عـن ردّ مناسـب. لكـنّ مـا خـرج مـن بـين شـفتيها كان همهمـة غـير مفهومـة.

أنقذهـا رنـين هاتفـه. ردّ عـلى الاتّصـال بينمـا يسـير إلى خـارج الشـقّة. تخلّفـت عنـه لبضـع ثـوانٍ لتحكـم إغـلاق البـاب. حـين وصلـت أمـام بوّابـة المبـنى، كان قـد اختفـى!

زفـرت في ارتيـاح، ثـمّ أشـارت إلى سـيّارة أجـرة عابـرة. هـذه المـرّة، تلفّتت حولهـا جيّـدا لتتأكّـد ألا عيـون خفيّـة تراقبهـا، ثـمّ دلفـت إلى السـيّارة. وهـي تسـترخي عـلى المقعـد الخلفـي، اسـتعادت تكشـيرته المتهكّمـة، عـلى العشـاء ومنـذ حـين. خالجهـا انقبـاض غريـب.

***

كمـا توقّعـت، الاعتمـاد عـلى ياسـين يجعـل الأمـور أيـسر بشـكل لا يصـدّق! أخـذ نسـخة مـن أوراق هويّتهـا عـلى الإفطـار، وطمأنهـا.. سـيكون

إذن الزّيارة عندها في نهاية اليوم نفسه. إنّها قوّة الصّلات والعلاقات! ويتّهمون والدها بالفساد؟ حريّ بهم أن ينبشوا عن الخلل داخل المنظومة القانونيّة والأمنيّة كلّها!

أمضت ليلى نهارها تتعرّف على أرجاء القصر وسكّانه. كانت غرف فراس وأمين في ذات الممرّ، إلى جوار غرفة حنان، بينما يقيم ياسين ووالده في الطابق العلوي، في أجنحة أكثر اتّساعا. باستثناء المكتبة ومكتب خالها في الطّابق الأرضي، والصّالة العلويّة في الطّابق الأوّل، فإنّ بقيّة الغرف كانت موصدة.

دخلت المطبخ دون كلفة، وتعرّفت إلى الخدم. لاحظت حرجهم من عفويّتها وتباسطها معهم، وكانت لهجتها الهجينة مثيرة لضحكهم ومصدرا لتندّرهم. كانت هناك مدبّرة المنزل جليلة، ومساعدتان شابّتان، راضية وبهجة، تشرفن جميعهنّ على التّنظيف، بالإضافة إلى العمّ صابر الذي من اختصاصه الخدمة في الطّابق الأرضيّ وحسب. أحصت كذلك ثلاثة أشخاص آخرين غير عمّ هاشم الطبّاخ.. مساعده الشّاب محمّد، الحارس حسام، والجنائنيّ مروان.

لم يكن بحثها على موقع الجامعة قد أسفر عن نتيجة تذكر، لذلك كان عليها أن تواصل اكتشاف مسارات بحث أخرى. لكنّ الخدم كانوا متحفّظين للغاية، وكأنّما قد تلقّوا تعليمات صريحة وصارمة بعدم الثرثرة بخصوص حنان. بعد محاولات فاشلة متكرّرة، قرّرت تأجيل الأمر لوقت لاحق.

زارت والدها بعد يومين، في موعد الزّيارة الأسبوعيّة. كان يبدو أفضل، وسحنته أكثر إشراقا من لقائهما السّابق. لم يكن هناك جديد في القضيّة. الإجراءات بطيئة، وعليهما التحلّي بالصّبر. كما وعد خالها، كان قد حظي بزيارة طبّيّة، وحصل على أدوية الضغط

والسّـكّر والقلـب كلّهـا. إنّـه في أيـد أمينـة، طمأنهـا. قـال مازحـا:

ـ السّـجون تعـدّ منطقـة آمنـة الآن.. لـم تعـد جحـور تعذيـب وإهانـة كمـا كانـت في العهـد السّـابق! إنّـه زمـن الثّـورة وإرادة الشّـعب!

ابتسـمت ليـلى سـاخرة. لـم يفقـد ثقتـه في الثّـورة رغـم كلّ شيء. جميل. إنّ دخـول السّـجن في زمـن الثّـورة لـه مزايـا لا تدركهـا بالتّأكيد!

كلّمـا غـادرت القـصر، لازمهـا إحسـاس غريـب بأنّهـا تعـبر بوّابـة تجـاه عالـم مختلـف. لـم يكـن شـكل الشّـوارع والبنايـات فقـط متباينـا، بـل الـرّوح المهيمنـة. لقـد كان القـصر بـاردا وهادئـا بصـورة مربكـة، بينما تموج الطّرقـات والفضـاءات العامّـة بالحركـة الكثيفـة. ولقـد كان مـن المحـيّر ألّا تجـد صـدى لمـا يحصـل في الخـارج حـين يتعلّـق الأمـر بعائلتهـا. لـم يكـن خالهـا يـأتي عـلى ذكـر السّياسـة مطلقـا، والاجتماعـات العائليّـة لا تتطـرّق إلى أوضـاع البـلاد نهائيّـا، ماضيهـا أو حاضرهـا أو مسـتقبلها، وكأنّ الزّمـن يتوقّـف حـين تتجـاوز سـور مقـرّ إقامـة آل القاسـمي!

كلّمـا دخلـت مطعمـا، سـوقا أو ركبـت سـيّارة أجـرة، انتبهـت عـلى الفـور إلى صـوت الرّاديـو المرتفـع، ينقـل نقاشـا سياسـيّا حـادّا أو شـهادات عيـان عـن ممارسـات النظـام السّـابق المروّعـة، ووجـدت عيـون المـارّة وآذانهـم ترنـو إلى مصـدر الصّخـب، تصغـي باهتمـام وجدّيّـة. كانـت تسـمع النّـاس الأغـراب، بعضهـم بالنّسـبة إلى بعـض، يتوقّفـون عـن تسـوّقهم لدقائـق للتعليـق بشـأن هـذا الحـدث أو ذاك، كلّ يـدلي بدلـوه، يبـدي تعاطفـه أو يسـتنكر. لقـد كانـت تشـهد براعـم وعـي سـياسي تتفتّـح في كلّ رأس، وكأنّ السّياسـة قـد غـدت الرّياضـة الشّـعبيّة الأولى، مـكان كـرة القـدم! كأنّ الجميـع يتهافـت لتعويـض عقـود مـن اللّامبـالاة والبـلادة.

وقـد كانـت تشـعر في تلـك اللّحظـات بموجـات الحماسـة تصلهـا. كانـت هنـاك حيـاة مـن نـوع آخـر في الشّـارع. كان هنـاك أشـخاص كـثر مشـابهون

لوالدهـا، حالمـون متفائلـون، يسـتبشرون خـيرا بالثّـورة وينتظـرون بيضتها الذّهبيّـة، وآخـرون يتصـدّرون للإفتـاء بشـأن مـا كان ومـا يجـب أن يكـون، وصنـف ثالـث لا يقـلّ عـن السّـابقين حماسـة، لا يتوقّـف عـن التذمّـر! لكـنّ الجميـع في صخـب متواصـل، يعـبّرون ولا ينفكّـون عـن التّعبـير. يحدثـون سـيلانا هائـلا للـرأي والـرّأي المخالـف، وكأنّ صمّـام «حريّـة التّعبـير» قـد انفجـر فجـأة، منـذ عشـيّة الرّابـع عـشر مـن ينايـر!

وقـد كان ذلـك كلّـه مدهشـا بالنّسـبة إلى ليـلى. كانـت تصغـي باسـتمتاع إلى الباعـة والسّـائقين والمـارّة والموظّفـين وراء مكاتبهـم، وهـم في غليـان مسـتمرّ، وكأنّهـم يثبتـون لهـا، أو لأنفسـهم، أنّ هنـاك ثـورة قـد حصلـت هـا هنـا!

حـين رجعـت مـن زيـارة والدهـا، اسـتقبلها العـمّ صابـر عنـد المدخـل وقـال يُعلمهـا:

ـ السيّدة الكبيرة هنا.

السـيّدة الكبـيرة؟ مـن يمكـن أن تكـون غـير جدّتهـا لأمّهـا! خطـت إلى البهـو في حـذر، فطالعهـا أوّل مـا طالعهـا وشـاح مزركـش ونظـارات طبّيـة سـميكة. رفعـت السـيّدة الجالسـة في قاعـة الاسـتقبال رأسـها، فتبيّنـت مقـدار التّجاعيـد الـتّي رُسـمت أخاديـد عـلى ملامحهـا. ثـمّ افـترّ ثغرهـا عـن ابتسـامة صغـيرة، لا هـي حفـاوة مبالـغ بهـا ولا جفـاء مريـك. رسـمت ليـلى الابتسـامة نفسـها عـلى شـفتيها، مثـل مـرآة عاكسـة، وتقدّمـت باتّجاه السّـيّدة الكبـيرة.

ـ ليلى، ها أنت أخيرا!

انحنـت ليـلى لتقبّـل وجنتيهـا، فزكمـت أنفهـا رائحـة أعشـاب غريبـة. هـذه الجـدّة لا تضـع شـيئا مـن العطـور العصريّـة المعروفـة. جلسـت عـلى الأريكـة إلى جوارهـا، بينمـا احتفظـت السـيّدة بكفّيهـا حبيسـتي

أصابعهـا النّحيلـة. كانـت تتأمّـل ملامحهـا وتجـسّ بـشرة يديهـا في اهتمـام. تنهّـدت أخـيرا وقالـت في تأثّـر:

ـ لقد كبرت!

كان في صوتهـا شيء مـن الشـجن والحـسرة، ثـمّ تغـيّرت لهجتهـا وهـي تضيـف آمـرة:

ـ تكلّمي لأسمعك!

ـ ماذا؟

ـ قولي جملة مفيدة.. أريني كيف تتكلّمين العربيّة!

قاومت ليلى رغبة الضّحك، وقالت في إحراج:

ـ ما الذي ينبغي أن أقوله؟

ـ حدّثيني عن يومك.. ماذا فعلت هذا الصّباح؟

ـ لقـد خرجـت لزيـارة والـدي وذهبـت إلى المتاجـر، لأقتـني مـا يحتاجـه، ولقـد رجعـت للتّـو.

كانـت الجـدّة تنصـت في تركـيز، وقـد بـدت عـلى ملامحهـا علامـات الامتعـاض. لـم تـدرك ليـلى مصـدر ضيقهـا بالضّبـط.

عـلى العشـاء، كانـت الجـدّة تـترأّس المائـدة، عـلى الطـرّف الثّـاني، قبالـة ابنهـا الأكـبر نبيـل. أحسّـت ليـلى بارتبـاك عـامّ في أجـواء الغرفـة، ابتـداءً مـن القائمـين عـلى الخدمـة وانتهـاءً بخالهـا نفسـه. كان حضـور الجـدّة الصّامتـة مهيمنـا. تكلّـم أمـين أقـلّ مـن العـادة، وتبـادل مـع شـقيقيه إشـارات سرّيّـة في الخفـاء. الجـدّة لا تحتمـل الجلبـة. بينمـا بـدا ياسـين وفـراس غـير مهتمّـين عـلى الإطـلاق بمـا يحصـل. كانـت الوجبـة عـلى وشـك الانتهـاء، حـين قالـت الجـدّة بلهجـة صارمـة:

ـ ليلى ستأتي للإقامة عندي!

سعلت ليلى وقد أوشكت على الاختناق بحبّة زيتون. هذا رسميّ. إنّ أفراد هذه العائلة يحترفون اتّخاذ القرارات عن الآخرين! سمعت خالها يقول في لين:

- أمّي، ليلى بخير هنا.

قاطعته في برود، دون أن ترتفع طبقة صوتها درجة واحدة:

- لا، ليست بخير! لن أتركها تضيع كما ضاعت حنان!

ران صمت شامل على القاعة قبل أن تعاود الكلام وتسترسل:

- لم أكن يوما راضية عن تربية مريم للأولاد، لكنّك أصررت على إحضار تلك الأمّ البديلة.. ونجاة، عديمة النّفع تلك، رحمها الله، لم تكن أهلا للتّربية! انظر إلى نتيجة التّربية السّائبة!

قال أمين مداعبا:

- أنت تهينيني يا جدّتي!

حدجته بنظرة قاسية ملؤها الاستياء:

- اسكت أنت! وهل هناك قليل تربية هنا أكثر منك!

أطرق أمين ممثلا الانكسار وهو يصارع الضّحكة، بينما واصلت الجدّة:

- ونجيب، عديم الأصل ذاك! رحل بالبنت، وبدل أن يكون أمينا عليها، ضيّعها! انظر إلى الحال التي آلت إليها!

التبس الأمر على ليلى. هل تتحدّث عنها؟ ما شأنها؟ همّت بالاعتراض، لكنّها انتبهت إلى إشارة أمين بأن تلتزم الصّمت، فامتثلت. بينما واصلت الجدّة:

- انظر إلى لسانها المعوجّ، لا يمكنها أن تنطق جملة دون تعثّر! لا تعرف شيئا عن تاريخها وحضارتها وثقافة أهلها! دعك من هذا..

الـشيء مـن مأتـاه لا يسـتغرب.. كيـف يمكـن لسـارق أن يكـون أمينـا عـلى تربيـة طفلـة!

عنـد تلـك الكلمـة، لـم تسـتطع ليـلى أن تتمالـك نفسـها. قالـت في ضيـق:

ـ جدّتي.. والـدي ليـس سـارقا! المحكمـة لـم تصـدر حكمـا بعـد، فكيـف تجزمـين أنت؟

حدجتها الجدّة بنظرة شفقة، ثمّ قالت:

ـ ليس هناك دخان بدون نار!

ـ هناك! حين تكون الدّعوى كيديّة!

رمقتها الجدّة في استياء ثمّ أردفت مخاطبة نبيل:

ـ أرأيـت؟ لـم يعلّمهـا والدهـا احـترام كبـار السـنّ! إنّهـا تـردّ عـلى الكلمـة بعشرة !

احتقـن وجـه ليـلى، وأمسـكت لسـانها عـلى مضـض. في حـين اسـتمرّت السـيّدة الكبـيرة:

ـ إن لم تكن ستأتي.. فسآتي أنا للإقامة هنا.

قال نبيل في استسلام:

ـ كما تشائين يا أمّي.

بعد ذلك، عاد السّكون ليسيطر على القاعة.

عـلى السّـاعة التّاسـعة، انصرفـت الجـدّة مـع سـائقها. كان قـد تقـرّر رجوعهـا في الغـد. سـتحزم حقائبهـا، وتـأتي للإقامـة في جنـاح مسـتقلّ بالطّابـق الأرضيّ. لـم تكـن ركبتاهـا تتحمّـلان كثـير طلـوع ونـزول عـلى السّـلالم. قـال أمـين بلهجـة جـادّة:

ـ ستمرّ علينا أيّام عصيبة!

سألت ليلى في قلق:

- هل الأمر بهذا السّوء؟

أومأ مؤمّنا، ثمّ أضاف:

- سيكون عليك تقديم تقرير يوميّ بتحرّكاتك. أين ذهبت؟ ولماذا؟ من قابلت؟ وإن رأت الجدّة أنّ مشوارك لا ينفع، فقد تتحكّم في برنامجك أيضا!

هتفت ليلى مصعوقة:

- وهل ينطبق هذا عليّ وحدي؟

هزّ أمين كتفيه:

- أنت أملها الآن، لإصلاح ما فسد من تربية جيل الأحفاد!

ثمّ أضاف في تعاطف:

- قلبي معك!

تمتمت في عصبيّة:

- هذا ليس مسلّيّا!

- أعلم.. إنّه ليس كذلك!

***

في الغد، حين رجعت ليلى من مشاويرها اليوميّة، كانت الجدّة في انتظارها في البهو، وهي تحتسي قهوتها المرّة. كانت السّاعة تشير إلى الثّانية ظهرا، وهي لم تكن قد تناولت غداءها بعد. لكنّ الجدّة قالت في هدوء:

ـ لقد وصلت في الوقت المناسب. هيّا بنا.

لـم تفكّـر في الاعـتراض. انقـادت في استسـلام وتبعـت السـيّدة الكبـيرة إلى السـيّارة. جلسـتا عـلى المقاعـد الخلفيّـة في صمـت. انغمسـت الجـدّة في أذكارهـا طيلـة الطّريـق، ترتجـف شـفتاها ارتجافـة خفيفـة بينمـا تمـرّ أصابعهـا عـلى خـرزات المسبحة في حركـة مسـتمرّة. لـم تجـرؤ ليـلى عـلى مقاطعتهـا والسّـؤال عـن الوجهـة.

حـين توقّفـت السـيّارة أخـيرا، تطلّعـت ليـلى إلى اللّافتـة الـتي علـت البنايـة القديمـة. «المدرسـة القرآنيّـة أبـو بكـر الصّدّيـق»! قالـت الجـدّة أخـيرا بلهجـة محفّـزة:

ـ ليس هناك أفضل من القاعدة النّورانيّة لتقويم لسانك!

تبعتهـا إلى المبـنى وهـي تفكّـر في الفـرار. كانـت القاعـات بالدّاخـل نظيفة ولامعـة، وكأنّمـا قـد وقـع تجديدهـا حديثـا وإعـادة طلائهـا. أينمـا سـارت، كانـت نظراتهـا تقـع عـلى سـيّدات وفتيـات يرتديـن الجلابيـب المحتشـمة ويلففـن رؤوسـهنّ في أوشـحة صارمـة. كان شـعرها الكسـتنائيّ المرفـوع نشـازا في المشـهد. دخلـت عـلى إثـر جدّتهـا الـتي بـدت معروفـة مـن الجميـع. نادتهـا النّسـاء مرحّبـات بالـ«حاجّـة فريـدة»، وسـألنها بـلا حـرج عـن الآنسـة الجميلـة الـتي ترافقهـا. فكانـت تقـول بلهجـة معتـذرة:

ـ حفيدتي الأجنبيّة! جئت بها لتتعلّم العربيّة!

فيهـززن رؤوسـهنّ في تفهّـم وتعاطـف، ويحيـيّن الحفيـدة الأجنبيّـة بهـزّة مـن رؤوسـهنّ دون كلام. وكانـت ليـلى تقـف جانبـا، وتبتسـم في حـرج. لـم تكـن تعتقـد أنّهـا أجنبيّـة إلى تلـك الدّرجـة. إنّ ملامحهـا عربيّـة، وهـي تتعلّـم العربيّـة الفصحـى منـذ سـنوات، ولهجتهـا التّونسـيّة ليسـت بذلـك السّـوء. أم لعلّهـا كذلـك؟ يبـدو الوضـع كارثيّـا في عيـني الحاجّـة فريـدة ومعارفهـا!

دخلتـا أخـيرا مكتـب التّسـجيل، فقامـت الموظّفـة في تبجيـل وتركـت مقعدهـا خلـف المكتـب. جلسـت الجـدّة مكانهـا ببسـاطة ومـلأت الاسـتمارة بنفسـها، وختمتهـا عـلى الفـور بـكلّ أريحيّـة، ثـمّ وضعـت في كـفّ ليـلى ورقـة تحـوي جـدول الحصـص اليوميّـة.

ـ حصّتك الأولى تبدأ خلال دقائق!

هكـذا وجـدت نفسـها تدخـل قاعـة الـدّرس، مع مجموعـة مـن الأطفال، تـتراوح أعمارهـم بـين الخامسـة والسّـابعة! وقفـت عنـد البـاب في ارتبـاك، وقـد أذهلهـا التطـوّر الخاطـف للأحـداث. ابتسـمت المدرّسـة الشّـابّة وهـي تدعوهـا إلى أخـذ مقعدهـا في نهايـة القاعـة. كان خـبر انضمامهـا قـد سرى بـين روّاد المدرسـة بغايـة السّرعـة، وبـدا أنّ المُدرّسـة لـم تُفاجـأ برؤيتهـا.

شرحـت لهـا جانبـا. القاعـدة النّورانيّـة عبارة عـن دورة تعليميّـة مخصّصة للأطفـال غالبـا، هدفهـا تعليـم النّطـق السّـليم لحـروف اللّغـة العربيّـة بمخارجهـا الصّحيحـة. لكنّهـا تُعطـى للكبـار أيضـا لتقويـم اللّسـان. كانـت الـدّورة تسـتمرّ لثلاثـة أشـهر، بمعـدّل ثـلاث حصـص أسـبوعيّا، مـدّة كلّ منهـا سـاعة واحـدة، يتـدرّج فيهـا الطفـل في تعلّـم اللّغـة، مـن المقاطـع البسـيطة إلى الأكـثر تعقيـدا. أومـأت ليـلى دون اهتمـام، لـم تكـن تنـوي الاسـتمرار طويـلا. ستكتشـف الوضـع اليـوم، إرضـاء للجـدّة، ثـمّ سـتجد وسـيلة للتملّـص في وقـت لاحـق.

جلسـت في استسـلام، كمـن يجـرّب لعبـة مملّـة، وأخـذت تـردّد مـع الأطفـال المتحمّسـين المقاطـع الـتي تنطـق بهـا المدرّسـة. تـزمّ شـفتيها، ترفـع لسـانها إلى سـقف الحلـق أو تلامـس بطرفـه أسـنانها في حـركات مبالـغ فيهـا، وتتلفّـت لتتأمّـل وجـوه الأولاد مأخـوذة. كانـت أصواتهـم تعلـو عـلى صوتهـا الخجـول المـتردّد، فترمقهـا المدرّسـة بابتسـامة مشـجّعة.

تدريجيّـا، أطلقـت لنفسـها العنـان، وسـمحت لصوتهـا بمجـاراة النّسـق الجماعـيّ.

حين انتهت الحصّة، اقتربت منها المدرّسة وصافحتها في ودّ:

ـ أنا وداد.. كيف كانت حصّتك الأولى؟

كانـت وداد في مثـل سـنّها تقريبـا، وربّمـا تصغرهـا بسـنة أو اثنتـين، تضع حجابـا عنّابيّـا وتلبـس جلبابـا بسـيطا مـن درجـة اللّـون نفسـه. ابتسـمت ليـلى وقالـت:

ـ التعلّم مع الأطفال ممتع.. ومحرج في آن!

ـ يمكنـني تخصيـص حصّـة لـك وحـدك، في موعـد آخـر، إن كان ذلـك يناسـبك!

ردّت ليلى بسرعة:

ـ لا داعي أبدا.. الترتيب الحالي مناسب!

لا يمكنهـا التـورّط أكـثر. الحصـص الخاصّـة سـتلزمها، أمّـا الحصـص الجماعيّـة، فسـتواصل سـيرها بهـا أو بدونهـا!

ـ أخبريـني إن غـيّرت رأيـك. حفيـدة الحاجـة فريـدة تسـتحقّ معاملـة خاصّـة!

رفعـت ليـلى حاجبيهـا. مـن تكـون جدّتهـا لتعامـل بهـذا القـدر مـن الاحـترام؟ هـل للأمـر علاقـة بسـمعة خالهـا وعلاقاتـه أيضـا؟ إنّهـا تـدرك مـن خـلال تجـارب الأيّـام السّـابقة مـدى سـطوته وطـول ذراعـه. لكـن المدرسـة القرآنيّـة؟

واصلت وداد:

ـ الحاجّة فريدة فضلها كبير على كلّ من في المدرسة القرآنيّة!

ـ كيف؟

ضحكت وداد:

ـ يكفي أنّها افتتحت هذه الدّار التي تضمّنا جميعا!

حسنا. تلك مفاجأة أخرى. جدّتها هي صاحبة المدرسة!

عنـد خروجهـا، كان سـائق السـيّدة الكبـيرة في انتظارهـا. فكّـرت في سخرية، سـيكون مـن العسـير عليهـا الإفـلات مـن رقابـة جدّتهـا، إذا مـا اسـتمرّت في إرسـال السّـائق خلفهـا! ركبـت دون كلمـة واحـدة، ومضـت السـيّارة عـلى الفـور في اتّجـاه القـصر دون أن يسـألها السّـائق عـن وجهتها.

-٣-

عادت إلى المدرسة القرآنيّة في الغد.

كانـت قـد فكّـرت كثـيرا في اللّيلـة السّـابقة، وانتهـت بالاعـتراف بـأنّ الأمـر لا يخلـو مـن الفائـدة! إن كانـت ترغـب في الحصـول عـلى عمـل في وسـائل الإعـلام التّونسـيّة خـلال وقـت قصـير، فمـن الحكمـة أن تعمـل عـلى تقويـم نطقهـا سريعـا. لعـلّ جدّتهـا كانـت أبعـد نظـرا منهـا حـين اتّخـذت القـرار مكانهـا!

بعـد الـدّرس، صارحـت المدرّسـة برغبتهـا في تكثيـف الحصـص وتسريـع نسـقها. فأومـأت وداد في حمـاس:

ـ عرفـت أنّـك سـتغيّرين رأيـك! التعلّـم مـع الأطفـال بطـيء النّسـق، وقـدرة اسـتيعاب الكبـار وتكيّفهـم أعـلى، لذلـك يمكننـا اختصـار الكثـير في حصـص خاصّـة، لتسـتمرّ الـدّورة شـهرا واحـدا بـدل ثلاثـة.

كان ذلـك مناسـبا جـدّا لليـلى. عـادت إلى غرفتهـا محمّلـة بواجباتهـا المنزليّـة. إن كانـت تريـد التقـدّم سريعـا، فعليهـا أن تبـذل جهـدا إضافيّا. جلسـت في الشّرفـة، ووضعـت مـرآة صغـيرة أمـام وجههـا كمـا نصحتهـا وداد، وأمسـكت دفـتر الواجبـات. أخـذت نفسـا عميقـا، وأخـذت تقـرأ المقاطـع الـتي عـلى الصّفحـة الأولى:

ـ لا.. با.. نس.. بيل.. كب.. لح.. عن...

كانـت عبـارة عـن حـروف متداخلـة بـلا معـنى، لكنّهـا معـدّة بشـكل مـدروس. هـذا مـا أكّدتـه وداد. وكان عـلى ليـلى أن تصدّقهـا، وتتمـرّن عـلى نطقهـا دون نقـاش.

***

كان فـراس يجلـس في شرفتـه ذلـك العـصر، يحـاول أن يطالـع كتابـا لـم يطـو صفحاتـه منـذ جلوسـه، فقـد كان الـشّرود يهزمـه كلّمـا حـاول القـراءة. كان يريـد أن يتجاهـل ذاك الكـم الهائـل مـن الذكريـات الـتي هاجمـت عقلـه فجـأة، وصـارت جليسـه المقيـم منـذ أيّـام. حـاول أن يشـغل نفسـه بالمطالعـة، لكنـه كان يفقـد تركـيزه بسرعـة وتأخـذه أفـكاره بعيـدا.. إلى حنـان! اجتاحـه إحسـاس بالضّيـق والألـم والمـرارة.. أربـع سـنوات مـرّت وهـو غـير قـادر عـلى تجـاوز الذّكـرى، غـير قـادر عـلى اسـتعادة التـوازن في حياتـه. تلـك الحادثـة غـيّرت الكثـير في نفسـه، غيّرتـه بـلا رجعـة.

فجـأة، انتبـه حـين طـرق مسـامعه صـوت بـاب الشّرفـة المجـاورة يفتـح.. ثـمّ مقاطـع صوتيّـة غريبـة ومتداخلـة.. لعلّهـا بالعربيّـة؟ لا يمكنـه اسـتحضار لغـة أخـرى ينـدرج حرفـا «الحـاء» و«العـين» ضمـن حروفهـا. أصغـى في اهتمـام وقـد زوى مـا بـين حاجبيـه. مـا الـذي تفعلـه بالضّبـط؟ كانـت اللّكنـة الأجنبيّـة واضحـة، لكـنّ محاولتهـا جديـرة بالثّنـاء. كان الحاجـز بـين الشّرفتـين يحجـب أحدهمـا عـن الآخـر، ولـم يبـد أنّهـا قـد انتبهـت لوجـوده.

تذكّـر رؤيتـه لهـا منـذ أيّـام، أمـام الجامعـة. كان يلقـي محـاضرة في كليّة الفنـون الجميلـة، مرّتـين في الأسـبوع، وقـد رآهـا هنـاك، تهبـط مـن سـيّارة أجـرة وتسـير في الاتّجـاه المعاكـس. تعلّقـت عينـاه بجانـب وجههـا الـذي يظهـر مـن زاويتـه، والتبـس الأمـر عليـه لوهلـة، حنـان؟ لا.. إنّهـا ليـلى! لقـد تجـاوز كلّ ذلـك في وقـت سـابق، الذّكريـات الـتي تثيرهـا طرقـات الكلّيّـة، وقوفـه أمـام بوّابـة الجامعـة، يراقبهـا أو ينتظرهـا. لقـد عـاش وقتـا عصيبـا في المـرّات الأولى الـتي قصـد فيهـا الجامعـة بعـد وفاتهـا، يحـاصره شـبحها في كلّ التفاتـة. لكـنّ كلّ ذلـك غـدا مـن المـاضي. أمّـا ذلـك الصّبـاح، فقـد كانـت هنـاك مـن جديـد. حنـان. لـو لـم يكـن يعـرف يقينـا

أنّ ليـلى هنـا لـكان فقـد عقلـه. ليسـت هـي.

منـذ ظهـرت أمامـه عـلى العشـاء منـذ أيّـام، لازمتـه فكـرة واحـدة. كان مـن الـضّروريّ أن ترحـل، وفي أقـرب وقـت ممكـن. لـم يكـن مـا يعيشـه حنـين زوج لزوجـة راحلـة، ضاعـت منـه في ريعـان شـبابها. مـا بينهمـا كان شـيئا مختلفـا، حـادّا وخانقـا وبـاردا ولاذعـا. يكرههـا. لقـد دمّرتـه. كان زواجـه منهـا ابتـلاءً.. ورحيلهـا بـلاءً مـن نـوع آخـر.

لكن ليس ذلك كلّ شيء. لقد كان هناك ثأر شخصيّ بينه وبين ليلى!

في تلـك اللحظـة انتبـه إلى صـوت ليـلى وهـي تتوقّـف عنـد حـرف الخـاء، في عنـاء واضـح. كانـت تـردّد في إصرار:

ـ خخخخخخخ

فيصـدر عنهـا شـخير مضحـك. لـم يتمالـك نفسـه، كانـت رغبـة الضّحـك قـد اسـتولت عليـه. كتـم أنفاسـه وأحكـم كفّـه عـلى شـفتيه، لكـنّ الضّحكـة أبـت إلّا أن تفلـت مختنقـة ومتقطّعـة. بهـدوء، غـادر مقعـده عـلى الفـور واختفـى داخـل الغرفـة.

قطعـت ليـلى درسـها ووقفـت في حـذر. لقـد سـمعت صوتـا للتـوّ يصدر عـن الشّرفـة المجـاورة. هـل كان فـراس هنـاك؟ أصغـت في انتبـاه، لكنّهـا لـم تعـد تسـمع شـيئا. اقتربـت مـن الحاجـز، ونـادت في همـس:

ـ هل هناك أحد؟

لكنّهـا لـم تسـمع جوابـا. مـن زاويتهـا، لمحـت مقعـدا شـاغرا وكتابـا عـلى الطاولـة المنخفضـة، بينمـا كان بـاب الشّرفـة مفتوحـا والنّسـيم يحـرّك السّـتائر المسـدلة. غـير ذلـك، لا أحـد.

***

بعـد العشـاء، انتبهـت ليـلى عـلى نقـر خفيـف عـلى بـاب غرفتهـا. لـم يكـن الطـرق شـبيها بطرقـات أمـين الموقعـة. عقـدت حاجبيهـا في تسـاؤل: مـن يكـون القـادم في مثـل تلـك السـاعة؟ اقتربـت في خفّـة مـن البـاب وهتفـت بصـوت خافـت:

ـ من هناك؟

أجابها صوت أنثوي غريب.

ـ ليلى.. هلّا فتحت؟

فتحـت عـلى الفـور، وقـد أدركـت مـن الطـارق مسـبقا. طالعتهـا امـرأة شـابة تقـترب مـن الثلاثـين، ترتـدي ثوبـا محتشـما أنيقـا وقـد ألقـت عـلى رأسـها غطـاء دون اهتمـام، يكشـف عـن مقدمـة شـعرها. اسـتقبلتها بابتسـامة واسـعة واحتضنتهـا في حـرارة وهـي تقـول:

ـ أنا منال.. زوجة ياسين.. وهذه رانيا ابنتي.

اتّسـعت ابتسـامة ليـلى حـين انتبهـت إلى الكائـن الصغـير الـذي يمسـك بطـرف ثـوب منـال ويتطلـع إليهـا بعينـين فضوليّتـين وابتسـامة مـتردّدة. انحنـت لتقبـل وجنـتي الفتـاة الصغـيرة الـتي تبلـغ الرّابعـة ثـمّ ربّتـت عـلى رأسـها. تخلّصـت رانيـا مـن حضـن ليـلى في سرعـة واختفـت خلـف والدتهـا في خجـل.. لكنهـا مـا لبثـت أن أطلـت لتراقبهـا عـن بعـد، بينمـا تابعـت منـال:

ـ آسفة إن كنت أيقظتك!

ـ أبدا.. لم أنم بعد.

ـ كنـت في زيـارة لمـنزل والـدي ولـم أعلـم بوصولـك إلا الآن.. إن كنـت لا تشـعرين بالنّعـاس، هـل يمكـن أن نتسـامر قليـلا؟

رحّبـت ليـلى بالفكـرة، ورافقـت منـال وابنتهـا إلى الصّالـة العلويّـة. قالـت

منـال ضاحكة:

ـ في الحقيقـة، لقـد وصلتـني بطاقـة إنـذار صفـراء، فهرعـت إلى هنـا قبـل أن تتحـوّل إلى اللّـون الأحمـر!

لـم تسـتوعب ليـلى مـا عنـت، فأضافـت منـال هامسـة وهـي تشـير بإبهامهـا إلى الأسـفل:

ـ الجدّة! لقد رصدت غيابي، فقرصت أذن ياسين!

حاولـت ليـلى أن تتخيّـل الجـدّة، بظهرهـا المحـنيّ وقامتهـا الضّئيلـة، تمـدّ ذراعهـا لتقـرص أذن ياسـين ذي القامـة الفارعـة! ثـمّ عدّلـت الصّـورة في ذهنهـا. لا شـكّ أنّ الحاجّـة فريـدة كانـت تجلـس في اسـترخاء عـلى مقعدهـا، بينمـا يركـع ياسـين عـلى ركبتيـه ويطأطـئ رأسـه، مسـلّما أذنـه لأصابـع الجـدّة النّحيلـة لتقرصهـا عـلى مهلهـا!

ابتسمت عند ذلك الخاطر، بينما واصلت منال:

ـ عنـد الجـدّة صـورة أثريّـة عمّـا يجـب أن تكـون عليـه الزّوجـة المثاليّـة! والغيـاب عـن مـنزل الزّوجيّـة لأيّـام متّصلـة ليـس جـزءًا منهـا.

ضحكتـا، ثـمّ تحدّثتـا لبرهـة عـن مشـاريع ليـلى، تجديـد شـقّتها ثـمّ إيجـاد عمـل في سـلك الإعـلام. وتمنّـت منـال أن يفـرج عـن والدهـا في القريـب.

ـ إن احتجـت أيّ مسـاعدة، لا تـتردّدي.. فأنـا متفرغـة لـك كليّـا.. انقطعت عـن العمـل منـذ أنجبـت رانيا.

ـ وماذا كنت تعملين قبل ذلك؟

ـ كنـت موظفـة في شركـة عمـي نبيـل.. في قسـم العلاقـات العامّـة.. ثـمّ التقيـت بياسـين.. وحصـل مـا حصـل!

ضحكـت، فشـاركتها ليـلى الضّحـك. لكـنّ ضحكـة منـال لـم تبـد

صافيـة. شـعرت ليـلى بإحسـاس غريـب بالشّـفقة تجاههـا. منـال، أنـت لسـت سـعيدة أيضـا! اسـتمرّت الأحاديـث بينهمـا سـاعة مـن الزمـن حـول مواضيـع شـتى، حـتّى نظـرت منـال في سـاعتها وقالـت:

ـ يا إلهي، لقد تأخّر الوقت!

كانـت رانيـا قـد تكـوّرت عـلى نفسـها فـوق الأريكـة إلى جوارهمـا وغلبهـا النّعـاس. وقفتـا وحملـت منـال رانيـا بـين ذراعيهـا، ثـمّ سـارتا باتّجـاه الـدّرج، لتصعـد منـال إلى جناحهـا. كانـت ليـلى تهـمّ بالرّجـوع إلى غرفتهـا حـين ظهـر أمـين في رأس الممـرّ.

ـ ليلى، جيّد أنّك مستيقظة!

كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت منتصـف اللّيـل.. وأمـين الـذي أمـضى السّـهرة بالخـارج قـد رجـع للتـوّ، متجاهـلا حظـر التجـوّل كعادتـه. بادرهـا في حمـاس:

ـ انتظري هنا.. لحظة واحدة!

غـاب في غرفتـه لبضـع ثـوانٍ ثـمّ عـاد وبـين ذراعيـه ألبـوم مكتـنز بالصّـور.

ـ هـذه هديّـة لـك! لقـد بحثـت كثـيرا في ألبومـات العائلـة وفي المكتبـة وجمعتهـا مـن أجلـك.

حدّقـت غـير مصدّقـة. هـذه هديّـة غـير متوقّعـة، كان عليهـا أن تتقبّلهـا بامتنـان.. وتسـهر معهـا حـتّى الصّباح.

***

ارتفعـت دقـات عميقـة تـضرب دماغهـا في وقـع رتيـب. لـم تسـتطع مقاومـة إحسـاس بالخـدر يلـف جميـع أوصالها ويشـدّها إلى عالـم الأحلام في إصرار. فتحـت ليـلى عينيهـا بصعوبـة وهـي تقـاوم الطّنـين الـذي لـف عقلها بغـلاف ضبـابي. حـطّ نظرهـا عـلى سـقف الغرفـة السّـماوي، فـزوت مـا بـين حاجبيهـا في انزعـاج، تحـاول تذكـر أيـن تكـون. ارتفعـت الدّقـات مـن جديـد عـلى نفـس الوتـيرة، لكـن بوضـوح أكـبر هـذه المـرّة، عـلى بـاب غرفتهـا. نعـم، إنهـا في قـصر خالهـا.. في غرفـة حنـان.

عـادت إليهـا ذكريـات مسـاء البارحـة. لقـد سـهرت طويـلا مـع صـور حنـان.. تدقّـق فيهـا، تحلّـل كلّ واحـدة منهـا، تـدرس تعابـير حنـان ووجـوه المحيطـين بهـا، وتضـع علامـات عـلى الشّـخصيّات المجهولـة بالنّسـبة إليهـا. كانـت سـهرة طويلـة، لـم يقطعهـا سـوى أذان الفجـر!

انتزعتهـا نفـس الدّقـات الـتي أخـذت تعلـو في إصرار، مـن أفكارهـا، فقامـت عـلى الفـور وهـي تهتـف:

- لحظة واحدة.. أنا قادمة!

ارتفـع صـوت أمـين خـارج الغرفـة وهـو ينقـر بتوقيـع خـاصّ عـلى البـاب:

- ليلى.. ألم تستيقظي بعد؟ سنتأخر!

نظـرت إلى سـاعتها في ارتبـاك، إنهـا السّـاعة التاسـعة والنصـف. حاولـت التذكّـر، مـا الـذي يحـاول أمـين قولـه؟ ثـمّ رجعـت إليهـا الذّاكـرة فجـأة.. لقـد اقـترح خالهـا رحلـة إلى مزرعـة العائلـة اليـوم! لا يمكـن أن تكـون قـد نسـيت ذلـك! لملمـت شـعرها بصفـة عشـوائية قبـل أن تفتـح لأمـين الـذي كان لا يـزال مرابطـا أمـام البـاب. كان يقـف أمامهـا في سروال جيـنز وقميـص مشـدود عـلى صـدره، مـع حـذاء ريـاضي. هتفـت معتـذرة:

- خمس دقائق!

ثمّ صفقت الباب دون أن تنتظر ردّه.

فتحت صوان الملابس وانتقت فستانا ربيعيّا مناسبا ذا لون زهريّ باهت. كان الطّقس معتدلا في الأيّام الأخيرة، حتّى أنّها استغنت عن معطفها الثّقيل. نزلت مسرعة فلاقت أمين عند أسفل الدرج. رمقها بإعجاب لم يحاول إخفاءه وهمس حين مرّت بقربه:

ـ اختيار موفق.

ابتسمت لإطرائه وانضمّت إلى منال ورانيا في البهو الرّئيسيّ. قبّلت رانيا على وجنتيها ثم أجلستها على ركبتيها وهي تلهو بخصلات شعرها الكستنائية الملفوفة. لم تمانع الفتاة هذه المرّة، واستكانت لمداعبتها. كان فراس واقفا عند المدخل يلهو بمفاتيحه، بينما كان خالها يطالع جريدة اليوم، في ثياب رياضيّة مريحة.

ـ ليلى.. كلي شيئا قبل أن نغادر.

اقترحت عليها منال، لكنّها كانت محرجة لتأخّرها، ولم يكن من اللّائق أن تتأخّر أكثر لتتناول إفطارها. همست محاولة ألّا تلفت انتباه أحد إليها:

ـ أنا بخير.. سآكل شيئا على الطّريق.

لكنّ حوارهما القصير كان قد وصل إلى مسامع الآخرين. قال خالها ملحّا :

ـ لا يصحّ أبدا أن تهملي وجبه الإفطار.. هيّا اذهبي وكلي شيئا!

ـ سأخبر العم هاشم بأنّ يعدّ المائدة من جديد!

كان أمين قد سبقها إلى المطبخ، عارضا خدماته. وكان عليها أن ترفع رأسها باتّجاه فراس، لتلمح تلك النّظرة السّاخرة عينها التي باتت تصدر منه كلّما كان الأمر يخصّها. كلّما شعرت بالإحراج، أو عانت من

مـأزق، كانـت سـخريته في الموعـد! وقـد كان ذلـك شـيئا لا يطـاق!

سـارت في اتّجـاه غرفـة الطّعـام والحنـق يملؤهـا. ازدردت كـوب القهـوة وقطعـة كعـك واحـدة بسرعـة، ثـمّ عـادت إلى البهـو.

ـ هل انتهيت؟ بهذه السّرعة؟

ـ لا تستعجلي، مازلنا ننتظر ياسين على أيّة حال.

ودّت لـو تختفـي، تتبخّـر، أو تـذوب مكانهـا. بقـدر الاهتمـام الزّائـد الـذي تلقـاه مـن أمـين ومنـال وخالهـا، بقـدر التهكّـم الـذي تجـده مـن فـراس.

حين نزل ياسين، قال أمين معلنا:

ـ لقد اكتمل العدد. هيّا بنا!

همست ليلى لمنال:

ـ ألن ترافقنا جدّتي؟

ـ إنّها لا تحبّ المزرعة.

كانـت سـيّارات ثـلاث تنتظـر أفـراد العائلـة عنـد المدخـل. اتّجـه نبيـل نحـو سـيّارته المرسـيدس يسـبقه سـائقه، وتبعـه ياسـين الـذي كان محمّـلا ببعـض الملفّـات. كان الاثنـان ينويـان مواصلـة أحاديـث الشركـة عـلى الطّريـق. أمّـا فـراس وأمـين فـكان كلّ منهمـا يقـود سـيّارته. نقلـت ليـلى نظراتهـا بـين السـيّارتين، ثـمّ سـألت منـال:

ـ مع من تركبين؟

ـ أمين متهوّر، أفضّل سياقة فراس.. هل تأتين معنا؟

كان أمـين يلـوّح لهـا عـن بعـد، يدعوهـا لمرافقتـه.. في حـين جلـس فـراس أمـام مقـود سـيّارته في لامبـالاة. تمنّـت لـو أنّ الأرض تنشـقّ وتبتلعهـا ولا تتّخـذ ذلـك القـرار بركـوب سـيّارته، وبكامـل إرادتهـا. تمنّـت

لـو دعاهـا خالهـا للرّكـوب معـه. تمنّـت لـو كانـت جدّتهـا ترافقهـم، إذن لكانـت لتصاحبهـا. كانـت تهـمّ باتّخـاذ قـرار متهـوّر بالرّكـوب مـع أمـين، لكـنّ فكـرة ملتويـة خطـرت ببالهـا فجـأة، فهتفـت عـلى الفـور:

ـ أنا سائقة ماهرة، هل تركبين معي؟

ـ ماذا؟

سـحبت منـال وراءهـا وسـارت باتّجـاه أمـين دون توضيـح. قالـت بشـكل غـير متوقّـع:

ـ أمين، هل تعيرني سيّارتك؟

ضحكت منال وقالت في ثقة:

ـ أمين لا يعير سيّارته لأحد!

هزّ رأسه موافقا وأضاف:

ـ إن كنت ستأخذين سيّارتي، فما الذي أفعله أنا؟

ـ تركب مع أخيك!

ـ مستحيل.. أمين لا يركب مع أحد!

تدخّلت منال مرّة أخرى، وتابع أمين:

ـ وخاصّـة فـراس! تعلمـين لمـاذا؟ لأنّ فـراس بطـيء.. بطـيء جـدّا! وأنـا لا يمكـن أن أكـون مسـاعد الطّيّـار أبـدا.. لمـاذا؟ لأنّ الطّيّـار هـو أنـا!

ـ الطّيّار؟

قال أمين ومنال في وقت واحد:

ـ لأنّ السّيّارة التي يقودها أمين.. تطير!

ثمّ أضافت منال مقترحة:

ـ إن كنت تريدين السّياقة، فسيّارة ياسين في المرآب.

ـ حقّا؟ لماذا لم تقولي منذ البداية!

سحبتها ليلى على الفور باتّجاه المرآب وقد سرّها أن ينتهي الأمر بهذا الحلّ. لكنّها توقّفت في ارتباك أمام السيّارة رباعيّة الدّفع التي أشارت إليها منال. ازدردت ريقها بصعوبة وزوت ما بين حاجبيها في تفكير. هذا مأزق من نوع آخر. إنّها تقود سيّارتها الصّغيرة في شوارع جينيف، لكنّها لم تجرّب مطلقا سيّارة بهذا الحجم. سألتها منال في قلق:

ـ هل تستطيعين سياقتها؟

ـ طبعا!

ردّت دون تردّد. إمّا أن تفعل، وإمّا.. لا خيار آخر!

غادرت السّيّارات الأربع أخيرا عبر البوّابة، في ذيلها سيّارة ياسين الضخمة، تقودها ليلى، متطاولة بقامتها القصيرة لتتحكّم في مساحات السيّارة الهائلة. كان كلّ شيء على ما يرام طالما كانت في شوارع العاصمة المزدحمة، وقد نجحت في الحفاظ على مسافة معقولة بينها وبين السيّارات الأخرى حتّى لا تتوه. ثمّ أخذ المشهد في الخارج يتغيّر بعد أن غادرت السيّارات المدينة وأخذت تطوي الطريق الزراعية طيّا. ورويدا رويدا، أخذت المسافة تتّسع بين ليلى وبقيّة السيّارات. كانت تحاول إبقاءها في مرمى بصرها، لكنّ الإشارة تحوّلت فجأة إلى الأحمر.. ووجدت السّيّارات الثلاث تنعطف وتختفي عن ناظريها تماما!

التفتت ليلى إلى منال وهمست في قلق:

ـ هل تعرفين الطّريق؟

ـ ماذا؟

ـ أظننا أضعناهم!

ثـمّ انفجرتـا ضاحكتـين! ضحـكات متشـنّجة قلقـة. مـاذا تفعـلان الآن؟ اقترحـت منـال:

ـ هل أتّصل بياسين؟ أطلب من أحدهم العودة من أجلنا؟

ـ ليس بعد.. دعينا نحاول؟

كان خجلهـا شـديدا، وكبرياؤهـا لـم تتحمّـل الضّربـة. كان عليهـا أن تتجـاوز المـأزق بأيّـة طريقـة. انعطفـت بالسـيّارة في الاتّجـاه الـذي خالـت السـيّارات قـد انعطفـت منـه، ثـمّ سـارت في خـطّ مسـتقيم وهـي تعايـن الطّريـق وتحـاول تميـيز اللاّفتـات، وتواصـل اسـتجواب منـال عـن أيّ علامـات ممـيّزة قـد ترشـدهما إلى المسـار الصّحيـح. كانـت عـلى وشـك الاستسـلام، حـين لمحـت سـيّارة متوقّفـة عـلى جانـب الطّريـق، مطلقـة إشـارة ضوئيّـة. اقتربـت ببـطء حـتّى ميّزتهـا. سـيّارة فـراس! لا، لا، لا! لمـاذا فـراس! طبعـا، وهـل يمكـن أن يكـون غـيره؟ أمـين بالتّأكيـد قـد طـار! وخالهـا منشـغل بحديـث العمـل ولا يمكنـه الانتبـاه إلى غيـاب السـيّارة الرّابعـة!

حـين أصبحـت خلفـه تمامـا، انطلـق فـراس مجـدّدا، محافظـا عـلى مسـافة قصـيرة بـين السـيّارتين. وكانـت ليـلى تغـلي مـن الغيـظ والقهـر والخجـل.

حـين توقّفـت السـيّارات أخـيرا داخـل المزرعـة، اقتربـت منـال مـن فـراس وقالـت في امتنـان:

ـ شكرا لانتظارك.. كدنا نتوه!

هـزّ رأسـه بابتسـامة ودودة، لكـن حـين صـارت ليـلى في مرمـى بـصره، تغـيّرت ملامحـه فجـأة، وقـال بصـوت خافـت لـم يسـمعه غيرهـا:

ـ يبدو أنّ التّأخير من شيم الآنسة!

تـدرك الآن بشـكل واضـح أنّ فـراس لا يطيقهـا. لكـن لا يهـمّ. هـذا

شـعور متبـادل.

استـغرقها ركـن السـيّارة في المـرآب بعـض الوقـت. لـم يكـن مـن اليسـير التحكّـم في الهيـكل الضخـم حـتّى يسـتقرّ مكانـه متوازيـا بشـكل مثـاليّ مـع بقيّـة السـيّارات! لكنّهـا قـد غـدت مسـألة كرامـة بالنّسـبة إليهـا! بعـد دقائـق، كانـت قـد أنهـت مهمّتهـا ولحقـت بالآخريـن. قطعـت طريقـا ترابيّـة غـير مهيّئـة، حُفّـت مـن الجانبـين بأشـجار مثمـرة قـد أزهـرت بألـوان تخطـف الأنظـار. استنشـقت هـواء الباديـة النقـيّ وطـردت عنهـا الاسـتياء الـذي أفسـد مزاجهـا منـذ حـين. هـذا ربيـع حقيقـيّ، وهـي قـد وقعـت في حـبّ المـكان مـن النظـرة الأولى!

وراء المسـاحة المشـجّرة، تـراءى لهـا المـنزل الرّيفـيّ الأنيـق المكـوّن مـن طابقـين. صعـدت الدّرجـات الثـلاث الـتي تـؤدّي إلى المدخـل، فتناهـى إليهـا صـوت المربّيـة العجـوز وهـي تتبـادل الأحاديـث الـودودة مـع أفـراد العائلـة. كانـت آخـر الواصلـين. سـبقها الآخـرون إلى الردهـة منـذ حـين، حيـث اسـتقبلتهم مدبّـرة المـنزل، الخالـة مريـم، المربيـة السّـابقة للشـبّان الثلاثـة. وكان ضحـك الصّغـيرة رانيـا يتعـالى وهـي تجلـس بـين أحضـان المربّيـة وتلهـو بطـرف ثوبهـا المطـرز.

في تلـك اللحظـة تفطنـت الخالـة مريـم إلى وجـود ليـلى عنـد المدخـل. فتسـمرّت مكانهـا دهشـة وتراجعـت خطوتـين لتبحـث عـن نظارتهـا الطّبيّـة عـلى المنضـدة. وضعتهـا عـلى عينيهـا بأصابـع مرتعشـة ثـم هتفـت مصدومـة:

ـ خبروني.. هل ترون ما أرى؟ أم أنّها تهيّؤات وتخاريف عجائز؟

ـ إنها ليست حنان، بل شقيقتها التوأم!

تدخّل نبيل ليقدّمها بهدوء، بينما ردّدت العجوز مبهوتة:

ـ شقيقتها التوأم!

شرح لها باختصار قصّة الأختين اللتين انفصلتا بانفصال والديهما، حتّى هدأت وعادت إليها السّكينة، ثمّ دعا ليلى للجلوس قربها. شعرت ليلى بالارتباك. كانت على مشارف البكاء، لسبب لا تعلمه. ربّما لم تتعوّد أن يشرّح أحدهم تاريخ عائلتها على مسامعها. ربّما يجرحها هذا الإتيان على ذكر والدتها وشقيقتها التي يبدو أنّ الجميع هنا -عداها- قد عرفوهما بشكل جيّد. لم تكن تتصوّر أن تكون حسّاسة تجاه هذا الموضوع، فهي لم تشعر يوما بحاجتها إلى تلك الأمّ التي لا تعرفها. إلى أن وصلت إلى هنا.

ـ تعالي يا صغيرتي.. كم كان والداك عديمي الرّحمة ليحرماك من النشأة بين أحضان عائلتك!

لم تكن مريم قد عرفت ليلى في طفولتها. كانت قد رحلت مع والدها في سنّ صغيرة بعد أن حصل الطّلاق في وقت مبكّر من عمر الزّواج. ولم تكن مريم قد انضمّت إلى العائلة إلّا بعد ذلك بسنوات. حين توفّيت زوجة خالها على إثر سقوطها عن ظهر فرسها بالمزرعة، جاءت المربية لتهتمّ بالأطفال. منذ ذلك الحين، تخلّص خالها من الخيل والاسطبل بشكل نهائيّ.

انشغلت مريم بإعداد غداء دسم على شرف ضيوفها، بينما جلست ليلى ومنال في الشرفة تتجاذبان أطراف الحديث. كان ياسين وأمين قد قفزا إلى بركة السّباحة، تصحبهما الصّغيرة رانيا، بينما اختفى فراس ونبيل عن الأنظار. ظهر أمين فجأة عند الشّرفة المتّصلة بالمسبح، وهو يقطر ماءً، وهتف:

ـ هل تنظمّان إلينا؟

كان العرض مغريا بالنّسبة إلى ليلى. الطّقس يميل إلى الدّفء مؤخّرا، وفراس ليس متواجدا في الأرجاء، ممّا يشعرها بقدر من الارتياح.

لكنّها لم تكن قد استعدّت للأمر. قالت معتذرة:

- لم أحضر ثياب السّباحة!

قالت منال على الفور:

- لا شكّ أنّ هناك بعض ثياب حنان في الأعلى!

ثمّ أضافت في شكّ:

- هل تمانعين استعمالها؟

لم تكن ليلى واثقة. هل من المناسب أن تستعير ثياب توأمها المتوفّاة؟ لم يكن الأمر يعني لها شيئا، من النّاحية الأخلاقيّة.. لكنّها لم تكن واثقة من ردّة فعل فراس. قال أمين في حماس وهو يشير إلى المسبح وراءه:

- هناك حدث هامّ اليوم، فراس يشارك في اللّعبة لأوّل مرّة منذ سنوات! لا تريدان تفويت هذا!

في تلك اللحظة، لمحت فراس مقبلا في اتّجاه المسبح في حلّة غطس كاملة، طويلة الأكمام والسّيقان. كان يمكنها أن تضغط على نفسها، وترتدي ثياب سباحة حنان.. لكنّ الأمر لم يعد مغريا، طالما كان فراس قد وصل! قالت في ضيق:

- لا بأس.. سأكتفي بالفرجة اليوم.

عبس أمين، ثمّ التفت إلى منال:

- وأنت؟

هزّت كتفيها وقالت:

- لا يليق أن أترك ليلى وحدها!

بعد أن انسحب أمين خائبا، سألت ليلى في فضول:

- ماذا قصد أمين.. بشأن مشاركة فراس في اللّعبة؟

ـ آه، نعـم.. فـراس كان لاعـب كـرة مـاء، وصـل إلى مرحلـة الاحـتراف في الجامعـة.. لكنّـه انقطـع فجـأة، منـذ زواجـه.. ولـم يعـد يشـارك حـتّى في ألعـاب الشّـباب الودّيّـة. نزولـه إلى المسـبح اليـوم أمـر اسـتثنائيّ!

لـم تكـد منـال تنهـي عبارتهـا، حـتّى صرخـت بليـلى وهـي تشـير إلى مـا وراءهـا:

ـ انتبهي!

اسـتدارت ليـلى، لتلمـح كـرة المـاء الـتي انطلقـت مـن المسـبح باتّجاههمـا مبـاشرة في قذفـة قويّـة، لتصيبهـا في رأسـها تمامـا! وقعـت ليـلى عـن مقعدهـا، وشـعرت بدماغهـا يلـفّ، بينمـا هـرع الجميـع إليهـا في فـزع. كانـت تسـمع أصواتـا مشوّشـة، منـال تسـندها لتسـاعدها عـلى الوقـوف، وأمـين يهـرول بمكعّبـات الثلـج مـن المطبـخ، بينّمـا مـيّزت صـوت ياسـين وهـو يقـول في عتـاب:

ـ فراس.. كان يجب أن تكون أكثر حذرا!

حينئـذ أدركـت ليـلى كلّ شيء. نزولـه إلى المسـبح الاسـتثنائيّ، لـم يكـن لـه سـوى هـدف واحـد!

صعـدت إلى الطّابـق الأوّل بمسـاعدة منـال، واسـتلقت عـلى السّريـر في إحـدى الغـرف. اسـتمرّ الأزيـز في رأسـها لحوحـا مزعجـا. منـذ إصابتهـا في حـادث سـيّارة منـذ سـنوات وحـالات صـداع عنيـف تنتابهـا مـن حـين إلى آخـر. والضّربـة زادت الأمـر سـوءًا. أخـذت مسـكّنا، واستسـلمت إلى النّـوم بعـد لأي. لـم تسـتيقظ إلّا عنـد موعـد الغـداء.

كانـت متوتـرة عـلى مائـدة الطّعـام. أصغـت بعقـل غائـب لأحاديـث مريـم ودعابـات أمـين المرحـة. وقـد كانـوا جميعا لطفـاء تجاهها، يسـألون باسـتمرار إن كانـت تشـعر بتحسّـن.. مـا عـدا صاحـب الفعلـة!

حـين انـصرف الجميـع مـن قاعـة الطّعـام، تطوّعـت ليـلى لرفـع الأطباق

وحملتهـا إلى المطبـخ. دخلـت خلـف المربيّـة وهـي تقول:

ـ خالتي، هل أساعدك؟

لـم تكـن ليـلى لتبـادر بذلـك في القـصر الكبـير، حيـث الخـدم ومدبّـرات المـنزل الكثـيرات.. لكنّهـا لـم تـر شـخصا آخـر في المطبـخ إلى جـوار المربيّـة، فـرأت مـن واجبهـا أن تفعـل. لقـد تعـوّدت عـلى خدمـة نفسـها.. ولـم تكـن تجـد حرجـا في الاهتمـام بنظافـة شـقّتها وإعـداد وجباتهـا.

التفتت إليها مريم مبهوتة وهتفت:

ـ عشت حتّى رأيت شخصا يعرض المساعدة في هذا البيت!

ثمّ تمتمت في خفوت:

ـ حنـان لـم تكـن تعـرف كيـف تسـاعد نفسـها، فضـلا عـن مسـاعدة الآخريـن! تلـك الصّغـيرة المسـكينة، رحمهـا الله!

اقتربـت منهـا ليـلى وأخـذت ترصـف الصّحـون داخـل آلـة الغسـيل في صمـت. ودّت لـو تسـتفيض المربيّـة في حديثهـا.. وقـد بـدا أنّهـا كانـت مسـتعدّة للثرثـرة، فأخـذت تقـول، كأنّهـا تخاطـب نفسـها:

ـ لمـاذا قـد تفكّـر فتـاة شـابّة ومرحـة مثلهـا في إنهـاء حياتهـا؟ لقـد كانـت محظوظـة لزواجهـا مـن فـراس.. أحـبّ أبنـاء نبيـل إلى قلبـه.. وهـي كانـت مدلّلـة مـن الجميـع.

عبسـت ليـلى. كان السّـؤال نفسـه يشـغلها في الأيّـام الماضيـة. سـمعتها تطلـق زفـرة طويلـة، ثـمّ اسـتولى عليهـا الصّمـت. سـألتها ليـلى فجـأة:

ـ وماذا عن.. أمّي؟ حدّثيني عنها!

تجهّـم وجـه العجـوز وبـدا عليهـا الـتردّد، لكنهـا قالـت أخـيرا في اقتضـاب:

ـ نجاة كانت شخصيّة عنيدة وعصبيّة.. رحمها الله!

أطرقت ليلى في كآبة. لم يكن كلامها غريبا عنها، فوالدها أيضا وصفها بتلك الطّباع، محاولا تبرير انفصالهما.. من الواضح أنّها لم تكن محبوبة، حتّى من المربّية!

خرجت إلى الشّرفة، وألقت نظرة على السّاحة. لم يكن هناك أحد في مرمى بصرها. اقتربت من المسبح، وانحنت لتلامس بأصابعها صفحة الماء. كانت المياه دافئة. التفتت حولها مستطلعة من جديد. لا أحد. جلست على طرف البركة وغمرت قدميها في الماء. تنهّدت. ما الفائدة من النبش في تاريخ عائلتها، إن كانت ستعود في كلّ مرّة محمّلة بالخيبة والمرارة؟ هل كانت تتوقّع أحاديث مسلّية وقصصا حلوة عن امرأتين سعيدتين ومحبوبتين؟

***

بعد الغداء، صعد نبيل إلى الطّابق الأوّل طلبا للقيلولة، وجلس الإخوة الثلاثة في الصّالة يلعبون الورق. كانت رحلة المزرعة من أوقات اجتماعهم النّادرة، وكان أمين يحمل علبة الورق في جيبه على الدّوام. أمّا منال، فجلست إلى جوارهم، تحكي قصّة لرانيا بينما تجدل شعرها. سأل أمين فجأة:

ـ أين ليلى؟

قالت منال مداعبة:

ـ تستمع إلى خرافات العجوز!

ـ إذن لا أمل في مجيئها قريبا!

تعالت الضّحكات، متبوعة برنين هاتف فراس. نظر إلى الشّاشة ثمّ

سار إلى الشّرفة ليردّ على الاتّصال. لم يكن بوسعه تجاهل اتّصالات العملاء حتّى في عطلة نهاية الأسبوع. أصبح شديد الانشغال في السّنوات الأخيرة.. وهو يحبّ أن يبقى مشغولا. الانشغال بالعمل يمنعه من الإفراط في التّفكير. والتّفكير في قاموسه مرادف لاجترار الذّكريات والألم. أنهى الاتّصال، ثمّ حانت منه التفاتة باتّجاه المسبح. رآها. ألم تقل منال إنّها منهمكة في حكايات المربّية؟

توقّف للحظة، وتساءل في شيء من تقريع الضّمير.. هل كانت الضّربة قويّة؟ ابتسم في غرور وهو يتذكّر تسديدته الموفّقة. مازال في كامل لياقته رغم انقطاعه عن ممارسة الرّياضة منذ فترة. لكنّ الضّربة أصابت الهدف مباشرة وأوقعته أرضا! حتّى لاعبو كرة الماء المحترفون حين تصيبهم تسديدة مشابهة، وهم يرتدون خوذات الحماية، فإنّهم يصابون بالدّوار. لم يكن هدفه أن يتسبّب لها بأضرار جسديّة.. فقط أن تفهم أنّها غير مرغوب بها، وأنّ عليها أن ترحل!

تذكّر الشّقّة. بإمكانه أن يجعلها ترحل بأساليب ملتوية وغير تقليديّة، أو.. أن يسرّع العمل على شقّتها، فترحل حين تجهز! زفر. لكنّ ذلك يحتاج وقتا طويلا.. شهرين في أحسن الأحوال! كان الله في عونه حتّى ذلك الحين. عاد بنظراته إليها. ما الذي تفكّر فيه الآن؟ وما الذي جعلها تعود في هذا التّوقيت بالذّات؟ لا تزال زيارتها للجامعة تثير الشّكوك لديه. إنّها تريد شيئا ما. وسوف يعرف ما هو.

التفتت ليلى إلى الشّرفة فجأة. شعرت بحركة ما خلفها، لكن مرّة أخرى.. لا أحد هناك. زوت ما بين حاجبيها في ريبة. إمّا أن تكون مبالغة في الحساسيّة.. أو أنّ أحدهم يتحرّك بخطوات لا وقع لها.. خطوات قاتل!

-٤-

قبـل أن تخلـد إلى النّـوم، جلسـت ليـلى إلى المكتـب، وسـجّلت في دفترهـا:

ـ فراس: انطوائيّ، مستفزّ، عنيف.

ـ أمين: مرح، طفوليّ، مدلّل.

ـ ياسين: مملّ، مدمن عمل، يُعتمد عليه.

ـ منال: طيّبة، سيّدة مجتمع بائسة.

بعـد أسـبوعها الأوّل مـع عائلـة خالهـا، كانـت قـد كوّنـت صـورة شـبه متكاملـة عـن الشـخصيّات المحيطـة بهـا. كانـت تنكـر عـلى أمـين انعـدام مسـؤوليّته، وتأخّـره في التّخـرّج وهـو في السّادسـة والعشريـن! لـم تجـد ياسـين مثـيرا للاهتمـام عـلى الإطـلاق. شـخصيّته سـطحيّة وبسـيطة. تشـفق عـلى منـال الـتي وقعـت في مصيـدة الـزّواج مـن رجـل مشـغول وجـافّ الطّبـع، لكنّهـا لا تنكـر جـدواه. أمورهـا تسـير عـلى خـير مـا يـرام بفضلـه. توقّفـت طويـلا أمـام اسـم فـراس، ونازعتهـا مشـاعر الغضـب والغيـظ، ثـمّ أغلقـت الدّفـتر في عصبيّـة.

في الصبّـاح التّـالي، تلقّـت اتّصـالا غـير متوقّع.كانـت مفاجـأة لذيـذة ومبهجـة، بعـد أن غـدت الفرحـة إحساسـا مسـتبعدا وغـزا طعـم المـرارة أيامهـا منـذ وصولهـا أرض الوطـن. اتّصـال مـن سـحر، صديقتهـا المقرّبـة في سـويسرا وزميلـة دراسـتها في كلّيّـة الصّحافـة والإعـلام.

ـ لحقت بك!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لقد جئنا أيضا.. في إجازة!

ـ تشهدين الثّورة أنت أيضا؟

قالت ليلى ساخرة، ثمّ ضحكتا معا في استمتاع، بينما تساءلت ليلى في صمت.. من تقصد سحر بنون الجمع؟ وتصاعد وَجِيبُ قلبها. قالت سحر في جدّيّة:

ـ لم أخبرك بهذا من قبل.. والدي كان ممنوعا من زيارة تونس، لأنّه انتمى في الماضي إلى حزب معارض للنّظام السّابق.. وقد تمكّن أخيرا من العودة إلى أرض الوطن، بفضل الثّورة.. وجئنا جميعا لنحتفل بذلك!

أصغت إليها ليلى في دهشة. لم تكن تتحدّث عن السّياسة مع سحر. ولم يكن يهمّها أن تعرف تفاصيل مشاكل والدها. فكّرت، لو أنّها اكتشفت الأمر في وقت سابق، هل كان ذلك ليؤثر على صداقتهما؟ كيف تكون علاقة ابنة السّفير وابنة المعارض المنفيّ؟ بدا من المحتّم أنّ صديقتها قد تعمّدت إخفاء ذلك عنها. أمّا الآن، بعد الثّورة، يتساوى المعارض مع المتواطئ.. بل لعلّ المعارض قد غدا أوفر حظّا في ظلّ الحقد الشّعبيّ على رموز النّظام المنهار!

سمعت سحر تقول بلهجة مرحة:

ـ اشتقنا إليك.. متى نراك؟

ـ اليوم إذا شئت.. بعد الظهر؟

ـ بالتأكيد! انضمّي إلينا في البيت.. سأمليك العنوان!

سجّلت ليلى العنوان عندها، وهي تعضّ على شفتها السّفلى في غيظ من نفسها. أمرك مكشوف يا ليلى، أكلّ هذه لهفة؟ اثقلي!

مأمون، شقيق سحر، سبق أن عرّض بخطبتها. هذا كلّ ما في الأمر.

كلّ ما في الأمر؟ الأمر هو أنّ والدها لم يتحمّس لعلاقتهما. عائلة سحر متواضعة، وليست ذات حسب ونسب كما هو حال عائلتها! أم لعلّ والدها كان قد اطّلع على تاريخ والده، فحكم باستحالة العلاقة؟ لكنّ مأمون طبيب شابّ وناجح، ينهي تخصّصه في طبّ الأطفال.. وهو يروقها، في أخلاقه ونضجه وهدوء طبعه، وتلك المكالمة من شقيقته أسعدتها، وجعلت مزاجها المتعكّر يصفو لبقيّة النهار.

فكّرت، ربّما كانت الثّورة فرصة في نهاية الأمر. تنقلب موازين القوى، ويصبح المستحيل ممكنا بضربة عصا سحريّة؟

أمضت كثيرا من الوقت أمام صوان ملابسها، تقلّب الفساتين وتنتقي واحدا لأمسيتها في بيت سحر. كان يومها يشمل نشاطا واحدا قارّا، حصّة اللّغة العربية بعد الظّهر. بالإضافة إلى زيارة والدها مرّة في الأسبوع، ولقاء المحامي من حين إلى آخر، أو التسوّق لحاجياتها وحاجيات والدها. ما عدا ذلك، فقد كانت تقضي ساعات طويلة في غرفتها. لم يكن هناك في القصر غيرها، والخدم. أبناء خالها يلتزمون بموعد العشاء على مائدة واحدة، تلك كانت القاعدة الوحيدة التي ترسم العلاقات بينهم. غير ذلك، فإنّها لم ترهم مجتمعين في مكان واحد في أيّ وقت من أوقات النّهار. بل إنّها قلّما ترى أحدهم في غير موعد العشاء! في الحقيقة، كان يوم المزرعة استثنائيّا في حياة العائلة ونسق حياتها. أيّ اجتماع عائليّ من أيّ نوع، كان من الضّروريّ أن يُخطّط له على مائدة العشاء، وأيّ موضوع حيويّ أيضا يناقش أثناءه، أو بعده مباشرة. عدا ذلك، فإنّ خالها وياسين يكونان في الشّركة طيلة النّهار، وإذا تواجدا في القصر فهما يتحادثان في غرفة المكتبة. أمّا فراس وأمين، فيلزم كلّ منهما غرفته.. أو يسهر خارجا، خاصّة أمين.

حتّى الجدّة، فقد كانت امرأة مشغولة! لا يمكنها الجزم بجدول أعمال الحاجّة فريدة، لكنّها تمضي جزءا هامّا من وقتها خارج القصر، وتؤوي إلى غرفتها مبكّرا بعد العشاء مباشرة. سرّها ألّا تكون عليها رقابة لصيقة كما توقّعت، وهي غير ملزمة حتّى تلك اللّحظة بتقديم تقرير بتحرّكاتها لأحد، ولا يُطلب منها إلّا أن تتواجد على العشاء، مثل الجميع. ولم تكن الجدّة قد فرضت عليها شيئا غير التّسجيل في المدرسة القرآنيّة، وهي تترك لها خدمات السّائق أيضا من أجل درسها.

لكنّها في تلك الظّهيرة، كانت قد قرّرت أن تلغي حصّة العربيّة، من أجل لقائها بسحر. كلّ ما عليها فعله هو المسارعة بالانصراف قبل وصول السيّدة الكبيرة، ثمّ يمكنها أن تصوغ الاعتذار المناسب لاحقا. كانت تنزل الدّرج على عجل، حين رأت جدّتها تدخل البهو بخطوات رزينة. صعقت. لم يكن موعد عودتها المعتاد قد حان!

- ليلى، تعالي إلى هنا.

واصلت نزولها في قلق. كيف يمكنها التملّص من الجدّة الآن! أشارت إليها فريدة بالجلوس على الأريكة قبالتها، أين جمعهما اللّقاء الأوّل منذ أسبوع. سألتها في اهتمام:

- كيف تسير دروسك؟

- ممتازة، بفضلك يا جدّتي.

هزّت رأسها في استحسان، ثمّ أضافت:

- أنا أتابع تقدّمك مع وداد.. وهي راضية عن أدائك.

كان عليها أن تدرك ذلك. بإمكان الجدّة الحصول على تقرير بأدائها من المدرّسة بشكل مباشر. سؤالها هي مجرّد إجراء شكليّ!

- أريدك في شأن آخر.. ستأتين معي في مشوار غدا مساءً.. ألغي كلّ

التزاماتـك، وكـوني مسـتعدّة عـلى السّـاعة السّادسـة!

أومـأت في استسـلام. لـن ينفعهـا الاعـتراض. اسـتطردت الجـدّة فريـدة فجـأة وكأنّمـا قـد انتبهـت لأمـر مـا.

ـ هل أنت خارجة؟ لم يحن موعد درسك بعد!

يا للمأزق. ابتسمت ليلى في توتّر:

ـ سأزور صديقة لي.

ـ صديقة؟

ـ زميلتي من كليّة الصّحافة في جينيف.

ـ جميل. سيرافقك السّائق إذن.

لم تقدر أن تمانع، طالما لم تمنعها من زيارتها.

ـ خذي، هذا رقم وداد.. أعلميها بتأجيل الحصّة.

دوّنت الرّقم عندها في حرج، وهزّت رأسها مؤيّدة. ستفعل.

لـم يمنعهـا التّفكـير في مـا تعـدّه الجـدّة مـن أجلهـا مـن اسـتعادة حماسـها وهـي تركـب السـيّارة متّجهـة إلى العنـوان الـذي أملتهـا إيّـاه سـحر. وصلـت إلى شـارع شـعبيّ مزدحـم بمحـلّات البقالـة والملابـس الجاهـزة. توقّفـت السـيّارة عنـد رأس الشّـارع. طالعهـا السّـائق في المـرآة العاكسـة وقـال في حـذر:

ـ آنستي.. أنت واثقة أنّ هذا هو العنوان؟

أومـأت دون حمـاس ونزلـت. كان عليهـا أن تكمـل مشـيا. كانـت كمائـن حراسـة متمركـزة عنـد المحـاور الرّئيسـيّة، عجـلات مطاطيّـة وبراميـل مليئة بـورق ومطـاط محترقـة، مـازال يتصاعـد منهـا دخـان كريـه ذو رائحـة نفّـاذة، شـاهدا عـلى أحـداث ليلـة أمـس. مشـت وهـي تتلفّـت في قلـق. لـم يوقفهـا أحـد. لكـنّ الوجـوه لـم تـوح إليهـا بالاطمئنـان. انحرفـت إلى

زقـاق ضيّـق وأخـذت تعـدّ البيـوت حـتّى وصلـت إلى الرّقـم المطلـوب. حسـن، هـذا حـيّ مختلـف عـن الحـيّ الـذي يسـكنه خالهـا، أو حـتّى عـن جـوار شـقّة والدهـا.

استقبلتها سـحر وأمّهـا بحـرارة حقيقيّـة. كانـت تلتقـي بـأمّ سـحر للمـرّة الأولى. سـحر كانـت تقيـم مـع والدهـا -المنفـيّ، كمـا اكتشـفت حديثـا- وشـقيقها في سـويسرا للدّراسـة، في حـين ظلّـت والدتهـا وشـقيقهما الأصغـر في الوطـن. دخلـت إلى غرفـة الجلـوس وهـي تبحـث بنظراتهـا عـن شـخص ثالـث. كانـت تسـمع صـوت شـقيق سـحر الأصغـر سـنّا آتيـا مـن غرفـة داخليّـة، وهـو يلعـب لعبـة فيديـو صاخبـة، وقرقعـة أدوات المطبـخ دليـلا عـلى الوجبـة الـتي تحضّرهـا ربّـة البيـت.. مـا عـدا ذلـك، لا شيء.

ـ كيف هو والدك؟

ـ المحامي يقول إنّ القضيّة بسيطة.

ـ جيّد.. أرجو أن يفرج عنه قريبا!

ـ نعم.. أرجو ذلك.

ـ كيف سار التّعارف مع عائلتك؟

ـ زوج أختي يكرهني.. لسبب لا أعلمه.

ـ هـذا مثير!

ـ لم يكونا سعيدين.. وحنان حاولت الانتحار.

ـ يا إلهي.. المسكينة!

ـ وأمّي كانت ممقوتة من الجميع.

ـ يا للهول!

ـ وجدّتي تعتبرني أجنبيّة سائبة تحتاج إعادة تربية!

ـ رائع! كيف هي معنوياتك؟ لم تنهاري بعد؟

ضحكت ليلى في مرارة، وقالت في امتنان:

ـ شكرا لمجيئك.. أكاد أختنق بمفردي.

ـ تعالي لزيارتي كلّ يوم.. وسآتي لزيارتك أيضا.

هزّت ليلى رأسها في حماس، ثمّ سألت في حذر:

ـ بالمناسبة، هل حيّكم آمن؟

ضحكت سحر. إنّها تعرف صديقتها، ابنة الأكابر والأحياء الرّاقية. قالت مطمئنة:

ـ لا تخشي شيئا.. شباب الحيّ يُؤَمّنون المعابر ويحرسون الشّوارع طول اللّيل.

ـ وحظر التّجوّل؟

ـ إنّها حراسة للحيّ.. لا أحد يتوغّل بعيدا. تعلمين، بعض العصابات تستغلّ الانفلات الأمنيّ لسرقة المحلّات والسّطو على البيوت!

هزّت ليلى رأسها في صمت. يبدو الأمر مختلفا في حيّ خالها، وكأنّهما منطقتان منعزلتان من العالم! حتّى أنّ خالها دعا معارفه لحفلة شواء في نهاية الأسبوع! لا يبدو أنّ أحدا يعبأ لحظر التجوّل المزعوم.

مضت الأمسية سريعا، بكثير من الأحاديث المسلّية. ولم يظهر مأمون خلالها. ولم تستطع ليلى إخفاء خيبتها وهي تودّع صديقتها عند باب المنزل. أحسّت سحر بضيقها، فقالت بشيء من التردّد:

ـ لا تعتبي على مأمون.. فهو ليس في مزاج حسن.

ـ لماذا؟

ـ حين عرف أنّك تقيمين مع أبناء خالك.. انزعج كثيرا. يعتقد أنّ والدك ينوي تزويجك من أحدهم.

- لكـنّ هــذا غـير صحيـح أبـدا.. أخـوك يحمّـل المسـألة أكـثر ممّـا تحتمـل! الأكـبر مـتزوّج، والأوسـط يكرهـني، والأصغـر لا يحمـل أدنى مواصفـات الرّجـل المناسـب.

اتّسعت ابتسامة سحر وغمزتها قائلة:

- حقّا؟ سيريحه أن يسمع هـذا منك بنفسه.

- كيف حالك يا ليلى؟

التفتـت ليـلى في فـزع، لتجـد مأمـون يقـف وراءهـا. أطرقـت في خفـر وأخــذت تعبـث بخصلاتهـا المنسـدلة عـلى عنقهـا، في حركـة متوتّـرة. هـل كان يتجنّـب اللقـاء بهـا متعمّـدا؟ لقـد غـادر البيـت قبـل مجيئهـا، ولـم يرجـع إلا قبيـل الغـروب، متوقّعـا رحيلهـا. آخـر لقـاء لـه مـع أبيهـا كان قبيـل سـفرها بأسـبوعين.. ولـم يكـن موفّقـا عـلى الإطـلاق. يمكنهـا أن تتفهّـم ضيقـه وحرجـه.

- أعدك أنّني لن أستسلم.. فهل تعدينني بالانتظار؟

تضرّجت وجنتاها وهي تهزّ رأسها علامة الإيجاب وهمست:

- أعدك.

***

حـين رجعـت إلى قـصر خالهـا، كان بإمـكان أيّ كائـن أن يلمـح التغيـير الجـذريّ لمزاجهـا. سـتنتظر. وسـتأمل أن يغـيّر والدهـا رأيـه. أليسـت ثـورة؟ فلتكـن إذن!

حـال اجتيازهـا للبهـو، تناهـت إلى مسـامعها ضحـكات عاليـة قادمـة مـن الصّالـة العلويّـة. خمّنـت.. هنـاك ضيـوف. هـذا الضّحـك الأنثـويّ

الصّاخـب ليـس لمنـال بالتّأكيـد. صعـدت الـدّرج بهـدوء، ومضـت إلى غرفتهـا دون أن تلتفـت. لكـنّ صوتـا ناداهـا فجـأة، فرجعـت أدراجهـا.

ـ ليلى.. هل عدت؟

طالعـت في اسـتغراب فـراس الـذي كان يضـع قناعـا وديعـا لـم تتعـوّد عليـه.

ـ رجـاء وريـم.. بنتـا خالـتي.. أعرّفكمـا بليـلى.. شـقيقة حنـان، رحمهـا الله.

تغيّر وجه البنتين وهما تحدّقان في ليلى في ذهول.

ـ إنّها نسخة منها!

ـ يا إلهي، كأنّها هي!

رسـمت ليـلى ابتسـامة مجاملـة عـلى شـفتيها، وحيّتهمـا باقتضـاب، ثـمّ اسـتدارت مغـادرة. لكـنّ صـوت فـراس اسـتوقفها مجـدّدا:

ـ تبدين متعبة.. هل تريدين كوبا من العصير؟

ـ شكرا.. أنا بخير.

ابتعـدت مسرعـة وهـي لا تصـدّق مـا جـرى للتّـوّ. مـا الـذي حصـل لفـراس الـذي تعرفـه؟ البـارد، السّـاخر، العـدائيّ؟ أم تـراه كان يمثّـل الطّيبـة أمـام بنـتيْ خالتـه؟

حـين نزلـت إلى العشـاء، كانـت البنتـان قـد انضمتـا إلى العائلـة عـلى المائـدة. أكلـت في صمـت، ولاحظـت أنّ رجـاء كانـت نجمـة السّـهرة. لعلّهـا النسـخة الأنـثى مـن أمـين! تكلّـم الاثنـان كثـيرا، أمـين ورجـاء، وضحـكا أكـثر، وجاراهمـا فـراس أحيانـا.. حـتّى الجـدّة تغاضـت عـن الصّخـب، وتابعـت طفـرة النّشـاط الشّـبابيّ بابتسـامة متواطئـة.

صعـدت ليـلى إلى غرفتهـا بعـد العشـاء مبـاشرة. أخرجـت ألبـوم الصّـور

الـذي أهـداه لهـا أمـين منـذ أيّـام، وتصفّحتـه بسرعـة لتجـد الصّـورة الـتي كانـت تبحـث عنهـا. كانـت صـورة رجـاء في حفـل مـا، وهـي تقـف غـير بعيد عـن حنـان، وترمقهـا بنظـرة عدائيّـة. لـم تكـن رجـاء مركـز الصّـورة، بـل حنـان. لكـنّ المصـوّر التقطهـا عرَضـا. هـذا أحـد الوجـوه قـد وضعـت عليـه اسـما. عـادت إلى تصفّحهـا، تبحـث عـن وجـه رجـاء فيهـا. لـم تكـن مخطئـة. في كلّ مـرّة ظهرتـا في المشـهد نفسـه، كانـت رجـاء تبـدو عابسـة ونظراتهـا إلى حنـان غـير مريحـة.

حسـن، مـا قصّـة رجـاء هـذه؟ فكّـرت أن بإمكانهـا أن تسـأل منـال. لـم تكـن تحبّـذ فكـرة زيارتهـا في جناحهـا. سـترى إن كانـت لا تـزال في الأسـفل. سـارت باتّجـاه الـدّرج، ثـمّ توقّفـت قبـل أن تبلغـه، وأصغـت بانتبـاه لتمـيّز أصـوات المتسـامرين في البهـو. فجـأة، ظهـرت رجـاء أعـلى الـدّرج.

ـ أنت ليلى، أليس كذلك؟

هزّت ليلى رأسها في ضيق، بينما تابعت رجاء بلهجة متعجرفة:

ـ يبدو أنّك قد نجحت في اختبار القبول!

ـ ماذا؟

ـ لقـد حصلـت عـلى الاهتمـام الـكافي مـن الجميـع.. فمـا الـذي تطمعـين فيــه بالضبط؟

ـ عفوا؟

ـ اسمعي، لن أسمح بتكرار الخطأ نفسه مرّتين.. حنان واحدة تكفي!

ـ ماذا تقصدين؟ أيّ خطأ؟

ـ لقد رأيت بعينيّ كيف تحاولين استمالة فراس!

ـ أنت واهمة!

ـ وفّري كلماتك.. فقط أردت تحذيرك. سأكون لك بالمرصاد!

ثـمّ سـارت رجـاء لتواصـل طريقهـا، بينمـا وقفـت ليـلى مبهوتـة. الآن تفهـم سرّ طيبـة فـراس المفاجئـة. لقـد فعـل ذلـك أمـام رجـاء متعمّـدا، ليوقـع بينهمـا! كان يجـب أن تعـرف، فـراس لا يفعـل شـيئا جزافـا. إنّ لديـه دوافـع لـكلّ شيء! فكّـرت فجـأة، لمـاذا قبـل بـالإشراف عـلى تجديـد شـقّتها؟ أيّـة مصيبـة يعدّهـا مـن أجلهـا؟

حين رجعت إلى غرفتها، فتحت الدّفتر وأضافت السّطر التّالي:

ـ رجاء: عدائيّة، غيورة، يهمّها أمر فراس.

-٥-

حملـت زيارتهـا للمحامـي مفاجـأة غـير متوقّعـة. قـال في جدّيّـة، وقـد زال عنـه تفاؤلـه السّـابق:

ـ هنـاك وثائـق رسـميّة مقدّمـة إلى المحكمـة.. عـن اسـتفادة والـدك مـن منصبـه الدّيبلومـاسيّ السّـابق للحصـول عـلى امتيـازات لشركتـه الحاليّـة.. تسـهيلات بنكيّـة وإعفـاءات جمركيّـة وضريبيّـة غـير مسـتحقّة!

شحب لونها وارتجفت أناملها. هل كانت جدّتها على حقّ؟

ـ ما العمل إذن؟

ـ مـازال بإمكاننـا الطّعـن في مصداقيّـة الوثائـق، ويمكـن أيضـا كحـلّ نهـائيّ، أن نطلـب تسـوية ماليـة، ويدفـع والـدك غرامـة مناسـبة.. ليتجنّـب السّـجن.

لاحقا، وهي تحدّث والدها بالمستجدّات، هتف نجيب مستنكرا:

ـ نعـم، لقـد حصلـت عـلى امتيـازات بفضـل علاقـاتي الشـخصيّة، وصِـلاتي بأصحـاب المراكـز المرموقـة، مـا العيـب في ذلـك؟ هـذا مـا يفعلـه الجميـع! لمـاذا يركّـزون مـع شركـتي الصّغـيرة، وينسـون كبـار رجـال الأعمـال الذيـن نهبـوا البـلاد وبـدّدوا ثرواتهـا؟ إنّهـم يمسكون بالشّـخص الخطـأ!

امتقع وجه ليلى وقالت متلطّفة:

ـ أبي، هـذا مـا يصطلـح عـلى تسـميته فسـادا.. ولا فـرق بـين فسـاد قليـل وفسـاد كثـير.. فالقليـل مصـيره أن يصبـح كثـيرا إن تـمّ التغافـل عنـه!

سكت نجيب محرجا، ثمّ قال في خضوع:

ـ ليلى، هل نزلت في نظرك؟ هل تظنّين أنّ والدك رجل جشع؟

ربّتت على كفّه مهوّنة:

ـ إنّه مجرّد خطأ يا أبي.. لقد أخطأت، وجميعنا نخطئ، ويجب أن نصلح أخطاءنا قبل فوات الأوان.

طمأنه ردّها فقال في حماس:

ـ هل يظنّون أنّني مواطن غير صالح؟ ولا تهمّني مصلحة البلد؟ لقد نويت العودة لإصلاح وطني وبنائه من جديد! لقد رجعت بنيّة صافيّة، والأموال التي جمعتها في غربة دامت دهرا لم أرد إلّا استثمارها في الخير!

ـ نعم، أعلم ذلك يا أبي.. أعلم ذلك جيّدا.

كانت علامات الاكتئاب واضحة على ملامحها وهي تدخل البهو، قبيل العصر. كانت قد انتهت من مشاويرها المقرّرة، زيارة والدها، المحامي ثمّ درس العربيّة.. وكان الإنهاك قد أخذ منها مأخذه. جلست في الشّرفة، مدّت ساقيها واسترخت على المقعد، وغفت.

انتبهت بعد حوالي نصف ساعة. سمعت باب الشّرفة المجاورة يفتح. اعتدلت في جلستها وأنزلت ساقيها عن الحاجز المعدنيّ، ثمّ تذكّرت أنّ السّاتر الجانبيّ يسدّ مجال الرّؤية. لا يمكن لجارها أن يراها. استرخت من جديد، وأصاخت السّمع. هل تحاول التجسّس عليه الآن؟ نهرت نفسها، لكنّها استمرّت ساكنة، ترصد أدنى حركة على الجهة الأخرى. مرّت بضع دقائق، دون أن يصلها صوت يدلّ على وجود شخص ما.

بعد حين، أيقنت ألّا فائدة. تساءلت في حيرة، كيف يفعل ذلك؟ هزّت كتفيها ووقفت. ثمّ طرأ ببالها أمر ما. فكّرت في استمتاع، ستجرّب أن تمشي بلا وقع وتنسحب من الشّرفة دون أن يشعر

بوجودها. استدارت بحذر، وتقدّمت نحو بابها.. لم تبق أمامها سوى خطوتين وتصل. رفعت قدمها مرّة ثانية.. أحسنت، خطوة أخيرة. في تلك اللّحظة، تعثّرت بساق الطّاولة المنخفضة! مالت الطّاولة وانقلبت على جانبها، وسقطت علبة المناديل التي تعلوها، ثمّ تدحرجت لتصطدم بأصيص الزّهر في الركن المقابل، واستقرّ الاثنان على الأرض بعد أن أحدث الارتطام المعدنيّ جلبة لافتة. أغمضت عينيها بقوّة وكشّرت في غيظ. سمعت صوت فراس يسأل:

ـ هل كلّ شيء على ما يرام؟

لكنّها كانت محرجة لتردّ. لم تكن مستعدّة للمزيد من سخريته. قطعت الخطوة المتبقّية بقفزة سريعة وغابت داخل الغرفة. لم يعد أمر الحفاظ على الهدوء مهمّا بعد الآن.

***

نزلت السّاعة السّادسة إلى البهو، وكانت الجدّة في انتظارها كما سبق أن اتّفقتا. ابتسمت وهي تلمحها تنزل الدّرج على الموعد تماما، ثمّ وقفت لتسبقها إلى السيّارة المتوقّفة عند المدخل. قالت بعد أن استقرّ بهما المقام وانطلق السّائق:

ـ نساء هذه العائلة منحوسات.. سنحاول إنقاذ واحدة على الأقل.

ـ منحوسات؟

لم تكن تلك الكلمة قد انضمّت إلى قاموسها بعد. كانت تضيف كلّ يوم عبارات جديدة إلى معجم اللّهجة التّونسيّة الخاصّ بها، من خلال حواراتها اليوميّة مع وداد ومنال وموظّفات القصر، لكنّ معجم جدّتها يعدّ الأكثر غرابة وثراءً في آن.

ـ منحوسـات، نعـم. قليـلات الحـظّ وناقصـات بركـة! انظـري إليّ، فقدت ابنـة في سـنّ لا تتجـاوز الأربعـين بالمـرض الخبيـث، وكِنّـة في ثلاثيناتهـا، بحادثـة حصـان، وحفيـدة في العشرينـات في حـادث سـيّارة! هـل هنـاك نحـس أكـبر مـن هـذا؟ سـنذهب إلى الشّـيخ هـذا المسـاء لنرقيـك.

ثـمّ أخرجـت مـن طيّـات ثيّابهـا قطعـة قمـاش مربّعـة مخيطـة بإحـكام، وقالـت وهـي تدسّـها في كـفّ ليـلى:

ـ خذي.. هذا حرز للحماية، حصلت عليه هذا الصّباح من المعالج.

حدّقـت ليـلى في قطعـة القمـاش المخيطـة في حـذر. مـا الـذي سـتفعله بهـا هـذه التّميمـة؟ سـمعت الحاجّـة فريـدة تقـول آمـرة:

ـ علّقيهـا بخيـط إلى رقبتـك، ولا تنزعيهـا أبـدا.. ولا حـتّى وقـت الاسـتحمام!

خبّأتها في حقيبة يدها، والجدّة تكرّر على مسامعها:

ـ اليوم، حالما تصلين إلى غرفتك، افعلي ذلك. هل فهمت؟

ابتسـمت ليـلى في مزيـج مـن الإثـارة والإشـفاق. إنّ جدّتهـا تسـتميت في اقتفـاء السّـبل المتاحـة لحمايتهـا. الرّقيـة والحـرز. لـم تسـتفسر عـن معـاني تلـك الطّلاسـم الغريبـة، لكنّهـا بدت شـيئا غامضـا ومثيرا.سـتذهب إلى شـيخ يفعـل أشـياء عجيبـة. مـرّت ببالهـا أشرطـة أجنبيّـة ورد فيهـا ذكـر السّـحر المغـربيّ، ومصبـاح عـلاء الدّيـن السّـحريّ، وتخيّلـت أقبيـة مظلمـة تخفـي كنـوز عـلي بابـا القديمـة. لـم تكـن تـدري إن كان شيء مـن ذلـك الخيـال يقـترب مـن واقعهـا، لكنّهـا كانـت متحمّسـة. لـم تكـن خائفـة ولا قلقـة، فالجـدّة برفقتهـا. لكنّهـا مسـتعدّة لمغامـرة مسـائيّة جامحـة!

لقـد نشـأت وهـي تعـرف أنّهـا مسـلمة، وكانـت الثّقافـة التّونسـيّة حاضرة في محيطهـا، بحكـم مهمّـة والدهـا الدّيبلوماسـيّة. كان عليهـا تمثيـل الوجـه التّونـسيّ في المحافـل الاجتماعيّـة، ولذلـك فقـد كانـت تمتلـك مجموعـة

مـن الأزيـاء التّونسـيّة التقليديّـة، مـن الجبّـة الحريريّـة والسـترة المقلّمـة والفسـاتين ذات الأكمـام الواسـعة والشاشـية الحمـراء.. إلى الثّـوب الفاخـر ذي القطعتـين «الفوطـة والبلـوزة»، المطـرّز بالكامـل بالخيـوط الذّهبيّـة والخــرزات اللّامعــة. كان عليهــا أن تضــع تلــك الأزيــاء في المناســبات الوطنيّـة بالسّـفارة أو خـلال اللقـاءات الرّسـميّة، وتضيـف إليهـا قطعـا مـن الحـليّ الذّهــبيّ ذي الحلقـات العملاقــة، وتمثّـل فخـرا بـتراث حضـاريّ وشـعبيّ لا تفقـه منـه قيـد أنملـة!

إن كلّ وعيهــا بثقافتهــا، يمكــن اختصــاره في تلــك الثّيــاب، وفي بعــض الوجبـات التقليديّـة الـتي ينـازع والدهـا الحنـين إليهـا مـن حـين إلى آخـر، فيأخذهـا إلى مطعـم تونـسيّ بجنيـف، يقـدّم طبـق الكسـكسيّ الدّسـم وورق البريــك الملفــوف والمقــليّ، وقطــع البقــلاوة شــديدة الحــلاوة و«كعـك الورقـة» المفضّـل لديهـا! وحـتّى لا تبالـغ، فلتعـترف أنّهـا أيضـا عـلى اتّصـال بالكثيريـن مـن الجاليـة التّونسـيّة في جينيـف، مـع أنّ التّواصل معهــم غالبــا مــا يكــون بلغــة أجنبيّــة، بحكــم التعــوّد، وحفاظــا عــلى الوجاهـة بالنّسـبة إلى البعـض! ولـم تكـن تتحـدّث اللّهجـة التونسـيّة إلّا في خلواتهـا بوالدهـا، وحـتّى أثنـاء ذلـك، فإنّهـا تسـتمع أكـثر ممّـا تتكلّـم، وربّمــا تــردّ بالفرنســيّة.. لذلــك كانــت لكنتهــا مشــوّهة. ربّمــا مارســت اللّهجـة أكـثر مـن أيّ وقـت مـضى بعـد أن عرفـت سـحر ومأمـون!

توقّفـت السـيّارة بعـد أن اجتـازت زحـام وسـط البلـد عنـد زقـاق ضيّـق لا يسـمح بمـرور العربـات. قالـت فريـدة وهـي تهـمّ بالـنّزول:

- سنمشي قليلا.

أعـاد إليهـا المشـهد ذكـرى زيـارة مـنزل سـحر. لكـنّ الشّـارع هنـا بـدا أقـلّ فـوضى وإثـارة للقلـق. دخلتـا الزّقـاق، ومشـتا ببـطء. كان عليهـا أن تسـاير خطـوات جدّتهـا. عـلى بعـد مائـة مـتر، كان هنـاك بـاب خشـبيّ

مـشرع الدّفتـين، وصـوت هتـاف وضربـات دفّ يسـمع بشـكل واضـح. همسـت الجـدّة وهـي تحـثّ الخطـى:

ـ هيّا.. ستبدأ الجلسة!

دلفتـا إلى صحـن الـدّار المغلّـف أرضيّـة وجدرانـا بالسـيراميك العتيـق، أشـكال هندسـيّة منمنمـة من الزّخرفـة العربيّـة في درجـات الأزرق والأخضر. اسـتقبلتهما الانحنـاءات المقوّسـة الـتي تربـط بـين أعمـدة الـرّواق، وتتّصـل فيمـا بينهـا لتحيـط بجوانـب الـدّار الثلاثـة، ورائحـة بخـور وحشـائش تحـترق، تشـابه الرّائحـة الـتي تتضـوّع بهـا ملابـس جدّتهـا عـلى الـدّوام.

كان الصّحـن غاصّـا بالخلـق، والتيّـار ينسـاب باتّجـاه غرفـة داخليّـة بـدا أنّ العـرض قائـم بـين حيطانهـا. تبعتـا الجمـوع في صمـت، بينمـا كان الإنشـاد قـد أخـذ يعلـو بالدّاخـل. في بطـن القاعـة الواسـعة، كانـت الـزّرابيّ مبثوثـة عـلى كامـل المسـاحة الممتـدّة، ووسـائد قطنيّـة متناثـرة عليهـا. سـحبتها الجـدّة إلى غرفـة داخليّـة، حيـث النّسـاء، وجلسـت كلتاهمـا عـلى ركبتيهـا لتكونـا جـزءا مـن الصـفّ المسـتمرّ مـن الـزوّار الذيـن مـازال سـيلهم يتدفّـق.

كانـت أصـوات المنشـدين تصـل مـن القاعـة الأخـرى، الخاصّـة بالرّجال. تعلـو بطبقـات مختلفـة، وفي مواضـع متفاوتـة، كأنّمـا يـردّ بعضهـم عـلى بعـض. بعـد برهـة، كان هـرج الـزوّار قـد فـتر، واسـتقرّ الجميـع جلوسـا في صفـوف، وبـدأ النّسـق ينتظـم. ارتفعـت جوقـة المدائـح المحمّديّـة، زوّارا ومنشـدين، وأخـذ الـكلّ يهـتزّ إلى الأمـام والـوراء، أو يمنـة ويـسرة، في انسـجام مـع النّغمـة. تتحـرّك الأجسـاد شـبه مخـدّرة، وتهمهـم الشّـفاه بالكلمـات الـتي لا تفقـه ليـلى منهـا شـيئا، ثـمّ يتحـوّل النّشـيد إلى آهـات متقطّعـة. آه. آه. آه. التفتـت ليـلى لتجـد جدّتهـا، الحاجّـة الوقـورة، قـد أخـذت تترنّـح مغمضـة العينـين وتتـأوّه مثـل الآخريـن! حدّقـت غـير

مصدّقة، ثم رفعت عينيها مجدّدا مراقبة المشهد باهتمام وذهول.

بعد برهة، وقفت زائرة وتقدّمت إلى المساحة الفارغة وسط الحلقة، وأخذت تتخبّط في حركات سريعة مجنونة! ثمّ وقفت أخرى، وأخرى.. يهتززن بقوّة وتدور بعضهن حول نفسها، وتفكّ ذات الحجاب حجابها وتفرد شعرها ليحلّق في هواء الغرفة راسما قوسا حول رأسها، ثمّ ينسدل على وجهها وهي تئنّ! حملقت ليلى مبهوتة، وشدّت ذراع جدّتها في توجّس. لكنّ الجدّة لم تكن منتبهة، لقد كانت منغمسة في نشيدها، منقطعة عمّا عداه.

دارت عينا ليلى في اضطراب، متفرّسة في الحاضرات. عبر الإضاءة الخافتة، ميّزت عيونا أخرى، مفتوحة ومتيقّظة، لزائرات مستكشفات من أمثالها، تملؤها الدّهشة والإنكار. هل هؤلاء بشر أسوياء؟ أم تراها لم تتكشّف بعد على السرّ الرّبانيّ الذي فتح لهم أبوابا علويّة لا تعرفها؟ تبادلت ابتسامة متواطئة مع شابّة أخرى، كانت تتابع في لامبالاة الانجراف المتسارع للزوّار مع النّشيد المخدّر، وكتمت ضحكتها حين أشارت لها بحركة دائريّة من سبّابتها: مجانين!

على الجانب الآخر من الغرفة، كانت ستارة خضراء مزخرفة تغطّي شكلا مستطيلا مرتفعا عن الأرض حوالي متر واحد، وقد فصل بينه وبين باقي الغرفة سورٌ منخفض، يسمح بالرّؤية الواضحة، ويوقف الزّائر عن التوغّل في المساحة المحظورة.

انحنت ليلى لتهمس إلى جدّتها:

- ما ذاك، في آخر القاعة؟

فتحت فريدة عينيها على مضض، بعد أن استمرّ الشدّ في إلحاح، ونظرت إلى حيث أشارت حفيدتها برأسها، ثمّ قالت باقتضاب:

- ضريح الوليّ الصّالح.

- ضريح؟

- قبر!

شهقت ليلى بصوت مسموع، ثمّ هتفت دون أن تشعر:

- توجد جثّة في الغرفة؟!

زجرتهـا الجـدّة بعـد أن التفتـت أزواج مـن الأعـين لمصـدر الإزعـاج، ثـمّ همسـت:

ـ لا أحـد يعلـم يقينـا.. يقـال إنّ الجثمـان مدفـون في مـكان آخـر.. لكـنّ الضّريـح تجسـيد للقـبر وكنايـة عنـه.

كانـت تهـمّ بسـؤال آخـر، لكنّهـا اصطدمـت بنظـرة جدّتهـا الصّارمـة. كان عليهـا أن تلـزم الصّمـت الآن. انتظـرت حـتّى انتهـت جلسـة السّـماع في تململ. حـين فـرغ المنشـدون، دبّـت الحيـاة في القاعـة مـن جديـد. غـادرت القاعـة عـلى إثـر الجـدّة في اتّجـاه الغرفـة الأخـرى. انتظـم الـزّوار بسرعـة في صـفّ يـؤدّي إلى مجلـس شـيخ وقـور معمّـم، يتربّـع عـلى دكّـة مرتفعـة في صـدر الـدّار. انقـادت ليـلى لـذراع جدّتهـا وهـي تشـدّها لتشـغلا مكانـا مـع المترقّبـين. كانـت تسـتمع إلى الـزّوّار واحـدا إثـر الآخـر، يهمسـون بحاجتهـم للشّـيخ، فيهـزّ رأسـه في صمـت أو يتمتـم بكلمـات مـا، قبـل أن يضـع كفّـه عـلى رأس السّـائل يباركـه، لينـصرف راضيـا.

حين جاء دور جدّتها، رأتها تنحني في تضرّع وتهمس راجية:

- يـا شـيخي، هـلّا رقيـت حفيـدتي المتبقّيـة ليبتعـد عـن طريقهـا النّحس والبلاء!

وضـع الشّـيخ كفّـه عـلى رأس ليـلى، وأخـذ يتمتـم بعبـارات كثـيرة تتدافـع عـلى لسـانه بشـكل غـير مفهـوم، وهـو مغمـض العينـين، وجذعـه يميـل إلى الأمـام والـوراء في نسـق سريـع. استسـلمت ليـلى لثقـل الكـفّ المتغضّنـة عـلى رأسـها، وتسـاءلت، هـل تلـك هـي الرّقيـة؟ حـين فـرغ

الشّـيخ مـن تلاوتـه، سـمعته يقـول بوقـار:

- محفوظة، محفوظة بإذن الله.. وببركة سيدي عبدالقادر!

عندئـذ انحنـت الجـدّة فقبّلـت كفّـه ولكـزت ليـلى لتقـوم بالمثـل. لكنّهـا تسـمّرت مكانهـا في بـلادة، حـتّى أشـار الشّـيخ بالانـصراف.

خـارج الـدّار، لفحهمـا نسـيم المسـاء البـارد. كانـت السّـاعة تشـير إلى الثّامنـة! كانـت تتغيّـب عـن موعـد العشـاء للمـرّة الأولى منـذ حلولهـا ضيفة عـلى عائلـة القاسـمي. لكـنّ الجـدّة بصحبتهـا، وهـذا يغـيّر كلّ شيء!

بينمـا تسـيران باتّجـاه السـيّارة الرّابضـة آخـر الزّقـاق، تجـاسرت ليـلى عـلى السّـؤال:

- ما بال تلك النّساء يتخبّطن بجنون ويبكين بهستيريا؟

قالت الجدّة بلهجة جادّة:

- هؤلاء، لقد وصلن!

- وصلن! إلى أين؟

- لقـد حقّقـن مـا يصبـو إليـه كلّ مريـد في الطّريقـة الصّوفيّـة، وفُتحـت لهـنّ طاقـة مـن طاقـات السّـماء، ليقتربـن أكـثر مـن درجـات الوجـد العليا!

التبـس الأمـر عـلى ليـلى. لـم يكـن شيء ممّـا تقولـه الجـدّة يقابـل معـنى مفهومـا لديهـا. فتحـت لهـنّ طاقـة؟ درجـات الوجـد؟ لـوت شـفتيها في امتعـاض وسـارت في صمـت، بينمـا تابعـت الجـدّة في حمـاس:

- لقد ارتقين واهتدين.. ادعي الله أن نصل يوما إلى ما وصلن إليه!

اتّسـعت عينـا ليـلى في اسـتنكار. أمّـا هـذا فـلا! لـم يكـن يغريهـا عـلى الإطـلاق أن تعيـش تلـك التّجربـة!

حالمـا عبرتـا إلى البهـو، لمحـت ليـلى أمـين ينزل الـدّرج بقفـزات سريعة. إنّـه يخـرج ليسـهر كلّ يـوم في مثـل هـذه السّـاعة. حدجتـه الجـدّة بنظـرة

استياء، ثـمّ تجاهلـت أمـره وسـارت مبـاشرة إلى غرفتهـا. اسـتوقفتها ليـلى:

ـ ألا ترغبين في تناول العشاء؟

ابتسمت فريدة وقالت بلهجة خاصّة:

ـ لقد اكتفيت، منذ قليل!

رفعت ليلى حاجبيها مستغربة. اكتفت ممّ بالضّبط؟

بعد أن اختفت الجدّة في الممرّ، اقترب أمين ضاحكا.

ـ طالمـا أنّ السّـيّدة الكبـيرة قـد تناولـت كفايتهـا مـن الغـذاء الرّوحـانيّ، فـلا شـكّ أنّهـا قـد أخذتـك إلى الحـضرة!

ـ الحضرة؟

ـ حضرة الأسياد، في مقام الوليّ الصّالح، عبدالقادر الجيلاني!

ثمّ أخذ يهزّ رأسه يمنة ويسرة، كما كان يفعل الزوّار في الجلسة!

ـ أنت تعرف ذلك المكان؟ هل أخذتك إلى هناك أيضا؟

ـ أنـا؟ إطلاقـا! هـل أدخـل وكـر المجانـين ذاك؟ مازلـت بكامـل قـواي العقليّـة!

أربكتهـا نظـرة الاسـتنكار الشّـديد في عيـني أمـين. حسـنا، لقـد خطـر ببالهـا الـشّيء نفسـه. إنّهـم لا شـكّ مجانـين! لكـن الجـدّة؟ هـل يمكنهـا أن تصمهـا بالصّفـة نفسـها؟ ورقيتهـا؟ وتميمتهـا الـتي اجتهـدت لتحصّنهـا بهـا، مـا هـي صانعـة بهـا؟

- لاشـكّ أنّ الحاجّـة فريـدة كانـت تريـد شـيئا مـن الشّـيخ.. قـولي، مـا كان طلبهـا؟

- الرّقية!

ثـمّ فتحـت كفّهـا في حـرج لتكشـف عـن التّميمـة، حصيلـة أمسـيتها المثـيرة.

ـ إن لم أضعها في عنقي، ستغضب الجدّة!

ارتفع ضحك أمين مرّة أخرى، ثمّ قال في لهجة ساخرة:

ـ أنـت في مـأزق! إن لـم تضعيهـا، فسـتغضبين دعـاة الإسـلام التّونـسيّ الوسـطيّ المعتـدل والمنفتـح!

ـ من هؤلاء؟

ـ أقصد الحاجّة فريدة وجماعتها!

ثمّ تنحنح وأخذ يقول مقلّدا صوت الجدّة:

ـ يـا بنيّـتي، إن كان الإسـلام جسـدا.. فالطّريقـة الصوفيّـة هـي جوهـره وروحـه!

ـ آها.. وماذا عنك؟ في أيّ صفّ أنت؟

ـ دعك مني.. أنا لست داعية لأيّ شيء. لكم دينكم ولي ديني!

زمّت شفتيها، وهي تطالع التّميمة من جديد. هذا لا يحلّ مشكلتها.

ـ فراس، انظر.. ليلى حصلت على تميمة!

التفتـت في صدمـة بعـد كلمـات أمـين لتجـد فـراس أمامهـا. مـتى وصـل؟ هـل حاسّـة السّـمع لديهـا معطّلـة، أم أنّ خطواتـه هادئـة إلى درجـة لا تصـدّق؟ بـدا مسـتعدّا للخـروج هـو الآخـر، وهـو يرتـدي سروال جيـنز وسـترة جلديّـة. خمّنـت، لا يبـدو موعـده رسـميّا. يلتقـي بعـض الأصدقـاء؟ أم لعلّهـا صديقـة؟ طالعهـا بنفـس النّظـرة السّـاخرة، فسـارعت تخفـي حرزهـا في حقيبـة يدهـا وتزجـر أفكارهـا، وهـي تسـترجع حادثـة تعثّرهـا في الشّرفـة ذلـك العـصر. شـعرت بالـدّم يتصاعـد إلى وجههـا، فهمسـت لنفسـها مهوّنـة. اهـدئي، لـم يـرك!

ترقّبـت ملاحظتـه اللّاذعـة، لكنّـه اكتفـى بإرباكهـا بنظراتـه الصّامتـة، ثـم قـال:

ـ عن إذنكما، سأتأخّر على موعدي!

ألقى أمين نظرة على ساعته، ثمّ هتف هو الآخر:

ـ أعتــذر أيضــا.. عــليّ الذّهــاب! ســنتحدّث في الغــد عــن التميمــة والحــضرة!

ثمّ توارى على إثر أخيه.

صعـدت ليـلى درجـات السّـلّم عـلى مهـل. دخلـت غرفتهـا ووضعـت التّميمـة عـلى المنضـدة. تأمّلـت طويـلا قطعـة القمـاش الأبيـض المغلقـة بإحـكام عـلى ورق سـميك مطـويّ بعنايـة. مـاذا لـو كانـت مسـؤولة بشـكل مـا عــن أنــواع الجنــون الــتي رأتهــا في جلســة اليــوم؟ عــبرت جســدها قشعريرة باردة، ثمّ قرّرت. لن تضعها!

-٦-

عاشـت حياتها كلّهـا ممزّقـة بـين هويّتـين: هويّـة تألفهـا ولا يُعـترف لهـا بهـا، وهويّـة لا تـدرك منهـا إلّا القشـور، لكنّهـا لصيقـة بهـا ولا فـكاك منهـا. أينمـا حلّـت، كانـت تعامـل عـلى أنّهـا ابنـة سـفير البـلاد التّونسـيّة. وقـد كان عليهـا أن تمثّـل الـدّور وتتماهـى معـه، رغـم أنّهـا لا تحمـل شـيئا مـن الانتمـاء إلى تلـك البـلاد الـتي تجهـل كلاهمـا الأخـرى!

إنّهـا تجـد نفسـها في جينيـف، تشـعر بوجـوه الشّـبه بينهـا وبـين البلـد الـذي احتضنهـا منـذ نعومـة أظفارهـا، حـتّى أنّهـا تحمـل خريطـة شـوارعه ومقاهيـه وسـاحاته وحدائقـه، عـلى كـفّ يدهـا. إنّهـا ليسـت سـائحة هنـاك، بـل صاحبـة المـكان. لكنّهـا تعامـل كزائـرة!

لقـد كان مـن الغريـب أن تعيـش ربـع قـرن عـلى أرض مـا، ولا تـدرك معـنى الوطـن! رغـم الألفـة والتعـوّد والرّاحـة الـتي عرفتهـا في سـويسرا، فـإنّ إحساسـا لاواعيـا لازمهـا بأنّهـا تجلـس عـلى كـرسيّ قابـل للقـذف، وأنّـه سـيُرمى بهـا خـارج الحـدود في أيّـة لحظـة! أوَليـس مـآل السّـفير العـودة إلى موطنـه؟!

لذلـك، بنـت في خيالهـا قصـورا مـن التوقّعـات والتطلّعـات، بخصـوص الوطـن الـذي تنتمـي إليـه.

لكـن هـذه ليسـت الحيـاة الـتي تخيّلتهـا حـين وصلـت إلى تونـس منـذ أسـبوعين. لـم تكـن الرّحلـة السّـياحيّة الـتي توقعتهـا، ولا كانـت العـودة إلى الجـذور تحمـل النّكهـة الـتي استبقتها. لكنّهـا لا تنكـر أنّ دخـول الجـدّة إلى حياتهـا أضفـى عليهـا نوعـا مـن الحيويّـة غـير المعهـودة، وقـد كان في جرابهـا المزيـد مـن المفاجـآت، مـن أجـل الحفيـدة الأثـيرة الـتي عـثرت

عليها أخيرا!

كلّما سألتها الحاجة فريدة عن التّميمة، كانت ليلى تتحسّس بأصابعها قطعة قماش وهميّة تحت ثيابها وتقول مطمئنة:

ـ إنّها معي!

وقد انطلت الحيلة على الحاجة فريدة لوقت طويل، حتّى اقترحت عليها يوما أن تأخذها إلى الحمّام التقليديّ!

ـ أنت لم تزوري حمّاما من قبل، أليس كذلك؟

حمّام؟ استحضرت ليلى صورا من شريط تونسيّ سبق أن حضرته مترجما، «الحلفاوين: عصفور السّطح»، حيث يدخل ولد يافع حمّام النّساء ليراقبهنّ وهنّ يغتسلن، شبه عرايا! كانت الفكرة مقزّزة، الاغتسال الجماعيّ بلا خجل أو خصوصيّة! تلك واحدة من العادات التي تثير استغرابها، في مجتمع يُعرف بالمحافظة! ناهيك أنّها ستكشف للجدّة تخلّصها من التّميمة منذ زمن، فلم يكن من الوارد أن تُبقي عليها في غرفتها!

قالت في حذر:

ـ لا أشعر أنّني مستعدّة لذلك الآن!

ـ كما تشائين.

تنفّست الصّعداء. لم تلحّ الجدّة هذه المرّة. هذه حريّة شخصيّة في نهاية الأمر.

ـ إذن ترافقينني إلى الجمعيّة غدا صباحا؟

ـ الجمعيّة؟

ـ ألا يراودك فضول لمعرفة أين تقضي جدّتك سحابة يومها؟

تلك الابتسامة المغرية والواعدة جعلتها توافق على الفور. نعم،

لقـد سـاورها الفضـول بشـأن نشـاط جدّتهـا. وسـتعرف الآن سرّ الحاجّـة فريـدة الأهـمّ!

عنـد السّـاعة الثّامنـة مـن صبـاح الغـد، انطلقـت برفقـة الجـدّة إلى مقـرّ الجمعيّة.

كانـت حواراتهـا مـع الجـدّة قـد غـدت أقـلّ حـدّة وأكـثر اسـترخاءً. بعـد صدامـات اللقـاءات الأولى، لـم تعـد تجـد حرجـا في الاعتـذار أمـام طلباتهـا، ولا تلـزم الصّمـت في حضورهـا، انتظـارا للأوامـر والنّواهـي. أصبحـت تجـد في نفسـها الشّـجاعة لتسـأل وتناقـش، بأسـلوب سـلس وبـلا اسـتفزاز، وقـد كان نجـاح التّجربـة مغريـا بالتّكـرار. كان انقيادهـا الأوّل والتزامهـا بـدروس القاعـدة النّورانيّـة يشـفعان لهـا عنـد الجـدّة. أوليسـت الحفيـدة الأولى الـتي تضـع اعتبـارا لرغباتهـا؟

سألتها الجدّة وهما على الطّريق:

ـ سأرجع اليوم إلى زاوية سيدي عبدالقادر.. هل تودّين مرافقتي؟

ابتسمت ليلى واعتذرت بلباقة مرّة أخرى:

ـ لا أظنّ أنّني مستعدّة لذلك الآن.. لست أفهم جلّ ما يقال!

ردّت الحاجة فريدة في حماس:

ـ لسـت بحاجـة إلى فهـم كلّ شيء.. عيـشي الحالـة الرّوحيّـة وحسـب! لـو كان الإسـلام جسـدا، فـإنّ الطّريقـة الصّوفيـة هـي روح هـذا الجسـد!

كان مـن العسـير عليهـا ألّا تضحـك، وهـي تسـتحضر الجملـة نفسـها عـلى لسـان أمـين. لكنّهـا كتمـت أنفاسـها وهـزّت رأسـها مؤمّنـة. أنقذهـا توقّـف السـيّارة عنـد الوجهـة.

كان مبـنى مكوّنـا مـن طابـق واحـد في ضاحيـة شـعبيّة خاملـة، لا يـشي شـكله الخارجـيّ بنـوع النّشـاط في الدّاخـل. مـا إن تجـاوزت البوّابـة، حـتّى

فوجئت بخليّة النّمل المنهمكة في حركة دؤوبة بين الغرف، تملأ صناديق الملابس، تجرد مخزون المواد الغذائيّة أو تصنّف أنواع الدّواء!

سارت ليلى في ذهول تتبع الحاجّة فريدة، ليتكرّر مشهد المدرسة القرآنيّة بحذافيره. كان الموظّفون رجالا ونساء يتوقّفون لتحيّة الحاجة، ويسألون عن مرافقتها، الحفيدة الأجنبيّة، التي جاءت لتتعلّم أسس العمل الإنسانيّ هذه المرّة!

دخلتا معا مكتب الإدارة. كانت غرفة بسيطة، بدون تزويق مفرط، بما يتناسب مع طبيعة العمل الخيريّ الذي تديره المؤسّسة. كان هناك مكتبان، تجلس خلف أحدهما موظّفة شابّة، ومكتب آخر شاغر، أشارت الجدّة إلى ليلى لتشغله! انصاعت ليلى بعد تردّد قصير، وهي تفكّر فيما تخفيه الحاجّة فريدة من أجلها هذه المرّة.

- ستأتين إلى هنا كلّ يوم، لمدّة ساعتين فقط.. تراجعين دفاتر التبرّعات وتدقّقين في الحسابات. سميرة هنا سترشدك إلى كلّ ما تحتاجينه.

أومأت الموظّفة بابتسامة، بينما ضربت السيّدة الكبيرة كفيّها ببعضهما وهي تقف مغادرة، وقالت في لهجة حاسمة:

- هيّا باشري العمل!

ثمّ زفرت وهي تتمتم:

- لقد وهنت عظامي، وآن لأحد أن يستلم عنّي المشعل.

في ذلك اليوم، عادت الحاجّة فريدة إلى القصر مبكّرة. حظيت بحصّة تدليك، وخضّبت خصلاتها البيضاء بالحنّاء، ثمّ أخذت قيلولة طويلة حتّى العصر.. فيما خلّفت ليلى تحدّق في كومة الدّفاتر على مكتبها ذاهلة.

ـ من أين أبدأ؟

اقتربت سميرة وأخذت تشرح:

ـ هـذه قائمـة التبرّعـات العينيّـة الدّوريّـة الـتي تصلنـا مـن المصانـع والـشركات.. وهـذه قائمـة بالتبرّعـات الماليّـة الـتي تصـل في شـكل تحويلات دوريّـة أيضـا.. سـيكون مـن السّـهل الـشّروع في تدقيـق هـذه الملفّـات، ومقارنتهـا بالملـفّ الرّقمـيّ عـلى الجهـاز.. بعـد ذلـك، نـأتي إلى التبرّعـات المتفرّقـة وغـير المنتظمـة. سـيكون تدقيقهـا أصعـب.

فتحـت ليـلى الملـفّ الأوّل وشرعـت في العمـل. لكـنّ عقلهـا كان منشـغلا بأمـر آخـر. المدرسـة القرآنيّـة ثـمّ الجمعيّـة الخيريّـة، لا يمكنهـا إلّا أن تتوقّـف أمـام نشـاط جدّتهـا في عجـب وفضـول. حسـنا، ليـس العمـل الخـيريّ بالـشّيء الغريـب عليهـا. لقـد كانـت ترافـق والدهـا في السّـابق، في زيـارات ميدانيّـة، لمناطـق منكوبـة، ولحضـور حفـلات جمـع التبرّعـات الفاخـرة. السّياسـيّون والفنّانـون ورجـال الأعمـال وكلّ أنـواع الشـخصيّات العامّـة، لـكلّ منهـم نشـاطه الخـيريّ المعـروف، تتحـدّث عنـه المجـلّات والفقـرات الإخباريّـة، ويرافقهـم الصّحفيّـون والمصـوّرون المحترفـون لتوثيـق المواقـف الإنسـانيّة. لكنّهـا لا تـرى أيّ فـرق تصويـر هنـا! كان عليهـا أن تسـأل.

شرحـت سـميرة: الجمعيّـة قائمـة منـذ ثمـاني سـنوات الآن. لقـد كانـت أمنيـة غاليـة عـلى قلـب الحاجّـة فريـدة، بعـد زيـارة بيـت الله الحـرام، أن تُنـشئ وقفـا لله تعـالى، رحمـة عـلى روح ابنتهـا الفقيـدة. والجمعيّـة في أوج نشـاطها منـذ الثّـورة. في العـادة، يتّقـد النّسـق في فـترات معيّنـة مـن السّـنة: شـهر رمضـان، العـودة المدرسـيّة، عيـد الأضحـى. لكـنّ بعـد الثّـورة، صـار مسـتعرا عـلى الـدّوام. المسـتفيد الأوّل مـن التبرّعـات في الشـهر الأخـير، مخيّـم الشّوشـة، في الجنـوب التّونـسي، قـرب معـبر رأس

الجدير الحـدوديّ. اللّاجئـون يتدفّقـون مـن الأراضي اللّيبيّـة باسـتمرار، والحاجـة في ارتفـاع متسـارع. التبرّعـات الـتي تصـل لا تكفـي لسـدّ رمـق العائـلات المـشرّدة.

عـلى مكتـب سـميرة، كانـت هنـاك ملفـات أخـرى. قائمـة الـشّركات والجهـات الـتي يجـب عـلى الجمعيّـة التّواصـل معهـا والتماس مسـاهمتها. طـوال السّـاعتين التّاليتـين اللّتـين قضتهمـا ليـلى في المكتـب، اسـتمعت إلى محادثـات سـميرة الهاتفيّـة الـتي لا تنتهـي. تحـثّ مخاطبيهـا عـلى التـبرّع، وتتلقّـى منهـم الوعـود لتسـجّلها في دفترهـا.

ـ ماذا عن المدرسة القرآنيّة؟

قاطعتها بين اتّصالين، لتستفسر مرّة أخرى.

المدرسـة، تلـك مسـألة مختلفـة. عمرهـا لا يزيـد عـلى السّـنتين، فقد كان كلّ نشـاط مرتبـط بالدّيـن محظـورا في عهـد الرّئيـس المخلـوع، والمبـادرات القليلـة الـتي نشـأت في ظـلّ حكـم الدّيكتاتـور كانـت محتشـمة ومراقبـة عـن كثـب. لكـنّ الحاجّـة فريـدة أقدمـت في ذلـك الوقـت عـلى افتتـاح الـدّار، رغـم المضايقـات الأمنيّـة لصاحبـة المدرسـة وطلبتهـا. تعلّـم القـرآن وتعليمـه ظـلّ متوقّفـا لعقـود، بعـد إغـلاق الجامعـة الزّيتونيّـة. وقـد ازدهـر السّـوق بعـد الثّـورة، وانتـشرت الجمعيّـات القرآنيّـة في الأحيـاء الشّـعبيّة والرّاقيـة عـلى حـدّ سّـواء! لكـنّ الحاجّـة شـديدة الفخـر بمدرسـتها الـتي سـبقت مثيلاتهـا.

تعلّـم القـرآن محظـور؟ لقـد كان الأمـر غريبـا بالنّسـبة إلى ليـلى. ربّمـا تحتـاج درسـا في التّاريـخ الحديـث. لكـنّ الأمـر لـم يخطـر لهـا عـلى بـال قبـلا. والدهـا يحتفـظ في مكتبتـه منـذ سـنوات بمصحـف فاخـر مذهّـب محفـوظ في علبـة مخمليّـة. كان قـد تلقّـاه هديّـة مـن رجـل أعمـال خليجيّ. لـم تكـن قـد رأتـه يقـرأ فيـه مـن قبـل. تسـاءلت في حـيرة، هـل لذلـك

علاقـة بالحظـر الـذي تتحـدّث عنـه سـميرة؟

حـين وصـل سـائق الجـدّة ليأخذهـا لزيـارة والدهـا، لـم تكـن قـد أنهـت غـير جـزء بسـيط مـن الدّفاتـر. زفـرت وهـي تفكّـر في أنّ عليهـا العـودة، وربّمـا يحتـاج منهـا العمـل تخصيـص وقـت إضـافيّ، إن كانـت تريـد اسـتكمال مهمّتهـا في أجـل قريـب.

في طريقهـا نحـو المخـرج، حيّـت المتطوّعـين الذيـن لـم تفـتر حركتهـم بـين الغـرف. لـم يكـن معظمهـم يتلقّـى أجـرا، وهـم في غالـب الأمـر يتبرّعـون بسـاعات العمـل، كمـا يتـبرّع غيرهـم بالعطايـا النّقديّـة أو العينيّـة. سـتفعل الـشّيء نفسـه إذن! لـم تكـن فكـرة العمـل الإنسـانيّ تضايقهـا. طالمـا كانـت تتمتّـع بالصحّـة والفـراغ، فـلا بـأس من المسـاهمة.

حدّثـت والدهـا في حمـاس بشـأن أعمالهـا الجديـدة. كانـت الجـدّة راضيـة عنهـا، وإن اسـتمرّت بهـذا الشّـكل فقـد تصبـح ذات حظـوة لديهـا! ومـن يـدري مـا يمكنهـا فعلـه إن صـارت صاحبّـة دالّـة عليهـا. ضحكـت مـع تلـك الفكـرة، واسـترقت نظـرة إلى سـحنة والدهـا الشّـاحبة. كانـت تحـاول إضفـاء بعـض المـرح. لـم تكـن الأخبـار سـارّة في الفـترة الأخـيرة. المزيـد مـن التّعقيـدات، وقـد بـدا أنّ تـلافي حكـم بالسّـجن قـد غـدا في حكـم المسـتحيلات!

ابتسم نجيب وأخذ يقول:

ـ جدّتك سيّدة طيّبة.. لكنّها لم تكن محظوظة بأبنائها.

تعـالى ضحـك ليـلى مـن جديـد، وهـي تـروي عـلى مسـامعه قصّـة النّحـس الـذي ترغـب جدّتهـا في طـرده، والتّميمـة الـتي انتهـى بهـا الأمـر في كيـس النّفايـات. خرجـت مـن الزّيـارة راضيـة، بعـد أن نجحـت في انـتزاع الضّحكـة منـه. لقـد خبـت جـذوة حماسـته يومـا بعـد يـوم، حـتّى كادت تنطفـئ. لكنّـه مـازال يكابـر. لقـد آمـن بالثّـورة، وعليـه أن يدفـع نصيبـه

مـن الضّريبـة المفروضـة عـلى الجميـع، ويحافـظ عـلى الابتسـامة. أليسـت الثّـورة تسـتحقّ التّضحيـة؟

***

فاجأهـا اتّصـال سـحر ذلـك المسـاء. كيـف تكـون قـد نسـيت اتّفاقهمـا بالتّسـوّق سـويّة؟ كانـت قـد انغمسـت في أشـغالها الجديـدة، ونسـيت أن تتصّـل بهـا! كان الكثـير قـد حصـل منـذ لقائهمـا. لقـد تعهّـدت الجـدّة بمـلء الفـراغ الـذي خالـت نفسـها سـتعاني مـن وطأتـه. حـين اتّصلـت سـحر، ضربـت لهـا موعـدا في الغـد. سـتجد الوقـت الـكافي بـين دوامهـا في الجمعيّـة ودرس العربيّـة لتلتقـي سـحر.. تتجـوّلان معـا في الأسـواق ثـمّ تتنـاولان وجبـة خفيفـة، قبـل أن تعـود إلى مهامّهـا.

كان التّسـوّق مـع سـحر أمـرا مفيـدا. فهـي تعـرف مداخـل المدينـة العتيقـة ومخارجهـا، والمحـلّات الـتي تقـدّم منتجـات جيّـدة النوعيّـة بأسـعار مناسـبة، وتلـك القابعـة في أزقّـة مخفيّـة لا يعرفهـا إلّا الزّبائـن المتمرّسـون! كانـت الفرجـة مسـليّة وملهيـة.. مفروشـات وسـجّاد وأقمشـة، وتحـف زينـة ومصابيـح ومزهريّـات ولوحـات حائطيّـة! كانتـا تتفرّجـان معظـم الوقـت، وتشـتريان أحيانـا، حـين تقتنـع ليـلى بـأنّ الفرصـة لا تعـوّض. في الحقيقـة، لـم تكـن تحـبّ الفضـاءات المزدحمـة. ولـم تكـن تحتـاج إلّا القليـل لتأثيـث شـقّتها. ذوقهـا ينسـاق نحـو البسـاطة والدّيكـورات الحديثـة، مكتفيـة بحـدّ أدنى مـن التّزويـق.

كانتـا تغـادران محـلًا للسّـتائر، حـين تناهـى إليهمـا هتـاف صاخـب وغـير مفهـوم. التفتتـا، إلى حيـث كانـت عيـون المـارّة تنجـذب. كانـت مسـيرة احتجاجيّـة تمـرّ في الشّـارع المتعامـد. راقبـت ليـلى الحشـد الـذي أخـذ

يتدفّـق مـن الجانـب الأيمـن للشّـارع ويبتلعـه الجانـب الأيـسر.. وبـدا ألّا حـدّ ولا نهايـة لجمـوع المتظاهريـن. سـألت في اسـتغراب:

ـ ألم تنجح الثّورة ويرحل الرّئيس؟ لماذا يتظاهرون الآن؟

قالت سحر في جدّيّة:

ـ الثّـورة نجحـت.. لكـن لا ينبغـي للشـعب أن يغفـل لحظـة واحـدة، فتـسرق منـه ثورتـه! الشّـارع يقـف بالمرصـاد للحكومـة الجديـدة.. إن لـم تسـتجب للمطالـب الشّـعبيّة، وجـب تغييرهـا!

ـ كم مضى على تعيين الحكومة الجديدة؟

ـ أسبوعان.

قالت ليلى متهكّمة:

ـ وهـل أسـبوعان كافيـان لتقييـم أداء الحكومـة والتّظاهـر ضدّهـا؟ في الدّيمقراطيّـات الأوروبيّـة، هنـاك فـترة مائـة يـوم عـلى الأقـلّ تمنـح للحكومـة المشـكّلة حـتّى تثبـت جدارتهـا.. هـذا شـعب مسـتعجل!

ضايقت ملاحظتها سحر، فقالت مدافعة:

ـ التّظاهـر ليـس احتجاجـا عـلى إنجـازات الحكومـة، بـل عـلى كيفيّـة تشـكيلها! رئيـس الحكومـة وزيـر سـابق مـن العهـد البائـد.. وهـذا لا يسـتجيب للمطالـب الثّوريّـة. الثّـورة تعـني تجديـد الدّمـاء السّياسـيّة، وتمكـين مـن يتحدّثـون باسـم الشّـعب مـن الوصـول إلى سـدّة الحكـم!

مطّت ليلى شفتيها في عدم اقتناع:

ـ إنّ شـئت رأيي، إنّهـم يحسـبون التّظاهـر لعبـة! مثـل طفـل رضيـع يريـد أن تسـتجاب رغباتـه عـلى الفـور، فيـصرخ ويـضرب بقبضتـه حـتّى تتحقّـق أمانيـه! الدّيمقراطيّـة يـا عزيـزتي طبخـة تُعـدّ عـلى نـار هادئـة، وتحتـاج تضحيـات مـن جميـع الطّبقـات.. لكـن هـل تعتقديـن أن أحـد

هــؤلاء مســتعدّ للتّضحيــة؟ انظــري للافتــات! التّشــغيل، المســاواة، تقسيم الـثّروات.. إنّهـم يحسـبون الثـورة كعكـة، وكلّ يريـد نصيبـه منهـا!

انفعلت سحر فقالت في استياء:

ـ تتحدّثـين عـن الثّـورة وكأنّـك تعرفـين شـيئا! أعلـم ألّا فـارق بالنّسـبة إليـك، ولأمثالـك مـن الأثريـاء.. كنتـم بخـير في ظـلّ النّظـام السّـابق، ومطالـب الشّـعب المطحـون لا تعنيكـم! لكـن الآن؟ والـدك يحاسـب بتهمـة فسـاد.. وهـذا سـبب كافٍ لنقمتـك عـلى الثّـورة!

امتقـع وجـه ليـلى، وسـارت بحركـة حـادّة مبتعـدة عـن المتجـر، وقـد لمعـت عيناهـا بالعـبرة. عضّـت سـحر عـلى شـفتها في غيـظ مـن نفسـها. لقـد تسرّعـت. لحقـت بهـا عـلى الفـور محاولـة الاعتـذار عـن كلماتهـا اللّاذعـة. تعلـم أنّ ليـلى لا تقصـد، لكـنّ إهانتهـا للثـوّار جعلـت دماءهـا تفـور. كلّ منهمـا تنتمـي إلى فئـة مختلفـة: المتـضرّرون مـن النّظـام السّابق، والمتنعّمـون في كنفـه! لكنّهـا صديقتهـا الصّدوقـة، ولـم تتخيّـل أن تختلفـا يومـا في وجهـات النّظـر إلى هـذا الحـدّ. أمسـكت بذراعهـا تسـتوقفها وقالـت في أسـف:

ـ أعتـذر، لـم أقصـد أن أجرحـك.. عمّـي نجيـب سـيخرج بالسّـلامة قريبـا. ويبقـى كلّ هـذا حديثـا منسـيّا.

تمالكـت ليـلى نفسـها. نعـم، لقـد انفعلـت كلّ منهمـا وانحـدر الحديـث إلى مسـالك وعـرة. تعلـم أنّ عائلـة سـحر عانت الكثير في المـاضي. لم يكن عليهـا اتّهـام المتظاهريـن بالجشـع، في النّهايـة، هـم يطالبـون بحقوقهـم المغتصبـة. لكنّهـم مسـتعجلون.. فقـط مسـتعجلون. مسـحت عبرتهـا، وربّتـت عـلى ذراع صديقتهـا.

ظهـرت فجـأة مجموعـة مـن الشّـباب مندفعـين مـن الزّقـاق الجانـبيّ، وانخرطـوا في المسيرة. مـرّوا بسرعـة فائقـة، مرتطمـين بالبنتـين ودفعوهمـا

بـلا انتبـاه. تراجعـت ليـلى حـتّى التصقـت بالجـدار، وشـعرت بألـم في كتفهـا بفعـل الاصطـدام. لكنّهـا حدّقـت في ريبـة، وقـد ظنّـت أنّهـا مـيّزت أحدهـم. تابعـت المجموعـة، وهـي تـذوب في التيّـار الرّئيـسي، ثـمّ مـا لبثـت أن رأت أحدهـم يلتفـت، لتلتقـي نظراتهمـا لثـوانٍ، قبـل أن يغيـب وسـط الزّحـام. حدّقـت ليـلى في ذهـول، طويـلا بعـد أن اختفـى الشّـاب مـن أمـام ناظريهـا. لـم تصـدّق مـا رأت. أمـين؟ مـا الـذي يفعلـه في المظاهـرة؟

ـ أنت بخير؟

هزّت رأسها في عدم تركيز، وبقيت نظراتها ساهمة.

ـ هل رأيت أحدا تعرفينه؟

ـ لست واثقة!

***

كانـت السـيّارة تتحـرّك بسرعـة، تسـمع أزيـز العجـلات عـلى الأسـفلت المبتـلّ، ومحـاولات السّـائق إيقافهـا، دون جـدوى. كان هنـاك صراخ مـن حولهـا، أشـخاص يطلبـون النّجـدة. حدّقـت في الفتـاة الـتي تجلـس أمامها، عـلى المقعـد جـوار السّـائق.. كأنّهـا تطالـع نفسـها في المـرآة. فتـاة في مثـل سنّها، وتشـبهها حـدّ التّطابـق. توأمهـا. إنّهـا تـصرخ وتسـتنجد مثـل الآخريـن.. لكـن، لـم لا تبديـن مرتبكـة مثلهـم؟ تـرى نفسـها تضحـك، تضحـك بشـكل صاخـب، وتصفّـق بكفّيهـا مسـتمتعة. تسـمع صوتهـا الآن، صوتـا يخـرج مـن حنجرتهـا عميقـا ومخيفـا:

ـ سنموت جميعا، سنموت جميعا!

فتحت عينيها وهي تلهث في فزع. لقد كان كابوسا!

وضعت كفّها على صدرها وأخذت تتنفّس بعمق، محاولة السّيطرة على اضطرابها. لم يكن سوى كابوس. لكنّه يبدو حقيقيّا. ومخيفا. هل كانت حنان تجلس أمامها، في السيّارة نفسها؟

كان الوقت فجرا. أخذت نفسا عميقا وهي تغادر سريرها وخرجت تتمشّى في الحديقة. هل كانت تضحك في حلمها؟ تشعر بالاضطراب كلّما مرّت بخاطرها قهقهتها المجنونة في الحلم.

- ليلى؟

التفتت، لتجد أمين العائد من سهرته المتواصلة حتّى ساعات الصّباح الأولى يقف أمامها. لم تعد واثقة الآن بعد مصادفة الأمس فيمَ يمضي سهراته بالضّبط! كانت سترته معلّقة على كتفه، وشعره المصفّف بعناية عادة مشعثا، وفي عينيه نظرة ناعسة. أمين الثّائر! فكّرت، وما دواعي ثورته؟ التّشغيل؟ المساواة؟ ليست هذه قضايا تعنيه!

- جيّد أن أراك في الصّباح.. تعلمين، لقاءاتنا مسائيّة عادة!

أطلق ضحكة قصيرة، بينما بدا على ليلى الضّيق. قالت باقتضاب:

- أصابني بعض الأرق، فخرجت أتمشّى.

هزّ رأسه متفهّما، ووقف مكانه في بلادة. لم يبد أنّه يفكّر في الانصراف قريبا. كان السّكون شديدا في القصر، في تلك السّاعة من الفجر، وكانت الشّمس قريبة من الشّروق، ولون السّماء الحالك قد بدأ يتّخذ زرقة باهتة.

- معذرة، سأعود إلى غرفتي.

كانت تحاول إيجاد مخرج، حين فرد أمين ذراعه ليسدّ الطّريق،

وقـال بلهجـة متشـكّكة:

ـ بالنّسبة إلى حادثة الأمس.. أنت لم تخبري أحدا، أليس كذلك؟

ـ طبعا. ما تفعله ليس من شأني.

ـ بالتّأكيد.

لكنّه استمرّ يسدّ طريقها. قال في إلحاح:

ـ وصديقتك، لن تخبر أحدا؟

ـ سحر؟ إنّها لا تعرفك حتّى!

قاومت فضولها، لكنّ السّؤال أفلت منها فجأة:

ـ هل يمكنني أن أسأل.. ما الذي تتظاهر من أجله بالضّبط؟

رمقها في دهشة، ثمّ قال بلهجة جادّة:

ـ الحريّة، الكرامة، العدالة الاجتماعيّة!

أفلتـت منهـا ضحكـة رغمـا عنهـا. لـم تجـد العبـارات الرنّانـة تلـك تليـق بأمـين. أمـين، الفـتى الجـذّاب، أمـير الجامعـة، زعيـم الشّـلّة، مدلّـل العائلـة، عديـم المسـؤوليّة؟

بدا الانزعاج في عينيه، فقالت:

ـ مـا الـذي ينقصـك منهـا بالضّبـط؟ الحريّـة؟ أنـت حـرّ أكـثر مـن أيّ شخص في هـذه البـلاد! الكرامـة؟ هـل تعـني لـك شيئا غير إثبـات نفسـك في سـهرات الشّـباب، والحصـول عـلى أجمـل البنـات لترافقـك؟ العدالـة الاجتماعيـة؟ عفـوا، هـذا مصطلـح صعـب.. لا أظنّـه دخـل قاموسـك إلّا حديثـا. هـل تـدري مـا معنـاه؟ أن تأخـذ مـن رصيـدك في البنـك، وتـوزّع عـلى المحتاجـين، ليتسـاوى الجميـع في الـثروة.. هـل يناسـبك هـذا؟

ضايقته لهجتها المتهكّمة، فقال في انفعال:

ـ صـدّقي أو لا تصـدّقي.. هـذه المبـادئ تمثّـلني! لسـت أعيـش في كوكـب

منعــزل وحــدي. هنــاك شــعب كامــل يعيــش عــلى هــذه الأرض، ومــا يعنيهــم يعنيــني.. حــتّى لــو لــم تكــن قوانــين الثــورة تصــبّ في نفعــي الشخصيّ، فسأدافع عنهـا! تدريـن لمـاذا؟ لأنّـني لا أدفـن نفسي مثلـك في مكعّـب ورديّ، وأغمـض عيـنيّ عمّـا يجـري مـن حـولي! أنـا أنتمـي إلى هـذا الشّـعب! أنـا ابـن هـذا الوطـن! وأكـثر مـن هـذا، أنـا أعـرف جيّـدا أنّ هـذه الـثّروة وهـذا الجـاه الـذي نحـن فيـه الآن لـن يـدوم طويـلا! سـتفرض العدالــة الاجتماعيّــة قواعدهــا، وسيحاســب المحتكــرون والمتطاولــون والمسـتولون عـلى حقـوق غيرهـم.. عندهـا سـيكون لنـا حديـث آخـر.

تسـمّرت مكانهـا في صدمـة. هـل كان أمـين مـن يتحـدّث؟ لمـاذا يبـدو لهـا أنضـج ممّـا اعتقـدت بمراحـل؟ حـتّى أنّهـا خجلـت مـن نفسـها. لقـد كانـت تضـع نفسـها في موقـع المتفـرّج. هـذا ليـس وطنهـا. هـذه ليسـت ثورتهـا. إنّهـا ضيفـة وحسـب. تساءلت في تلـك اللّحظـة، هـل تكـون سـحر عـلى حـقّ؟ إنّ موقفهـا مـن الثّـورة مرتبـط ارتباطـا وثيقـا بقضيّـة والدهـا. إنّهـا تتعامـل مـع المسـألة بشـكل شـخصيّ بحـت. أمـين أيضـا عـلى حـقّ، إنّهـا تدفـن نفسـها في مكعّبهـا الـورديّ، لا تـرى أبـدا الصّـورة الكاملـة! قالـت في ارتبـاك:

- عن إذنك الآن.

في تلـك اللّحظـة، شـعرت بحضـور غريـب. بأنّهـا مراقبـة. بـأنّ شـخصا ثالثــا كان يتابــع المشــهد. ســارت بخطــوات سريعــة لتتجــاوز أمــين، وابتعـدت في اتّجـاه المدخـل. قبـل أن تنعطـف إلى الجانـب الآخـر مـن المبــنى، رفعــت عينيهــا إلى شرفــات الطّابــق الأوّل. مــن زاويتهــا تلــك، لمحــت ظــلا في شرفــة فــراس المظلمــة.

-٧-

في الأيّام التّالية، حصلت سلسلة من المواقف الغريبة مع ليلى.

في كلّ مـرّة صادفـت فيهـا مدبّـرة المـنزل جليلـة، كانـت هـذه تنحـني أمامهـا باحـترام مبالـغ فيـه وتقـول شـيئا مـا، مـن قبيـل:

- لقد تمّ تنظيف الأرضيّة مرّة أخرى.

- زجاج النّافذة لامع الآن.

- تمّ غسل السّتائر. سأعيدها مكانها حين تجفّ.

ولـم تكـن ليـلى تفهـم شـيئا، فهـي لـم تتعـوّد في الأيّـام السّـابقة أن تقـدّم لهـا جليلـة أو غيرهـا مـن العامـلات تقريـرا بمهامّهـا. فكانت تبتسـم وتشـكرها. لكنّهـا كانـت تلحـظ في اسـتغراب أنّ ملامـح مدبّـرة المـنزل كانـت تتحـوّل وتتبـدّل، وتـزداد كآبـة ومـرارة في كلّ مـرّة.

ثـمّ بـدأ الـشيء نفسـه يحصـل مـع العـمّ هاشـم الطبّـاخ. ذات مسـاء، كان هنـاك سـمك مقـليّ عـلى العشـاء. لكنّـه بعـد أن وضـع الأطبـاق للجميـع، اقـترب مـن ليـلى ووضـع أمامهـا سـمكة مشـويّة في الفـرن! كانـت مبـادرة غريبـة، لكنّهـا شـكرته ولـم تعلّـق. ثـمّ تكـرّر الأمـر في الوجبـات اللاّحقـة. مـرّة يضـع أمامهـا طعامـا قليـل الملـح، وأخـرى خاليـا مـن الكوليسـترول، ومـرّات أخـرى وجبـة ذات سـعرات حراريّـة مخفّضـة أو خاليـة مـن الغلوتـين.. والأغـرب هـو أنّ المواصفـات تكـون معكوسـة أحيانـا، كأنّمـا هـي ترغـب في الـشيء وضـدّه. حتّى سـألها أمـين مـرّة مداعبا:

- ليلى، هل تتّبعين حمية معيّنة؟

فعجـزت عـن الـرّدّ. قـرّرت ذلـك المسـاء أن تـزور المطبـخ في الصّبـاح

التّالي لتستفسر عن سرّ الوصفات الخاصّة التي تحضّر من أجلها. لكنّ حادثة أخرى سبقت، وشغلتها تماما عمّا عزمت عليه. حين رجعت إلى غرفتها تلك الليلة، فوجئت بكتابة بالطّلاء الأحمر على جدار غرفتها:

«عاهرة.. ارحلي!».

صرخت في فزع، فهرع الجميع إليها.

تلك الليلة، استدعى خالها كلّ العاملين في القصر وجعلهم يقفون صفّا واحدا مطأطئي الرّؤوس، في البهو. ألقى عليهم نظرة صارمة وقال مهدّدا:

- لو لم يكن لدينا حفل شواء في الغد، وسبق أن أرسلنا الدّعوات، لكنت سرّحتكم جميعا الليلة! أمامكم مهلة إلى مساء الغد. إن لم يظهر الفاعل ويعترف، فإنّكم جميعا مطرودون!

لم يتسلّل النّوم إلى جفني ليلى بسهولة تلك الليلة. لبثت تفكّر فيمن يكون قد فعل ذلك بها. بالطّبع، كان لديها المشتبه به رقم واحد: فراس. لكنّها لم تصدّق أنّ بإمكانه الإقدام على الفعلة بنفسه. ثمّ أخذت تحاول الرّبط بين تصرّفات الطبّاخ ومدبّرة المنزل والشتيمة التي باتت إلى جوارها على الجدار، رغم محاولات الخدم مسحها، كما أمر خالها. لبثت تحدّق في الكتابة الباهتة وشعور عميق ينمو داخلها بأنّ هناك حراكا داخليّا في القصر ضدّها.

ثمّ تذكّرت مرّة دخولها إلى المطبخ، وكان مساعد الطبّاخ محمّد يحدّث الآخرين في حماس عن نشاط لجان محاربة الفساد، وعدد رجال الأعمال الفاسدين المتزايد الذين يتمّ القبض عليهم كلّ يوم. وما إن انتبهوا لحضورها، حتّى انقطع الحديث وانصرف كلّ منهم إلى عمله في وجوم. تصاعد الشكّ إلى رأسها، هل يكون للأمر علاقة بقضيّة والدها؟

فتحــت عينيهــا مبكّــرا في الصّبــاح التّــالي، بعــد أن نامــت ســويعات قليلـة بعـد الفجـر. أخـذت الإذن مـن خالهـا لتغيـير ورق جـدران الغرفـة بنفسـها. قـال معتـذرا:

ـ كنـت لآمـر الخـدم بالعمـل عـلى ذلـك فـورا، لـولا أنّنـا مشـغولون بالتّحضـير لحفـل الشّـواء! إذا شـئت تـرك المهمّـة إلى الغـد فسـيتولى أحدهـم الأمـر.

ـ لا بأس، يمكنني القيام بذلك بنفسي!

كان بقاء الشّتيمة أمام ناظريها ليوم آخر شيئا لا يحتمل.

خرجـت مـع سـحر للتسـوّق كالعـادة. اختـارت الألـوان المناسـبة لـورق الجـدران في درجـات الرمـادي مـع لمسـاتورديّـة أو أرجوانيّـة. أرادت لهـا طابعـا ناضجـا ومحايـدا. انضمّـت إليهمـا منـال والصغـيرة رانيـا بعـد أن أصرّت عـلى تغيـير الـورق بنفسـها. أمضـت الفتيـات سـاعات الظّهـيرة تنزعـن الـورق القديـم عـن الجـدران.

فتحـت ليـلى صـوان الملابـس، وأخـذت في تفريـغ محتوياتـه، فقـد كان مغلفـا بالـورق مـن الدّاخـل هـو الآخـر. أخـذت في نـزع الـورق دون تركـيز. فجـأة انتبهـت حـين لامسـت أصابعهـا نتـوءا في الجـدار الجانـبي الـذي لا يصـل إليـه الضّـوء. تحسّسـت الجـدار باهتمـام. بـدا أن شـيئا مـا وضـع بـين الجـدار الخشـبي للصـوان وورق التغليـف.. شيء صلـب، في حجـم كـرّاس صغـير. مزقـت مـا بقـي مـن الـورق بسرعـة وفضـول كبـير يدفعهـا. أخرجــت الجســم أخــيرا وتأملتــه بــين يديهــا في دهشــة. كان بالفعــل كرّاســا صغــيرا، أو مفكّــرة شــخصيّة، ذات لــون أســود. نفضــت عنهــا الغبـار وجلسـت عـلى الفـراش تقلّبهـا بـين كفّيهـا. كانـت مغلّفـة بشريـط لاصـق بإحـكام. كأنّ صاحبهـا يمنـع الفضوليّـين مـن اختـلاس نظـرة إلى صفحاتهـا. انتبهـت إليهـا منـال فاقتربـت منهـا في فضـول وجلسـت إلى

جانبها متسـائلة:

ـ ما هذا؟

ـ مفكّرة. لمن هي يا ترى؟

ـ افتحيها لنرى.

تـردّدت ليـلى. هـل مـن حقّها أن تقتحـم خصوصيّات صاحـب المفكّرة؟ إن كان أحدهـم قـد أخفاهـا بعناية في ذلـك الرّكـن القـصيّ، فـلا شـكّ أنّ لـه أسـبابه! فكّـت جــزءًا مــن الشّريــط اللاصــق في حــرص. ســتحاول أن تعـرف لمـن تكـون. إن كانـت مفكّـرة حنـان، فهـي مـن نصيبهـا! ظهـر جـزء مـن الصّفحـة الأولى، فسـحبت الغـلاف أكـثر.. لتقـرأ الاسـم الـذي ظهـر بحـبر باهـت: فـراس!

مـاذا تفعـل مفكّـرة فـراس في غرفـة حنـان؟ هـل يكـون أخفاهـا بعيـدا عـن العيـون، لسـبب مـا؟ أم تراهـا حنـان هـي الـتي أخفتهـا عنـه؟ كانـت تحــاول التّفكــير بسرعــة، بينمــا راقبتهــا عيــون منــال وســحر في انتبــاه. بسـبب وجـود منـال، لـم يكـن مـن الحكمـة أن تفـضي بشـكوكها. قالـت وهــي تضـع المفكّـرة جانبـا.

ـ يبدو أنّها لزوج حنان. سنعيدها إلى صاحبها.

رمتها في الدّرج العلويّ للمنضدة وأدارت المفتاح في القفل.

في المسـاء، كانـت الفـوضى تعـمّ الغرفـة، لكنهـا ارتـدت حلّـة رائقـة وعصريّـة. تخلّصـت مـن ورق الجـدران القديـم ، لكنّهـا لـم تنتـه بعـد مـن وضـع ورق التغليـف الجديـد. تنهـدت في إعيـاء. هـل كان عليهـا الإصغـاء إلى خالهـا حـين اقـترح عليهـا أن يقـوم الخـدم بتغيـير الـورق في الغـد؟ منـال تخلّـت عنهـا لتهتـمّ برانيـا الـتي ملّـت الجلـوس وتقطيـع الـورق، وبقيــت ســحر برفقتهــا تتــمّ جمــع الــورق الممــزّق، بعــد أن أقنعتهــا بالبقـاء مـن أجـل حفلـة الشّـواء.

ـ حسن، سأنهي العمل في الغد. أمّا الآن فعلينا الاستعداد لحفلة الليلة!

أخذت حماما سريعا، ثم جلست أمام المرآة تتأمل وجهها. وللحظة، تخيّلت حنان تجلس مكانها، تطالعها بنفس العينين الخضراوين، تبتسم شبه ابتسامة. تنهّدت وهي تفكر.. ما الذي يدفع فتاة في العشرين من عمرها إلى محاولة الانتحار؟ لقد باءت كلّ محاولاتها حتّى اللّحظة للحصول على اعترافات حنان المكتوبة على موقع الجامعة بالفشل. والكلّ في القصر يتجنّب إثارة الماضي أمامها. تحوّلت نظراتها دون وعي منها إلى الدّرج المغلق في المنضدة. ربّما كانت تلك المفكّرة سبيلها الوحيدة لمعرفة الحقيقة!

كانت سحر تأخذ حمّاما بدورها، وهي بمفردها في الغرفة. حرّكها الفضول، فتناولت المفتاح من حقيبتها وأخرجت المفكّرة. قلّبتها بين يديها من جديد. فكّرت، إن هي سلّمتها لفراس اليوم، فقد تضيع منها فرصة لا تعوّض. تشعر أنّ كلّ شيء مكتوب هنا، بين يديها. ماذا لو ألقت نظرة؟ لو أنّها مزّقت الغلاف وقرأت، ربّما تعرف كلّ شيء وينجلي الغموض. أخذت نفسا عميقا وأخذت تسحب الشّريط اللّاصق في حذر.

فجأة تعالت طرقات قويّة على باب غرفتها. قفزت في مكانها وسقط الكراس من يدها. أفزعتها الطرقات وتسارعت نبضاتها. انحنت لتلتقط المفكّرة، وهتفت بصوت مختلج:

ـ من هناك؟

جاءها صوت أمين من وراء الباب:

ـ ليلى.. هل أنت جاهزة؟ لقد بدأ الضيوف في التوافد.

ـ حسنا.. لن أتأخر!

- سأنتظرك في الأسفل.

ابتعدت خطوات أمين، فأخذت ليلى نفسا عميقا. نظرت إلى المفكّرة من جديد، ثمّ سمعت صوت باب الحمّام يفتح وخرجت سحر بعد أن أنهت استعدادها. فسارعت بإخفائها في حقيبتها. قرّرت رغم اضطرابها، ستسلمها اليوم إلى فراس، إذا لقيته في الحفلة.

نزلت ليلى السلّم برفقة سحر، فألفت أمين يترقّبها. قدّم لها ذراعه لتتأبّطها.

- الجميع في الحديقة، ينتظرون الشواء.. تعالي، سأقدّمك إليهم.

تجاهلت ذراعه وسارت نحو الحديقة. لا يزال صدى نقاشهما الحادّ بالأمس عند الفجر طازجا في رأسها. كيف يمكنه التّظاهر بأنّ شيئا لم يكن؟ فكّرت، إنّه بارع في التّظاهر ولا شكّ! لم يكن بإمكانها أن تتخيّل أمين ثائرا، لو لم تشأ الصّدفة أن تراه بأمّ عينيها!

كان الضيوف قد تجمعوا في الحديقة الخلفيّة، حيث نصبت الموائد بمختلف أنواع المقبلات وفاحت رائحة الشّواء الذي يعدّه العمّ هاشم. كان الحاضرون قد تفرّقوا في حلقات صغيرة يتجاذبون أطراف الحديث. رأت خالها يقف مع مجموعة من السّادة المتأنقين بالبدلات الرّسميّة وربطات العنق، يبدو أنهم من رجال الأعمال وذوي المراكز المرموقة. استعادت مشاهد من السّهرات الخاصّة بالسّفارة التي كانت تحضرها صحبة والدها، فابتسمت للذكرى.

لمحت جدّتها تقف وسط جمع من سيّدات المجتمع، وما إن وقعت نظرات السيّدة الكبيرة عليها حتّى أشارت إليها لتقترب. لقد كان حضورها اليوم الحدث الأهمّ. همست الجدّة وهي تشدّ على ذراعها في ودّ:

- هذا الحدث من أجلك. كان يجب أن يقدّمك نجيب بشكل رسميّ..

لكـن مـاذا نفعـل؟ عـسى أن تنتهـي أزمتـه قريبا.

وقفـت في استسـلام إلى جـوار الحاجّـة فريـدة، تسـتمع إليهـا تعرّفهـا بالوجـوه الـتي تتالـت أمامهـا، بابتسـامات متملّقـة وعيـون متّسـعة مشـدوهة. كانـت تتابـع كلامهـا بهـزات مـن رأسـها بـين الفينـة والأخـرى، وتـردّ الابتسـامات بمثيلاتهـا، وتتلقـى ردود الفعـل المتكـرّرة، التحديـق والتّدقيـق مـن أولئـك الذيـن عرفـوا حنـان، والتذكـير بالشّـبه الشـديد بـين الأختـين.. ثـمّ الحـسرة عـلى الرّاحلـة في ريعـان شـبابها. فتهـزّ ليـلى رأسـها مصدّقـة وتشـكرهم عـلى مشـاعرهم الكريمـة.

كانـت قـد صافحـت معظـم السـيّدات بالحفلـة، وقدّمـت نفسـها لهـنّ جميعـا، وتلقّـت تعازيهـنّ المتأخّـرة وثناءهـنّ عـلى جمالهـا، حـتّى أصابهـا الملـل. وقعـت نظراتهـا عـلى سـحر تقـف بعيـدا في ركـن منعـزل، مثـل غريـب لا يعـرف أحـدا مـن الحاضريـن، فشـعرت بالذّنـب. لقـد استبْقتها مـن أجـل الحفلـة ثـمّ أهملتهـا. اعتـذرت مـن جدّتهـا وسـارت نحوهـا عـلى الفـور. سـحبتها باتّجـاه ركـن الشّـواء وقالـت:

ـ لقد تعبت.. تعالي نأكل شيئا.

أخـذت طبقـا واختـارت بعـض القطـع مـن أجـل سـحر. وبينمـا كانـت تمـلأ طبقهـا، تدخّـل الطبّـاخ المسـاعد وقـال فجـأة:

ـ آنسة ليلى.. لقد احتفظت بمشويّاتك جانبا. هذا طبقك الخاصّ.

التفتـت إليـه في غيـظ. كانـت قـد نسـيت الأمـر بعـد حادثـة الأمـس. كان يجـب أن تتحـدّث إلى العـمّ هاشـم بخصـوص ذلـك. قالـت بـشيء مـن الحـدّة:

ـ معذرة، لماذا هناك طبق شواء خاصّ بي؟

ـ ماذا؟

ـ لماذا في كلّ وجبة، هناك شيء ما لي مختلف عن الآخرين؟

ـ هذه التّعليمات!

ـ تعليمات من؟

ـ التّعليمات التي وصلتنا في المطبخ؟

ـ ممّن؟

ـ أليست.. منك أنت آنستي؟

بـدا الشّـابّ مرتبـكا، فأشـفقت عليـه ليـلى. دفعـت الطبـق الـذي كان بيمنـاه وهـي تقـول:

ـ مـن فضلـك، أعـد الشّـواء «الخـاصّ»، فأنـا لا أريـده.. وخـذ هـذه التّعليمـات مـنّي مبـاشرة: ليسـت هنـاك أيّـة تعليمـات مـن أيّ نـوع بخصـوص وجبـاتي! أنـا آكل مثـل الجميـع. بلّـغ العـمّ هاشـم رجـاء. هـل فهمـت؟

هـزّ رأسـه ولمّـا يفـارق ملامحـه الضّيـق. تنهّـدت ليـلى وهـي تبتعـد رفقـة سـحر، وأخذتـا تـأكلان في صمـت. اقـترب منهـا شـابّ غريـب وبادرها في اهتمـام:

ـ آنسة ليلى؟

بـدا لهـا القـادم الجديـد مألوفـا. هـزّت رأسـها علامـة الإيجـاب وهـي تحـاول تذكّـر أيـن رأت وجهـه.

ـ وددت أن أبـدي أسـفي لمـا حصـل مـع حنـان.. ولـو متأخّـرا. لقـد كبرنـا كلّنـا ونضجنـا الآن، وندمنـا عـلى مـا كنّـا نفعلـه كمراهقـين أشـقياء.. لكـنّ حنـان ليسـت معنـا للأسـف، لتشـاركنا النّـدم، وتضحـك عـلى أيّـام المـاضي.

تذكّـرت. لقـد كان عـلى صفحـة حنـان في موقـع التّواصـل. أحـد أصدقـاء شـغبها الدّائمـين. يبـدو مختلفـا الآن. لـم تمـيّزه بدايـة بسـبب اللّحيـة

الخفيفـة والشّـارب. لـم يعـد فـتى نزقـا يصفّـف شـعره إلى الأعـلى ويصبـغ خصلاتـه باللّـون الأشـقر!

- أنـا ممتنـة لكلماتـك.. لكـن هـل يمكنـك أن تحدّثـني عـن حنـان أكـثر.. مـا الـذي قصدتـه بالنّـدم عـلى مـا كنتـم تفعلونـه؟

بدا عليه التردّد:

- أنت.. لا تعرفين؟

- عرفـت مؤخـرا مـن زميـلات حنـان أنّهـا قـد حاولـت الانتحـار.. لكنّـني لا أعـرف التفاصيـل. تعلـم، في العائلـة يتجنّبـون ذكـر المـاضي!

هزّ رأسه في تفهّم، ثمّ قال:

- لسـت فخـورا بهـذا أيضـا.. إنّهـا صفحـة وطويتهـا. لقـد كنّـا شـلّة واحـدة في الجامعـة.. حنـان وأنـا وآخـرون.. نخـرج سـويّا، نسـهر، نرقـص، ولكنّنـا لا نـؤذي أحـدا. ثـمّ حصـل أن دعانـا أحدهـم إلى تجربـة شيء جديـد.. ولـم نكـن نـدرك العواقـب.

- ماذا جرّبتم؟

- مخدّرات! وفي ظرف وجيز كنّا قد أدمنّا جميعا.

- يا إلهي!

- مـرّت علينـا سـنة عصيبـة. لـم يكـن الإقـلاع أمـرا سـهلا.. البعـض تحطّمـت حياتـه بالكامـل، تـرك الدّراسـة وغـاب عنّـا تمامـا.. والبعـض الآخـر نجـح في العـلاج في وقـت مبكّـر. عائلـتي اهتمّـت بأمـري، فدخلـت مركـزا لعـلاج الإدمـان هنـا في العاصمـة، ثـمّ انقطعـت عـن الجامعـة لبقيّة السـنّة الدّراسـيّة. لفـترة طويلـة كان عـليّ أن أتجنّـب ارتيـاد نفـس الأماكـن القديمـة الـتي جمعتـني برفـاق الإدمـان.. فلـم أعلـم شـيئا في حينـه. بعـد وقـت طويـل، عرفـت أنّ عائلـة حنـان اكتشـفت أمرهـا متأخّـرة.. ولذلـك

جعلوهـا تسـافر للعـلاج في سـويسرا. لكنّهـا لـم تسـتجب.. وتوفّيـت بعـد ذلـك بجرعـة زائـدة.

سـيطر عـلى ليـلى الذهـول لدقائـق طويلـة بعـد انـصراف الشـابّ. هـذا هـو الأمـر إذن. هـذا مـا يحـاول الجميـع إخفـاءه عنهـا. إهمـال شـديد لمراهقـة متمـرّدة، إدمانهـا ووفاتهـا بجرعـة زائـدة! شـعرت بالـدّوار فجـأة. سـاعدتها سـحر عـلى الجلـوس في ركـن قـصيّ، ولـم تنطـق إحداهمـا لدقائـق إضافيّـة أخـرى. تكلّمـت ليـلى أخـيرا وهـي لا تـزال تحـت تأثـير الفاجعـة:

ـ هل سمعتِ ما سمعت؟

هـزّت سـحر رأسـها في صمـت. لـم يكـن هنـاك مـن كلام يقـال. بعـد أن تجـاوزت ليـلى صدمتهـا، أحسّـت بالـدّم يتصاعـد إلى رأسـها. لقـد خمّنـت ذلـك مسـبقا، خمّنـت أنّ هنـاك خلـلا جليّـا في نظـام حيـاة هـذه العائلـة! لا رقابـة ولا احتـواء. هـل كان غريبـا أن تنتهـي حنـان بشـكل مأسـاوي؟ لكـنّ فكـرة أخـرى قفـزت إلى ذهنهـا، فهتفـت في ذهـول:

ـ حنان كانت في سويسرا! لقد كانت قريبة منّي.. لكنّني لم ألتقها!

بعـد أن تفوّهـت بتلـك الكلمـات مبـاشرة، انتابهـا شـكّ غريـب. أحقّـا لـم تلتقيـا مطلقـا؟ كانـت مشـوّشـة. جـزء منهـا كان يشـعر أنّ اللّقـاء قـد حصـل. لكنّهـا لـم تسـتطع أن تجـزم. اسـتحضرت فجـأة صـورة مـن حلمهـا، حنـان تحـدّق فيهـا مـن المقعـد الأمامـيّ للسـيّارة وهـي تـصرخ بجنـون. اضطربـت أنفاسـها. مـا معـنى تلـك الهـلاوس بالضّبـط؟ منـذ الحادثـة الـتي تعرّضـت إليهـا مـن أربـع سـنوات خلـت، كثـيرا مـا واجهـت صعوبـة في اسـتحضار ذكرياتهـا بدقّـة، ولـم تكـن الكوابيـس أمـرا حديثـا. لقـد عانـت مـن الكثـير منهـا، منـذ إصابـة رأسـها. لكـنّ ذلـك المشـهد، كان الأكـثر إثـارة لفزعهـا.. والأشـدّ وضوحـا في ذهنهـا.

ارتفع رنين هاتف سحر ليقاطع أفكارها. نظرت إلى ليلى في اعتذار وقالت:

- لقد انتهى وقت سندريلا. وعليها مغادرة الحفلة!

- مازال الوقت مبكّرا! إنّها السّابعة وحسب!

- مأمون ينتظرني عند البوّابة.

- آه!

سارت ترافقها حتّى البوّابة، وهي تفكّر بأنّها ستراه الآن، مرّة أخرى. حاولت أن تمسح علامات الكآبة التي كست ملامحها. لا يمكن أن تستقبله بمزاجها الجنائزيّ ذاك. توقّفت فجأة وقالت لسحر:

- إذا دعوت أخاك إلى الحفلة، هل تراه يقبل؟

- لا تحاولي. أعرف أخي جيّدا.. خجول بطبعه، ولا يحبّ التطفّل.

- إذن أحضر له طبقا على الأقل!

ضحكت سحر في شفقة على صديقتها:

- لا تتعبي نفسك.. أعرف أنّه لن يقبل.

عبست ليلى في ضيق. لم يكن من اللّائق أن يصل إلى منزل عائلتها ولا تضيّفه شيئا ما. أيّ شيء.

- كوب عصير إذن؟

- افعلي ما بدا لك!

- انتظريني إذن.

هرولت إلى المائدة، وملأت طبقا من المقبّلات والمشاوي، وأخذت كوب عصير ولحقت بسحر. وقفت قبل المنعطف تلتقط أنفاسها وتحاول الابتسام، فلمحت طاولة ومقاعد في الحديقة على بعد أمتار قليلة من البوّابة. سارت إلى هناك أوّلا، ووضعت ما بيدها، ثمّ

مشـت باتّجـاه البوّابـة.

ـ دكتــور مأمــون.. تفضّــل مــن هنــا أرجــوك. لا يجــوز أن تقــف عنــد البــاب!

بـدا مأمـون محرجـا مـن الدّعـوة ومتضايقـا مـن وجـوده في قـصر أقاربهـا الأثريـاء. لـو أنّهـا تريـد أن تريـه الفـرق الشّاسـع بـين عالميهمـا، فقـد نجحـت في ذلـك! لكنّـه يـدرك أنّ ليـلى سـليمة الطويّـة، ولا تقصـد شـيئا ممّـا يشـعر بـه. غـير أنّـه لا يملـك إلا أن يلاحـظ مـا يـراه كلّ ذي عينـين.

ـ شكرا لك.. لكنّنا على عجلة!

ـ خمس دقائق فقط.. لن أأخركم كثيرا.

خجـل مـن إلحاحهـا، لكنّـه نظـر إلى ثيابـه البسـيطة وفكّـر أنّ الجميـع بالدّاخـل يرتـدون بـدلات رسـميّة. لـو أنّـه عـرف بشـكل مسـبق، لارتـدى الثّيـاب الملائمـة للمناسـبة. كان يهـمّ بالرّفـض مـرّة أخـرى، حـين ظهـر فـراس خلفهـا:

ـ ليلى، لماذا يقف ضيوفك بالباب؟

جفلـت ولـم تـدر بمـا تـردّ. كلّمـا تظاهـر بالوداعـة، عرفـت أنّ مصيبـة مـا بانتظارهـا.

ـ هـذه صديقـتي سـحر وشـقيقها الدكتـور مأمـون.. وهمـا مـصرّان عـلى الرّحيـل.

ـ مبكّـرا هكـذا؟ لا.. لا يمكـن. شـاركانا بعـض المـرح عـلى الأقـل! دكتـور مأمـون.. تفضّـل مـن هنـا أرجـوك.

تـردّد مأمـون للحظـة، ثـمّ ابتسـم في حـرج وتبـع فـراس إلى الدّاخـل، بينمـا تمنّـت ليـلى لـو أنّـه رحـل قبـل أن يلمحـه فـراس! تبعتهمـا وسـحر في ضيـق، ثـمّ هتفـت وهـي تشـير إلى الطاولـة الجانبيّـة البعيـدة عـن زحـام

الضّيـوف:

- يمكننا الجلوس هنا.. لقد أحضرت بعض الأكل.

كانـت تخـشى أن يحـرج فـراس مأمـون أمـام بقيّـة الحاضريـن. ولـم تـرد أن يفوتهـا شيء ممّـا يقولانـه لتتدخّـل في الوقـت المناسـب. ليتهـا تعـرف مـا يفكّـر بـه فـراس لحظتهـا. جلـس أربعتهـم حـول المائـدة، وكان فـراس يديـر المحادثـة:

- لم أكن أعلم أنّ لليلى أصدقاء هنا!

- سـحر زميلـتي في الكليّـة في سـويسرا.. وقـد جـاءت في إجـازة لزيـارة عائلتهـا.

- دكتور مأمون، أليس كذلك؟ دكتور في ماذا؟

- طبّ أطفال.

- درست في سويسرا أيضا؟

- نعم.

كانـت ليـلى تتصـدّى للـردّ عـلى أسـئلته بسرعـة، وهـي تتأفّـف في سرّهـا. هـل مـن المفـترض بـه أن يعلـم بـكلّ شيء يخصّهـا؟ لكـنّ فـراس كان قـد انتبـه إلى محاولتهـا صـدّ هجوماتـه قبـل حدوثهـا، فالتفـت إليهـا وقـال كمـن تذكّـر شـيئا عاجـلا:

- ليـلى، لقـد تركـت عـلى المكتـب في غرفـتي التّصاميـم الخاصّـة بشـقّتك. هـلّا ألقيـت عليهـا نظـرة؟

- الآن؟

- نعـم، رجـاء. إن كانـت هنـاك تعديـلات فيجـب أن أدخلهـا في أقـرب وقـت، حـتّى تبـدأ الأشـغال الأسـبوع المقبـل.. إن كنـت لا تريديـن تأخيرهـا.

إنّـه يحـاول صرفهـا بـأيّ شـكل. كان بإمكانهـا أن تعانـد، لكنّهـا فكّـرت في العواقـب الممكنـة. لا يمكنهـا أن تضمـن ردود فعلـه. وقفـت، وقالـت لسـحر:

ـ هلّا رافقتني إلى الدّاخل؟

تركـت الرّجلـين بمفردهمـا عـلى مضـض، ودعـت ألّا يقـدم فـراس عـلى أيّ تـصرّف أخـرق يوقعهـا في مـأزق مسـتقبليّ. كانتـا تتقدّمـان في الممـرّ حـين همسـت سـحر في قلـق:

ـ تبدين متوتّرة!

تذكّرت المفكّرة، فأخرجتها من حقيبة يدها وتمتمت:

ـ دعينا ننتهي من هذا الأمر بسرعة.

أدارت أكـرة البـاب ودخلـت. سـتأخذ التصاميـم وتـترك المفكّـرة عـلى المكتـب. نظـرت إلى سـطح المكتـب وتفرّسـت في اهتمـام. لـم تكـن هنـاك أيّـة تصاميـم في مرمـى بصرهـا. قلّبـت الكتـب والملفّـات، تبحـث عـن شيء يخصّهـا، بـلا جـدوى. فتحـت الـدّرج العلـويّ، ألقـت نظـرة سريعـة داخلـه، ثـمّ أحجمـت. لـم يكـن مـن الحكمـة أن تعبـث بأشـيائه.

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟

فوجئـت بهتـاف رجـاء الغاضـب. كانـت قـد تركـت البـاب منفرجـا، وسـحر تترقّبهـا عنـده. دفعـت رجـاء الدّفّـة بعنـف وانقضّـت عـلى ليـلى مزمجـرة:

ـ لـم أتوقّعـك بهـذه الوقاحـة! مـا الـذي تفتّشـين عنـه في غرفـة فـراس الآن؟

لم يكن من الوارد أن تبرّر شيئا أمام رجاء. قالت في صرامة:

ـ ما أفعله في منزل خالي ليس من شأنك!

ـ ليس من شأني؟ ليس من شأني أيّتها السّارقة!

هاجت رجاء واشتعلت النّيران في عينيها.

ـ سارقة؟ ما الذي سرقته؟

أشارت إلى المفكّرة التي كانت مازالت بين يدي ليلى.

ـ هذه!

ثـمّ اختطفتهـا بحركـة مفاجئـة وأخـذت تقلّبهـا بـين يديهـا. تشـابكت أيديهمـا، وليـلى تحـاول اسـتعادة المفكّـرة.

ـ هذه لي.. وجدتها في غرفتي!

ـ غرفتك؟ قلت غرفتك؟!

جـنّ جنـون رجـاء. وكأنّ ذكـر انتمـاء ليـلى إلى المـكان كان القطـرة الـتي أفاضـت كأس جنونهـا. انقضّـت عـلى غريمتهـا تخمـش وجههـا بأظافرهـا الطّويلـة، وتشـدّ شـعرها بقسـوة. صرخـت ليـلى:

ـ مجنونة! أنت مجنونة!

تدخّلـت سـحر محاولـة فـضّ اشـتباكهما، ثـمّ تدافعـت أقـدام في الممـرّ بعـد أن وصـل الـصّراخ إلى الطّابـق الأسـفل، وانضـمّ إليهـنّ أمـين وريـم شـقيقة رجـاء الصّغـرى. أخـيرا نجـح ثلاثتهـم في تكبيـل ذراعـي رجـاء الـتي لـم تتوقّـف عـن توعّـد ليـلى:

ـ هـل تظنّـين أنّ دمـوع التّماسـيح هـذه كافيـة لإخفـاء حقيقتـك؟ أنـت مثـل توأمـك تمامـا! طمّاعـة ومخادعـة!

انسـحبت إلى غرفتهـا وهـي تشـدّ عـلى المفكّـرة الـتي تمـزّق غلافهـا، وتبعتهـا سـحر مهرولـة. أغلقتـا البـاب عليهمـا، بينمـا اسـتمرّ صيـاح رجـاء الهسـتيريّ في الخـارج.

ـ يا إلهي! من تلك المجنونة؟

ـ إنّها ابنة خالة أبناء خالي.

تمتمت ليلى بعقل غائب، بينما شردت أفكارها.

ـ ليلى، أنت تنزفين!

تحسّست وجهها، فاصطبغت أناملها بقطرات دم تنزّ من خدش يمتدّ على وجنتها. دخلت الحمّام وغسلت الجرح، ثمّ غطّته بمنديل ورقيّ لتوقف النّزيف. جلست على طرف السّرير وأخذت تستعيد ترتيب أحداث تلك الليلة. فراس أرسلها إلى غرفته، لإحضار تصاميم لم تكن هناك أصلا، ثمّ وصلت رجاء بترتيب ما لتمسك بتلابيبها. فراس! لا شكّ لديها أنّه قد رتّب لقاءها برجاء في غرفته. لكنّها لا تعلم الآن ما الذي يجري بينه وبين مأمون في الأسفل!

في تلك اللّحظة، رنّ هاتف سحر.

ـ مأمون.. أنا مع ليلى، كان هناك شجار.. وقد أصيبت بجرح في وجهها.

لوّحت ليلى بكفّها لتوقف سحر، وهتفت ليسمعها مأمون على الطرف الآخر:

ـ أنا بخير.. إنّه خدش بسيط! سحر، يمكنك الذّهاب الآن.

ـ لقد طردتني! سآتي حالا.

أغلقت الخطّ ثمّ التفتت إلى ليلى:

ـ اهتمّي بتطهير الجرح جيّدا.. لا تستهيني به!

ـ لا تقلقي، سأفعل.

همّت بالخروج، ثمّ عادت أدراجها. رمقت ليلى في قلق:

ـ هل ستكونين بخير؟

كانت تشير إلى صدمتها السّابقة. إدمان حنان وجرعتها الزّائدة.

هـزّت ليـلى مطمئنـة وأشـارت إليهـا أن اذهـبي. خرجـت سـحر مـن عندهـا فتنهّـدت. مـن الأفضـل أن يرحـل مأمـون الآن. كلّ ثانيـة إضافيّـة مـع فـراس قـد تعـني كارثـة إضافيّـة! أغمضـت عينيهـا واسـترخت عـلى السّريـر. سـتعرف غـدا مـن سـحر مـا الـذي تحـدّث بـه فـراس بالضّبـط.

انتبهـت عـلى صـوت قـرع قـويّ عـلى بابهـا. وقفـت فزعـة. هـذه ليسـت طرقـات أمـين ولا منـال. فتحـت البـاب في حـذر، فألفـت فـراس أمـام وجههـا. مـاذا الآن؟ هـل جـاء لينهـي مـا بدأتـه رجـاء؟ لـم تكـن عـلى اسـتعداد نفـسيّ لتواجـه سـخريته ووقاحتـه.

- كيف حال جرحك؟

- نعم ؟

كانـت لا تـزال تضغـط عـلى وجهها بالمنديـل الـذي أصبـح أحمـر تمامـا الآن. وكانـت بيـده عـدّة إسـعافات أوّليّـة. حدّقـت فيـه غـير مصدّقـة. أيـن ا لفخّ ؟

- عرفت من صديقتك بالذي حصل بينك وبين رجاء. أنا آسف.

هنـاك خلـل مـا بالتّأكيـد. فـراس يعتـذر؟ ثـمّ ألـم يكـن اشـتباكها مـع رجـاء مـن ترتيبـه؟ فعـلام الاعتـذار؟!

وضـع الصّنـدوق بـين كفّيهـا، وهـي لـم تسـتيقظ بعـد مـن ذهولهـا. فجـأة، انتبـه إلى التغيـير الـذي حـلّ بالغرفـة. ورق الجـدران كان مختلفـا، والطّـلاء الأحمـر البشـع قـد اختفـى. لأوّل مـرّة منـذ عرفـت فـراس، رأتـه يبتسـم! ليـس أنّ شـفتيه لـم تنفرجـا في ابتسـامة مـن قبـل، فهـو قـادر عـلى ذلـك النّـوع مـن الابتسـام المصطنـع والمزيّـف. لكـن الآن، في تلـك اللّحظـة، كانـت عينـاه تبتسـمان وتتألقـان ببريـق غريـب! ثـمّ، ودون كلمـة إضافيّـة، اسـتدار ليدخـل غرفتـه.

لبثـت ليـلى عنـد البـاب، لا تصـدّق مـا حصـل للتّـوّ. ثـمّ عـادت نظراتهـا

إلى صنـدوق الإسـعافات بـين كفّيهـا، قبـل أن تقـرّر أخـيرا الانسـحاب إلى غرفتهـا.

-٨-

صباح الغد، وهي تنزل درجات السلّم، تناهى إليها صوت خالها وهو يزجر الخدم. مرّة أخرى، كان قد جعلهم يقفون صفّا واحدا في البهو، ويتوعّدهم بالعقاب إن أصرّوا على إخفاء الفاعل. كانت قد فكّرت في الموضوع طيلة نهار الأمس، وهي تنزع ورق الجدران، ووصلت إلى قرار. كان عليها أن تجد استراتيجيّة مضادّة لخطّة فراس أو رجاء أو كليهما.

اقتربت من موقف خالها الذي التهب وجهه وعلا صوته. دنت منه بخطوات سريعة وهمست:

ـ خالي.. هل لي بكلمة على انفراد؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي.

ثمّ استدار ليواجه الخدم مرّة أخرى ويقول مهدّدا بالسبّابة:

ـ لا يتحرّك أحدكم من مكانه!

دخل وإيّاها إلى حجرة المكتب وهو يردف في غضب:

ـ سأجعلهم يعترفون، لا تقلقي.. إنّها مسألة وقت وحسب.

ـ خالي.. لا أريد منك أن تعاقب أحدهم، رجاء.. اترك الأمر لي!

طالعها في دهشة، فأضافت:

ـ ألست المقصودة بالإهانة؟ إذن اترك لي التعامل مع الموقف.. من فضلك !

عقد ذراعيه أمام صدره متفكّرا، ثم قال في تسليم:

ـ حسن.. لك ذلك!

ثمّ خرج من المكتب تتبعه ليلى. ألقى نظرة صارمة على الخدم الذين لم يبرحوا أماكنهم:

ـ سأترك الأمر للآنسة ليلى.. هي التي ستقرّر بشأن العقاب!

ابتسمت ليلى وقالت بلهجة مطمئنة:

ـ فلينصرف كلّ إلى مهامّه المعتادة.

تبادل الخدم نظرات حائرة، وتململوا قبل أن ينسحبوا متهامسين.

بعد قليل، دخلت ليلى المطبخ. حيّت العمّ هاشم ومساعده في مرح، ثمّ طلبت بعض المكوّنات والأواني. وقفت في ركن جانبيّ حتّى لا تزعج الطبّاخين، وشرعت في إعداد كعكتها المفضّلة. مزجت الطّحين والسّكر والبيض وخفقتها بشكل جيّد، سكبت الخليط في طبق مستدير ووضعته بالفرن، ثمّ أعدّت كريمة الفراولة وأخرى بنكهة الفانيلا. بعد ساعتين، كانت قد انتهت من تزيين كعكعة الفراولة وحفظتها في الثلاجة.

خرجت إلى الحديقة، حيث كان الجنائنيّ يقلّم الأشجار ويسقي شجيرات الورد. استعارت منه كمّاشة ومقصّا وقطفت باقة سميكة من الورود الحمراء والبيضاء. حملت باقتها وعادت إلى الدّاخل. ألفت مدبّرات المنزل في الصّالة العلويّة. كنّ يتهامسن في اضطراب ملحوظ، وحال دخولها، انقطعن عن الكلام بشكل مريب. لم تهتمّ ليلى بمغزى سلوكهنّ، بل ابتسمت وطلبت من بهجة، صغرى العاملات أن تتبعها. سارت الفتاة خلفها في وجوم. مرّت ليلى وإيّاها على جميع الغرف، وأشارت إليها أن تملأ كلّ المزهريّات الفارغة والأواني الخزفيّة المهملة بالماء واهتمّت ليلى بنفسها بتنسيق الوردات في باقات صغيرة وضعتها فيها.

حين فرغت من تلك المهمّة، عادت إلى المطبخ، حيث كانت الكعكة

قـد تماسـكت. في الحديقـة الخلفيّـة، جهّـزت مائـدة ومقاعـد، ووضعـت كعكتهـا ومشروبـات منعشـة، وكميّـة مـن المقبّـلات والمكـسّرات، كأنّمـا تسـتعدّ لاسـتقبال مجموعـة مـن الأصدقـاء. ولـم تـنس أن تزيّـن الطاولـة بباقـة ممّـا قطفـت، بالإضافـة إلى بتـلات متناثـرة عـلى المفـرش، وبالونـات ملوّنـة ربطتهـا في مسـاند المقاعـد.

حـين أصبـح كلّ شيء جاهـزا، أرسـلت بهجـة لتجمـع كلّ الخـدم في اجتمـاع عاجـل.

توافـد الجميـع إلى الحديقـة الخلفيّـة، واحـدا تلـو الآخـر، يحدوهـم قلـق ممّـا ينتظرهـم. لـم تكـن قضيّـة الطـلاء عـلى جـدار غرفـة الضيّفـة قـد حلّـت بعـد، ووظيفـة الـكلّ قـد غـدت عـلى المحـكّ.

ـ فليتفضّل الجميع!

صدحـت ليـلى بالدّعـوة. لكـنّ الخـدم لبثـوا واقفـين في ارتبـاك ولـم يتجـاسر أحدهـم عـلى الجلـوس. كان مـن المريـب أن يتحـوّل التّهديـد بالطّـرد إلى حفلـة في لمـح البـصر!

ـ أعـرف أنّـه مـن المسـتغرب لمـن يعمـل في الخدمـة، أن يخدمـه أصحـاب القـصر أنفسـهم.. لكنّـني مـن خـلال الحادثـة الأخـيرة، فهمـت أنّ تبـادل الأدوار مفيـد أحيانـا، حـتّى يعايـن كلّ منّـا الأحـداث والمواقـف مـن منظـور الآخـر. لذلـك، أردت أن تكونـوا اليـوم ضيـوفي.. لأعتـذر منكـم، عـن أيّ شيء قـد يكـون صـدر عـنّي بقصـد أو بـدون قصـد.

ثـمّ شرعـت في تقطيـع الكعكـة وتوزيعهـا عـلى الأطبـاق، ودارت عـلى الحاضريـن تضعهـا بـين أيديهـم. غمـزت جليلـة وهـي تقـدّم لهـا طبقهـا:

ـ لا تخافي.. سأساعد في تنظيف المكان وجلي الصّحون!

فاندفعـت موجـة مـن الضّحـك المحتشـم. ثـمّ، اختـار كلّ منهـم مقعـدا وجلـس يـأكل في صمـت. اقتربـت ليـلى مـن العـمّ هاشـم وقالـت:

ـ أعلـم أنّ كعكـتي المتواضعـة لا تقـارن مـع حلويّاتـك الشـهيّة.. وهـي بالمناسـبة رائعـة كمـا هـي، لسـت بحاجـة إلى تعديـل الوصفـة مـن أجلي.. وليسـت هنـاك أيّ حميـة خاصّـة أتّبعهـا. آسـفة إن كان قـد وصلـك أيّ شيء بهـذا الصّـدد عـنّي!

ثمّ عادت إلى مدبّرات المنزل، وقالت معتذرة:

ـ منـذ وصلـت، والغرفـة في غايـة النّظافـة والترتيـب.. لسـت مصابـة بالوسـواس القهـري، ولسـت أعـاني مـن نقـص في المناعـة والحمـد لله.. لذلـك فغرفـتي لا تحتـاج تعقيمـا إضافيّـا ولا تلميعـا زيـادة عـن بقيّـة غـرف القـصر! ولـولا خـوفي مـن أن تعتـبروا ذلـك إهانـة، لقمـت بتنظيـف غرفـتي بنفـسي.. ليـس لأنّـني لا أثـق فيكـم –لا سـمح الله– لكـن لأنّ متطلّبـاتي في التنظيـف بسـيطة ويسـيرة، وقـدراتي كذلـك!

ضحكـت مـن نفسـها، فـسرى الضّحـك مـرّة أخـرى في صفـوف الخـدم الذيـن تلاشـت ريبتهـم واسـترخت أسـاريرهم.

ـ ثـمّ إنّـني منـذ وصلـت وأنـا أعامـل مـن قبلكـم معاملـة الأمـيرات.. ومـا أنـا إلّا ضيفـة لا تريـد أن تتعـوّد عـلى الـدّلال الكثـير.. فقريبـا أسـتقرّ في شـقّتي، وهنـاك لا خـدم ولا حشـم.. بـل مخاطبتكـم الفقيرة لله، سـتعُول نفسـها وتنهـض بشـؤونها.. لذلـك، حـين أغـادر هـذا المـكان، أرجـو أن تذكـروني كصديقـة خفيفـة الظـلّ، لا كمسـبّبة للمشـكلات وقاطعـة لـلأرزاق.

غصبـا عنهـا، كانـت عيناهـا قـد امتلأتـا بالدّمـع. قالـت مغالبـة رغبتهـا في البـكاء:

ـ في الحقيقـة، ليـس يهمّـني مـن الـذي فعـل مـا فعـل.. مـع أنّ فعلـه آلمـني.. وأشـعرني بتقصـيري تجاهكـم.. لكـن يهمّـني الآن أن أصـل إلى مشـاعر الاسـتياء الـتي بداخلـه، وأفهـم دوافعهـا.. وأحـاول تغييرهـا إلى

الأفضـل.

أكل الجميـع الحلـوى والمقبّـلات، اتّسـعت الابتسـامات شـيئا فشـيئا. تنقّلـت ليـلى بـين المقاعـد، وتبادلـت الأحاديـث مـع كلّ منهـم عـلى حـدة، فسرّهـا أن تجدهـم أكـثر ارتياحـا وملامحهـم أكـثر طلاقـة. وحـين انتهـت الحفلـة القصـيرة، شـاركها الجميـع تنظيـف المـكان وجمـع المخلّفـات، وكانـت هـي تعمـل بينهـم يـدا بيـد، دون أن تتوقّـف عـن المـزاح.

تنهّـدت ليـلى حـين دخلـت غرفتهـا ذلـك المسـاء. كان يجـب أن تفعـل ذلـك منـذ زمـن، قبـل أن تتفاقـم الأمـور وتصـل إلى مـا وصلـت إليـه. إذابـة الجليـد بينهـا وبـين الخـدم كانـت خطـوة ضروريّـة لنجـاح تحريّاتها. زفـرت في ارتيـاح. كان كلّ ذلـك للأفضـل حتمـا. نعـم للأفضـل.

تذكّـرت أنّهـا لـم تتصـل بسـحر. لقـد انشـغلت بحفلتهـا الصّغـيرة ونسـيت. وكيـف لهـا أن تنـسى؟ كوّنـت رقـم سـحر وهـي تأمـل ألّا تكـون مصيبـة أخـرى في انتظارهـا.

- ها.. ماذا قال مأمون؟

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص زوج حنان!

- آه.. إنّه يريدك أن ترحلي من هناك، وعلى الفور!

- ماذا؟ ما الذي حدّثه به بالضّبط؟ هل أخبرك؟

- لا شيء مهمّ.. تحدّثا في العموميّات وحسب.

- إذن لماذا يريدني أن أرحل من هنا؟

- إنّـه يشـعر بالغـيرة! بالمناسـبة، لـم تخبريـني أنّ زوج أختـك بمثـل تلـك الوسامة!

هـل تتحـدّث عـن فـراس؟ وسيم؟ لا شـكّ أنّـه يبـدو كذلـك وهـو يضـع

قناع الحمل الوديع أمام الآخرين.. لكنّها ترى بوضوح قرني شيطان ينبتان من رأسه حين يكشّر بسخرية كما يفعل دائما معها! لكنّه بالأمس.. بالأمس بدا مختلفا تماما. لم يكن يتصنّع، ولم يكن ينفّس عن طاقات الشرّ التي بداخله. في تلك اللّحظة، فكّرت أنّه قد بدا رجلا وسيما بالفعل. لكنّها لحظة واحدة، بين لحظات كثيرة أخرى من البشاعة!

ـ لا تكوني سخيفة! أنت لا تعرفين حقيقته أبدا!

انتبهت على طرقات محتشمة على بابها. أنهت الاتّصال سريعا وهرعت إلى الباب. كانت بهجة، صغرى مدبّرات المنزل تقف أمامها وعلى وجهها علامات التردّد. همست وهي لا تتوقّف عن التلفّت حولها في حذر:

ـ آنسة ليلى.. هل يمكنني أن أتحدّث إليك؟

حين صارتا بالدّاخل، خلف الباب المقفل، أخرجت الفتاة قصاصات ورق من طيّات ثيابها وقدّمتها إلى ليلى. سألتها ليلى في استغراب:

ـ ما هذا؟

ـ هذه الأوراق، كان أحدهم يدسّها كلّ صباح تحت باب المطبخ.. فيها تعليمات تخصّ طعامك وتنظيف غرفتك.. وقد حسبناها تعليماتك!

حدّقت ليلى في الأوراق في دهشة، وأخذت تقلّبها في اهتمام، ثمّ عانقت بهجة في امتنان وقالت مبتسمة:

ـ لقد خدمتني خدمة لا تقدّر بثمن.. شكرا يا صديقتي!

تضرّج وجه الفتاة خجلا، ثمّ انسحبت بعد أن أوصتها ليلى بألا يعلم غيرها بشأن القصاصات من أفراد العائلة.

وكان على ليلى أن تتثبّت على الفور من شكوكها الآنفة. سارعت إلى المفكّرة المخبّأة في درجها العلويّ، وفتحتها على الصّفحة الأولى.. ثمّ وضعت القصاصات إلى جوارها على المكتب، وشرعت تقارن شكل الكتابة في هذه وفي تلك. لم يعد لديها شك. إنّها من صنيع فراس!

كشّرت في سخرية وهي تقول في نفسها، لقد كانت محقّة بشأنه!

***

السيّارة تطوي الأرض بسرعة جامحة. تسمع أزيز العجلات على الأسفلت المبتلّ، ومحاولات الضغط على المكابح لا تجدي. ترتفع أصوات صراخ من حولها، أشخاص يطلبون النّجدة. الوجوه من حولها ضبابيّة غير واضحة، لكنّ الفوضى التي تعمّ عالم السيّارة لا تطالها. إنّها تجلس في اتّزان، وتطالع ما حولها بتشفٍ وشماتة. تسمع الآن قهقهتها الصّاخبة. تلتفت إليها عيون مفجوعة. ما هذا العته؟ صوتها المجنون يتغنّى باستمتاع:

- سنموت جميعا.. سنموت جميعا!

فتحت عينيها مرتعبة. المشهد المفزع يتكرّر. الكابوس.

ما الذي ترينه في كابوسك يا ليلى؟ هل هي رؤيا واضحة لتفاصيل الحادثة التي لا تذكرين منها شيئا؟ والدها لم يتحدّث عن الحادثة مطلقا من قبل. لم يكن يقصّ عليها شيئا إلا إذا سألت وألحّت. وحتّى في تلك الحالة، فإنّه يكتفي بالتّلميحات والمساعدات البصريّة لتحفيز ذاكرتها، مثل الصّور والأشياء المتعلّقة بماضيها. لكنّه أبدا لم يشر بكلمة إلى الحادثة. إنّها حادثة سيّارة. هذا كلّ ما تعرفه عن الأمر. من كان معها؟ كيف حصلت الحادثة؟ كلّ ذلك تجهله.

هل يمكن أن تكون حنان في السّيّارة نفسها؟

تذكّرت، حنان كانت في سويسرا من أجل العلاج. هل تكونان قد التقتا آنذاك؟

***

لم يستطع فراس أن يمنع نفسه من التّفكير فيما حصل بالأمس طيلة نهار عمله. نعم، لقد سارت الأمور كما خطّط لها بالضّبط. خلال الأسبوعين الماضيين، دأب على دسّ قصاصات للخدم، عن طلبات وهميّة للضّيفة الثقيلة. لقد جعلها تبدو حمقاء مدلّلة، تماما كما كانت أختها حنان! لقد استدعى في ذاكرة كلّ منهم مشاهد من الماضي لا شكّ أنّها قد تركت ندبا لا تمحى مع التّقادم.. فجاء ردّ الفعل عنيفا وغير متوقّع. ذلك الطّلاء الدّموي القبيح على جدارها، لم يكن من تخطيطه! لكنّ أحدهم مضى بالخطّة خطوات عملاقة إلى الأمام! وذلك ليس يضرّه.. لكنّه مندهش من كميّة الحقد التي نجح في تحصيلها من جنود الخفاء الذين دخلوا المخطّط دون علم منهم! لم يكن يطمع في أكثر من سلوك عدائيّ، ونظرات ضيق من هنا وهناك.. كان ذلك يكفي ليشعرها بعدم الرّاحة.

حفلة الشّواء أيضا، سارت بالشّكل الذي أراده. بحث عن ليلى ضمن الحاضرين، وأرسلها إلى غرفته، بعد أن عرف بتواجد رجاء هناك في الأعلى. لقد أراد المواجهة بين البنتين، وقد كانت. لكن لماذا لا يشعر بالرّضا الذي توقّع أن يشعر به؟ بدلا عن ذلك، يشعر بتقريع الضّمير.. مرّة أخرى. أدهشه أن يحصد بأسرع ممّا ظنّ.. وأن يكبر زرعه أكثر ممّا انتظر! رجاء أيضا، كانت عدائيّتها فوق توقّعاته. إنّه

يعـرف تاريـخ العلاقـة المتوتّـرة بينهـا وبـين حنـان، وقـد عـوّل عـلى ذلـك في اختيـار طـرف المواجهـة الثـاني.. لكـن أن يصـل الأمـر إلى درجـة الاعتداء السّـافر وتخليـف نـدوب عـلى الوجـه؟! لذلـك، فقـد شـعر بالارتيـاح حـين رأى أنّهـا قـد غـيّرت الـورق وأخفـت الطّـلاء عـلى الفـور.

أوليـس يريـد لهـا أن ترحـل بـأسرع وقـت؟ إذن عليـه أن يواصـل السّـير عـلى الخطّـة، حـتّى النّهايـة. حـتّى لـو تـأذّت.. قليـلا. لقـد مـرّت بأيّـام عصيبـة مؤخّـرا.. إصابـة بالكـرة في الـرّأس، شـتيمة بذيئـة عـلى جدارهـا، وجـرح يشـوّه وجههـا. لكـنّ كلّ ذلـك لـم يفـتّ مـن عضدهـا. ولا يبـدو أنّهـا تنـوي الرّحيـل في القريـب!

لـم يعتقـد أنّهـا سـتردّ الهجمـة، بتلـك السّلاسـة والقـوّة. كان قـد رجـع مـن المكتـب، وخـرج إلى الشّرفـة، حيـث تعـوّد أن يقـرأ كلّ عـصر. فاجـأه المشـهد في الحديقـة الخلفيّـة. لقـد سـمع كلّ كلمـة قالتهـا، وأحـسّ بقشـعريرة بـاردة تـسري في جسـده. عليـه أن يعـترف، لقـد كانـت مؤثّـرة. وتلـك العـبرات الـتي أوشـكت عـلى السّـقوط.. مقنعـة تمامـا! لـو أنّـه كان يجهـل دوافعهـا، لـكان سـقط في الفـخّ، مثـل كلّ الآخريـن.

ابتسـم في سـخرية. ليسـت هيّنـة. ليسـت هيّنـة أبـدا. يبـدو أنّ المعركـة سـتكون أكـثر إثـارة. لا بـأس. سـيزيد ذلـك مـن المتعـة.

انتبـه عـلى طرقـات سريعـة عـلى بابـه. طرقـات مسـتعجلة ونافـدة الصّـبر. تـرك الكتـاب الـذي لـم يقـرأ منـه حرفـا بعـد وسـار إلى البـاب. جـاء دوره ليشـعر بالصّدمـة. لـم يتوقّـع أن يجدهـا أمامـه. كانـت تبـدو هشّـة.. وعـلى وشـك البـكاء. والضّمـادة البيضـاء عـلى وجنتهـا تذكّـره بحادثـة الأمـس. سـألته دون مقدّمـات، بصـوت مرتجـف أربكـه:

ـ هل سبق أن التقينا؟

ـ عفوا؟

ـ أقصد.. حنان وأنا.. هل سبق أن التقينا؟

تبـدو الإجابـة عـلى ذلـك السّـؤال البسـيط مصيريّـة بالنّسـبة إليهـا. لكنّـه لا يفهـم. لمـاذا تطـرح عليـه سـؤالا مثـل هـذا؟ إن كانـت قـد التقـت بهـا، فـلا شـكّ أنّهـا تعـرف، كطـرف في اللّقـاء. لكـنّ ملامحهـا تقـول بأنّهـا لا تعـرف الجـواب. قـال في حـذر:

ـ ألا.. تذكرين؟

لقـد تطلّـب منهـا الأمـر شـجاعة كبـيرة، لتقـدم عـلى تلـك الخطـوة.. أن تطلـب مسـاعدة مـن عدوّهـا لتوضيـح مـا تشـوّش مـن ذكرياتهـا. لكنّـه يـردّ عـلى سـؤالها بسـؤال آخـر. نعـم، إنّهـا لا تذكـر. لكـنّ الاعـتراف بذلـك أمامـه يزعجهـا. لـم تكـن قـد تحدّثـت عـن حادثتهـا تلـك مـع أحـد قبـل ذلـك. وهـذا ليـس الوقـت المناسـب لتـشرح. قالـت مـبرّرة:

ـ إن كانـت قـد سـافرت إلى سـويسرا، كمـا سـمعت.. فمـن الطبيعـيّ أن يكـون زوجهـا مرافقـا لهـا.. لذلـك أسـألك. هـل التقينـا أثنـاء رحلتهـا إلى سـويسرا؟

ـ نعم.. لقد التقينا.

ـ شكرا.

تنهّـدت، ثـمّ اسـتدارت مغـادرة. لكنّهـا توقّفـت فجـأة. لـم يقـل «التقيتمـا».. بـل «التقينـا»! إذن، لقـد التقـت فـراس أيضـا في سـويسرا؟! التفتـت إليـه مجـدّدا، فلمحـت تلـك الابتسـامة السّـاخرة عينهـا. لقـد كشـفت نفسـك يـا ليـلى. مـا الـذي جـرى بالضبـط أثنـاء تلـك الزّيـارة؟ هـل حصـل مـا يـبرّر تلـك العـداوة السّـافرة الـتي يكنّهـا لهـا؟ تدفّقـت الاسـتنتاجات إلى ذهنهـا بسرعـة متواتـرة. حـتّى وصلـت إلى مضيـق بـلا منفـذ. سـألت في اضطـراب:

ـ أنت تعلم.. بشأن الحادثة التي تعرّضت إليها؟

بـكلّ هـدوء، أومـأ برأسـه علامـة الإيجـاب، فشـعرت بالدّمـاء تنسـحب مـن وجههـا. إنّـه يعـرف أكـثر منهـا بالتّأكيـد. هـل ينبغـي لهـا أن تسـأله، عـن سـبب عداوتهمـا؟ إنّهـا تـدرك أنّ هنـاك شـيئا مـا خاطئـا منـذ البدايـة. لكنّهـا لـم تسـتطع أن تسـتفسر أكـثر.

حـين غـادرت، أغلـق فـراس بابـه واتـكأ عليـه في سرحـان. إنّهـا لا تذكـر! عبـس مفكّـرا. إن ذلـك يفتـح أبوابـا لا نهايـة لهـا مـن الاحتمـالات.. وهـو لـم يعـد يعـرف في أيّ الاتّجاهـات عليـه أن يمـضي! لكـن مـن المؤكّـد أنّـه يشـعر بالسّـخف في هـذه اللّحظـة. لقـد كان عدوانيّـا بـلا مـبرّر في نظرهـا. وهـو الـذي اعتقـد أنّهـا قـد جـاءت بنيّـة مسـبقة بتحويـل حياتـه إلى جحيـم!

ما الذي ستفعله الآن يا فراس؟

مـن المجحـف أن يواصـل خطّتـه الهجوميّـة الشرسـة، وهـي لا تذكـر شـيئا عـن لقائهمـا السّـابق. يمكنـه أن يطلـب هدنـة.. اسـتراحة محـارب. فـإذا مـا حصـل وتذكّـرت، تـصرّف بمـا يقتضيـه الوضـع. هكـذا أفضـل.

***

أغلقـت ليـلى بـاب غرفتهـا وهـي تتنفّـس باضطـراب. لقـد وقـف عـلى نقطـة ضعفهـا. أغمضـت عينيهـا وتنفّسـت بعمـق، لتسـيطر عـلى رغبتهـا في البـكاء. أنـت قويّـة يـا ليـلى، أقـوى مـن أن تهـزّك مسـألة عابـرة كهـذه.

لقـد شـكّل قصـور ذاكرتهـا معضلـة حقيقيّـة في السّـنوات الماضيـة. منـذ حادثتهـا، اختلـف كلّ شيء. كانـت طالبـة متفوّقـة عـلى الـدّوام. لكنّهـا بعـد إصابتهـا في رأسـها، وجـدت صعوبـات جمّـة. لـم يعـد حفـظ نصـوص القانـون بالبسـاطة الـتي كان عليهـا. بـل تحتّـم عليهـا أن تـدرس

طيلـة فـترة نقاهتهـا، لتسـتعيد مـا تـسرّب مـن ذاكرتهـا مـن محـاضرات. ثمّ تضطـرّ إلى تغيـير الكليّـة، بعـد أن فقـدت الرّغبـة في الاسـتمرار. كان عليهـا أن تبـذل جهـدا مضاعفـا عـن العـادة بعـد ذلـك في كلّ سـنة، لتحافـظ على تفوّقهـا الـذي كان يـأتي يسـيرا وتلقائيّـا في السّـابق.

كانـت كلّمـا عانـت مـن تلـك الثّقـوب في ذاكرتهـا سـألت والدهـا. فـكان يبتسـم، ولا يـردّ. بـل يعـود وبـين يديـه رزمـة مـن الصّـور. لقـد كانـت لديـه تلـك العـادة القديمـة بتوثيـق كلّ حـدث بالصّـور. وقـد كان ذلـك مفيـدا في حالتهـا. كلّمـا تعـسّر عليهـا تذكّـر وجـه مـا أو حـدث مـا، كانـت لديـه الصّـور الـتي تثبّـت الحـدث مـن جديـد في موضعـه، فـلا تنسـاه بعـد ذلـك.

لـو أنّـه كان هنـا معهـا، أتـراه كان ليسـتظهر بمجموعـة صـور تجمعهـا بحنـان في زيارتهـا لجينيـف؟ لا شـكّ أنّـه كان ليفعـل.

هاجمهـا الصّـداع، فاسـتلقت عـلى السّريـر وأغمضـت عينيهـا. فكّـرت قبـل أن يغلبهـا النّعـاس.. لا شـكّ أنّ لقاءهـا بحنـان قـد كان مميّـزا آنذاك. ليتهـا تتذكـر تفاصيـل اللّقـاء، دون صـور.

-٩-

كان أسبوعها التّالي أسبوع الهدايا.

فاجأتهـا السـيّدة الكبـيرة وهـي تدخـل عليهـا مكتبهـا في الجمعيّـة، وتضـع بـين كفّيهـا قرصـا مضغوطـا، لمدائـح الطّريقـة القادريّـة!

ـ عـوّدي أذنـك عـلى نغمـة المدائـح، واتـركي لقلبـك العنـان. ستتسـلّل الرّاحـة إليـك، وستشـعرين مـع الوقـت بطاقتـك الرّوحيّـة تتجـدّد!

لـم تكـن قـد كـرّرت عليهـا الدّعـوة لمرافقتهـا إلى جلسـات السّـماع الصّوفيّـة. لكنّهـا كانـت تلمـح في عينيهـا رغبـة عارمـة في شـدّها إلى عالمهـا أكـثر. كان يحـزّ في نفسـها ألّا تجـد تجربتهـا الرّوحيّـة العميقـة صـدى في نفـس حفيدتهـا الأثـيرة. لذلـك رأت أن تجلـب التّجربـة إليهـا!

في الغـد، تطرّقـت إلى الموضـوع مـع وداد، بعـد أن أنهـت حصّـة العربيّـة. كان ذلـك أسبوعها الأخير مـع القاعـدة النّورانيّـة، وكانـت صلتهـا بمدرّسـتها قـد توثّقـت كثـيرا لتواصلهمـا اليومـيّ المسـتمرّ منـذ شـهر.

كانـت علاقتهمـا تختلـف عـن العلاقـة التّقليديّـة بـين مدرّسـة وطالبتهـا، نظـرا لتقاربهمـا في السـنّ، ولأنّ دروسـها كانـت خاصّـة، بـلا طلبـة آخريـن يشـاركونها اهتمـام المدرّسـة ويأخـذون مـن وقتهـا، ولطبـع وداد الـتي نالـت مـن اسـمها نصيبـا وافـرا. لذلـك، فقـد كانتـا تنخرطـان في نقاشـات فرعيّـة بعـد الانتهـاء مـن الـدّرس وأثنـاءه أحيانـا.. فتسـتمرّ الدّردشـة بعـد انتهـاء السّـاعة المخصّصـة للحصّـة. كانـت ليـلى تسـأل في الغالـب، ووداد تجيـب بصـبر ورحابـة صـدر.

كانـت أسـئلتها في البدايـة تقتـصر عـلى اللّغـة. تسـتفسر عـن كلمـات غـير مفهومـة في مقـال في جريـدة التقطتهـا عفـوا مـن المنضـدة بعـد أن خلّفهـا

خالها في البهو، أو عن معنى لافتة لاحظتها على طريقها إلى المدرسة، وأحيانا أخرى عن مقولة سمعتها على لسان جدّتها أو صدرت عن بعض سكّان القصر، ولم تجد الفرصة لتستوضح بشأنها.. ثمّ تدرّجت النقاشات إلى مسالك متشعّبة.

حكت ذلك اليوم لمدرّستها عن زيارتها لمقام الوليّ الصّالح، وعن قرص المدائح الذي أهدتها إيّاه الجدّة، فامتقع وجه وداد. قالت في حرج:

ـ لا شكّ أنّ نيّة الحاجة فريدة سليمة، لكنّني لا أنصحك بالعودة إلى هناك.. التوسّل بالأولياء شرك بالله!

كان تعليقها صادما. حتّى تلك اللّحظة، كانت الحاجّة فريدة ووداد على المركب نفسه بالنّسبة إلى ليلى. كانت هناك معطيات كثيرة توجّهها إلى ذلك الاستنتاج. المدرسة القرآنيّة التي أسسّتها الأولى وتعمل في كنفها الثّانية، غطاء الرّأس الذي تضعه كلتاهما، والأسلوب المحافظ الذي لمسته في معاملاتهما. لكنّها لمست ذلك اليوم أوّل الفروقات، وهو شرخ عميق في حقيقة الأمر.. فما تعتبره الأولى نشاطا روحانيّا عميقا، وصفته الثّانية بكونه شركا بالله!

في نهاية الأسبوع، بادرتها وداد، بمكافأة لإنهائها دورة القاعدة النّورانيّة بكفاءة، بعد شهر واحد. حين فتحت الهديّة المغلّفة، وجدت مصحف تجويد كانت وداد تعتمد عليه في حفظها، وكتيّبات دعويّة عن المسائل العقديّة المختلفة. قالت بابتسامة:

ـ لقد أصبح نطقك للعربيّة أفضل بكثير الآن. إن أردت الشّروع في دورة التّجويد، فأنت مؤهّلة لذلك!

تلقّت الهديّة شاكرة، لكنّها لم تفكّر في اقتراحها بجدّيّة. لقد كان هدفها واضحا من الالتحاق بالدّورة. ولم يكن تعلّم التّجويد

يعـني لهـا شـيئا. مـا تطمـح إليـه الآن هـو إتقـان علـوم النّحـو والـصّرف، وهـذا لـم يكـن في نطـاق اختصـاص وداد. ودّعتهـا ذلـك اليـوم، فشـدّت المدرّسـة عـلى كفّيهـا بقـوّة، ثـمّ احتضنتهـا دامعـة، وتمنّـت أن تراهـا قريبـا.

وكانت الهديّة الثالثة من أمين!

رجعـت ذلـك اليـوم مـن درسـها متأخّـرة عـن العـادة. كان وداع وداد طويـلا ومؤثّـرا، ولـم تفلتهـا حـتّى أخـذت منهـا وعـدا بزيـارة المدرسـة القرآنيّـة كلّمـا سـنحت الفرصـة. صادفـت أمـين وهـي تصعـد درجـات السـلّم المـؤدّي إلى الطّابـق الأوّل. ألقـى نظـرة فضوليّـة عـلى الهديّـة المغلّفـة بـين كفّيهـا، فحدّثتـه عـن انتهـاء دورتهـا. هتـف مهنّئـا:

ـ هذا حدث يستحقّ الاحتفال! انتظري هديّتي إذن.

في المسـاء، طـرق بابهـا وبـين يديـه كتـاب. ديـوان شـعر أبي القاسـم الشّـابي، أغـاني الحيـاة. هتفـت مصعوقـة:

ـ شعر!

كان جـلّ مـا خطـر ببالهـا، الشّـعر الجاهـليّ القديـم، بمفرداتـه المعقّدة وصـوره الشـعرية الملتويـة. قـال أمـين مطمئنا:

ـ أبـو القاسـم الشـابيّ لغتـه بسـيطة وقريبـة مـن القلـب، لـن تجـدي صعوبـة في فهمهـا. كمـا أنّ كتاباتـه رومانسـيّة وطوباويّـة.

ـ طوبا.. ماذا؟

ـ طوباويّـة! بمعـنى مثاليّـة ومتعلّقـة بالمبـادئ.. شـعر وطـنيّ وإنسـانيّ، لا يسـعك إلّا الذّوبـان أمـام عذوبتـه!

ابتسـمت، هكـذا إذن. وصلـت إلى بيـت القصيـد. الشّـعر الوطـنيّ. هـذا كلّ مـا يعـني أمـين الآن. الثّـورة، وحـسّ المواطنـة. لـمَ لا؟ بوسـعها أن

تجـرّب.

تلقّـت هداياهـا بتفـاؤل وانبسـاط. فكّـرت في مـرح أنّ فـكّ شـيفرة مفـردات العطايـا الثـلاث سيشـكّل إضافـة قيّمـة لمعجـم اللّغـة العربيّـة لديهـا. لـم تفتهـا بالطّبـع النيّـة الخفيّـة الـتي بيّتهـا كلّ منهـم وهـو ينتقـي هدّيتـه بعنايـة! كانـت جدّتهـا ترغـب في اسـتمالتها إلى طريقتهـا الرّوحانيّـة، ووداد ترجـو شـدّها إلى ثقافتهـا الدّينيّـة المحافظـة، وأمـين يريـد إقناعهـا برؤيتـه السّياسـيّة ومـا يؤمـن بـه مـن حـقّ الشّـعوب في تقريـر مصيرهـا. كان كلّ واحـد منهـم يحسـبها طينـة طازجـة وطيّعـة، قابلـة للتّشـكيل، وامتصـاص قناعـات جديـدة. ابتسـمت عنـد ذلـك الخاطـر. فليكـن. لـم تكـن في نيّتهـا أن تلفـظ ثقافـة موطنهـا الـتي أخـذت ترتشـفها بجرعـات متفرّقـة عـلى امتـداد الشّـهر المنقـضي. يمكنهـا أن تفتـح ذراعيهـا للصّوفيّة والمحافظـة والثّـورة، تكتشـف مزايـا كلّ منهـا، تنتقـي طريقهـا، أو تقطـف مـن كلّ بسـتان زهـرة، أو ترفضهـا جميعـا.. بعـد أن تلقـي نظـرة عـن كثـب.

كانـت ردّة فعـل والدهـا مشـجّعة. حـين حدّثتـه عـن أسـبوعها الحافـل، حثّهـا عـلى خـوض التّجربـة دون توقّعـات أو أحـكام مسـبقة.

ـ كلّمـا خفـت صـوت التوقّعـات في داخلـك كان التّحصيـل ذا جـودة أعـلى!

هزّت رأسها، وسألت:

ـ من أين أبدأ؟

ـ تدرّجـي عـلى سـلّم الصّعوبـة.. شـعر الشّـابي أوّلا، ثـمّ المدائـح الصّوفيّـة، أمّـا القـرآن فهـو أعـلى بلاغـة مـن حيـث اللّفـظ، وأكـثر دسـامة مـن حيـث المضمـون، ويحتـاج وقتـا أطـول لفهمـه.. اتركيـه لمرحلـة متقدّمـة.

حـين رجعـت إلى غرفتهـا، لـم تقـاوم رغبـة في وضـع القـرص في جهازهـا،

وتشغيل شريط المدائح. استلقت على السّرير، وأغمضت عينيها، وتخيّلت الأجواء في المقام. لم تكن تخالف نصيحة والدها، فهي لا تحاول استيعاب الكلمات، بقدر ما أرادت أن تخوض التّجربة التي تمنّعت أمامها في اللّقاء الأوّل. لقد قاومت النّغمة الشجيّة للنّشيد ورفضت الاستسلام لها أثناء تواجدها في الحضرة. غلبها الفضول تجاه المكان والأشخاص وعزلها عن الصّوت الذي من المفترض أن يكون مركز الحدث. فكّرت، سترى إن كانت هناك سلالم روحيّة ما يمكنها أن ترتقي درجاتها، إذا ما تركت لقلبها العنان!

بعد دقائق قليلة، غلبها النّعاس فغفت.

***

كانت تقضي جلّ صباحاتها في الجمعيّة الخيريّة. تعوّدت سميرة على إطلالتها اليوميّة، وألف المتطوّعون ملامحها وابتساماتها التي توزّعها بسخاء في مرورها من وإلى مكتبها. كان العمل كثيرا ومرهقا. إنّها بالتّأكيد لم تكن لتتخيّل مقدار الجهد الذي يُبذل في كواليس النّشاط الخيريّ. منذ تقدّم المتبرّع بعطيّته وحتّى وصولها إلى من يستحقّها، كانت هناك مراحل عدّة ومعقّدة.

بعد حصر التبرّعات وفرزها، كانت هناك مرحلة التّدقيق في قائمات المستحقّين. كان هناك فريق آخر، غير المتردّدين على مقرّ الجمعيّة، مهمّته التّواصل مع المستفيدين من التبرّعات، النّظر في ظروفهم الشخصيّة ومدى أهليّتهم للحصول على المساعدات، المبالغ المطلوبة لكلّ حالة، والاحتياجات الخاصّة بكلّ فرد من أفراد العائلة. بعض العائلات لا عائل لها، ولا تجد حتّى سقفا يؤويها، وتهتمّ

الجمعيّـة بتوفـير المسـكن اللّائـق والمـأكل والملبـس، وحـتّى بالتّأطـير النفـسيّ والتربـويّ للأطفـال.. ومـن أجـل ذلـك، تتواصـل مـع شـبكة مـن المدرّسـين والأطبّـاء والأخصائيّـين، لتقديـم خدمـات مجانيّـة.

كان تواجدهـا في قلـب المؤسسـة الـتي تمسـك بـكلّ الخيـوط وتنظّـم تعاطـي بعضهـا مـع بعـض مثـيرا. كانـت معاملاتهـا في البدايـة تقتـصر عـلى الملفـات. لـم تصـدّق أنّ جدّتهـا كانـت تُـشرف بنفسـها عـلى مراجعـة الدّفاتـر حـتّى وقـت قريـب! كان مـن اليسـير أن تتـوه، بـين الأسـماء المتشـابهة والأرقـام والفواصـل. والمكـوث أمـام الشّاشـة لوقـت طويـل، كان يوقـظ صداعهـا القديـم. فشرعـت بعـد فـترة في أخـذ اسـتراحات متباعـدة، أثنـاء تواجدهـا في المبـنى، لتشـارك في عمليّـة الفـرز أو تسـتقبل بنفسـها التبرّعـات العينيّـة، وأحيانـا مـا كانـت تـردّ عـلى الاتّصـالات الهاتفيّة حـين تغـادر سـميرة مكتبهـا.

وفي ذلـك اليـوم، كانـت قـد وقفـت تتجـوّل بين الغـرف، لتحـرّك أطرافها وتريـح ذهنهـا، حـين وصلـت شـاحنة بحمولـة مـن الملابـس المسـتعملة. دون تـردّد، وجـدت نفسـها تنضـمّ إلى فرقـة التفريـغ والتخزيـن. تكوّنـت سلسـلة مـن المتطوّعـين، تربـط بـين الشّـاحنة الرّابضـة عنـد المدخـل، وتنتهـي في غرفـة التخزيـن عندهـا. كانـت ليـلى منغمسـة في مهمّتهـا، ترفـع كمّـي سـترتها إلى مرفقيهـا، بعـد أن تخلّصـت مـن حذائهـا ذي الكعـب العـالي، وترصـف الصّناديـق في جـدّ، وقـد سـالت قطـرات العـرق عـلى جانـبي وجههـا وتهـوّش شـعرها الـذي تمسـكه فـوق رأسـها بقلـم حـبر، حـتّى لا ينسـدل عـلى عينيهـا. فوجئـت، حـين نادتهـا سـميرة:

ـ آنستي، هناك من يريدك!

نفضـت كفّيهـا مـن غبـار الصّناديـق، ودارت ببصرهـا تبحـث عـن حذائهـا. عندئـذ، ظهـر فـراس أمامهـا. تبـادلا نظـرة طويلـة دهشـة، قبـل

أن يقـول فـراس:

ـ أين الحاجّة فريدة؟

قالت في حرج:

ـ أنا أنوبها في الوقت الحالي.. هل أخدمك بشيء؟

سـارت حافيـة القدمـين، متنقّلـة بـين الغـرف، دون أن تجد أثـرا للحذاء، وفـراس يسـير عـلى إثرهـا، حـتّى وصلـت إلى غرفـة المكتـب. كان حذاؤهـا هنـاك، تحـت المقعـد. لبسـته بسرعـة ثـمّ دخلـت الحمّـام الملحـق. غسـلت يديهـا ووجههـا، وأعـادت تصفيـف خصلاتهـا النّافـرة في ضيـق. توقيتـه ممتـاز! لـم يكـن بإمكانـه أن يراهـا في وضـع أسـوأ.. إلّا وهـي تسـتيقظ مـن النّـوم.

عـادت إلى المكتـب، بعـد أن نفضـت سـترتها وأعـادت إلى هندامهـا رونقـه. جلسـت خلـف المكتـب، وهـي ترصـد عـلى وجهـه علامـات الاسـتخفاف والسّـخرية. لدهشـتها، لـم تجـد لأيّ منهـا أثـرا. يبدو مسـالما عـلى غـير العـادة. تحـدّث بجدّيـة بمـا يسـتدعيه الموقـف، ولـم يحرجهـا أمـام موظّفـي الجمعيّـة. كان بـين يديـه ملـف ورسـومات، مخطّط توسـعة مدرسـة ريفيّـة عـلى المنطقـة الحدوديّـة. كانـت الجمعيّـة تهتـمّ بتأمـين مـشروع البنـاء، وتكفّـل فـراس بإعـداد الرّسـم الهنـدسيّ، بنـاء عـلى طلـب الجـدّة. هـزّت رأسـها في اهتمـام:

ـ يمكنك تركه هنا.. قد تصل السّيدة الكبيرة في أيّة لحظة.

شـعرت بـتردّده، أو لعـلّ تعليقـا لاذعـا كان عـلى طـرف لسـانه؟ لكنّـه أومـأ أخـيرا وهـو يضـع الملـفّ عـلى مكتبهـا وانـصرف دون كلمـة إضافيّـة.

***

انتظرهـا في الشّرفـة، عـصر ذلـك اليـوم، واليـوم الـذي يليـه. لكنّهـا لـم تظهـر. لا زال يذكـر مراجعتهـا للعربيّـة في شرفتهـا، ذات عـصر مضى، ويترقّـب أن تعـود لذلـك مـرّة أخـرى. مـن جهتـه، كان قـد الـتزم بالهدنـة الـتي أعلنهـا بينـه وبـين نفسـه.. لكـن الفرصـة لـم تـواتِ بعـد ليعلنهـا أمامهـا.

عــدا جســارتها المفاجئــة حــين طرقــت بــاب غرفتــه تلــك المــرّة، فإنّهمـا لـم يتحدّثـا بـشيء منـذ ذلـك الحـين. حـتّى أنّهـا لـم تسـأل عـن التّصاميـم الـتي ادّعـى يـوم حفلـة الشّـواء أنّـه تركهـا عـلى المكتـب! وقـد كانـت صدفـة لقائهـا في مقـرّ الجمعيّـة غـير متوقّعـة عـلى الإطـلاق. مـا الـذي أخذهـا إلى هنـاك؟ وكيـف تكـون نائبـة الرّئيسـة؟ ومنـذ مـتى؟ لقـد كانـت رسـميّة وصارمـة وهـي تحدّثـه، مخلصـة للـدّور الـذي تتقمّصـه. لا يمكـن لأحـد يراهمـا هنـاك أن يتوقّـع سـابق معرفـة بينهمـا، ناهيـك عـن كونهمـا يعيشـان تحـت سـقف واحـد! احـترم رغبتهـا، وتجنّـب أيّ حديـث شـخصيّ. كان عليـه تأجيـل مـا بجعبتـه مـن كلام إلى لقـاء آخـر.

قـرّر ذلـك اليـوم، إن لـم تظهـر في اليـوم الثّالـث، فسـيطرق بـاب غرفتهـا. كان عليـه أن يسـلّمها التّصاميـم في نهايـة الأمـر!

في عـصر اليـوم الثالـث، سـمع بوّابـة شرفتهـا تفتـح. حبـس أنفاسـه وانتظـر. لـم تمـض ثـوانٍ حـتّى أتـاه صوتهـا. شرعـت تهجّـئ الحـروف ببـطء. لـم تكـن مقاطـع متناثـرة مثـل المـرّة الماضيـة. كانـت الحـركات أكـثر وضوحـا، ورغـم بـطء قراءتهـا، فإنّهـا مسـتقيمة. اختفـت اللّكنـة الأجنبيّـة تمامـا. انتظمـت الحـروف والمقاطـع عـلى لسـانها، ثـمّ أخـذت تربـط فيمـا بينهـا، وتعيـد قـراءة الكلمـة بسلاسـة أكـبر. ثـمّ تمـرّ إلى التّاليـة، فالتّاليـة. اسـتغرق بضـع دقائـق، يفـكّ معهـا أحجيـة الكلمـات المبعـثرة، حـتّى أدرك أنّهـا كانـت تقـرأ شـعرا! كانـت أبياتـا مـن قصيـدة الطّفولـة، لأبي القاسـم الشـابّي:

للهِ مَا أَحْلى الطُّفولَة إنَّها حلمُ الحياةْ

عهدٌ كَمَعْسولِ الرُّؤى مَا بينَ أجنحَةِ السُّبَاتْ

توقّفت فجأة، وتمتمت في حيرة:

ـ رؤى؟ سبات؟ هل هذا ما يبدو عليه الشّعر السّهل والبسيط؟

ابتسم، وهو يستمع إلى تأفّفها. ثمّ تناهى إليه صوت حفيف الورق وأصابعها تطوي صفحات الكتاب، تتوقّف كلّ فترة وتلقي نظرة على مطلع القصيدة، ثمّ تستمرّ في التصفّح. بعد ثوانٍ طويلة، أخذت تقرأ من جديد:

إذا الشّعبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَاةَ فلا بدّ أن يستجيب القدرْ

ولا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر

وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِ تَبَخَّرَ في جَوِّهَا وَانْدَثَر

فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْهُ الْحَيَاة مِنْ صَفْعَةِ العَدَم المُنْتَصِر

أخذت تتلو الأبيات بصوت خافت، بسرعة ووضوح أكبر، وتكرّرها بانبهار، وكأنّها تنزع طبقات من الأغلفة المتراكمة فوق النصّ، فتصل إلى درجة أعمق من الفهم بعد كلّ قراءة. أنصت إليها في شغف. مع أنّها كانت تقرأ لنفسها، وتحاذر أن ترفع صوتها، حتّى لا يصل إلى جيرانها، فإنّه شعر أنّها بشكل ما تقرأ من أجله، ليسمع! وجد نفسه يُصغي باهتمام، كمن يتلقّى درسا في محاضرة، ليرتقي هو الآخر عبر درجات الفهم.

إنّه يحفظ تلك الأبيات عن ظهر قلب، كما يفعل كلّ تونسيّ تقريبا. تلك الأبيات من مطلع قصيدة «إرادة الحياة»، جزء من النّشيد الوطني الذي يتربّ الأطفال على الصّدح به كلّ صباح أثناء تحيّة العلم. ولعلّ ليلى نفسها قد اعتادت الاستماع إليه في

المناسـبات الرّسـميّة، لكـنّ اللّحــن العسـكريّ الصّــارم كان يطغــى عــلى الكلمـات، ويـسرق رونقهـا ويفقدهـا سـحرها. لـم تبـد القصيـدة عميقـة وصادقـة، إلّا وهـو يعيـد اكتشـافها بعيـني طفـل، عـبر عيـني الطّفلـة الـتي كانتهـا ليـلى في تلـك اللّحظـة، عينـين متّسـعتين دهشـة أمـام بلاغـة لغتهـا الأمّ المهجـورة والمنسيّة. مـا بـدا لـه قديمـا نشـيدا أجـوف، يتـدرّب عـلى إلقائـه بشـكل آليّ، مكتفيـا بظاهـر الحـرف دون ولـوج إلى باطـن الكلمـات، تجـلّى أمـام عينيـه سـيمفونيّة مـن المعـاني! يمكنـه أن يتماهـى تمامـا مـع انبهارهـا، ويشـعر بصـدى الأبيـات في صـدره.

يـا الله! لقـد نـسي تمامـا، ومنـذ دهـر، كيـف يكـون شـوق الحيـاة! الويـل لـه، كلّ الويـل، مـن صفعـة العـدم المنتـصر! هـل يمكنـه أن ينكـر؟ لقـد انتـصر عليـه العـدم، حـتّى بـات آلـة تتحـرّك بـلا هـدف. لـو أنّـه اختـار الحيـاة يومـا، هـل يمكـن لقـدره أن يسـتجيب؟ وهـل يمكـن لقيـود الماضي الـتي تكبّـل معصميـه وتشـلّ حركتـه أن تنكـسر؟ بـأيّ قـوّة؟

سمعها تقول، وهي تتنهّد مغلقة كتابها:

ـ إرادة الحياة!

تسـمّر في مكانـه مصعوقـا. هـل كانـت تـردّ عـلى سـؤاله الصّامـت؟ إرادة الحيـاة! مـن أيـن يـأتي بـإرادة الحيـاة، وهـو الـذي كـره الحيـاة بـكلّ تجلّياتهـا!

كانـت قـد أنهـت قراءتهـا، وبقيـت هنـاك في سـكينة. اسـتمرّ سـاكنا بدوره لدقائـق تلـت، وقـد اسـتغرقه تأمّـل مفاجـئ في مـا آلـت إليـه حياتـه، منـذ تلـك الحادثـة. ثـم انتبـه إلى الصّمـت الـذي يغلّـف الجلسـة. كان بإمكانـه أن يسـمع بوضـوح شقشـقة العصافـير ورفرفتهـا، عـلى الشّـجرة القريبـة، ويمكنـه أيضـا أن يصـل بسـمعه إلى خريـر الميـاه المتدفّقـة مـن فوّهـة النّافـورة، عـلى الجهـة الأخـرى. أدهشـه أن تتسـلّل تلـك الأصـوات إلى

معتزلـه. لـم يكـن في السّـابق يلقـي بـالا إلى أصـوات الحيـاة مـن حولـه. لـم يصـغ يومـا إلى أيّ صـوت، عـدا صوتـه الدّاخـليّ، المرهـق والمنكسر. الحيـاة؟ لـم تكـن تعـني لـه مظاهرهـا في محيطـه شـيئا! حـتّى وصلـت تلـك الجـارة المزعجـة، واقتحمـت بحضورهـا المسـتتر فضـاءه الخـاصّ.

تسـاءل فجـأة.. فيـمَ تراهـا تفكّـر؟ لقـد اسـتمرّ سـكونها طويـلا. هـل تكـون قـد غفـت؟ اسـتجاب لاندفـاع متـسرّع وتلفّـظ باسـمها:

ـ ليلى؟

أحـسّ بفزعهـا، واضطـراب حركتهـا. لعلّهـا تسـاءلت منـذ مـتى وهـو هنـاك؟ ردّت بصـوت خافـت:

ـ نعم؟

قال بسرعة:

ـ التّصاميم.. لقد نسيت أن أسلّمك إيّاها.

ثـمّ لـفّ أوراقـه ودفعهـا إلى شرفتهـا مـن وراء الحاجـز. بعـد تـردّد قصـير، امتـدّت كفّهـا لتلتقـط الأوراق. لـم يكـن يراهـا، ولـم تكـن تـراه. لعـلّ ذلـك أورثهـا بعـض الارتيـاح. مضـت دقائـق أخـرى مـن الصّمـت، لـم يسـمع خلالهـا سـوى حفيـف الأوراق وليـلى تتصفّحهـا باهتمـام.

ـ سلمت.. عمل جيّد.

ابتسم في رضا. لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء.

ـ لكنّـني أرغـب في بعـض التّعديـلات.. سأرسـم العلامـات عـلى التّصميـم.. إذا سـمحت.

ـ طبعا.. هاك القلم.

مـرّر إليهـا القلـم أيضـا مـن وراء الحاجـز. الآن يسـمع خربشـة القلـم عـلى الـورق. بعـد لحظـات، ظهـر طـرف الـورق مـن جانبـه.

ـ تفضّل.

ألقى نظرة سريعة على ملاحظاتها، ثمّ هزّ رأسه وقال:

ـ حسن.. لك ذلك.

جمع الأوراق ووضعها جانبا. انقطع حبل الحديث. ولعلّ كليهما فكّر أنّه يجدر به الانصراف. لكنّ أحدهما لم يفعل. سألها فجأة:

ـ هل فقدت ذاكرتك بعد الحادثة؟

تردّدت. لم تكن تحبّ إثارة الموضوع. قالت في حرج:

ـ نوعا ما. أحيانا يكون من العسير تذكّر بعض الأحداث، أو الوجوه.. وكثيرا ما أستعين بالصّور لاستحضار المشاهد.

ـ أنت واثقة أنّك تستعدين المشاهد من ذاكرتك.. ولا تخلقين ذاكرة بديلة ؟

بهتت لتلك الملاحظة. هل هي واثقة؟ لقد خيّل إليها أنّ كفاءة ذاكرتها تتحسّن بمجرّد اطّلاعها على الصّور واستماعها إلى شرح والدها بشأنها. لم تفكّر أنّها تتحايل على ضعفها، وتملأ الفراغ بمشاهد من نسج خيالها، تتوافق مع ما تراه في الصّور! تمتمت في حيرة:

ـ لا أدري!

ـ أنت لا تذكرين شيئا.. عن حنان؟ وعن الحادثة؟

ـ للأسف، ذلك الجزء ممسوح تماما.. ولم تكن هناك صور لتلك الفترة في ألبوماتي.

ـ من المؤكّد أنّ هناك بعض الصّور. لكن لعلّ عمّي نجيب لم يرد إطلاعك عليها؟ لعلّ ذلك أفضل.. أن تنسي الحادثة وما زامنها من ألم!

والدها لم يرد لها أن تتذكّر لقاءها بحنان؟ وحادثتها؟ هل كان

ذلك الاختيار الأفضل من أجل مصلحتها؟ سمعت فراس يضيف:

ـ قد يكون النّسيان نعمة، من حيث لا تدرين!

لم تكن قد تناولت مأساتها من تلك الزّاوية. كانت تعيش نقاهتها بنزعة دراميّة. لقد فقدت مخزونا من الذّكريات التي تمثّل جزءا من ذاتها، لذلك يهيّأ إليها أن كيانها منقوص، وأنّ حياتها المعيشة مشوّهة، لأنّها طبقة هشّة من الوجود، لا تقوم على تراكم متين لحوادث السّنوات الخالية.

ـ في الحقيقة، لقد كان أمرا مزعجا.. أن تلتقي أشخاصا فلا تتعرّف عليهم، ويتحدّث الآخرون عن أحداث لا تذكر عنها شيئا.. لم أفكّر من قبل في أنّ النّسيان قد يكون نعمة!

قال فراس متهكّما:

ـ اسأليني أنا، أخبرك عن نعمة النّسيان! كلّ صباح، أتمنّى أن أستيقظ في مكان آخر، لا يعرفني فيه أحد، ولا أعرف فيه أحدا.. وقد مسحت ذاكرتي!

اتّسعت عيناها دهشة. يا للأمنية الغريبة! لطالما تمنّت هي العكس، أن تستيقظ ذات يوم لتجد ذاكرتها قد أعيدت تعبئتها بمخزون الذّكريات النّاقصة. تساءلت في حيرة، ما تكون المآسي التي عاشها، حتّى يتمنّى النّسيان المطلق؟ هل لذلك علاقة بحنان؟ فكّرت أنّ الفرصة سانحة لتسأل، لكنّها سمعته يواصل بنبرة حالمة:

ـ إعادة اكتشاف العالم، بعيون طفل.. لا شكّ أنّ ذلك ممتع!

حسنا. لقد كان ذلك ممتعا، في بعض الأحيان. والدها يقول إنّ ذوقها في الأكل قد تحسّن، وصارت تقبل على بعض الأطعمة التي كانت ترفضها في السّابق. لقد أعادت اكتشاف نفسها، وميولاتها، حتّى أنّها تركت دراسة القانون الذي قطعت فيه شوطا قبل حادثتها.

صارت النّصوص القانونيّة ثقيلة وعسيرة الفهم، بعد أن كانت على رأس دفعتها. وبعد أن حاولت في فترة نقاهتها مراجعة ما فاتها ودخول اختبارات نهاية السّنة، استسلمت وقرّرت التّخليّ عن مسارٍ تساءلت كثيرا إن كانت قد اختارته بملء إرادتها!

ـ عليّ أن أعترف.. من يراك لا يمكن أن يتعرّف إلى ليلى!

ـ عفوا؟

ـ أنت لا تذكرين لقاءنا في سويسرا.. لكنّني أذكر. ولهذا أجدك مختلفة الآن.. لقد عرفت حنان طوال سنواتها العشرين.. وعرفتك أيضا لفترة قصيرة.. لقد كنتما مختلفتين، أنت وحنان، من نواحٍ كثيرة.. لكنّك الآن نسخة ثالثة، كأنّما أنتنّ ثلاث شقيقات!

ـ هل.. أنا مختلفة إلى هذه الدّرجة؟

فكّر لبرهة ثمّ قال:

ـ لا شكّ أنّ الحادثة غيّرتك!

لقد غيّرته الحادثة أيضا. غيّرته قطعا. لكن ليس في نفس الاتّجاه. تنهّد وهو يضيف:

ـ ليتني أستطيع أيضا أن أتغيّر.. في اتّجاه السّكينة والطمأنينة!

ـ في أيّ اتّجاه تغيّرت؟

ـ في اتّجاه الفوضى والعبث!

أطلق ضحكة أخرى تخالطها مرارة جليّة. قالت في هدوء:

ـ وما يمنعك أن تسير في اتّجاه مختلف، الآن؟

هل تراه يستطيع؟ لو لم يكن يشغل نفسه بالعمل، ربّما كان فقد عقله منذ زمن. شرد لبعض الوقت. دقائق ربّما. يفكّر في حاله، وفي حياته التي توقّفت منذ تلك الحادثة. ثمّ انتبه. لماذا يحدّثها بكلّ

هـذا؟ معاناتـه وحيرتـه الـتي لـم يصارح بهـا أحـدا مـن قبـل؟ أنكـر عـلى نفسـه لحظـة ضعفـه السّـخيفة تلـك.

دون صوت، غادر مكانه منسحبا إلى داخل الغرفة.

مـرّة أخـرى، تسـاءلت ليـلى، بعـد أن انقضـت دقائـق طويلـة مـن السّـكون عـلى الجانـب الآخـر، هـل يكـون قـد رحـل؟ أطلّـت بحـذر عـلى شرفتـه. كان قـد اختفـى. دلفـت إلى غرفتهـا وكلماتـه الأخـيرة تشـغلها. لقـد تغـيّرت! لقـد كانـت تحـاول النّبـش في تاريـخ توأمهـا لتتعـرّف عليهـا أكـثر.. لكنّهـا يومـا بعـد يـوم تكتشـف أنّهـا لا تعـرف نفسـها حـتّى.

فكّـرت، مـن يمكنهـا أن تسـأل عـن شـخصيّتها القديمـة؟ فهالهـا أن تكتشـف القطيعـة التّامّـة بـين ماضيهـا وحاضرهـا! لـم يكـن لديهـا أصدقـاء مقرّبـون فيمـا مـضى، أم لعلّهـا فقـدت صلتهـا بهـم؟ لـم تعـد واثقـة. كانـت وحيـدة، تمامـا، قبـل أن تلتقـي سـحر عـلى مقاعـد المـدرّج، في محاضرتهـا الأولى في كلّيّـة الصّحافـة. لعلّهـا صادقـت آخريـن في كلّيّـة القانـون؟ لكـنّ شاشـة هاتفهـا الـتي بقيـت خاليـة مـن الاتّصـالات الـواردة خـلال فـترة نقاهتهـا، كانـت شـاهدة عـلى خلـوّ حياتهـا مـن الأصدقـاء الحقيقيّـين!

نعـم، لقـد صادفـت نوعـا آخـر مـن الأصدقـاء. يتوقّفـون فجـأة في ردهـات الجامعـة، يبـدون دهشـتهم مـن اختفائهـا، وكأنّهـم يكتشـفون غيابهـا للتـوّ، عـن حفـلات النّـادي ورحلـة الاسـتجمام وملتقـى السّـفراء الشّـبّان! لقـد كانـت محاطـة في وقـت مـضى بتلـك الوجـوه المتملّقـة والصّداقـات المزيّفـة. لكـن هـل كان أحـد منهـم يعرفهـا حقّـا؟ لا تظـنّ.

ذلـك المسـاء، فتحـت دفترهـا، وشـطبت سـطر فـراس. كتبـت اسـمه مـن جديـد في سـطر فـارغ، ووضعـت أمامـه علامـة اسـتفهام. ثـمّ أضافـت سـطرا آخـر، في رأسـه اسـم جديـد:

ـ ليلى: من أنت؟

***

كان لقـاء الأمـس مصادفـة. لكـن لا يمكنهـا أن تدّعـي أنّ خروجهـا إلى الشرفـة عـصر اليـوم لـم يـأت بعـد تفكـير وتخمـين وتـردّد. مـاذا لـو كان هنـاك اليـوم أيضـا؟ تناولـت الدّيـوان وجلسـت في موضـع الأمـس بهـدوء. أصاخـت السّـمع، لعلّهـا تشـعر بوجـوده مـن عدمـه. لكنّهـا لـم تجـد حركـة ولا نفسـا. حـتّى لـو كان هنـاك، لـن يمكنهـا أن تعـرف. تخيّلـت، لـو أنّ فـراس يسـتمع إليهـا الآن، أيّ رسـالة تـودّ أن توجّـه إليـه؟

قلّبـت الصّفحـات، ثـمّ اختـارت مقطعـا مـن قصيـدة «الصّبـاح الجديـد» وشرعـت تقـرأ في خفـوت مثـل عادتهـا:

إنَّ سِحْرَ الحَيَاةْ خَالِدٌ لَا يَزُولْ

فَعَلَامَ الشَّكَاةْ مِنْ ظَلَامٍ يَحُولْ

ثُمَّ يَأْتِي الصَّبَاحْ وتَمُرُّ الفُصُولْ

إنْ تَقَضَّى رَبِيعْ سَوفَ يَأتِي رَبِيعْ

اسْكُنِي يَا جِرَاحْ واسْكُتِي يَا شُجُونْ

قـرأت حـتّى نهايـة القصيـدة، ثـمّ توقّفـت. أصغـت مـرّة أخـرى. لا شيء. غـادرت الشّرفـة بهـدوء كمـا دخلـت.

في عـصر اليـوم التّـالي، اختـارت مقطعـا آخـر مـن مطلـع «نشـيد الجبّـار»:

سَأَعِيشُ رغْمَ الدَّاءِ والأعْدَاءِ كالنّسْرِ فَوْقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ

أرْنُو إلَى الشَمْسِ المُضِيئَةِ هَازِئًا بالسُّحْبِ والأمْطَارِ والأنْواءِ

سألت نفسها ذلك المساء، بعد أن رجعت إلى غرفتها دون أن تسمع صوتا في الشّرفة المجاورة، ما الذي أنت بصدده بالضّبط يا ليلى؟ لقد كانت تعتبر فراس عدوّها منذ أيّام قليلة.. فلماذا هذا الاهتمام المفاجئ بأمره؟ هل تحاول أن ترفع من معنويّاته وتطيّب خاطره أم ماذا؟

قرّرت ألّا تخرج إلى الشرفة في اليوم الثالث.

بعد يومين من عزوفها عن الخروج إلى الشّرفة، نازعها خاطر آخر. هل ستغيّر نظام حياتها بسببه؟ ماذا لو كان في شرفته، وماذا لو لم يكن؟ ليس من المفترض أن يؤثّر ذلك عليها بشيء. لقد كفّ أذاه عنها في الأسبوع الأخير، واعتذر أيضا بعد حفلة الشّواء. يمكنها أن تعامله بشكل محايد. لقد كان مؤدّبا في المرّة الفارطة، ولم يسرف في الحديث أيضا. يمكنها أن تعتبر أنّه يدرك حدوده. إن كان موجودا في الشّرفة ولا يقاطعها احتراما لخصوصيّاتها، فهو أمر يُحمد له. وإن لم يكن موجودا أيضا، فذلك أفضل!

قرّرت أنّ بإمكانها أن تفعل ما تشاء منذ ذلك الحين، وألّا تضع حسابا لجارها غريب الأطوار. في اليوم السّادس، جلست في الشّرفة مثل العادة. لم تحاول أن تعرف إن كان فراس موجودا. أقنعت نفسها بأنّ الأمر لا يهمّها. كانت تقرأ في خفوت، حين ارتفع صوت منال قادما من الأسفل، من الحديقة.

- ليلى.. هل تريدين الانضمام؟

رفعت رأسها عن الدّيوان، فرأت منال ورانيا تلوّحان لها. كانتا تجمعان الورود في سلّة من الخيزران، وتصفّفها رانيا في عقود. ابتسمت وهتفت:

- حسنا.. أنا آتية!

في تلـك اللّحظـة، سـمعت صـوت بـاب الشّرفـة المجـاورة يفتـح، ثـمّ رأت منـال وهـي تلـوّح مـن جديـد:

ـ فراس، أنت هنا!

ـ لقد أيقظني صراخك.. أيّتها المزعجة!

ضحكـت منـال، وامتقـع وجـه ليـلى. أرأيـت؟ لـم يكـن هنـاك. مـا كان عليـك القلـق بشـأنه. وقفـت عـلى الفـور وأشـارت إلى منـال بكفّهـا: أنـا قادمـة، وغـادرت الشّرفـة دون كلمـة إضافيّـة.

***

لا يعلـم مـا الـذي أصابـه. كان الاسـتماع إلى إلقائهـا العفـويّ والمبتـدئ يشـعره بتحسّـن. لأوّل مـرّة منـذ زمـن بعيـد لا يـدرك مـدى سـحقه، وجـد مصـدرا للاسـترخاء.. لا هـو موسـيقى كلاسـيكية ولا عـزف منفـرد عـلى العـود ولا مقطوعـة أوبـرا. كلّ تلـك المسـكّنات السّـابقة لـم تعـد تجـدي نفعـا. وقـد خـاف إن هـي عرفـت بوجـوده هنـاك كلّ عـصر أن تنقطـع عـن جلسـتها الشـعريّة المطمئنّـة. لذلـك كان يتظاهـر بالغيـاب، ولا يقاطعهـا. بشـكل مـا، كان يشـعر بالكلمـات تخاطبـه هـو دون غـيره. لـو أنّهـا تعمّـدت أن تنتقـي المقاطـع لتؤثّـر بـه، فقـد أجـادت الانتقـاء!

وفي ذلـك العـصر، وهـي تقـرأ مـن قصيـدة «الجنّـة الضّائعـة» انتابتـه رغبـة مفاجئـة بالبـكاء! حـين وصلـت إلى قـول الشّـاعر:

مَاذَا جَنَيْتَ مِنَ الحَيَاةْ   ومِنْ تَجَارِيبَ الدُّهُورْ

غَيْرَ النَّدَامَةِ والأَسَى   واليَأسِ والدَّمْعِ الغَزِيرْ

انتبـه إلى دقّـة وصـف الأبيـات لحالـه. ألـم تكـن حياتـه مزيجـا مصفّـى

مـن النّـدم والحـسرة واليّـأس والبـكاء عـلى الأطـلال؟ هـل هـذه هـي غايـة مـا يسـعى إليـه؟ هـل انتهـت حياتـه عنـد ذلـك الحـدّ؟ انسـحب عـلى الفـور إلى الدّاخـل قبـل أن يختنـق بعبرتـه وينفضـح وجـوده. جلس عـلى طـرف السّريـر، يتنفّـس بسرعـة واضطـراب، وتسـاءل في جـزع.. مـا الـذي فعلتـه بنفسـك طيلـة السّـنوات الماضيـة يـا فـراس؟ كيـف انتهيـت إلى مـا أنـت عليـه؟

بعـد دقائـق، كان قـد هـدأ. سـمع صـوت منـال تنـادي جارتـه. تـردّد في الخـروج، لكنّـه غلـب ارتباكـه وقـرّر الظهـور. تعمّـد أن يحـدث صوتـا صاخبـا وهـو يـشرع بـاب الشّرفـة المفتـوح أصـلا، كأنّـه لـم يكـن هنـاك قـطّ. بعـد أن سـمع خطواتهـا تغـادر الشّرفـة، هتفـت منـال:

- فراس، ألن تأتي؟

كان يهـمّ بالانضمـام إليهـنّ في الحديقـة، لكنّـه أحجـم فجـأة. كان قـد اعتـاد ملاعبـة رانيـا ومشـاركتها لهوهـا، في حضـور منـال غالبا.. لكنّـه اليوم يشـعر بـأنّ مشـاركته غـير مناسـبة. بـدل ذلـك، اتّخـذ مقعـده السّـالف في الشّرفـة، وتظاهـر بالانشـغال. بعـد لحظـات، لمـح طيفهـا وهـي تثـب بخطـوات واسـعة في اتّجـاه منـال وابنتهـا. راقبهـا في شيء مـن الفضـول. هـذه قطعـا ليسـت ليـلى الـتي يعرفهـا. بـل إنّهـا تذكّـره بشـخص آخـر. تذكّـره بحنـان الطّفلـة البريئـة الـتي لـم تدنّسـها حيـاة الصّخـب الجامحـة والصداقـات المشـبوهة. لقـد كانـت يومـا مـا، تثـب أمامـه وتلهـو بـين الشـجيرات، وتطلـق ضحكـة صافيـة فارقتهـا بعـد ذلـك إلى الأبـد.

تنهّـد، ثـمّ قـرّر أنّ عليـه أن ينشـغل عـن التّفكـير بهـذا الأمـر. قـام وغـيّر ثيابـه. شيء مـن الجـري سـيكون مفيـدا لمزاجـه المتقلّـب اليـوم.

-١٠-

خرجـت في الصّبـاح، دون سـحر هــذه المـرّة. كانـت تنتظرهـا بعـض المهـامّ الجـادّة. مـرّت عـلى شـقّتها، حيـث كانـت أعمـال الهـدم واقتـلاع البـلاط القديـم قـد بـدأت كمـا وعـد فـراس. تفقّـدت المـكان، واطمأنّـت إلى أنّ التّعديـلات الـتي طلبتهـا قـد أضيفـت إلى التّصاميـم، ثـمّ انصرفـت. مـرّت عـلى وزارة التعليـم العـالي، حيـث قدّمـت طلبـا لمعادلـة شـهادتها مـن كليّـة الصّحافـة السـويسريّة، ثـمّ قصـدت مقرّ جريـدة في وسـط البلد، حيـث تنتظرهـا مقابلـة عمـل أولى. كانـت قـد اتّصلـت ببعـض المكاتـب في الأسـابيع الماضيـة وتقدّمـت بعـدد مـن الطلبـات، وحـدّدت لهـا مواعيـد المقابـلات تباعـا. لـم تكـن قـد تمكّنـت مـن لغـة الضّـاد بعـد، لذلـك فقـد ركّـزت عـلى الصّحـف النّاطقـة بلغـة «موليـير». فكّـرت أنّهـا قـد تعانـق لغتهـا الأمّ في وقـت لاحـق عـلى أعمـدة الجرائـد، حـين تجـد في نفسـها الثّقـة الكافيـة.

عند منتصف النّهار، اتّصلت بها سحر. بدا صوتها قلقا.

ـ هل يمكنك المجيء؟ هناك أمر هامّ ينبغي أن أخبرك به.

مـرّت إليهـا عـدوى القلـق، فاسـتقلّت سـيّارة أجـرة عـلى الفـور إلى مـنزل سـحر. كان الحـيّ أقـلّ بثّـا للرّعـب في فؤادهـا هـذه المـرّة، أو لعلّهـا تعـوّدت عـلى المشـهد، فمـا عـاد يؤثّـر بهـا. وصلـت إلى الزّقـاق الـذي حفظـت موقعـه وطرقـت عـلى بـاب المـنزل.

اسـتقبلتها والـدة سـحر بنفـس الحفـاوة، وقادتهـا إلى غرفـة داخليّـة. كان مأمـون وسـحر يجلسـان معـا عـلى الأريكـة، وقـد بـدا عـلى ملامحهمـا الجدّيّـة.

ـ ليـلى، أعتـذر إن كنـت أفزعتـك.. لكـنّ مأمـون أصرّ عـلى قدومـك الآن، للأهميّـة القصـوى.

شرحــت ســحر. مأمــون تطــوّع في فــترة إجازتــه للعمــل مــع جمعيّــة مدنيّـة تتحـرّى قضايـا الفسـاد، تتلقّـى الشّـكاوى مـن المواطنـين، ترصدهـا وتجمـع الوثائـق الممكنـة، ثـمّ ترفعهـا إلى الهيئـات الحكوميّـة المختصّـة. مسـاهمة مــن القــوى الشّــعبيّة في تيســير عمــل الدّولــة. أومــأت ليــلى برأسـها في انتبـاه. كانـت متأهّبـة للاسـتماع إلى الأسـوأ وقـد اسـتنفرت كلّ حواسّـها. قـال مأمـون أخـيرا:

ـ ليلى، الدّور القادم على خالك.

ـ ماذا تعني؟

ـ لقـد ورد اسـمه في قائمـات رجـال الأعمـال الفاسـدين المرفوعـة للهيئـة الوطنيّـة لمكافحـة الفسـاد. والدّعـاوى ترفـع تباعـا لـدى المحكمـة.. إنّهـا مسـألة وقـت وحسـب قبـل أن يصلـه الـدّور.

ـ والمطلوب منّي؟

قالت في عدوانيّة غير مبرّرة، وقد شعرت بأنّها مستهدفة بشكل ما.

ـ ليـلى، أعلـم أنّـه خالـك.. وقـد صعقـت حـين ورد الاسـم أمامـي. ليـس بيـدك أيّ شيء الآن.. لكنّـني أردت أن تكـوني عـلى بيّنـة، حـتّى لا تقـع الصّدمـة عـلى حـين غفلـة.

ـ شكرا لاهتمامك.

قالـت ذلـك ووقفـت مغـادرة. لحقـت بها سـحر عنـد البوّابـة. احتضنتها مواسـية. لكـنّ ليـلى امتنعـت عـن البـكاء في مكابـرة، رغـم الألـم الـذي يسـتحوذ عــلى فؤادهــا. هــذا كثـير عليهــا. والدهــا، ثــمّ خالهــا. حــين اختلـت بنفسـها في سـيّارة الأجـرة، بكـت في صمـت واستسـلام. مـا الـذي يسـعها عملـه الآن؟

عـادت إلى القـصر قبيـل العـصر، ونامـت عـلى الفـور، كأنّمـا تفـرّ مـن مواجهـة مخاوفهـا. اسـتيقظت عـلى وقـع طرقـات عـلى بـاب غرفتهـا. طرقـات أمـين. كان يبتسـم، وهـو يقـول بلهجـة مغريـة:

ـ هل أنت متفرّغة، في نهاية الأسبوع؟

تذكّـرت حديثهمـا عـن العدالـة الاجتماعيّـة ذات فجـر، في الحديقـة الخلفيّـة. لـم يكـن ذاك النّقـاش ليروقهـا بعـد صدمـة الظّهـيرة. أمـين، هـل تعلـم أنّـك تعمـل عـلى دمـار عائلتـك؟ لـم تكـن في مـزاج يسـمح لهـا بتحديـد المسـؤوليّات، وتصويـب أصابـع الاتّهـام في الاتّجـاه الصّحيـح. قالـت بلهجـة سـاخرة:

ـ ماذا؟ هل تريد تعريفي على أفراد العصابة؟

اتّسـعت عينـاه وأخـذ يتلفّـت إلى جانـبي الممـرّ في حـذر، ثـمّ همـس معاتبـا:

ـ أيّ عصابة سامحك الله؟

ـ ماذا إذن؟

قال في شك:

ـ أنت لست في مزاج جيّد!

لم يكن بإمكانها إخفاء ضيقها. أردف أمين بلهجة مرحة:

ـ عندي العلاج المناسب لحالتك! رحلة تخييم مع فريق الكشّافة!

ـ تخييم؟ كشّافة؟

ـ هنـاك مخيّـم نهايـة هـذا الأسـبوع، لفرقـة الجوّالـة والدّليـلات. لا أقـترح عليـك الانضمـام عـلى الفـور، إنّمـا تعـالي لاستكشـاف الأمـر، وإن راق لـك، أمكنـك التّسـجيل.. مـا رأيـك؟

ـ جوّالة؟! ودليلات؟!

لـم تكـن قـد جرّبـت التّخييـم في صغرهـا. أو لعـلّ ذلـك سـقط مـن ذاكرتهـا أيضـا؟ لا، إنّهـا واثقـة. لـو أنّهـا قـد فعلـت، لكانـت وجـدت أثـرا للحـدث في صـور طفولتهـا. كمـا أنّ الحـسّ الأمـنيّ لـدى والدهـا أيّـام اعتناقـه الحيـاة الدّيبلوماسـيّة يؤكّـد لهـا أنّـه لـم يكـن ليسـمح بسـفرها دونـه للمبيـت في الخـلاء. لذلـك، فقـد كانـت مفـردات المعجـم الكشـفيّ غريبـة عنهـا.

ضحك أمين وقال مداعبا:

- هـل سـتكرّرين كلّ عبـارة أقولهـا بلهجتـك المسـتنكرة هـذه؟ الأمـر بسـيط.. الكشّـافة، عبـارة عـن نشـاط تربـويّ وترفيهـي للأطفـال واليافعـين.. فرقـة الجوّالـة تخـصّ الأكـبر سـنّا، مـن الثامنـة عـشرة إلى الخامسـة والعشريـن. نصحبهـم في مخيّمـات كشـفيّة، في مناطـق طبيعيّـة في مختلفـة أنحـاء البـلاد، ونجعلهـم يشـاركون في أنشـطة ثقافيّـة وتوعويّة، تعلّمهـم الاعتمـاد عـلى النّفـس وحـبّ الوطـن، وقيمـا كثـيرة أخـرى. مـاذا قلـت؟ هـل سـتأتين؟

رحلـة؟ في هـذا التّوقيـت؟ نظـرت إليـه في إشـفاق. كـم أنـت خـالي البـال يـا أمـين! اعتـذرت بنفـس الأسـلوب الـذي دأبـت عـلى اسـتخدامه مـع الجـدّة:

- لا أدري.. لا أجدني مستعدّة لهذا الآن.

- إن غيّرت رأيك، أخبريني.

بعـد العشـاء، اختفـى خالهـا في غرفـة المكتـب مـع ياسـين مثـل عادتـه، وصعـد فـراس إلى غرفتـه، وانسـحب أمـين مثـل العـادة أيضـا، ولـم يشـكّ أحـد في خروجـه للسّـهر مثـل سـائر لياليـه. جلسـت ليـلى إلى منـال ورانيـا في الصّالـة العلويّـة، والقلـق يسـاورها. كانـت تشـارك منـال جـزءا مـن السّـهرة كلّمـا كانـت منـال متاحـة. فهـي كثـيرا مـا تـزور صديقـات أو تمـضي

أيّاما عند أهلها. وفي تلك الأمسية التي تواجدت فيها منال معها، كان عقل ليلى مشغولا بتصريحات مأمون الصّادمة.

ـ تبدين قلقة.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

ـ بعض التّعب لا غير. كان يوما مرهقا.

بدّدت شكوك منال بأعذار واهية، لكنّها لم تنجح في خداع نفسها. كانت حتّى تلك اللحظة متردّدة. هل عليها أن تخبر خالها أم تتجاهل الأمر؟ ربّما يمكنها الإفضاء بمخاوفها إلى منال، وهي تتولّى نقلها إلى زوجها؟ رمقتها في إشفاق. ستختفي علامات الاطمئنان من ملامحها، وتنتهي حياة الرّفاهة والرّاحة! كيف ستكون أيّامك المقبلة يا منال؟ لم يكن من الهيّن أن تحمل إليها ذلك الخبر.

تساءلت بعد برهة، هل سيغيّر حملها الخبر شيئا؟ التّحقيق مع رجال الأعمال الفاسدين معلوم للجميع. إن كان خالها بريئا، فلن يغيّر الخبر الذي بحوزتها شيئا. سيثبت التّحقيق براءته، ولو بعد حين. وإن كانت تهمة الفساد ثابتة، فهل سيدفعه إخطارها له بالأمر إلى إخفاء الأدلّة المُدينة له مثلا؟ أو التصرّف في الأموال المختلسة قبل أن يقع القبض عليه؟ انقبضت ملامحها عند ذلك الخاطر. لا يمكنها أن تكون جزءا من هذا. إن كان قد ارتكب جرما، فقد وجبت محاسبته. إنّها تؤمن بسيادة قانون، وحريصة على أن تأخذ العدالة مجراها الطبيعيّ. ما فائدة القلق إذن؟

بعد زهاء السّاعة من المسامرة، اعتذرت من منال ودخلت غرفتها. قرّرت ألّا تشارك أحدا ما أفضى به إليها مأمون.

***

ـ هل ستأتين؟

علـى مائـدة العشـاء مسـاء الغـد، كان أمـين يكـرّر عليهـا عرضـه المغـري، بصـوت هامـس. رحلـة التّخييـم. لـمَ لا؟ مـا بـدا لهـا بالأمـس طيشـا غـير مسـؤول، صـار يلـوّح لهـا ببالونـات ملوّنـة مثـل حفلـة يـوم العيـد! حـين أعلنـت انعـدام مسـؤوليّتها فيمـا يحصـل في مسـألة خالهـا، وجـدت في نفسـها رغبـة في مزيـد مـن الفـرار. النّـوم وحـده لـم يعـد كافيـا لحجـب الأفـكار المزعجـة. فلتنظـر إلى أمـين، وتتخـذه قـدوة. كان قـادرا عـلى فصـل الشـخصيّ والوطـنيّ بسلاسـة وبراعـة! لـم تكـن قـد اكتشـفت شـيئا مـن موطنهـا، عـدا العاصمـة. ولـم يكـن مـن الحكمـة أن ترفـض الفرصـة الـتي جـاءت تسـعى إليهـا. ابتسـمت، وهمسـت بدورهـا:

ـ هل يمكنك الحصول على إطلاق سراح من الجدّة؟

رفـع أمـين رأسـه وألقـى نظـرة حـذرة عـلى السـيّدة الكبـيرة الـتي كانـت تتنـاول وجبتهـا في صمـت، ثـمّ همـس مـن جديـد:

ـ أقترح التسلّل خفيّة.. وترك رسالة فدية!

كتمت ضحكتها، وقالت في عناد:

ـ لا أحبّ هذا الأسلوب!

ثمّ التفتت إلى الجدّة على الفور، وقالت بصوت عالٍ:

ـ جـدّتي، لقـد اقـترح عـليّ أمـين المشـاركة في مخيّـم كشـفيّ نهايـة هـذا الأسـبوع. هـل تسـمحين لي بالذّهـاب؟

امتقـع وجـه أمـين، وأخفـى وجهـه في طبقـه، بينمـا اسـتقرّت أنظـار الجميـع عـلى الجـدّة، متطلّعـين إلى حكمهـا. أنـار وجـه الحاجّـة فريـدة بابتسـامة واسـعة، وهـي تقـول بلهجـة حالمـة:

ـ آه يـا ابنـتي، لقـد أعـدت إليّ ذكريـات الأيّـام الخـوالي! أيّـام كنـت

زهـرة.. ثـمّ قائـدة، في الخمسـينيات والسّـتينيات!

رفع أمين رأسه وهتف غير مصدّق:

ـ جدّتي، أنت كنت مع الكشّافة؟!

هزّت رأسها في حماس وأردفت تقول في حنين:

ـ لقـد كانـت أحـلى الأيّـام.. أيّـام كان الكشّـاف التّونسيّ شـخصا مسـؤولا وفاعـلا، لـه دوره في صناعـة الـرّأي العـامّ، والوقـوف ضـدّ قـرارات المسـتعمر! لقـد خرجنـا، بعـد موجـة الاعتقـالات الـتي طالـت الوطنيـين التّونسـيين سـنة ١٩٥٢ وصرخنـا رفضـا للقمـع والظّلـم.. كنّـا أحـرارا، ضمائرنـا حـرّة، وإرادتنـا حـرّة.. ورغـم إيقـاف الجمعيّـة حينهـا، ثبتنـا عـلى مواقفنـا، ولـم نرضـخ حـتّى سـمح لنـا بالنّشـاط مـن جديـد سـنة ١٩٥٤!

همس أمين لليلى:

ـ إذا استمرّ درس التّاريخ هذا إلى منتصف اللّيل، لا تلومي إلّا نفسك!

همست بدورها:

ـ لكنّها على الأقلّ لن ترفض!

أومـأ في تسـليم، واسـتمرّ ينصـت إلى ذكريـات جدّتـه الـتي أخـذت تتدفّق في حماسـة متزايـدة. رحلـة التّخييـم الأولى، الاشـتباكات مـع المسـتعمر، مغامـرات الـبرّ والبحـر، والكثـير مـن الأعمـال البطوليّـة الـتي تبـدو مبالغـا فيهـا، ولكـن لا أحـد يجـرؤ عـلى المقاطعـة والاعـتراض. وكانـت ليـلى تسـتمع بابتسـامة، وعينـين مأخوذتـين. يـا للسّـذاجة، إنّهـا تصـدّق كلّ مـا يقـال لهـا! تنهّـد في تملمـل، ثـمّ التفـت إلى جانـب المائـدة. كان والـده وياسـين قـد اندمجـا في حديـث جانـبيّ، عـن مشـاريع وأعمـال تخصّهمـا.. بينمـا كانـت نظـرات فـراس سـارحة، باتّجـاه ليـلى. نقـل نظراتـه بينهمـا في شـكّ. لـم تكـن ليـلى منتبهـة، واهتمامهـا موجّـه إلى الجّـدّة وحدهـا، بينمـا اسـتمرّ تحديـق أخيـه بهـا بنظـرة غريبـة، لا يـدرك سرّهـا. فجـأة، انتبـه

فـراس إلى مراقبتـه، فأشـاح بوجهـه بسرعـة، ثـمّ وقـف معتـذرا. تابعـه أمـين في حـيرة وهـو يغـادر قاعـة الطّعـام بشـكل مباغـت. ثـمّ عـاد إلى حديـث الجـدّة الـذي لـم ينتـه. قـال عـلى حـين غـرّة، في نفـاد صبر:

ـ إذن هل تحصل حفيدتك على مباركتك لرحلة تخييمها الأولى؟

حدجتـه السـيّدة الكبـيرة بنظـرة مسـتاءة. لقـد تجـاسر عـلى مقاطعتهـا. لكنّهـا ابتسـمت وهـي تعـود بعينيهـا إلى ليـلى:

ـ اهتمّي بنفسك جيّدا، ولا تتبعي هذا الولد المتهوّر!

***

انطلقـت الحافلـة بعـد الفجـر، وعـلى متنهـا اثنـان وعـشرون فـردا مـن الشّـباب، عـشر إنـاث ودزّينـة مـن الذكـور. كانـوا جميعـا -مـا عـدا ليـلى- يرتـدون الـزيّ الرّسـميّ للكشّـافة: قميـص بـنيّ مـع سروال أزرق داكـن للشّـباب ونطـاق للفتيـات، مـع مناديـل تحيـط بالعنـق وأحذيـة جلديّـة سـوداء.. بالإضافـة إلى شـارات عـدّة تزيّـن الكتفـين وجيـوب القميـص.

كانـت الوجهـة أقـصى شـمال ولايـة طبرقـة، حيـث تنتظرهـم سـفينة سـتبحر بالمجموعـة إلى جزيـرة جَالْطَـة، عـلى بعـد حـوالي سـتين كيلومـترا مـن مـرافئ طبرقـة. جالطـة في الحقيقـة هـي الشّـقيقة الكـبرى لثمـاني جـزر صغـيرة تشـكّل أرخبيـلا بركانيّـا في أقـصى الحـدود البحريّـة شـمال البـلاد التّونسـيّة، وهـي محميّـة طبيعيّـة بيئيّـة فريـدة مـن نوعهـا، تسـتوطنها قبيلـة ضئيلـة لحيـوان الفقمـة المهـدّد بالانقـراض.

حـكى أمـين لليـلى شـيئا مـن تاريـخ الجزيـرة عـلى الطّريـق. لقـد كانـت مأهولـة منـذ عقـود، مـن إيطاليـين وفرنسـيين، وبهـا قريـة واحـدة صغـيرة مكوّنـة مـن أربعـين مسـكنًا وكنيسـةٍ ومدرسـة. لكنّهـا أخليـت مـن السّـكان

بعـد قـرار الحكومـة التّونسـيّة بتأميـم أراضي المعمّريـن سـنة ١٩٦٤. وفي خمسـينيات القـرن العشريـن، أقـام الزّعيـم الرّاحـل الحبيـب بورقيبـة هنـاك سـنتين، منفيّـا. أمّـا في الوقـت الحـالي، فـلا أحـد يقيـم في تلـك الجزيـرة المنعزلـة، مـا عـدا عـدد مـن خفـر السّـواحل وأفـراد وكالـة حمايـة وتهيئـة الشّريـط السّـاحلي، وربّمـا يتوقّـف بهـا الصيّـادون ليـلا، احتمـاء بشـواطئها مـن ريـح «الـشرش» القاسـية، ولبيـع الأسـماك للسـيّاح المخيّمـين في ضيافتهـا.

مـا إن ارتفعـت الشّـمس في كبـد السّـماء، حـتّى سرى الحمـاس في ركّاب الحافلـة بعـد الخمـول الأوّل، وأخـذت الحناجـر تصـدح بأناشـيد الكشّـافة المعروفـة:

شدّوا الرّحال وهيّوا معنا   هاتوا الحقائب، هاتوا الحبال

في الغابة تحلو أيّامنا   وإلى العلا تعلو الجبال

قرابـة السّـاعة السّـابعة صباحـا، كان الكشّـافون قـد انتظمـوا في المركـب الـذي سـيقلّهم إلى الجزيـرة، وجهتهـم النّهائيّـة. أربـع سـاعات هـو زمـن الرّحلـة المرتقبـة.. أربـع سـاعات مـن الغنـاء والمـرح!

حـين أصبحـت السّـفينة في عـرض البحـر، اسـترجعت ليـلى مـرّة أخـرى تفاصيـل مطويّـة وزارة السّـياحة، فابتسـمت. يبـدو المشـهد الآن أقـرب للصّـور مـن وسـط العاصمـة. تـسرح نظراتهـا عـبر درجـات اللّـون الأزرق، مـن السّـماوي إلى الفـيروزيّ إلى ذاك الضّـارب إلى الاخـضرار.. وقـوارب الصّيـد الـتي تناثـرت عـلى صفحـة المـاء. بعـد سـاعة واحـدة، أصابهـا دوّار البحـر، ففضّلـت الـنّزول إلى المقصـورة طلبـا للرّاحـة.

أيقظهـا أمـين، حـين توقّـف المركـب في المينـاء. صعـدت إلى السّـطح وألقـت نظـرة شـاملة عـلى المشـهد. كان المينـاء عبـارة عـن رصيـف ضيّـق وشـبه مهجـور، بينمـا تـتراءى في الخلفيّـة هضـاب مخضـرّة وقمـم صخريّـة

مكلّلة بالشّجر. مشت يهدهدها الدّوار واهتزاز المركب تحت قدميها. حين لامست خطواتها الأرض اليابسة أخيرا، كادت تفقد توازنها، وكأنّ الجاذبيّة عادت إلى العمل فجأة بعد تعطّلها مدّة الرّحلة. على الرّصيف، كان فريق من المهندسين التّابعين لوكالة حماية وتهيئة الشّريط السّاحليّ في استقبالهم. تمّ التأكّد من ترخيص الكشّافة للتّخييم وتلقّى الجميع التّعليمات الصّارمة: يمنع الصّيد برّا وبحرا وجوّا في الجزيرة، ويرجى الحفاظ على نظافة المكان. ثمّ أفرغت السّفينة من حمولتها.

مشى الكشّافون لنصف ساعة، يقودهم دليل سبق له استكشاف الجزيرة، عبر مسالك وعرة تحفّها الحشائش والنّتوءات الحجريّة. على مدّ البصر، كانت التّلال مفروشة بلون أخضر يانع وبرّاق، شاهدة على ربيع حقيقيّ كان في أوجه، أسكر حسنه عيني ليلى المشتاقتين إلى الخضرة السّويسريّة. توقّفت المجموعة أخيرا قرب أحد الشّواطئ، ونصبت الخيام.

كان الفوج مكوّنا من عشيرتين، الجوّالة الذّكور والدّليلات الإناث. كانت أعمار الفتيات تتراوح بين الثامنة عشرة والثالثة والعشرين. وكانت ليلى أكبر الجوّالة سنّا بسنواتها الأربع والعشرين ونيف.

جرى اجتماع سريع لمجلس العشيرتين المكوّن من جميع أفرادهما، وتمّ تقسيم المهامّ. كان على كلّ عشيرة أن ترشّح فردين لتحضير وجبات اليوم، الغداء والعشاء، على أن يتداول الجميع على المهمّة طيلة أيّام الرّحلة الثلاثة. ثمّ تلا أمين، قائد عشيرة الجوّالة مهامّ الرّحلة وأهدافها.. مهامّ رياضيّة، ممارسة التسلّق والمشي ثمّ الغطس.. مهامّ لتطوير القدرات الذاتية، ألغاز وتحدّيات ذهنية.. مهامّ كشفيّة، قراءة الخرائط، استكشاف المغارات.. مهامّ علميّة، التعرّف على النّباتات والحيوانات النّادرة التي تستوطن الجزيرة. وكان

علـى كلّ عشـيرة أن تقـدّم تقريـرا في نهايـة الرّحلـة عـن المهـامّ كلّهـا، موثّقـا بالصّـور وبالأدلّـة العينيّـة أيضـا.

خرجـت ليـلى مـع الدّليـلات في جولـة اسـتطلاعيّة. تنقّلـن لسـاعتين، بـين أطـلال المنـازل الـتي كانـت يومـا مقامـا لإيطاليـين وفرنسـيّين أو تونسـيّين منفيّـين، ومازالـت دعامتهـا صامـدة بعـد مـرور عقـود، وآثـار رومانيّـة مردومـة، كشـفت عنهـا سـيول الأمطـار بعـد أن جرفـت التّربـة، ومقابـر قديمـة، وكهـوف رطبـة موحشـة. ومـع ذلـك، فقـد كان الإحسـاس بالأمـان والطمأنينـة هـو الطّاغـي. في ذلـك الفضـاء شـبه المقفـر مـن البـشر، أمكنهـا التوحّـد مـع الطّبيعـة والاسـتغراق في التأمّـلات الطّويلـة!

وقفـت أعـلى تلّـة، ومـدّت بصرهـا نحـو الأفـق، ثـمّ فتحـت ذراعيهـا وأغمضـت عينيهـا لتأخـذ نفسـا عميقـا مـن نسـيم البحـر المحمّـل برائحـة اليـود، وعبـير زهـور بريّـة، وعبـق أعشـاب لا تعرفهـا. عـلى صفحـة المـاء، تلمـح سربـا مـن النّـوارس، تطـير منخفضـة ثـمّ تنقـضّ عـلى سـمكات يمنـع صيدهـا عـلى السـيّاح، وبـين ثنايـا الجبـل القريـب، يـتراءى لهـا قطيـع مـن الماعـز الوحـشيّ يرعـى نباتـات بريّـة ويتقافـز في اتّجـاه نبـع عـين جاريـة تتدفّـق إلى سـفحِ المرتفـعِ. مـلأت عينيهـا مـن سـحر المحميّـة الـتي لـم تدنّسـها يـد المدنيّـة، ثـمّ صرخـت بمـلء صوتهـا لـيردّد هتافهـا الصّـدى:

ـ يا تونس الخضراء!

سمعت ضحكات خلفها. ربّما يحسبونها قد جنّت. لكنّها لم تبال.

حـين رجعـت إلى المخيّـم، كانـت وجبـة الغـداء جاهـزة. تنـاول الكشّـافة طعامهـم، ثـمّ انـزوت كلّ عشـيرة لتقييـم النّشـاط الأوّل. تـمّ اسـتعراض الصّـور الـتي التقطهـا الجميـع، والأعشـاب الـتي قطفـت، ثـمّ بـدأ التحضـير لنشـاط التربيـة الذّاتيّـة. كانـت هنـاك جملـة مـن المواضيـع، يقـوم الكشّـافة بدراسـتها واحـدا إثـر الآخـر، متعلّقـة بالآفـات المحدقـة

بالشّـباب: الإلحـاد، التّدخـين، شرب الخمـر، المكيّفـات، المراهنـة، الأنانيّـة. وقـد كان محـور الرّحلـة هـذه المـرّة: المكيّفـات.

همس أمين لليلى جانبا:

ـ لست مضطرّة للمشاركة اليوم.. يمكنك الاكتفاء بالاستماع.

ابتسـمت مطمئنـة وهـزّت رأسـها. إنّهـا تـدرك سـبب قلقـه. ثـمّ توسّـط أمـين الحلقـة ليعلـن بـدء النّقـاش.

تـداول أفـراد المجموعـة عـلى أخـذ الكلمـة. يقـف كلّ منهـم ليـشرح الجزئيّـة الـتي عهـد إليـه بدراسـتها قبـل الرّحلـة. تحدّثـت نسريـن عـن أنـواع المكيّفـات مـن تلـك الرّخيصـة المتداولـة عـلى مقاعـد المـدارس الثّانويّـة إلى غاليـة الثّمـن الـتي تبقـى حكـرا عـلى الطّبقـات الغنيّـة. ثـمّ جـاء دور أيمـن ليـشرح مخاطرهـا، متدرّجـا مـن الإدمـان والتبعيّـة وصـولا إلى الوفـاة. ثـمّ قدّمـت لميـس جملـة مـن الحلـول التّوعويّـة الـتي يجـب إدراجهـا ضمـن البرامـج المدرسـيّة لتحصـين المراهقـين ضـدّ تلـك الآفـة.

كان أمـين يهـمّ بختـم الجلسـة، حـين فاجأتـه ليـلى بوقوفهـا. اسـتدارت الأعـين في اتّجاههـا في فضـول. لـم يكـن قـد عهـد إليهـا بتحضـير شيء للنّقـاش. لكنّهـا أخـذت تقـول:

ـ لعـلّ معظمكـم لا يعـرف هـذا، لكنّـني فقـدت شـقيقتي، توأمـي، بسـبب جرعـة زائـدة مـن المخـدّرات، منـذ سـنوات!

سرت همهمـات دهشـة بـين أفـراد المجموعـة، بينمـا رمقهـا أمـين في شـكّ.

ـ لقـد كنـت أفكّـر وأنـا أسـتمع إليكـم، مـاذا لـو أنّ حنـان كانـت جـزءا مـن هـذه المجموعـة.. مـاذا لـو أنّهـا شـغلت بنشـاط جـادّ ومفيـد عـن مخالطـة رفـاق السّـوء.. مـاذا لـو أنّهـا وقفـت في هـذه الحلقـة نفسـها وقدّمـت تقريـرا بمخاطـر المكيّفـات؟ ربّمـا تغـيّر كلّ شيء حينهـا.

فجأة، انطلقت جوقة الكشّافة لتنشد بصوت واحد في استحسان:

ما قولكم، ما قولكم؟ نعم، نعم!

ما رأيكم، ما رأيكم؟ حسن، حسن!

إنّ الحكيم قد صدق، وبالصّواب قد نطق!

تضرّج وجه ليلى خجلا من الصّيحة الكشفيّة التي لم تتعوّد عليها بعد. كانت شجاعة منها أن تشاركهم تلك التّجربة الشّخصيّة المؤلمة. وقد كان لكلماتها وقع طيّب لدى رفاق رحلتها.

حين انفضّ المجلس، اقترب منها أمين ليقول في استغراب:

- ما الذي قلته الآن؟ حنان لم تمت بسبب جرعة زائدة! لقد كانت حادثة سيّارة!

حدجته بنظرة مشفقة. هل يحاول مثل الآخرين أن يموّه الحقيقة، أم لعلّه مخدوع هو الآخر؟ لكنّها قد عرفت كلّ شيء في حفل الشّواء. لولا تلك الصّدفة غير المتوقّعة لبقيت على جهلها.

***

استسلمت بسهولة للنّوم في كيسها القماشيّ الدّافئ المحشوّ بالقطن. كانت تحسب النّوم في العراء سيمثّل تحدّيا عسيرا لبرود أعصابها، ولم تتخيّل لحظة واحدة أنّها ستنام ملء جفنيها داخل خيمة صغيرة على شاطئ منعزل، بلا حراسة! حين فتحت عينيها، كانت الشّمس قد بدأت تتسلّق جدار السّماء في مشوارها اليوميّ من الشّرق إلى الغرب. كانت أكياس جاراتها خالية ومطويّة بعناية. كانت آخر المستيقظين. قامت على الفور، لفّت كيس نومها ورصفته إلى

جانب أمثاله، ثمّ خرجت.

على الشّاطئ، كان الجوّالة والدّليلات مجتمعين، يستعدّون لطقس الكشّافة الصّباحيّ في «ساحة العلم» وقد ارتدوا الزيّ الرّسميّ كاملا. كان قد جرى تركيب سارية طولها أمتار أربعة في وقت مبكّر من الصّباح، وانتصب الجميع حولها في وضعيّة الاستعداد. سارعت لتلحق بهم، وبما أنّها لا تلبس الزّيّ الرّسميّ فقد توجّب عليها أن تقف في الخلف، بينما رشّح كلّ قائد ممثّلا من العشيرة لسحب الحبل ورفع الرّاية. أمسك أحدهما الرّاية القانية ليفردها، بينما أخذ الثّاني يشدّ الحبال بتؤدة.

كانت المرّة الأولى بالنّسبة إلى ليلى، أن تلتقي وجها لوجه مع العلم التّونسيّ، وبذلك القرب. لم يكن العلم الخفّاق فوق مبنى السّفارة يثير فيها أدنى قدر من غرائز الانتماء والهويّة من قبل. لكنّ هذا العلم المغروس في رمال شاطئ جالطة، في الخلاء، كانت له دلالة أخرى. لقد بدا لها أداء التحيّة بذلك الشّكل الدّقيق والخاشع نوعا من الالتزام الذّاتي، بوازع وطنيّة صافيّة. لم تكن هناك وفود أجنبيّة تراقب، ولا مسؤول حكوميّ يتمّ استقباله، ولا حتّى وحدة عسكريّة تؤدّي واجبها الصّارم. لقد كانوا مجرّد مدنيّين في جزيرة نائية، يرفعون علم بلادهم في إيمان وتفانٍ مجرّدين من كلّ ضغوطات أو دوافع خارجيّة.

بعد انتهاء تحيّة العلم، تفرّق الجميع استعدادا لبرنامج اليوم. في الميناء، كان مركب صيد في انتظارهم، ليبحر بهم باتّجاه جزر الأرخبيل المجاورة. تطاير رذاذ الماء ليصيب وجوههم وسواعدهم، بينما يمرّ المركب قبالة منارة قديمة شيّدت منذ قرن ونصف، ثمّ توقّف في عرض البحر، ليقفز الكشّافون إلى الماء. كانت برودته لاذعة في ذلك الوقت من السّنة، لكنّ ثراء النّظام البيئيّ البحريّ تحت

أرجلهـم، أغراهـم بالغطـس. طحالـب غريبـة غزيـرة ومتلاصقـة، تشـكّل مرجـا بحريّـا، زهراتـه أسـماك ملوّنـة ذات أشـكال غـير مألوفـة، تطـلّ مـن جحورهـا وتحـرّك زعانفهـا برفـق ثـمّ تنزلـق بخفّـة إلى مخابئهـا حـين تمـيّز الوجـود البـشريّ الدّخيـل.

بعـد سـاعتين، توقّـف المركـب عـلى شـاطئ جزيـرة صغـيرة، وترجّلـت المجموعــة لاستكشــاف كهــوف الفقمــة. رغــم أنّ آخــر مراقبــة عينيّــة للحيـوان المهـدّد بالانقـراض عـلى شـاطئ الجزيـرة كانـت منـذ ربـع قـرن تقريبـا، فإنّـه لـم يكـن يليـق بزائـر الأرخبيـل أن يتجـاوز المغـارات دون إلقـاء نظـرة. في طريـق العـودة، توقّـف المركـب ليفاصـل الشّـباب أحـد مراكـب الصّيـد المحملـة بالسّـمك عـلى صنـدوق متخـم بسـمكات زرقـاء طازجـة لامعـة، ثـمّ سـاروا إلى المخيّـم في حماسـة، يعـدون أنفسـهم بشـواء السّـمك المرتقـب!

في المسـاء، وبعـد الانتهـاء مـن الأنشـطة، وترديـد الأناشـيد، اسـتلقى البعـض عـلى الشّـاطئ طلبـا للسّـمر، في حـين أوى آخـرون إلى خيامهـم بغيـة الرّاحـة بعـد عنـاء يـوم حافـل وممتـع. اقتربـت نسريـن مـن ليـلى الـتي جلسـت ترقـب الأفـق وتحـدّق في المـوج. بادرتهـا بعـد أن جلسـت إلى جوارهـا:

ـ أنت صديقة القائد أمين؟

ـ بل ابنة عمّته.

لمحـت لمعـة في عيـني الفتـاة ذات العشريـن ربيعـا، فأدركـت أنّ لأمـين معجبـة خفيّـة.

ـ أنت حديثة عهد بالحركة الكشفيّة؟

ـ هذا مخيّمي الأوّل. ماذا عنك؟

ـ لقد تدرّجت عبر الفرق، منذ كنت في الخامسة!

ـ هذا مدهش! أغبطك على تجربتك الجميلة.

ابتسمت نسرين في فخر، ثمّ استلقت على ظهرها إلى جوار ليلى، موجّهة بصرها نحو السّماء. انضمّت إليها ليلى واسترخت على الرّمال الباردة. في ذلك الوقت، كانت غيوم متفرّقة تسبح فوق رأسيهما. ما عدا ذلك، فقد كان بالإمكان تمييز ما لا حصر له من النّجوم بشكل واضح. غمغمت ليلى:

ـ إنّها رائعة!

قالت نسرين على الفور، متباهية بخبرتها:

ـ في كلّ مرّة نخرج فيها إلى الخلاء، يمكننا رؤية النّجوم بشكل واضح. في الحقيقة، أضواء المدينة هي السبب في ظلمة السّماء!

لم تكن ليلى تجهل تلك المعلومة. لكنّها بدت لها في تلك اللّحظة غاية في البلاغة. الأضواء.. سبب الظلمة! الأضواء المتطفّلة، تعمي البصر، وتطمس مواطن الجمال التي تستحقّ التأمّل. تساءلت، كم في حياتها من أضواء لا حاجة لها بها، تخفي عنها ما يجدر بها الاهتمام به؟ العلم، والنّشيد الوطنيّ ولغتها العربيّة الأمّ، وتفاصيل كثيرة أخرى انتبهت إليها متأخّرة، بعد أن خبت أنوار جينيف الخاطفة! لقد كانت تلك الأنوار في وقت مضى سببا للظلمة في قلبها، ولغربتها عن بلدها جسدا وروحا. لكنّها في هاته الآونة بالذّات، وهي تفترش رمال جالطة وتحدّق في النّجوم البرّاقة، تبصر بعيون قلبها حقيقة من تكون. أغمضت عينيها وابتسمت، وقد تملّكها يقين دافئ. إنّها تنتمي إلى هذا المكان.

فجأة، سقطت على وجهها قطرة ماء، تلتها قطرات، متفرّقة أوّلا ثمّ ازدادت كثافة. لقد كانت تمطر. استوت البنتان في دهشة. مدّت نسرين كفّيها لتتلقى الحبيبات الرّطبة.

ثمّ وقفت وهرولت في اتّجاه الخيمة وهي تصرخ في استمتاع:

ـ يا بنات، إنّها تمطر!

خـلال لحظـات، كان الجميـع قـد غـدوا في الخـارج، يرقصـون تحـت المطـر، ويـردّدون في مـرح:

وأنا أغنّي تحت المطر.. وأنا أغنّي تحت المطر!

كانـت الفتيـات يرفعـن أذرعهـنّ إلى السّـماء، يمـددن أرجلهـنّ إلى الأمـام، يقرفصـن ثـمّ يقفـزن في الهـواء في نسـق منسـجم، وكأنهـنّ راقصـات عـلى خشـبة المـسرح، يؤدّيـن لوحـة مدروسـة. حاولـت ليـلى أن تجاريهـنّ، وهـي لا تتوقّـف عـن الضّحـك. كان للكشّـافة روتـين معـيّن خـاصّ بـكلّ موقـف ومناسـبة، ونشـيد ملائـم لـكلّ حـدث وظـرف، وهـي تكتشـف كلّ ذلـك في جـذل طفـوليّ!

حـين رجعـت الفتيـات إلى خيمتهـنّ، كـنّ يقطـرن مـاءً. جفّفـن ثيابهـنّ وتدثّـرن بالأغطيـة الصّوفيّـة وجلسـن يتسـامرن في مـرح. كانـت القائـدة لميـس قـد سـمحت لهـنّ بالسّـهر بشـكل اسـتثنائيّ. سـألت نسريـن ليـلى مـرّة أخـرى:

ـ لقد عرفت أنّك عدت إلى تونس منذ فترة بسيطة.. كيف وجدتها؟

ابتسمت ليلى في حرج، ثمّ قالت:

ـ كان يجب أن أغادر العاصمة، لأرى الجمال الحقيقي!

ـ لهذا كنت تصرخين أعلى التّلّة.. يا تونس الخضراء!

ضحكن جميعا، ثمّ أضافت لميس وهي تغمزها:

ـ إذا انضممـت إلى الجوّالـة بشـكل رسـميّ فسـتتعرّفين إلى مناطـق رائعـة كثـيرة أخـرى. أعـدك!

ضحكن مرّة أخرى، قبل أن تغيّر نسرين الموضوع فجأة:

- هل سمعتنّ يا بنات؟ لقد أعلن طارق رمضان عن زيارته لتونس في القريب!

- حقّا!

- متّى تكون الزّيارة؟

- لم يحدّد الموعد بعد، لكنّه سيقيم سلسلة من النّدوات الفكريّة تناقش مستقبل الثّورة.

تعالت هتافات الفتيات الحماسيّة، ثمّ غمزت لميس ليلى وقالت مداعبة:

- إنّه مواطنك السّويسريّ!

ابتسمت ليلى في حرج وعلقت بوجهها علامات الدّهشة. إنّها تعرف طارق رمضان من حضوره التّلفزيّ على القنوات الأوروبيّة، ووالدها مولع بمحاضراته ومؤلّفاته. لكنّها لم تتوقّع أن يكون ذا شعبيّة عالية لدى فتيات لم يبلغن العشرين. فلتعترف، لم تكن أطروحاته تخاطبها في وقت ماضٍ، وهي تشعر الآن بأنّ هؤلاء المراهقات يتجاوزنها باهتماماتهنّ الفكريّة النّاضجة!

شرحت لميس:

- بعد الثّورة، تزايدت المنتديات الفكريّة، وتوافد مفكّرون ومثقّفون من مختلف أنحاء العالم لزيارة البلاد، بعد أن كان النّظام السّابق يمنعهم! هذا ترف لم يكن متاحا منذ شهور قليلة!

أضافت نسرين:

- هذا أمر ضروريّ في هذه المرحلة، لرفع مستوى الوعي السّيّاسيّ لدى الشّباب.

أومأت ليلى في اهتمام، ثمّ علّقت:

ـ لقد لاحظت أنّ السّياسة قد غدت الاهتمام الأوّل للجميع!

ـ أنت لا تتخيّلين الوضع! لقد كانت السّياسة حتّى وقت قريب من المحظورات التي لا ينبغي التطرّق إليها في العلن، وأيّ كلمة معادية للنظام القائم تقع عند أذن متلصّصة قد تودي بك إلى المهالك! لقد سيطر الخوف لعقود، وعقدت الألسن، ومن تجرّأ على الكلام هجّر أو سجن.. لذلك، ما إن استعيدت الحريّة حتّى عمّت الفوضى! الكلّ أصبح بين يوم وليلة محلّلا مخضرما يمكنه تقييم الوضع وتقديم حلول استشرافيّة! هذه الحالة تبدو صحّيّة للوهلة الأولى، لكنّها مهلكة على المدى البعيد. ومن الضروريّ التركيز الآن على توضيح الرّؤية وتوعية الشّباب بألف باء السّياسة.

أضافت ضحى:

ـ نحن جيل صنع الثّورة، لكنّنا جيل شديد الجهل بتاريخه وماضيه! معظمنا، ما لم يكن له قريب معارض، راقب معه عن كثب معنى القمع والظلم، لا يعلم شيئا عن طبيعة الحياة السّياسيّة في ظلّ حكم الفرد. لقد كبرنا ونحن لا نعرف إلّا الاستسلام والخنوع، وتربّينا على اللّامبالاة والحياد. لكنّنا استمعنا إلى القصّة كاملة خلال أيّام الثورة التسعة والعشرين، بعد أن فاض الكيل! استرجعنا الماضي، واستعددنا لاستلام مقاليد الحاضر.. لكنّنا عاجزون تماما عن تخيّل المستقبل، كيف يجب أن يكون!

قاطعتها نسرين في اندفاع:

ـ المستقبل سيكون مشرقا.. وستتحقّق كلّ الأحلام!

سرت موجة ضحك أخرى. أمّنت ضحى:

ـ طالما كنّا جيلا قادرا على إزاحة رئيس وتنصيب آخر، فلن يقف في وجهنا شيء! وإن لم يناسبنا الرّئيس الجديد، فسنخرج إلى الشّارع

مـرّة أخـرى، ونزيحـه. لقـد عرفنـا أنّنـا أقويـاء، وقـادرون عـلى قلـب الموازيـن، لذلـك لـم يعـد مـن الممكـن أن نخضـع ونستسـلم للظلـم والقهـر والدّيكتاتوريّـة! لـن نكـون خانعـين مثـل الأجيـال السّـابقة. كيـف كان لهـم أن ينتظـروا كلّ هـذا الوقـت دون أن يفعلـوا شـيئا مـن أجـل تغيـير مصيرهـم؟

***

في اللّيلـة الأخـيرة، كـدّس الكشّـافون عيـدان الحطـب في شـكل هرمـيّ وأضرمـوا النّـيران، اسـتعدادا لطقسـهم الأخـير.. «نـار المخيّـم». كانـت أنشـطة المخيّـم تختـم حـول شـعلة ملتهبـة. يقـدّم كلّ فريـق تقريـرا بنشـاطاته، ويكافـأ المتميّزون، ثـمّ ينشـد الجميـع حـول النّار في جـوّ مرح. وحـول النّـار أيضـا يحتفـل بالمناسـبات الخاصّـة، ومـن ضمنهـا انضمـام فـرد جديـد إلى العشـيرة. عنـد السّـاعة الثّامنـة، دخـل أمـين خيمتـه، ثـمّ عـاد محمّـلا بكيـس مغلّـف وأشـار إلى ليـلى. حـين فتحـت الكيـس، وجـدت زيّ الدّليـلات الـذي أعـدّه أمـين مـن أجلهـا بشـكل مسـبق. حدّقـت فيـه غـير مسـتوعبة، فقـال:

ـ ارتـدي الـزيّ، وتعـالي لأداء الوعـد أمـام الجميـع.. سـتصبحين جـزءا مـن عشـيرة الدّليـلات.

انصاعـت في ارتبـاك. دخلـت الخيمـة وفـردت محتويـات الكيـس: القميـص، النطـاق، المنديـل وعقدتـه، الجـوارب والحـذاء الجلـديّ. بالإضافـة إليهـا، كانـت هنـاك قصاصـة تـشرح طريقـة أداء الوعـد بشـكل مفصّـل. قرأتهـا بضـع مـرّات، حـتّى حفظتهـا، ثـمّ ارتـدت زيّهـا الرّسـميّ الكامـل. خرجـت مـن الخيمـة ومشـت في خفـر باتّجـاه مجلـس الكشّـافة.

كانـوا يقفـون جميعـا في شـكل دائـرة، في وسـطها كانـت القائـدة لميـس في انتظارهـا مـع نسريـن وضحـى، وقـد أمسـكتا سـويّة بالعلـم التّونـسيّ مطويّـا. أمرتهـا لميـس بلهجـة حازمـة:

- ليلى تقدّمي!

اقتربـت، وهـي تشـعر بالإثـارة والارتبـاك في آن. وقفـت في وضعيّـة الاسـتعداد قبالتهـا وحيّـت الحاضريـن. بادرتهـا لميـس:

- هل تعرفين قانون الدّليلات اللّواتي تنتمين إليهنّ؟

- نعم، أعرفه وأعمل به.

- هل أنت مستعدّة لأداء الوعد؟

- إنّي مستعدّة.

- تفضّلي وأدّي الوعد.

بينمـا كانـت تأخـذ نفسـا عميقـا، كان الكشّـافة الآخـرون قـد رفعـوا أيديهـم بالتّحيّـة الكشـفيّة، ووقفـوا في اعتـدال وخشـوع. اسـتدارت ليـلى نحـو رفيقتيهـا، وضعـت يدهـا اليـسرى عـلى العلـم المطـويّ ورفعـت اليمـنى بالتّحيّـة الكشـفيّة بدورهـا، الإبهـام فـوق الخنـصر.. «القـويّ يحمـي الضّعيـف»، والأصابـع الثلاثـة الأخـرى مرفوعـة.. «الصّراحـة والتّضحيـة والإخـلاص».. ثـمّ شرعـت تتلـو نـصّ الوعـد الـذي حفظتـه عـن ظهـر قلـب، وهـي تستشـعر معـنى كلّ كلمـة تتلفّـظ بهـا:

- أعـد بـأن أبـذل جهـدي لأقـوم بواجـبي نحـو الله والوطـن، وأسـعد الغـير وأعمـل بقانـون الكشّـاف.

ابتسمت لميس وهي تقلّدها شعار الدّليلات والعلم، وقالت:

- إنّي واثقـة أنّـك سـتفين بعهـدك، فأهنّئـك لأنّـك أصبحـت الآن واحـدة مـن الدّليـلات، وعنـصرا مـن عنـاصر الحركـة الكشـفيّة.

التمعت العبرات في مقلتي ليلى، وهي تحيّي قائدتها من جديد، ثمّ تدور نصف دورة، لتحيّي أفراد العشيرة. حين أخذت مكانها ضمن الدّائرة، شرع الجميع في تلاوة النّشيد الوطنيّ.

وهي تردّد كلمات القصيدة بصوت حازم وجسد متيقّظ، انتابها إحساس يضاهي ما يشعر به الجنديّ الذي أدّى قسم الولاء للوطن، وانتظم ضمن صفوف الجيش. فكّرت، هل تدرك حقّا ماهية واجبها، تجاه الله والوطن؟ يمكنها أن تلتزم بقانون الكشّاف ببنوده الواضحة، وأن تعمل على إسعاد الغير من حولها.. لكن ماذا عن واجباتها التي وعدت ببذل جهدها لأدائها؟

حين انتهى طقس «الوعد»، بادرها أمين مداعبا:

ـ كيف تشعرين الآن؟

قالت على الفور:

ـ أشعر بالرّهبة! لا أدري إن كنت أهلا للحفاظ على العهد.

رفع حاجبيه في دهشة. لم يكن يتوقّع أن تأخذ الأمر بتلك الجدّيّة. قال أخيرا:

ـ استرخي.. ودعي ضميرك يكون الحكم.

ـ حقّا؟ هل يدرك ضميرك أنت ما هو واجبك تجاه الله والوطن؟

أومأ وهو يقول ببساطة:

ـ ألّا أخذل الحقّ!

تذكّرت قناعاته التي سبق أن طرحها بخصوص العدالة الاجتماعيّة، وأدركت أنّ مبادئه واضحة وبسيطة بالفعل. يمكنه بيسر أن يقف مع ما يحسبه حقّا، دون حساب لقرابة أو صداقة. في تلك اللّحظة، حسدته على وضوح رؤيته، وتمنّت أن تتعرّف على واجبها، وتعانقه

دون تفكـير.

-١١-

وصلـت العائلـة إلى المزرعـة قبيـل الغـروب. كانـت الخطّـة أن يقـضي الجميـع عطلـة نهايـة الأسـبوع هنـاك معـا، ولـم تمانـع الجـدّة الانضمـام هــذه المــرّة. كانــت الخالــة مريــم قــد جهّــزت مائــدة العشــاء قبيــل وصولهــم. ورغــم حفاوتهــا المعتــادة، فقــد بــدت بــاردة وواجمــة في حضـور السـيّدة الكبـيرة. كان الخـلاف القديـم بـين المرأتـين طاغيـا عـلى علاقتهمـا، ولـم يبـد أن مـرور عقـود مـن الزّمـن قـد غـيّر شـيئا.

عـبر نوافـذ الشّرفـة المشرعـة، كان بإمكانهـم تأمّـل خيـوط المطـر الـتي أخــذت تنهمــر بغــزارة في تلــك الأمســية الرّبيعيّــة، وقــد بــدأ الظــلام يسـحب رداءه علـى التّـلال والمـزارع عـلى مرمـى البـصر.

بعـد العشـاء، رنّ هاتـف نبيـل، وظهـر رقـم دوليّ عـلى الشّاشـة. بـدا عليــه الاهتمــام وهــو يفــارق مقعــده ويتّجــه إلى غرفــة داخليّــة، وهــو يغمغـم عـلى عجلـة:

ـ عليّ أن أردّ على هذا الاتّصال.

بعـد أن سـاعدت الخالـة مريـم في جمـع الأطبـاق وتنظيـف المائـدة، وضعـت ليـلى مقعـدا في الشّرفـة، وجلسـت قـرب الحاجـز لتصبـح السّـماء مكشـوفة أمـام ناظريهـا. كان التّواصـل مـع الطّبيعـة الخـام الأسـبوع المـاضي قـد خلّـف في نفسـها توقـا دائمـا لاسـتئناف المغامـرة. مـدّت كفّهـا لتسـتقبل ذرّات المـاء الـتي تذرفهـا السّـماء بسـخاء، وهـي تسـترجع مـرح فتيـات الكشّـافة تحـت المطر،شـعرت بحركـة مـا خلفهـا. كانـت تسـمع صـوت رانيـا، وهـي تشـاكس عمّهـا أمـين، وصـوت التّلفـاز الـذي يدمـن ياسـين مشـاهدته في غـير أوقـات العمـل. يمكنهـا الآن أن تشـعر بخطـوات

فـراس الـتي لا وقـع لهـا. قالـت دون أن تلتفـت:

ـ هناك أمر ما زال يحيّرني.. لماذا تزوّجتها؟

بوغـت بسـؤالها. إذن لقـد عرفـت بوجـوده خلفهـا. اقـترب خطوتـين، حـتّى صـار قـرب الحاجـز المعـدنيّ بـدوره. يفصـل بينهمـا مـتر واحـد. تنهّـد بصـوت مسـموع وأطـرق مفكّـرا، ثـمّ رفـع رأسـه لتلمـح عـلى شـفتيه ابتسـامة سـاخرة:

ـ أظنّني أحببتها!

رفعت حاجبيها غير مصدّقة، فأضاف:

ـ كانـت مشـاعر معقّـدة.. في البدايـة، كانـت نوعـا مـن الحـبّ الأبـويّ. كانـت يتيمـة الأبويـن، رغـم أنّهمـا عـلى قيـد الحيـاة! ثـمّ توفّيـت عمّـتي نجـاة .. ولـم يظهـر عمّـي نجيـب في الصّورة أبـدا. وفي وقـت مـا، اعتـبرت نفـسي مسـؤولا عنهـا. اكتشـفت شـبها بيـني وبينهـا.. كنـت قـد عشـت فـترة تمـرّد مشـابهة في مراهقـتي، لكنّهـا انتهـت بسـلام.. وعرفـت أنّ حنـان بحاجـة إلى مـن يحتويهـا، كمـا تمنّيـت أنـا حينهـا أن أجـد مـن يحتويـني.. هكـذا بـدأ الأمـر. ثـمّ اكتشـفت أسرارهـا، وشـعرت بأنّـني أعـرف عنهـا أكـثر مـن أيّ شـخص آخـر في محيطهـا.. ولمّـا كانـت بحاجـة للسّـفر مـن أجـل علاجهـا مـن الإدمـان، ولـم يكـن والـدي قـادرا عـلى تـرك الشّركـة لوقـت طويـل، قـرّرت مرافقتهـا.. وهكـذا عُقـد قراننـا.

ـ آه، هكذا إذن.

ـ ليس هكذا تماما.

ـ ماذا؟

ابتسم من جديد، ثمّ أضاف في مرارة:

ـ لقـد أخبرتـك، إنّهـا مشـاعر معقّـدة. لـم يكـن حبّـا صرفـا.. فقـد كرهتها

أيضا، لأنّها لم تعط لحياتها أيّة قيمة.. حاولت الانتحار.. ولأنّها لم تقدّر التّضحيات التي أقدمت عليها من أجلها.. ترك دراستي، وتأخير التخرّج مرّة بعد مرّة، وضياع فرص كثيرة بسبب السّفر لمرافقتها.. ثمّ.. محاولتها قتلي.

شهقت ليلى غير مصدّقة:

- حاولت قتلك؟!

- أقصد، قتلنا جميعا.

- من تقصد؟

- أنا وأنت وعمّي نجيب.. وهي طبعا. لكن شاء القدر أن ترحل وحدها.

ازدردت ليلى لعابها في توتّر، وأخذت أنفاسها تتسارع. عادت إليها صور كابوسها المتكرّر. حادث السيّارة. صراخها الهستيريّ، والوجوه المألوفة حولها.

- هل.. كنّا جميعا، في تلك الحادثة؟

أومأ برأسه موجبا. عضّت على شفتيها ورمشت في عصبيّة.

- ألم تكن وفاتها بجرعة زائدة من المخدّرات؟

- تلك الشّائعة التي انتشرت لدى رفاقها في الجامعة.. ولم ينفع شيء لتفنيدها.

- أخبرني أرجوك.. كيف حصل ذلك بالضّبط؟

همست في لهفة، فأومأ برأسه وشرع يسرد تفاصيل الحادثة:

- خرجنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منطقة جبليّة، وممارسة بعض التزلّج. كانت حنان حتّى ذلك الوقت تقيم في المصحّ.. وبما أنّها كانت تبدي تجاوبا مع العلاج، فقد كان يسمح لها بالمغادرة في

نهايـة الأسـبوع، وبعـض الأمسـيات. كنّـا معـا في السـيّارة.. أنـت ونجيـب في المقاعـد الأماميـة.

قاطعته معترضة:

ـ أنا كنت في المقعد الخلفيّ! أذكر ذلك!

ـ لا.. أنا وحنان كنّا في المقاعد الخلفيّة!

عقدت حاجبيها في شكّ. لماذا تبدو الأمور مختلفة في ذاكرتها؟

ـ كان عمّـي نجيـب خلـف المقـود.. فجـأة، صرخ بأنّـه غـير قـادر عـلى كبـح السّرعـة. كانـت تمطـر في الخـارج، وكانـت الطّريـق زلقـة، ونحـن في مسـار متعـرّج.. حينئـذ، أخـذت حنـان تضحـك بشـكل هيسـتيريّ، وتصفّـق وتغـنّي «سـنموت جميعـا.. سـنموت جميعـا»! أعتقـد أنّهـا عبثـت بمكابـح السّـيّارة، لتقتلنـا جميعـا.. لـم تكـن حالتهـا النّفسـيّة مسـتقرّة في تلـك الفـترة، وقـد عاودتهـا النّزعـة الانتحاريّـة.

تسـمّرت ليـلى مكانهـا، وشـحب وجههـا تمامـا ليحـاكي الثلـج في بياضـه. ثـمّ وقفـت فجـأة، وسـارت بخطـى سريعـة نحـو الـدّرج المـؤدّي إلى السّـاحة المفتوحـة، أمـام نظـرات فـراس المشـدوهة. لـم تكـن الأمطـار قـد توقّفـت في الخـارج، والظـلام قـد هبـط تمامـا الآن. لـم تكـن الرّؤيـة واضحـة، لكنّهـا ابتعـدت عـن المبـنى، تركـض بـكلّ قواهـا عـبر الأشـجار، والدّمـع يمـلأ عينيهـا. لـم تكـن تـرى شـيئا أمامهـا. لا تسـمع إلّا حفيـف الحشـائش الـتي تحتـكّ بثوبهـا، ولهاثهـا المختنـق، وشـهقتها الآثمـة. لكنّهـا لـم تتوقّـف. لا تـدري إلى أيـن تمـضي، لكنّهـا لـم تكـن تهتـمّ. كانـت تهـرب مـن نفسـها. مـن وجودهـا عينـه. لكنّهـا تـدرك اسـتحالة الهـرب. كان عليهـا أن تواجـه الحقيقـة العاريـة، لينهـار كلّ شيء داخلهـا.

لـم تحتـج لأكـثر مـن بضـع ثـوان لتـدرك كل شيء سـقط مـن ذاكرتهـا سـهوا!

أنت مجرمة!

***

دلف نبيل إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه في إحكام. حين أصبح في مأمن من وصول كلماته إلى الآخرين، ضغط على زرّ الإجابة.

- مراد.. كيف حالك؟

تبادل ومخاطبه عبارات الودّ والمجاملة ثمّ سأل نبيل بلهجة جادّة:

- طمئنّي.. كيف تسير الأمور عندك؟

- سأقوم بتحويل الحسابات كلّها باسم ابنك الأوسط كما طلبت.. حسابات سويسريّة.

- ممتاز.. يجب أن يتمّ كلّ شيء في أقرب الآجال.. الوقت يداهمنا!

- نعم.. أعلم ذلك. لا تقلق، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

أنهى اتّصاله، وزفر بقوّة. تذكّر زيارته ذلك الصّباح لصهره نجيب في سجنه. لقد اتّفقا على كلّ شيء. وما الذي لا يفعله الوالدان لضمان مستقبل أبنائهما؟ لم يكن نجيب قد ألغى أصول شركته بعد، يمكنه أن يعيد بعثها من جديد، برأس مال مشترك. بقي أن يتحدّث إلى فراس.

رجع نبيل إلى غرفة الجلوس بعد أن أنهى اتّصاله، وتلفّت حوله في اهتمام. كان ياسين يغطّ في النّوم، والجدّة قد أوت إلى فراشها، ومنال تطالع رواية قديمة وجدتها على الرّفّ، بينما انشغل أمين في ملاعبة رانيا. دخل المطبخ. كانت مريم تنهي تنظيف مخلّفات العشاء. لم يكن أحد معها. عاد ليلقي نظرة عبر الشّرفة المفتوحة. كانت الأمطار

تواصل انهمارها بغزارة وقوّة. رجع إلى الدّاخل وهتف في حيرة:

- أين فراس وليلى؟

رفع أمين ومنال رأسيهما وتبادلا نظرات متسائلة. قالت منال:

- لقد كانا في الشّرفة، منذ حين.

نهض أمين على الفور وقال وهو يتّجه إلى الدّرج:

- سأتفقّد الغرف بالأعلى.

صعد الدّرجات أربعة أربعة، ثمّ نزل بالسّرعة نفسها وهو يلهث.

- لا أحد هناك!

***

واصلت ركضها عبر الطّين المبلّل، تغوص قدماها من حين لآخر وتتعثّر، لكنّها لم تتوقّف. تتحرّك ساقاها لا إراديّا بغية الفرار. لم تكن تفرّ من شيء آخر يتهدّدها، فقط من أفكارها. لم تستطع أن تكبح تلك الفكرة الأليمة التي ملأت عقلها وأفقدتها صوابها. لقد حاولتِ قتل أبيك وشقيقتك وزوجك! أنت مجنونة، وقاتلة! لماذا نجوت؟ لماذا عشت وماتت ليلى؟ لماذا أنت هنا، تحملين اسمها، وتعيشين في ثوبها؟ تصرخ بداخلها ألف «لماذا»، تقطّعها مثل سكاكين حادّة، فتنزف ندما وحسرة ومرارة.

- ليلى.. توقّفي!

لم تسمع صوته قبل أن يصير خلفها مباشرة. كانت قد ابتعدت تماما عن المزرعة وتوغّلت في أرض غريبة. امتدّت كفّه لتقبض على ذراعها بقوّة وتوقف اندفاعها، ثمّ استدار ليصبح قبالتها:

ـ أنت بخير؟ ما الذي حصل؟ لماذا تركضين كالمجنونة؟

التفتت بوجه مفجوع. تشوّش العبرات وزخّات المطر رؤيتها، لكنّها تميّز عينيه القلقتين. زوجها. ويتصاعد داخلها إحساس شنيع بالخزي. دفعت كفّه عن ذراعها في حدّة وصرخت بين دموعها:

ـ أنا لست ليلى.. لست ليلى!

لم يفهم فراس شيئا من كلماتها. لم تبد في حال يقظة عقليّة تامّة. لام نفسه، لم يكن عليه أن يثير قصّة الحادثة. لقد كانت الذّكرى حتّى وقت قريب تولّد لديه أزمات عصبيّة ونفسيّة. كان يجب أن يتوقّع. كان يجب. رفع ذراعيه إلى أعلى، وهمس:

ـ اهدئي أرجوك.. وتنفّسي.

يهتزّ صدرها بقوّة، ولا تزيدها كلماته إلّا ارتجافا وبكاء. أنّى لها أن تهدأ؟ وأين لها أن تذهب؟ لا يليق بها الآن إلاّ أن تهيم على وجهها في الفلاة، لتفترسها الوحوش.

ـ ليلى.. لقد تبلّلت.. يجب أن نرجع الآن.. سيقلق لغيابنا الآخرون!

آه، لقد تبلّلت بالفعل. تشعر بثوبها قد التصق بجسدها وأثقل خطاها. انتبهت إلى نقطة أخرى في كلامه. الآخرون؟ نعم، جدّتها وخالها ومريم وأمين وياسين ومنال. كلّهم شهدوا ولا شكّ اندفاعها المجنون إلى الخارج. سينفضح أمرك الآن. انتهت المسرحيّة سخيفة الإخراج. سقط عنك القناع.. أيتّها القاتلة!

انهارت على الأرض، وقد فقدت وعيها.

موطني.. موطني!

الشّباب لن يكلّ، همّه أن يستقلّ أو يبيدْ
نستقي من الرّدى، ولن نكون للعدى
كالعبيدْ، كالعبيدْ

-١٢-

فتحـت عينيهـا، مشوّشـة ومخـدّرة الحـواس. ردّدت بصرهـا في أرجـاء المـكان.. إنّهـا في غرفـة مظلمـة، تستلقي عـلى سريـر دافئ، والوقـت مـازال ليـلا. اسـتيقظ إدراكهـا تدريجيّـا، ولمّـا وصلـت إلى نقطـة التّمـاسّ مـع لحظاتهـا الأخـيرة قبـل الإغمـاء، هبّـت جالسـة وقـد اسـتولى عليهـا الهلـع مـن جديـد.

ـ ليلى، لقد استيقظت! حمدا للّه على سلامتك!

كانـت منـال قـد غفـت عـلى المقعـد إلى جوارهـا. اقتربـت وبيدهـا مقيـاس الحـرارة. وضعـت طرفـه في أذن ليـلى وانتظـرت الإشـارة الصّوتيـة.

ـ الحمـد للّه.. انخفضـت حرارتـك! مـاذا حصـل بـاللّه عليـك؟ لقـد أفزعتنـا.

لـم تسـتطع ليـلى أن تنطـق بكلمـة واحـدة. بـل أخـذت تنشـج بصـوت مختنـق. هرعـت إليهـا منـال واحتضنتهـا في قلـق:

ـ ما الأمر الآن؟ لماذا البكاء؟

عانقتهـا ليـلى بقـوّة. شـدّت بأصابعهـا عـلى فسـتانها تـكاد تمزّقـه، وارتفعـت شـهقاتها، ومنـال تحـاول أن تواسـيها بكلمـات لا تجـدي نفعـا. لبثـت تحتضنهـا لدقائـق طويلـة، حـتّى عـاد إليهـا الهـدوء رويـدا رويـدا، وغلبهـا النّعـاس مـن جديـد، دون أن تفارقهـا الشّـهقات.

سـوّت منـال وضعيّتهـا عـلى السّريـر وغطّتهـا جيّـدا، ثـم تسـلّلت برفـق خـارج الغرفـة. كان نبيـل وفـراس وأمـين ومريـم يترقّبونهـا في غرفـة الجلـوس وكأنّ عـلى رؤوسـهم الطّـير، أمّـا الجـدّة،ف لـم تكـن قـد

انتبهـت مـن نعاسـها. اسـتدارت إليهـا أزواج الأعـين القلقـة عـلى الفـور حـال وصولهـا، وتعلّقـت بهـا النّظـرات في لهفـة.

ـ لقد انخفضت حرارتها.. إنّها نائمة الآن.

هـزّ نبيـل رأسـه في ارتيـاح ثـمّ التفـت إلى فـراس وقـال في شيء مـن الحـدّة:

ـ أنت متأكّد أنّك لا تعرف السّبب وراء حالتها؟

ـ قلـت لكـم مائـة مـرّة.. لا فكـرة لـديّ. لقـد وقفـت فجـأة وخرجـت تجـري تحـت المطـر!

ثـمّ قـام متّجهـا إلى غرفتـه. سـمع لغطهـم يرتفـع وراءه، مـن جديـد. وصلـة أخـرى مـن التكهّنـات بسـبب أزمتهـا. أغلـق عليـه بـاب الغرفـة وزفـر في إعيـاء. يشـعر بقشـعريرة بـاردة تغمـره. مـن فـرط توتّـره وضغـط الموقـف، نـسي أن يغـيّر ملابسـه المبتلّـة حـتّى جفّـت عليـه أو كادت. ذكّرتـه مريـم بـأن يفعـل أكـثر مـن مـرّة، لكنّـه اكتفـى بهـزّ رأسـه ولـم يفـارق مجلسـه. لـم يكـن محمومـا، إنّـه الإرهـاق وحسـب. ليلـة نـوم عميـق سـتخلّصه مـن بقايـا السّـهرة العسـيرة. أخـذ حمّامـا دافئـا، ثـمّ اسـتلقى عـلى السّريـر، واسـتمرّ يحـدّق في الظـلام.

اسـتعاد ببـطء لحظـات الهلـع تحـت المطـر. يركـض وينـادي اسـمها، وهـي تلهـث وتـئنّ، ولا تلتفـت. ثـمّ انهيارهـا عـلى الأرض. انتشـلها وهـرول مفجوعـا تحـت السّـيل الـذي لا يفـتر. كـم كانـت طويلـة وعصيبـة تلـك الدّقائـق الـتي مضـت قبـل أن يصبـح عـلى مشـارف المزرعـة، ويلمـح والده وأمـين يفتّشـان السّـاحة بالأضـواء الكاشـفة. الأمتـار الأخـيرة كانـت الأسـوأ عـلى الإطـلاق. يشـعر بأنفاسـه تنقطـع، وبأنفاسـها تخفـت بـين ذراعيـه.. ويسـتعيد مشـهدا شـبيها، منـذ أربـع سـنوات خلـت.

ارتطـام السـيّارة بحاجـز الطّريـق وانقلابهـا عـلى سـقفها، ثـمّ انزلاقهـا

لعـدّة أمتـار عـلى الأسـفلت المبتـلّ. يسـتلّ جسـده بصعوبـة مـن هيـكل المعـدن المطحـون، ثـمّ يجاهـد ليسـحبها وراءه وهـو يناديهـا في ذعـر.. حنـان، حنـان.. وجهها غـارق في الدّمـاء وهـي في غيبوبـة.. لـم تكـن قـد فارقـت الحيـاة بعـد. يحملهـا بـين ذراعيـه، ويهـرول تحـت المطـر، في الفـلاء المقفـر، حيـث لا بـشر ولا بنيـان عـلى مرمـى البـصر. يـصرخ بصـوت مختنـق لا يـكاد يسـمعه.. النّجـدة! تنضب طاقتـه لآخـر قطراتهـا، ويجتاحـه إنهـاك شـامل. ترتعـش ركبتـاه وتتصلّـب ذراعـاه تحـت حملـه الثّقيـل. تخـور قـواه أخـيرا. ينهـار بـدوره عـلى الأرض، ثـمّ يفقـد وعيـه.

بسـط كفّيـه عـلى وجهـه وضغـط بأطـراف أصابعـه عـلى مقلتيـه، يوقـف سـيل الذّكريـات الـتي اقتحمـت ليلتـه. هـذه ليلـة سـيّئة أخـرى. إذا مـا غلبـه النّعـاس، سـتزوره كوابيسـه المعتـادة.

***

فراس لم يقل شيئا.

أيقنـت بذلـك حـين أفاقـت صباحـا، ووجـدت إفطارهـا عـلى المنضـدة جوارهـا. جـاء خالهـا لرؤيتهـا والاطمئنـان عليهـا، ثـمّ تناوبـت مريـم ومنال عـلى مرافقتهـا. ليـلى، كان الاسـم الـذي ورد عـلى ألسـنتهم جميعـا.

لـم تكـن ذكريـات الأمـس جليّـة في ذهنهـا. هـل قالـت مـا تخـال نفسـها قالتـه، أم أنّهـا مجـرّد أفـكار في رأسـها، لـم تتجـاوز شـفتيها قـطّ؟ مهمـا كان، تلـك هـي الحقيقـة الـتي تعلمهـا هـي، وربّمـا عرفهـا شـخص مـا غيرهـا.. أو سـيعرف ذلـك عـن قريـب. لـم يكـن الاحتفـاظ بـسرّ هويّتهـا المكتشـفة هيّنـا.

دخلـت الجـدّة متذمّـرة مـن ألـم ركبتيهـا. كان عليهـا الصّعـود إلى الطّابق

الأوّل لتفقّد المريضة. همهمت وهي تلهث، محاولة التقاط أنفاسها:

ـ ما الذي حصل بحقّ الله؟ أنام وأصبح لأجد الدّنيا قد قامت ولم تقعد؟

كانت قد استقرّت على الأريكة للتوّ، حين دخلت منال مستعجلة، وهمست لليلى:

ـ الطّبيب هنا.. سيأتي لرؤيتك.

ـ الطّبيب؟ من طلبه؟ أنا بخير.

ـ لقد طلبناه من أجل فراس.. وطالما أنّه هنا فمن الأفضل أن يفحصك أيضا.

هزّت رأسها في تفهّم، وقد امتقع وجهها. فراس؟ ما شأنه؟

قامت الجدّة من فورها، وخرجت. لا شكّ أنّها ذاهبة إلى غرفة فراس. دخل الطّبيب بعد حين. تفقّد نبضها وحرارتها، وأوصى لها بالرّاحة، ثمّ انصرف. غادرت سريرها، ووقفت أمام النّافذة، تطالع السيول التي استمرّت تهطل طوال اللّيل والنّهار دون انقطاع، وتفرك كفّيها في قلق.

حين دخلت منال مرّة أخرى حاملة كوبا من عصير اللّيمون الطّازج سألتها:

ـ هل فراس بخير؟

ـ أرجو أن يصبح بخير قريبا.

تحرّكت باتّجاه المنضدة لتضع الكوب، وبدا عليها العبوس. ازداد قلق ليلى.

ـ ماذا أصابه؟

ـ لم يستيقظ من غيبوبته بعد.

ـ ماذا؟!

ـ أصابتـه الحمّـى بالأمـس، أثنـاء نومـه.. ولـم ننتبـه إلّا صباحـا، حـين تأخّـر في الاسـتيقاظ. وضعنـا لـه الكمّـادات، ومخفّضـات الحـرارة.. لكـنّ الحـرارة لا تـنزل! لقـد حقنـه الطّبيـب منـذ حـين، ووصـل المضـادّ الحيـويّ ومحلـول التغذيـة بوريـده. إذا لـم يتحسّـن حـتّى المسـاء، فسـيكون علينـا نقلـه إلى المستشـفى.

أحسـت ليـلى بقلبهـا يغـوص في صدرهـا، وبأنفاسـها تتقطـع، وترنّحـت خطواتهـا حـتّى وصلـت إلى السّريـر لتنهـار عليـه.

ـ ليلى، أنت بخير؟

هزّتهـا منـال برفـق وهـي تطالعهـا باهتمـام. لكنّهـا لـم تسـتطع أن تـردّ بكلمـة. انهمـرت عبراتهـا في صمـت، ثـمّ مـا لبثـت شـهقاتها أن ارتفعـت مرّة أخـرى، وطغـى عليهـا إحسـاس الأمـس الشّـنيع بالذّنـب. أنـت السّـبب! ألا يكفـي أنّـك حاولـت قتلـه منـذ أربـع سـنوات؟ تريديـن الإجهـاز عليـه الآن؟ لـو لـم يخـرج خلفـك تحـت المطـر، لمـا أصابـه مـا أصابـه. انتابتهـا نوبـة أخــرى مــن الأفــكار البشــعة وازدراء النّفــس. كان يجــب أن تمــوت. كان يجـب أن تمـوت في تلـك الحادثـة!

هـدأت أخـيرا بعـد أن ذرفـت كلّ آلامهـا وحسراتهـا دمعـا. ليـت الدّمـع يغسـل خطاياهـا ويمسـح المـاضي. ليتهـا ولـدت من جديـد بعـد الحادثة، بسـجلّ نظيـف مـن الذّنـوب، كمـا كانـت ذاكرتهـا نظيفـة! ليتهـا!

لـم تغـادر غرفتهـا حـتّى المسـاء. تسـتلقي عـلى السّريـر، وتدفـن رأسـها في وسـادة رطبـة مـن دموعهـا. تهـبّ مـن مرقدهـا في لهفـة، كلّمـا دخلـت عليهـا منـال، تتحـرّى عـن حالـة فـراس. وكانـت منـال تهـزّ رأسـها في أسـف كلّ مـرّة. لا جديـد.

كانـت تهـوّن عـلى نفسـها، إنّهـا مجـرّد نزلـة بـرد! ثـمّ يميـل مزاجهـا إلى

الدّراميّـة، فتسـتحضر تعـداد الوفيـات السـنويّ بسـبب الـزّكام. تطـرد الأفـكار السّـوداء بسرعـة، فـراس قـويّ، وقـادر عـلى التحمّـل. لكـنّ الحمّـى المتواصلـة قـد تسـبّب أضرارا دائمـة لأعضـاء الجسـم الحيويّـة!

وكلّمـا رفعـت رأسـها، نهشـتها نظـرات الجـدّة الصّامتـة والمليئـة بالعتـاب. تجـرّ الحاجّـة فريـدة سـاقين متعبتـين بـين غرفـتي حفيديهـا وتتذمّـر بصـوت عـالٍ، مـن ركبتيهـا وصداعهـا والطّقـس السّـيّئ بالخـارج، لكنّهـا لا تسـألها شـيئا عـن أحـداث اللّيلـة الماضيـة. تناولـت وجباتهـا معهـا، في غرفتهـا، مـع أنّ ليـلى لـم تضـع في جوفهـا شـيئا طيلـة النّهـار، وطلبـت سـجّادتها، لتقيـم صلواتهـا هنـاك أيضـا.

بعـد صـلاة العشـاء، اسـتلقت الجـدّة عـلى الأريكـة، وغفـت. تناهـى شـخيرها الرّتيـب إلى ليـلى الرّاقـدة، وقـد اسـتبدّت بهـا الرّجفـة مثـل ورقـة خريـف. في تلـك اللّحظـة، داهمهـا ذلـك الخاطـر الغريـب. اسـتوت جالسـة، وألقـت نظـرة متفقّـدة عـلى جدّتهـا الغارقـة في سـباتها. ثـمّ اسـتدارت لتحـدّق في السـجّادة الـتي كانـت لا تـزال مفروشـة في اتّجـاه قبلـة الصّـلاة. دفعـت الغطـاء وتركـت سريرهـا في تصميـم. كانـت تشـعر بالضّعـف، وقـد غادرتهـا قواهـا كلّهـا، واسـتنزفها البـكاء والإعـراض عـن الطّعـام. قطعـت بضـع خطـوات، ثـمّ انهـارت عـلى قطعـة القمـاش المخمليّـة، في وضعيّـة السّـجود. سـجدت طويـلا، وسـكبت العـبرات بسـخاء، وكأنّ مخـزون دموعهـا لا ينضـب، وهـي تدعـو الله أن تنتهـي اللّيلـة عـلى خـير.

بعـد سـاعة، دخلـت منـال مبتسـمة. أخبرتهـا أنّ فـراس قـد اسـتيقظ، وانخفضـت حرارتـه.

***

لم ترجع مع العائلة إلى القصر في الغد. طلبت أن تظلّ في المزرعة ليومين إضافيّين، ولم يعترض أحد. كانت تحسب تلك المهلة ستمكّنها من ترتيب أفكارها، وإيجاد مخرج لأزمتها. لكنّها كانت مخطئة في تقديرها. كانت تستيقظ كلّ صباح على إحساس شنيع بالتّعاسة، وتزداد غوصا في مستنقع الكآبة كلّ ساعة من ساعات النّهار.

بعد يومين، عاد منال وياسين لاصطحابها. كانت شاكرة للعائلة الصّغيرة التي تهتمّ لأمرها، وللمربّية التي سهرت على راحتها ولم تثقلها بالأسئلة. لكنّ تأجيل المواجهة مع مصيبتها لم يخفّف شيئا من وطأتها على نفسها. رجعت مكرهة إلى غرفتها في القصر الكبير، ولم تغادرها لأيّام.

لم يحاول أحد أن يجبرها على مشاركتهم مائدة العشاء كما جرت العادة، وتفهّم خالها رغبتها في الانزواء، رغم أنّ سرّ أزمتها بقي مجهولا لديه. وكانت الجدّة تزورها كلّ يوم، تصعد الدّرجات من أجلها، تلهث وتتذمّر، ثمّ تلين، تحدّثها لبرهة عن أعمال الجمعيّة المتوقّفة في انتظار رجعتها، ثمّ تحتدّ قليلا وتوصيها بصحّتها، قبل أن تزفر في تسليم أمام الجدار الصّامت الذي لا يبدي حراكا، وتنصرف.

لم تحاول أن تخرج إلى الشّرفة أيضا. كانت فكرة رؤية فراس وحدها تجعل قشعريرة باردة تسري في جسدها، وتدخلها في نوبة بكاء جديدة. عرفت أنّه قد استردّ صحّته، ورجع إلى عمله بعد ملازمته الفراش لثلاثة أيّام. حين اطمأنّت، توقّفت عن تحرّي أخباره. لم يحاول بدوره اقتحام عزلتها، مع أنّها كانت تتلقّى زيارات أمين ومنال، إن صحّ أن تسمّيها زيارات. لم تكن تقدر إلّا على البكاء والصّمت، رغم محاولات صديقيها المقرّبين سبر أغوارها. وهل كان بيدها أن تقول شيئا؟ أن تعلن بصفاقة من تكون؟ لم تكن بعد قد تقبّلت وضعها ولا عرفت ما يجب عليها فعله إزاء٥، فكيف يمكنها

مواجهـة الآخريـن بهويّتهـا؟

وفي غمـرة تخبّطهـا في ظلمـات الوحـدة والحـسرة، وقعـت نظراتهـا عـلى المصحـف الـذي أهدتهـا إيّـاه وداد. كان لا يـزال قابعـا فـوق مكتبهـا، ولـم تقـرأ فيـه بعـد. هـل كانـت خلايـا عقلهـا الـتي تطلـب النّجـدة مـن طـول اجترارهـا للأفـكار السّـوداء مـا دفعهـا إلى مـدّ كفّهـا باتّجـاه الكتـاب؟ أم تراهـا ذكـرى سـجودها تلـك اللّيلـة الماطـرة تدعـو الله أن يشـفي ابـن خالهـا، فيسـتجيب؟ كانـت تفتّـش عـن بصيـص أمـل، عـن قشّـة تتشـبّث بهـا، وقـد هـيّئ إليهـا أنّ ذلـك المصحـف، كلام الله، هـو قشّـتها. لقـد اسـتجاب مـرّة، فهـل تـراه يسـتجيب مـن جديـد؟

فتحـت المصحـف، وتلـت الفاتحـة. هـذه سـورة تحفظهـا عـن ظهـر قلـب. ثـمّ شرعـت تقـرأ سـورة البقـرة. تقـرأ ببـطء، وهـي ترتجـف، وتبـكي. فهمهـا بطـيء والمعـاني تتراقـص في ذهنهـا دون انتظـام، لكنّهـا تسـتمرّ. تترقّـب لحظـة مـا، تنبثـق خلالهـا الرّاحـة في صدرهـا، مـن مصـدر مجهول.

يـوم زيـارة والدهـا، تجـاوزت اكتئابهـا وخرجـت بعـد أن انـصرف كلّ سـكّان القـصر إلى أعمالهـم. لـم تكـن تفـوّت موعـد الزّيـارة مـادام لـم يشـغلها شـاغل يفـوق طاقتهـا. ولا شـكّ أنّ غيابهـا الأسـبوع المـاضي قـد أثـار جزعـه. قـرأت اللّهفـة عـلى ملامحـه فـور وصولهـا.

ـ أنت بخير؟

ـ نعم.

ـ خالك بخير؟

ـ الجميع بخير.

ـ هل من جديد من المحامي؟

ـ لا شيء.

كان صمتها وتكتّمها مريبين. لم تدر كم يمكنها أن تصمد. كلّما همّت بالكلام، خنقتها العبرة. انهارت على حين غرّة، وأخذت تبكي دون انقطاع.

ـ ما الأمر يا ليلى؟ ماذا دهاك؟

قالت بنظرة عتاب:

ـ لماذا أخبرتني بوفاة حنان بعد سنة كاملة من وقوعها؟

ـ ماذا؟

ـ لم تخبرني أنّها توفّيت في نفس الحادثة.. أنّنا كنّا جميعا في السيّارة!

ـ لأنّك كنت تحت تأثير الصّدمة.. لم تتعرفي إلى نفسك، فكيف أعرّفك على من رحل من أهلك؟

هزّت رأسها في عدم تصديق:

ـ لقد عنيت أن تخفي الأمر.. وكأنّ وفاتها حصلت في وقت لاحق!

ـ كانت تلك نصيحة الطّبيب. أن أنشّط ذاكرتك بالإيحاء، بدون ذكر مباشر للتفاصيل.. حقيقة وجود توأم لك، ربّما كانت لتعيد قسما من ذكرياتك.

ـ لكنّ ذلك لم يحصل.

ـ نعم، ليلى.. للأسف.

عادت إليها كلمات فراس. هل كانت تسترجع ذكريات باهتة، تستخرجها من قاع الذّاكرة؟ أم تصنع ذاكرة بديلة قوامها الصّور؟ نظرت إليه في رجاء، وهتفت مستعطفة:

ـ هل أنا ليلى.. حقّا؟

ـ ما الذي تعنينه؟ طبعا أنت ليلى! ما هذا السّؤال الغريب؟

ـ أنـا.. لا أذكـر شـيئا.. عـن ليـلى! بعـد الحادثـة، لـم أعـرف مـن أكـون.. فكيـف عرفـت أنّـني ليـلى؟ لمـاذا لا أكـون حنـان؟

ـ مـا هـذه التّخاريـف؟ كيـف لي ألّا أعـرف ابنـتي الـتي رعيتهـا منـذ نعومـة أظفارهـا؟ حنـان هـي الـتي ماتـت في الحادثـة!

ـ أخـبرني الحقيقـة.. أنـت الوحيـد الـذي كان بإمكانـه التعـرّف عـلى الجثّـة وتوقيـع شـهادة الوفـاة. هـل يمكـن أن تكـون قـد أخطـأت؟ هـل يمكـن أن تكـون في حالـة صدمـة، ولـم تتأكّـد مـن هويّـة النّاجيـة؟ أو لعلّـك رغبـت مـن كلّ قلبـك أن تكـون ابنتـك المفضّلـة هـي الـتي عـلى قيـد الحيـاة؟

ـ ليـلى.. توقّفـي! هـذا هـراء! مـن الـذي زرع الشـكّ في نفسـك؟ لمـاذا تسـألين الآن هـذه الأسـئلة الغريبـة؟

توقّفـت فجـأة، هـذا لا يجـدي نفعـا. لـن يخبرهـا شـيئا، حـتّى لـو كان يعـرف. إنّهـا تسـأل الشّـخص الخطـأ. والدهـا سـيحميها، حـتّى لـو كان متأكّـدا مـن ارتكابهـا لجريمـة قتـل. هكـذا يكـون الآبـاء. ولعلّـه أنكـر هويّتهـا في لا وعيـه، وأقنـع نفسـه بأنّهـا ليـلى حقّـا! وحدهـا تـدرك الحقيقة الآن. الكوابيـس كوابيسـها. لا أحـد يـرى بوضـوح تفاصيـل الحادثـة كمـا تراهـا. قالـت في فتـور:

ـ أنا مرهقة. أريد أن أستعيد ذاكرتي، وأعرف من أكون حقّا.

ـ ليـلى، عزيـزتي.. سـيأتي ذلـك في أوانـه. أنت لسـت في حاجـة إلى ذاكرتك، لتكـوني نفسـك! وأنـا أحـبّ مـا أنـت عليـه اليوم!

طبعـا، الجميـع يحبّـون مـا هـي عليـه اليـوم! لقـد كانـت حنـان ممقوتـة مـن الـكلّ! حـتّى زوجهـا، تحوّلـت عاطفتـه نحوهـا إلى ضغينـة! انتابتهـا نوبـة بـكاء جديـدة، أمـام نظـرات نجيـب الدّهشـة.

خرجت من عنده، ولم يتوقّف نزيف ألمها.

لقـد كانـت الذّكـرى بغيتهـا منـذ أيّـام. تمنّـت بـكلّ طاقتهـا أن تتذكّـر،

وها أنّ ذلك قد حصل! وهي تسبح في أفكارها، تستعيد مديح فراس للنّسيان. تدرك متأخّرة جدّا، كم هو نعمة لمن اقترفت يداه ذنوبا بقدر ما فعلت.

لكنّ النّسيان لا يصلح شيئا!

هل يمكن لوطنها الثّائر وقد استردّ حريّته وكرامته، أن يصالح خونة الماضي، يربّت على أكتفاهم ويحتضنهم من جديد كأنّ شيئا لم يكن؟

هل يمكنها أن تصالح ذاتها الآثمة وتصفح عن خطاياها؟ تذر الرّماد في عيني ضميرها، وتنسى؟

لا!! الوطن يحاسب مفسديه ويفرض على كلّ من سرق ونهب وآذى واستنزف وخان أن يدفع الثّمن!

كذلك ينطبق الأمر عليها. إن كانت قد ارتكبت جريمة قتل، فلا يمكنها إخفاء ذلك إلى الأبد، ولا حتّى تجاهله بينها وبين نفسها! إن كانت مجرمة، فعليها أن تدفع الثّمن!

تذكّرت فجأة قسمها الكشفيّ.. «أن تبذل جهدها لتقوم بواجبها تجاه الله والوطن».

إنّ هذا واجبها تجاه الله والوطن معا.

فتحت محرّك البحث ذلك الصّباح. بحثت عن حكم القاتل المتعمّد! كان يلزمها أن تتوب إلى الله، فالتّوبة تجبّ ما قبلها. والتّوبة النّصوح تستوجب منها النّدم وعدم العودة إلى سالف عهدها. هذا أمر يسير. لكن تبقى عليها حقوق تجب تأديتها. وذنوب حنان التي تعرفها كثيرة، فما بالها بتلك التي لم يصلها خبرها! في نهاية المطاف، كان عليها أن تسلّم نفسها.

خرجت من عند والدها، ومشت على غير هدى. تدور في حلقات

مفرغـة، تتـوه مـع أفكارهـا، ولا تقـدر عـلى العـودة إلى قـصر خالهـا. لـم تكـن ترغـب في العــودة إلى جــدران الغرفــة، والعيــون الجزعــة لأفــراد عائلتهـا. حـين لمحـت مئذنـة مسـجد قريـب، تهلّلـت أسـاريرها.

هذا بيت الله، وهي تريد أن تحدّثه بتوبتها!

كان الوقـت ضحـى، وكان المسـجد خاليـا تمامـا مـن المصلّـين. خطـت فـوق السّـجاد، عاريـة الـرّأس حافيـة القدمـين. تربّعت في سـكون، وأنصتت إلى الصّمـت الخاشـع، فشـعرت بالطمأنينـة تجتاحهـا. مـن يحتـاج همهمـة ورقصـا مجنونـا ليصـل إلى حالـة صفـاء شـاملة؟ مـا كانـت فيـه في تلـك اللّحظـة كان عـين التصـوّف. أغمضـت عينيهـا، وأخـذت تناجـي خالقهـا.

يـا الله، لقـد جئـت إليـك. لأنّـني لا أعـرف أحـدا غـيرك بيـده أن يحـلّ أزمـتي.

يا الله، لقد سدّت الأبواب في وجهي، ولا مهرب إلّا إليك.

يـا الله، لقـد ظلمـت نفسي، وأسرفـت في الظلـم. لـم أقـدّر حيـاتي حـقّ قدرهـا، ولا توانيـت عـن إلحـاق الـضّرر بالآخريـن، حـتّى ذهبـت شـقيقتي ضحيّـة جنـوني.

يـا الله، مـا أنـا فاعلـة الآن؟ أسـألك أن ترشـدني إلى مـا ينبغـي عـليّ القيـام بـه.

مضـت سـاعتان عـلى جلوسـها السّـاكن ذاك، تحـدّث الله بمصيبتهـا، وتسـأله العـون والمغفـرة. رُفعـت صـلاة الظهـر، فصلّـت مـع ثـلاث نسـاء أخريـات، وأوصالهـا ترتجـف. ارتـدت عبـاءة ووشـاحا، كانـا متاحـين عـلى شـمّاعة في المدخـل. حـين قُضيـت الصّـلاة، تحاملـت عـلى نفسـها، وخرجـت.

كانـت قـد ابتعـدت مسـافة كافيـة، حـين انتبهـت إلى أنّهـا قـد نسـيت عليهـا الوشـاح والعبـاءة! قلّبـت نظراتهـا في حـيرة. كان عليهـا أن تعـود

أدراجها، وتعيد ما استعارته من المسجد، لكنّ قلبها انقبض لذلك الخاطر. كأنّ الرّاحة التي عرفتها في بيت الله ستختفي، إن هي تجرّدت من ثياب الحشمة تلك! كأنّ سرّها الدّفين سينفضح، لو أنّها نزعت عنها السّتر! شعرت بصوت داخلها يقول زاجرا، لقد سترك الله، فاستري نفسك!!

تردّدت لثوانٍ، ثمّ قرّرت. تناولت هاتفها واتّصلت بوداد. كانت تشعر بالخجل، لكنّها لم تعرف من غيرها يمكنه أن يتفهّم ما تعيشه في تلك اللّحظة. حضرت وداد على جناح السّرعة بعد تلقّيها الاتّصال الغريب، مصحوبا بطلب أغرب. كان بيدها كيس، يحوي عباءة ووشاحا. رافقتها حتّى المسجد، حيث أعادت الثّوب الذي كان عليها، وارتدت ما أحضرته وداد، ثمّ خرجتا معا. لم تسألها وداد شيئا، بل عانقتها بقوّة، في شوق، كما عانقتها منذ أسابيع وهي تودّعها. قالت ليلى في حرج:

ـ لم أعرف من أين يمكنني أن أشتري الثّوب، لذلك اتّصلت بك. سأردّ إليك ثمنه حالما أعود إلى القصر.

ـ لا تفعلي، هذه هديّة منّي!

في طريق العودة، أخذت الأفكار تنتظم في رأسها شيئا فشيئا. ستسلّم نفسها، لكن ليس الآن. كانت لديها مهامّ أخرى لا تصحّ توبتها دونها. حين تفرغ منها، ستعود إلى جينيف، وتنهي الأمر بنفسها.

ستعطي نفسها مهلة، حتّى ينتهي تجديد شقّة والدها. سيكون ذلك كافيا.

حين تخطّت عتبة القصر، قرأت الدهشة في العيون المحدقة بها. ابتداءً من الحارس، والعمّ صابر، وصولا إلى أمين الذي لاقاها في

البهـو. شـعرت بـتردّده، بـين الـسّرور لرؤيتهـا خـارج أسـوار معتزلهـا، وبـين القلـق للتّغيـير الـذي طـرأ عـلى شـكلها. قـال أخـيرا، بأسـلوبه المـازح المعتـاد:

ـ هـل فاتـني شيء؟ نظـرا للتغيـيرات السّريعـة، لـم يعـد بإمـكاني التنبّـؤ بمـا سـيحصل لاحقـا!

قالت في هدوء:

ـ لا تحاول التنبّؤ.. أنا نفسي لا أعرف، ما الذي سيحصل لاحقا.

قال وهو يشير بسبّابته إلى الوشاح الذي يغطّي شعرها:

ـ هل أنت جادّة بهذا الشّأن؟ أقصد، هذا لا يشبهك.

ابتسمت، وقالت في سخرية:

ـ حقّا؟ ما الذي يشبهني إذن؟

إنّهـا تتفهّـم حـيرة أمـين. ليسـت القـرارات السّريعـة وغير المدروسـة من عادتهـا. إنّهـا لا تعـرف أصـلا إن كانـت جـادّة بشـأن الحجـاب. لا يمكنهـا حـتّى أن تدّعـي أنّهـا محجّبـة قـد ارتـدت الحجـاب عـن اقتنـاع. لا تـدري كـم مـن الوقـت سـتحتفظ بغطـاء رأسـها. لـم تكـن قـد فكّـرت في ذلـك عـلى الإطـلاق. بـل لعلّهـا لـم تكـن تـدرك رمزيّـة الوشـاح الـذي تضعـه الآن، والعبـاءة الـتي تسـتر جسـدها! لقـد كانـت مجـرّد «حاجـة» انتابتهـا فجـأة. أن تكـون أقـرب إلى الله، أن تحتفـظ بلبـاس الصّـلاة الـذي يوحـي إليهـا بقربهـا منـه، كأنّهـا في صـلاة لا تنقطـع. كأنّهـا ستشـعر بحضـوره داخلهـا وحولهـا، طالمـا تشـبّثت بالعبـاءة. ربّمـا يكـون تفكيرهـا سـخيفا، وسـاذجا. لكنّهـا في تلـك اللّحظـة في حاجـة إلى كلّ الأفـكار السّـاذجة والسّـخيفة الـتي تبقيهـا مطمئنّـة، وثابتـة القدمـين. كانـت تخـشى أشـدّ مـا تخـشى أن تترنّـح، وتفقـد اتّزانهـا مـن جديـد. وهـي في حاجـة إلى تركيزهـا كلّـه في الفـترة المقبلـة.

ـ فراس، تعال تعرّف على ابنة عمّتك الجديدة!

انسـحبت الدّمـاء مـن وجهها، بعـد كلمـات أمـين. ثـمّ شـعرت بخطوات فـراس تقـترب، وهـو يتجـاوز المدخـل. كان راجعـا مـن مكتبـه. توقّفـت الخطـوات عـلى مقربـة، لكنّهـا لـم تقـدر أن ترفـع عينيهـا باتّجاهـه. استمرّت تحـدّق في الأرض، أمامهـا، متجاهلـة وجـوده. كانـت تعـرف أنّهـا ستراه عـلى العشـاء، لكنّهـا لـم تكـن مسـتعدّة بعـد.

ـ ليلى، أنت بخير؟

رغـم إرادتهـا، يعيدهـا صوتـه إلى وقفتهـا تحـت المطـر، مبلّلـة مـن رأسـها إلى أخمـص قدميهـا، وهـي تـصرخ فيـه «أنـا لسـت ليـلى.. لسـت ليـلى!». شـعرت بالـدّوّار فجـأة. إنّهـا تترنّـح. سـمعت خطواتـه تبتعـد وهـو يهتـف بأمـين:

ـ إنّهـا ليسـت بخـير! اجعلهـا تجلـس عـلى الأريكـة، سأرسـل بهجـة بكـوب ليمـون!

ثـمّ اختفـى. انقـادت إلى ذراع أمـين، واسـترخت عـلى الأريكـة، وهـي تتنفّـس في اضطـراب. سـمعت صـوت أمـين يقـول في حـدّة:

ـ ليلى، ما الذي حصل تلك الليلة في المزرعة؟ ما الذي فعله فراس؟

رفعت رأسها مذعورة. ما الذي يعتقده أمين الآن؟ همست نافية:

ـ لم يفعل شيئا.

ـ لماذا ردّة الفعل هذه إذن؟ لقد كنت بخير منذ قليل.

ـ إنّـه.. مجـرّد دوّار. لـم آكل جيّـدا في الأيّـام الماضيـة.. وبذلـت جهـدا كبـيرا اليـوم.

جـاءت بهجـة مهرولـة، وبكفّهـا كـوب العصـير، بنـاء عـلى طلـب فـراس، لكنّـه لـم يرجـع إلى البهـو. سـقتها إيّـاه عـلى مهـل، بينمـا لازمـت عيـني

أمـين نظـرة غـير مقتنعـة. كان يـدرك أن شـيئا مـا قـد حصـل بـين ليـلى وفـراس.

-١٣-

كان أوّل مـا فعلتـه حـين دلفـت إلى غرفتهـا هــو أن فتحـت درج المنضـدة العلـويّ وأخرجـت مفكّـرة فـراس. كانـت قـد نسـيت أمرهـا في الأيّـام الماضيـة. انشـغلت عنهـا بـكلّ مـا داهمهـا مـن مسـتجدّات. لكنّهـا تعـود إلى تفكيرهـا بقـوّة الآن. قـرّرت أنّ عليهـا أن تعرف نفسـها، وتسـتعيد مـا خبـا مـن ذكرياتهـا. حـتّى وإن كانـت الجريمـة أكيـدة عندهـا، باعتبـار شـهادة فـراس وكوابيسـها، فـإنّ هويّتهـا باهتـة في ذهنهـا. إن كانـت حنـان، فـلا أحـد يعرفهـا أكـثر منـه. ولا شـكّ أنّهـا سـتجد أثـرا لهـا في مذكّراتـه!

فتحـت المفكّـرة، وأخـذت تبحـث عـن حنـان فيهـا. تقفـز السّـطور، وتتوقّـف عنـد الأحـداث الـتي تهمّهـا.

١٤ مارس ٢٠٠٦

كعادتهـا، حنـان هربـت مـن المدرسـة. جـاءت إلى غرفـتي هـذا الصّبـاح وطلبـت أن أوصلهـا إلى المكتبـة. أعلـم يقينـا أنّ المكتبـة هـي نقطـة الانطـلاق إلى وجهتهـا الحقيقيّـة. والـدي يزجرهـا في كلّ مـرّة يـرده إنـذار مـن الناظـرة بشـأن غيابهـا، لكنّـه لـم يتّخـذ أيّ إجـراء للحـدّ مـن جموحهـا وتهوّرهـا.

إنّهـا لا تبـدو عـلى طبيعتهـا هـذه الأيّـام، عصبيّـة ومزاجيّـة. لقـد كانـت مدلّلـة منـذ الأزل، لكـنّ الأمـر يفـوق المحتمـل. صرت أخـشى إن أنـا رفضـت طلبهـا أن تلجـأ إلى الـصّراخ وتحـدث الفـوضى. مـا تفعلـه بنفسـها ليـس مـن شـأني. الـكلّ يعلـم أنّ الدّراسـة ليسـت مـن اهتماماتهـا، ولا أحـد يتوقّـع لهـا أن تدخـل الجامعـة أصـلا!

أوصلتهـا إلى المكتبـة ورحلـت. أعلـم أنّهـا لـن تدخلهـا أصـلا. سـتكون شـلّتها في انتظارهـا عنـد المنعطـف، لتمـضي نهارهـا في التسـكّع.

٢ أبريل ٢٠٠٦

كنـت في طريـق العـودة مـن الكليّـة، حـين رأيـت حنـان تحـت الجـسر مـع مجموعـة مـن الشّـباب المشـبوه. كانـت تبـدو في حـال مزريـة. أوقفـت السّـيّارة ونزلـت. صرخـت بوجهـي أن أرحـل، ثـمّ تفـرّق أصحابهـا وتركوهـا. أجبرتهـا عـلى ركـوب السـيّارة وهـي لا تتوقّـف عـن الـرّكل والتخبّـط. ثـمّ انتابهـا ضحـك هسـتيريّ.

شـككت في الأمـر. لـم تكـن في حـال طبيعيّـة أبـدا. فكّـرت أنّـه مـن غـير اللائـق أن تدخـل الفيـلا وهـي عـلى تلـك الحـال. كان أوّل مـا فكّـرت فيـه أنّهـا قـد تكـون اسـتهلكت مشروبـات كحوليّـة.. وقـد يكـون مـن المفيـد جعلهـا تتقيّـأ. توقّفـت عنـد الصيدليّـة وطلبـت دواء يسـاعد عـلى التقيّـؤ.. مـا كلّفـني تحقيقـا صارمـا مـن الصيـدليّ، ورفضـا لـصرف الـدّواء دون وصفـة طبّيـة. عـدت إلى السـيّارة. كانـت حنـان قـد نامـت.

توجّهـت إلى الكورنيـش. أوقفـت السـيّارة لمـدّة سـاعة أو أكـثر. انتظـرت بصـبر أن تصحـو مـن سـباتها. ثـمّ عدنـا إلى الفيـلا.

١٠ أبريل ٢٠٠٦

تـردّدت في إخبـار والـدي بأمـر حنـان الأسـبوع المـاضي. إنّـه مشـغول عـلى الـدّوام، ولا أعتقـد أنّـه سـيفعل شـيئا غـير الـصّراخ في وجههـا قليـلا وأخـذ وعـد كاذب منهـا بـأن تقلـع عـن حماقاتهـا. لقـد بلغـت الثامنـة عـشرة، وهـي تعتـبر راشـدة ومسـؤولة في نظـر القانـون.

قرّرت أن أراقبها بنفسي.

١٢ أبريل ٢٠٠٦

أمين وحنان كانا صديقين مقرّبين منذ طفولتهما. لكنّ دخول أمين الجامعة هذه السّنة ترك فراغا في حياة حنان. لم يعودا يتشاركان كلّ شيء، فلكلّ منهما وجهته المختلفة. لذلك تورّطت حنان مع شلّة أصدقاء سيّئين، يبدو أنّ تأثيرهم عليها يتفاقم.

اليوم، وأنا أنتظر حنان أمام مدرستها، انتبهت إلى شابّين يقفان في موقف السيّارات، يتستّران ويمرّر أحدهما إلى الآخر قرطاسا مطويّا صغير الحجم. شعرت بالخطر قريبا جدّا.. وتساءلت، هل تعرف حنان هؤلاء الأشخاص؟

٤ مايو ٢٠٠٦

منذ أن شرعت في مراقبة حنان وتوصيلها من وإلى المدرسة، بدت أكثر التزاما وأقلّ شغبا. لم تثر مشكلة في البيت، ولم ترد شكاوى من المدرسة.

لكنّني أشعر بالقلق. ما زلت أشكّ أنّها تخفي أمرا ما.

١٦ مايو ٢٠٠٦

اليوم اكتشفت حقيقة ما تخفيه تلك البنت!

كنت قد لاحظت منذ أيّام أنّها رغم حرارة الطقس المتزايدة، ترتدي ثيابا محتشمة على غير العادة. أعرف حنان، تنتظر الرّبيع بفارغ الصّبر، لتكشف ذراعيها وساقيها وترتدي الفساتين والتنانير القصيرة. لكنّها هذه المرّة بدت محافظة على غير طبيعتها. الأكمام الطّويلة بالذّات، ليست ما تحبّه حنان!

أثـار ذلـك فضـولي، وتذكّـرت مشـهد الولديـن في موقـف سـيّارات المدرسـة. كان يجب أن أنتبـه أيضـا إلى سـحنتها الشّـاحبة، وهـالات عينيها العميقـة السّـوداء، وسرحانهـا الدّائـم، كأنّهـا غائبـة عـنّي. لـم نكـن نتبـادل سـوى كلمـات يسـيرة في السـيّارة حـين أوصلهـا. عـزوتُ ذلـك إلى ضيقهـا بمراقبـتي اللّصيقـة. وفسّرت شـحوبها إلى سـهرها المتواصـل عـلى ألعـاب الفيديـو. لكنّـني لـم أتوقّـع أن تكـون الأمـور بهـذا السّـوء!

لـم أكـن لأعـرف شـيئا لـولا خطـأ ارتكبتـه هـي، شـمّرت عـن سـاعدها في حركـة لا إراديّـة متأفّفـة مـن الحـرّ.. ثـمّ أعـادت الكـمّ إلى مكانـه، كأنّمـا تذكّـرت شـيئا. أثـارت حركتهـا ريبـتي. في غفلـة منهـا، أمسـكت بسـاعدها ورفعـت الكـمّ قـسرا، رغـم صراخهـا ودفاعهـا. رغـم كلّ العلامـات الـتي كان مـن المفـترض أن تنبّهـني، فإنّـني كنـت أتوقّـع بقعـا زرقـاء مثـلا، نتيجـة شـجار مـا.. أو وشـما بذيئـا تحـاول إخفـاءه عـن العيـون.. لكـنّ آثـار الإبـر عـلى سـاعدها كانـت الفاجعـة!

كان عليّ أن أخبر والدي بكلّ شيء هذه المرّة.

٢٠ مايو ٢٠٠٦

حنان محبوسة في غرفتها منذ أربعة أيّام. أسمع أنينها طيلة اللّيل.

أعلـم أنّهـا تحقـد عـليّ الآن. تعتـبرني السّـبب الرئيـسي لمعاناتهـا. لقـد كشـفت سرّهـا الكبـير، فتعرّضـت للعقـاب، ومنعـت عنهـا آفاتهـا المخدّرة.

جـاء الطّبيـب لزيارتهـا في غرفتهـا، ووصّـل محلـولا بذراعهـا، ليسـاعدها عـلى تحمّـل آلام انسـحاب المخـدّر. لكنّهـا نزعـت الإبـرة وحطّمـت القـارورة وعبثـت بمحتويـات غرفتهـا، فحبسـت مـن جديـد.

٢٢ مايو ٢٠٠٦

هربـت حنـان مـن غرفتهـا، واختفـت. قفـزت مـن الشّرفـة وعـبرت الحديقـة الخلفيّـة ومنهـا إلى الشـارع. لـم ننتبـه لغيابهـا إلّا حـين صعـدت مدبّـرة المـنزل في السّـاعة الثامنـة لتقـدّم لهـا عشـاءها. بحثنـا عنهـا طـوال الليـل دون جـدوى. لقـد اختفـت.

٢٥ مايو ٢٠٠٦

اتّصلـت بي حنـان هـذا الصّبـاح. كانـت مختبئـة عنـد أحـد أصدقائهـا، لكـنّ أهلـه اكتشـفوا أمرهـا، واضطـرّت إلى المغـادرة. ضربـت لي موعـدا عنـد دوّار السّـاعة وسـط المدينـة. لـم أتعـرّف إليهـا منـذ النّظـرة الأولى. لـم تكـن قـد أكلـت شـيئا يذكـر منـذ أيّـام، فنحـل وجههـا وغـارت وجنتاهـا. وكان شـعرها مهوّشـا وثيابهـا مهملـة ونظراتهـا زائغـة. انفطـر قلـبي حـين رأيتهـا عـلى تلـك الهيئـة. كانـت تعـرج بشـكل واضـح. أخذتهـا إلى المستشـفى عـلى الفـور. كانـت قـد كـسرت سـاقها اليـسرى حـين نطّـت مـن الشّرفـة، لكنّهـا لـم تهتـمّ بعلاجهـا في حينهـا، فتفاقـم الأمـر. وُضعـت لهـا جبـيرة ورجعنـا إلى المـنزل.

في الطّريق، وعدتني وهي تبكي بأنّها ستقلع عن المخدّرات.

***

توقّفـت عـن القـراءة وتحسّسـت سـاقها اليـسرى. كانـت لديهـا ندبـة قديمـة. والدهـا قـال أنّهـا أصيبـت عندمـا كانـت في سـنّ العـاشرة وكـسرت سـاقها. لـم تكـن تعـرج. التـأم العظـم تمامـا. لكنّهـا تشـعر بألـم خفيـف أحيانـا حـين تطيـل المـشي أو الوقـوف.

حـتّى النّـدب السّـخيفة تتخـذ معـاني مختلفـة حـين تكتشـف الحقيقـة الـتي وراءهـا!

***

٣٠ يونيو ٢٠٠٦

نجحـت حنـان. هـذه معجـزتي، وأنـا فخـور بهـا. لـم تذهـب جهـودي في تدريسـها طيلـة الشـهر الفـارط سـدى. كان يجـب أن تنجـح، لتبتعـد عـن أصدقـاء السّـوء، وتبـدأ حيـاة جديـدة.

تهانيّ القلبيّة، يا جميلتي المدلّلة.

١٠ سبتمبر ٢٠٠٦

أوصلـت حنـان اليـوم إلى الجامعـة. إنّـه يومهـا الأوّل في كليّـة الفنـون الجميلـة. كانـت سـعيدة وهـي تعـبر البوّابـة. لوّحـت لي وابتسـمت قبـل أن تغيـب في الدّاخـل.

هل يمكن أن أطمئنّ الآن إلى مرور مرحلة تهوّرها ومراهقتها؟

أرجو ذلك.

٢٢ أكتوبر ٢٠٠٦

الآفة تعود من جديد!

حنان، لماذا تفعلين هذا بنفسك وبي؟

كلّمـا اعتقـدت أنّ الأوضـاع تتحسّـن، اتّجهـت إلى الأسـوأ. مواجهـة، ثـم

شـجار وصراخ، وحبـس وعقـاب. هـذه الآفـة تقتلـك يـا حبيبـتي! تمتـصّ شـبابك وتُـذوي جمالـك. هـل العالـم سـيّئ إلى هـذه الدّرجـة في نظـرك؟ هـل تبحثـين عـن الهـرب بـأيّ ثمـن؟

***

عـلى العشـاء، لـم يظهـر طيـف فـراس. نقلـت بهجـة عنـه رسـالة شـفهيّة. يشـعر ببعـض الإرهـاق ويرغـب في تنـاول عشـائه في غرفتـه. تفهّـم الـكلّ رغبتـه. لقـد كان مرضـه الحديـث شـفيعا كافيـا. وحدهـا ليـلى أدركـت عـلى الفـور أنّـه يتجنّبهـا. أو بالأحـرى، يسـايرها.

لقد انتبه إلى ردّة فعلها في البهو!

لا شـكّ أنّـه قـد بـات يعـرف الآن أنّهـا لا تطيـق رؤيتـه! لكنّهـا لا تتخيّـل نـوع الأفـكار الـتي تـراوده بهـذا الشّـأن. لـم يبـد عليـه الوعـي بحقيقـة هويّتهـا. لـم تظهـر في ردود فعلـه علامـة واحـدة تـشي باعتقـاده أنّهـا حنـان. تلـك الـتي يناديهـا في مذكّراتـه بـ«حبيبـتي»، واعـترف ليلـة المزرعـة أنّـه قـد صـار يمقتهـا! أي تفسـير يجـده لسـلوكها إذن؟ لـم يكـن بإمكانهـا أن تخمّـن.

تسـاءلت، كـم مـن الوقـت يمكنـه التّظاهـر بالإرهـاق؟ وكـم مـرّة سـيمرّ غيابـه عـن مائـدة العشـاء دون ملاحظـات أو إثـارة شـكوك؟

كانـت تعتـصر أصابعهـا في كفّيهـا المتشـابكين عـلى حجرهـا في توتّـر، حـين امتـدّت كـفّ منـال الدّافئـة واحتضنـت كفّيهـا. رفعـت رأسـها لتلتقـي بعينيهـا الباسـمتين. سـمعتها تتمتـم وهـي تشـير إلى غطـاء رأسـها.. مبارك!

لـم يعلّـق أحـد غيرهـا، وأمـين ذلـك العـصر، عـلى مظهرهـا الجديـد. كان ذلـك متوقّعـا مـن ناحيتهـا. أمـين ومنـال كانـا أقـرب أفـراد العائلـة

إليهـا، وإن كانـت ردود أفعالهمـا متباينـة. بالنّسـبة إلى خالهـا وياسـين، فـإنّ مـا تفعلـه بنفسـها يعتـبر حريّـة شـخصيّة. ثيابهـا تقـع في نطـاق سـيطرتها، في مسـاحة تصرّفهـا الـتي لا تعـني أحـدا. بالنّسـبة إلى الجـدّة، راعيـة العـادات والتّقاليـد في العائلـة، طالمـا كان التطـوّر نحـو الاحتشـام، فذلـك يناسـبها.. مـع أنّهـا لـم تسـتنكر مـن قبـل شـكلها المتحـرّر.

سمعتها تقول في تذمّر:

ـ ألا يمكن لجمع هذه العائلة أن يكتمل على المائدة دون نقصان!

همست منال لليلى:

ـ إنّها تعنيني طبعا.

كانـت منـال تتغيّـب كثـيرا عـن المائـدة، مـن أجـل سـهراتها الاجتماعيّـة. وقـد اختفـت ليـلى الأسـبوع المـاضي، واليـوم قـد كان دور فـراس.

مـا عـدا تلـك الملاحظـة العابـرة، مـرّت تجربـة عشـائها الأوّل بعـد الأزمة بسـلام. تنهّـدت وهـي ترجـع إلى غرفتهـا. يمكنهـا أن تفعلهـا. يمكنهـا أن تسـتمرّ في رؤيتهـم جميعـا حولهـا، وأن تتكيّـف مـع نسـق حياتهـا مـرّة أخـرى، وتتجاهـل مـن تكـون حقيقـة، وتنجـح في تنفيـذ بنـود خطّتهـا. يمكنهـا.

-١٤-

منـذ وصولهـا إلى تونـس، اكتفـت بالمراقبـة. كانـت تكتشـف بعينـين فضوليّتــين أفــراد عائلتهــا، نســق الحيــاة في موطنهــا، عــادات البــلاد، شكل الشّـوارع والمحـلّات، التّناقضـات الصّارخـة بـين طبقـات المجتمـع، وتتـذوّق عـلى مهـل مواطـن الجمـال في بلـد يعيـش ربيعـين في السّـنة ذاتهـا. ومـا عـدا تلـك المـرّات الـتي جرّتهـا خلالهـا الجـدّة للتـورّط في أنشـطة غـير مألوفـة، فقـد لزمـت الحـذر في علاقاتهـا.

بعـد حادثـة الطّلاء عـلى جدارهـا، أدركـت أنّهـا كانـت في غايـة السّـلبيّة. لـو أنّهـا اجتهـدت في كسـب المحيطـين بهـا، لمـا وصلـت الأمـور إلى ذلـك المستوى المـتردّي. لـم تكـن حفلـة الحديقـة سـوى خطـوة صغـيرة وغـير كافيـة. تـدرك الآن أنّ مـا خلّفتـه حنـان السّـابقة مـن جـروح نفسـيّة أعمـق مـن أن يشـفى بـين عشـيّة وضحاهـا. قبـل أن ترحـل، كان عليهـا أن تتفـانى في تضميـد الجـراح القديمـة، لعلّهـا تـبرأ ولـو بعـد حـين.

لقـد حـان الوقـت، لتهتـمّ بالقسـم الثّـاني مـن عهدهـا الكشـفيّ الـذي تلفّظـت بـه أمـام أفـراد عشـيرتها، أن تسـعى لإسـعاد الآخريـن! لـم تكـن قـد فعلـت شـيئا لتحقيـق ذلـك بعـد.

بـدأت خطّتهـا مـع منـال. اعترضـت طريقهـا ذات صبـاح، وهـي تهـمّ بالخــروج مثــل عادتهــا. أجلســتها عــلى أريكــة الاســتجواب في الصّالــة العلويّــة وبــدأت:

- حدّثيني.. كيف تقضين يومك؟

ضحكت منال، وارتبكت قليلا، ثمّ أخذت تشرح:

- لا شيء مهـمّ! تعرفـين.. في أيّـام المدرسـة، آخـذ رانيـا صباحـا إلى

صفّهـا، ثـم أرجـع لأنـام حـتّى العـاشرة.. مثـل اليـوم. فأذهـب لزيـارة والـدتي، حيـث تجتمـع صديقاتهـا ومعارفهـا للدردشـة حـول فنجـان قهـوة حـتى الظهـيرة.. عنـد الثانيـة ظهـرا، أمـرّ لأخـذ رانيـا مـن المدرسـة، نتنـاول غداءنـا في الخـارج، ثـمّ نذهـب إلى النّـادي حـتى غـروب الشـمس.

- جميل.. ماذا تفعلان في النّادي؟

- لا شيء محـدّد.. أتركهـا تلعـب مـع الأولاد، وأجلـس في الشرفـة مـع بعـض المعـارف، نراقـب الأطفـال ونثرثـر.

هزّت ليلى رأسها في استياء، ثمّ أردفت:

- والآن، أخبريـني.. مـا الـذي كنـت تتمنـين فعلـه قبـل الـزّواج، ولـم تواصـلي مشـوارك فيـه أو لـم تحـاولي أصـلا؟

سكتت منال لبرهة متفكّرة، ثمّ ابتسمت:

- كنـت أودّ تعلّـم اللّغـة الإسبانية! وقـد وددت عـلى الـدّوام أن أحافـظ عـلى قـوام رشـيق.. لكـن كمـا تريـن، ليـس الوضـع عـلى أفضـل مـا يكـون!

- ماذا أيضا؟

- أردت أيضـا أن أتعلّـم نشـاطا فنّيّـا.. مثـل الرّسـم عـلى الزّجـاج، أو عـلى الخـزف!

- جميل.

أخرجـت ليـلى ورقـة وقلمـا ورسـمت جـدولا زمنيّـا محـدّدا بالسّـاعات، ثـمّ قالـت:

- لديـك فترتـان في اليـوم تمضينهمـا في الدّردشـة والثرثـرة، في مـنزل والدتـك.. ثـمّ في النّـادي.. ولا شـكّ لـديّ أنّ هنـاك فـترة أخرى في السّـهرة! لـن نسـتغني عنهـا كلّهـا دفعـة واحـدة، فالعلاقـات الاجتماعيّـة شيء جميـل، لكنّهـا ليسـت كلّ شيء في الحيـاة! سـنبدأ بحـذف فـترة السّـهرة..

حذفا تامّا وباتّا. لا تنظري إليّ هكذا.. ستشكرينني فيما بعد! فلتكن تلك الفترة للعائلة.. لرانيا وياسين بشكل خاصّ. يجب أن تتوقّف رانيا عن مشاهدة التلفاز حتى وقت متأخّر.. وأن يعتدل ياسين في العمل.. العمل قد يشكّل إدمانا أحيانا، وغيابك المتكرّر، وعدم مطالبتك بحقّك في زوجك يشجّعانه على الإدمان، هل تفهمين؟

هزّت منال رأسها في انتباه وانصياع تامّين، فواصلت ليلى:

ـ فترة السّهرة إذن، تساوي العائلة! ثمّ فترة الصّباح.. سنقسّمها إلى ثلاثة أنواع.. حصص تعلّم اللّغات، حصص النشاط الفنّي، ومجلس والدتك.. فليكن المجلس مرّة واحدة في الأسبوع.

قاطعتها منال ضاحكة:

ـ ستكرهك والدتي!

ـ صدّقيني، ستحبّني حين ترى التّأثير الإيجابيّ عليك! إذن الثرثرة مرّة واحدة، ثلاث حصص للغة، وثلاث حصص للفنّ.. اتّفقنا؟ سنبحث معا عن مركز ثقافيّ مناسب لنشاطك حين ننتهي من وضع الجدول.

كانت ليلى تملأ خانات الجدول بينما واصلت منال هزّ رأسها في اهتمام.

ـ سنحتفظ بجزء النّادي.. لكن ليس بالشّكل الذي اعتدت عليه! سيكون عليك التّسجيل في حصّة رياضيّة على الأقلّ.. وحين تستعيدين لياقتك وترغبين في حصّة إضافيّة، تسجّلين في الثّانية.. لكن سنبدأ بحصّة واحدة. اتّفقنا؟ رانيا ستسجّل معك في حصص الأطفال.. تدخلان الحصص بشكل متوازٍ، ثمّ تمضيان بعض الوقت في اللّعب المعتاد إذا شئت.. مع أنّني أفضّل أن تقلّلي من جلوسك في النّادي بدون نشاط يشغلك.

أضافت وهي تغمزها بلهجة محفّزة:

ـ ستصبحين شخصيّة مهمّة، حين يصبح حضورك نادرا وملحوظا! الأشخاص المتواجدون على الدّوام، لا أهمّيّة لهم، لأنّهم متفرّغون وبلا عمل.. لكن من يتواجدون لفترات قليلة هم عادة أشخاص مشغولون!

هتفت منال على الفور وهي تضرب كفّا بكفّ:

ـ أنت محقّة! لاحظت أنّ السّيّدات اللواتي لا يتردّدن على النّادي بكثرة يحظين بالاهتمام حين يحضرن، وتتحلّق حولهنّ الأخريات لسماع أخبارهنّ!

ـ إذن هذه خطّتك.. أن تصبحي امرأة مشغولة وعمليّة!

ضحكت منال في استمتاع ونظرت إلى جدول يومها وقد امتلأ بأنشطة جديدة، ثمّ هتفت في حماسة:

ـ نبدأ بالبحث عن مركز تعلّم اللّغات؟

***

صارت تمرّ كلّ صباح على المطبخ، حيث يجتمع الخدم في أوقات فراغهم، فتسأل عن أحوالهم وتجاذبهم أطراف الحديث. كان عليها أن تبني جسور الثقة لبنة لبنة. كانت الخادمات يتحرّجن في البداية من التحدّث بمشكلاتهنّ أمامها، ويلتزمن الصّمت في وجودها.. ثمّ تداعت ريبتهنّ وألفن حضورها اليوميّ وعفويّتها.

بعد أسبوع من تردّدها على المطبخ، دخلت لتجد مدبّرة المنزل راضية باكية، والأخريات يواسينها. بعد إلحاح وإصرار، سمعت منها الحكاية. كان هناك شابّ قد تقدّم لخطبتها، لكنّه لا يعلم أنّها تعمل في خدمة المنازل، وهي متردّدة في مصارحته، لأنّه ذو وظيفة

محترمـة.. وتخـاف أن يتركهـا أو يحتقرهـا!

أمسكت ليلى بكفّيها بشدّة ونظرت في عينيها وقالت بلهجة صارمة:

- أخبريـني.. هـل أنـت محرجـة مـن عملـك؟ هـل هـو شيء مخزٍ بالنّسـبة لك ؟

هزّت راضية رأسها بقوّة نافية، فواصلت ليلى:

- هـل كنـت لتـتردّدي في القبـول بخاطبـك، إن كان هـو أيضـا يعمـل في خدمـة الآخريـن؟

هنـا، ظهـر عـلى راضيـة الارتبـاك والـتردّد، وبانـت الحـيرة في نظرتهـا. لـم تكـن واثقـة مـن قرارهـا. ربّتـت ليـلى عـلى ذراعهـا في حنـوّ وقالـت:

- هـوّني عليـك.. إن كان الأمـر كذلـك، سـنجد لـك مخرجـا. أخبريـني، مـا هـي مؤهّلاتـك؟

- درسـت المحاسـبة لسـنتين في الجامعـة.. ثـمّ انقطعـت حـين تـوفّي والـدي، واضطـررت إلى العمـل.

- كم مضى على عملك في القصر؟

- أربع سنوات.

- إنّها فترة كافية. دعيني أتحدّث إلى خالي أوّلا.

في الغـد، دخلـت إلى المطبـخ مبتسـمة، ثـمّ هتفـت حـين رأت راضيـة تترقّـب وصولهـا في قلـق:

- أيـن الـتي تريـد أن تغادرنـا وتدخـل قفـص الزّوجيّـة؟ مبـارك عليـك عملـك الجديـد!

لوّحـت بعقـد العمـل الـذي أمضـاه نبيـل ذلـك الصّبـاح بنفسـه. مهمّـة مكتبيّـة في الشّركـة. كان خالهـا متفهّمـا جـدّا بشـكل أدهـش ليـلى نفسـها. اسـتمع إليهـا دون مقاطعـة، ثـمّ قـال في جدّيّـة:

ـ الفتاة لم تقصّر في خدمتها للقصر وأهله.. ووجب علينا مكافأتها.

كان اللّقـاء قصـيرا ومثمـرا. وعدهـا بعقـد عمـل، وقـد كان جاهـزا في الصّبـاح التـالي.

أخـذت الفتيـات يتراقصـن في المطبـخ وقـد احتضـنّ راضيـة، سـعيدة الحـظّ، ثـمّ عانقـن ليـلى في امتنـان. لـم تكـن تـدري أنّ إسـعاد الآخريـن كان متعـة في حـدّ ذاتهـا، إلا حـين وجـدت نفسـها بـين أحضانهنّ، تشـاركهنّ القفـز والهتـاف الجـذل، وتختلـط دموعهـا بدموعهـنّ.

ـ ما الذي ستفعلينه الآن؟

ـ سيأتي مع والدته لزيارة والدتي يوم السّبت!

لـم تكـن الدّمـوع قـد جفّـت عـلى الخـدود، حـين بادرتهـا ليـلى في حمـاس:

ـ هل لديك فستان مناسب؟

ارتبكت راضية مرّة أخرى، ولم تدر بما تردّ.

ـ تعالي، سأختار لك واحدا.

صعدتـا إلى غرفتهـا، وفتحـت ليـلى صـوان ملابسـها أمـام ضيفتهـا. أخـذت تقلّـب الفسـاتين، ثـمّ انتقـت مـن بينهـا ثلاثـة، محتشـمة وزاهيـة. وضعتهـا بـين ذراعـي راضيـة ودفعتهـا في اتّجـاه الحمّـام:

ـ هيّا جرّبيها.

خرجــت راضيــة بعــد حــين وهــي تمــشي عــلى اســتحياء، ونظراتهــا ملتصقــة بــالأرض. صفّقــت ليــلى في حمــاس، وهــي تتأمّلهــا في الثّــوب الــورديّ الــذي اختارتــه:

ـ هذا الفستان يناسبك تماما.. إنّه لك!

***

دخلت المطبخ ذات صباح، لتجد الفتيات وقد تأهّبن للخروج. لم تنقطع أحاديثهنّ هذه المرّة عند دخولها كما كنّ يفعلن في السّابق. سألت:

- إلى أين؟

فردّت بهجة في حماس:

- هناك مسيرة تخرج من ساحة «القصبة». سنذهب جميعا لحضورها! هل تأتين؟

كنّ قد طلبن إذنا بالغياب بعد أن تأكّدن من قضاء الاحتياجات المستعجلة لأهل القصر. تردّدت ليلى. مسيرة؟ ما الأمر هذه المرّة؟ شرحت جليلة:

- الانتخابات على الأبواب، والنّظام الذي قَطع رأسه مازال جسده حيّا، وهو الآن يعيد تنظيم صفوفه تحت أسماء أحزاب جديدة تريد أن تدخل السّباق الانتخابيّ! يجب أن يُمنع خونة الماضي من دخول الانتخابات البرلمانيّة!

فكّرت ليلى.. هذا مطلب مشروع. لكن أن تخرج في المسيرة بنفسها، فذلك أمر آخر! اعتذرت، وغادرت المطبخ. مشت في اتّجاه الدّرج، فقابلتها منال عائدة من درس اللّغة. كانت قد قلّبت الأمر في رأسها أثناء مشيها. خطر لها فجأة أن تجرّب. لمَ لا؟ يمكن أن تكون المسيرة جزءًا من خطّتها التّطهيريّة، أن تذوب في الكتلة البشريّة، وتعيش هموم الآخرين كأنّها همومها! لقد اعترفت منذ قليل، إنّه مطلب ديمقراطيّ لا شائبة فيه، ويمكنها أن تتماهى معه لو أرادت.

- منال، هل تودّين حضور مسيرة؟

- ماذا؟

سألتها منال مصعوقة.

ـ تعالي، سأشرح لك في الطّريق!

أوصلتهما سيّارة الأجرة إلى ساحة «القصبة». حين نزلتا، ألفتا الميدان غاصّا بالخلق، وقد ارتفعت الهتافات الهائجة من الجهات الأربعة. كان من اليسير تمييز الشّعارات الخاصّة بمختلف الأحزاب السّياسيّة على اللّافتات المرفرفة، وقد تكتّل مناصرو كلّ حزب في معزل عن الباقين. السّاحة تجمع الكلّ، لكنّ الفرقة واضحة. تساءلت منال:

- ماذا نفعل الآن؟

فهزّت ليلى كتفيها في حيرة.

حين تحرّكت المسيرة أخيرا، اندمجت الفرق المشتّتة، وانجرفت منال وليلى ضمن تيّار المتظاهرين. لم يكن يعنيهما خلف أيّ فريق مشتا، ولا أيّ شعارات ردّدتا. لقد كانتا هناك من أجل التّجربة وحدها.

كانت البنتان تشعران بالإثارة. هذا إحساس لم تختبراه قطّ من قبل. ضغطت منال على كفّ ليلى، وهما تشاركان في الصّراخ وتكرّران الشعارات الرّنانة مع الآخرين. كانت عيونهما تتّقد ببريق غريب وهما تتبادلان ابتسامات متواطئة. لم تعرفا شيئا أكثر حماسة من هذا.. أن تكونا جزءًا من كتلة أكبر، من حركة أقوى، أن تتقاسما شعارا وهتافا وقضيّة مع شعب بأسره.

فكّرت ليلى.. هذا إحساس مخدّر بالنّشوة. حماس معدٍ ومغرٍ بالإدمان. مثل الرّقص الجامح في علبة ليليّة، أو الصّراخ بأعلى صوتك من تلّة مرتفعة تردّد صداه. هذا متنفّس للغضب والكبت والألم. هنا يمكن لكلّ فرد أن يصبّ مكنونات صدره، مهما كانت، ويسمّيها ثورة. هنا يختلط الصّراخ، وتتخدّر الحواسّ، وتلتحم الأجساد. هنا يعيش كلّ شخص لحظته المنفردة.. لحظة نصره الشّخصيّ على

أحزانـه الصّغـيرة، لأنّـه قـد صـار جـزءًا مـن قضيّـة أكـبر.

فكّـرت، هـل تـراه هـذا يكـون واجبهـا تجـاه الوطـن؟ تعلـم أنّ أمـين يؤمـن بذلـك.. ولعـلّ معظـم المتظاهريـن مـن حولهـا يؤمنـون بالـشّيء نفسـه. الحفـاظ عـلى المكاسـب الثّوريّـة، حمايـة الثّـورة.. شـعارات يفترض بهـا أن تكـون وطنيّـة!

حين افترقتا عن الجموع واتّخذتا طريق العودة، هتفت منال:

ـ أنت خطيرة! لا أعلم إلى أين سيأخذني الانقياد وراءك هكذا!

ضحكـت منـال وابتسـمت ليـلى،. لـم تكـن تـدري هـي الأخـرى إلى أيـن تقودهـا خطواتهـا المتهـوّرة.

انشـغلت في تلـك الفـترة بمشـكلات الآخريـن، فشـغلتها عـن مشـكلتها. كانـت تتابـع مـع منـال حميتهـا الغذائيّة وتنظيـم حياتهـا العائليّـة، وتقدّم نصائـح لراضيـة بخصـوص زواجهـا المرتقـب، ثـمّ سريعـا مـا صـارت المستشـار الرّسـميّ لجميـع مدبّـرات المـنزل. كانـت أوّل مـن اكتشـف ضعـف نظـر جليلـة الـذي حاولـت إخفـاءه عـن الجميـع، وسـاعدتها في تقبّـل النّظـارة الطبيّـة الـتي مثّلـت معضلـة نفسـيّة لديهـا. ثـمّ صارحهـا العـمّ هاشـم بمـأزق ولـده الـذي طـرد مـن عملـه بشـكل تعسّـفيّ فتأزّمـت نفسـيّته حـتّى لـزم الفـراش. بعـد أن اطّلعـت عـلى بنـود عقـده، تمكّنـت بمعرفتهـا القانونيّـة أن تجـد مخرجـا يتيـح لـه الحصـول عـلى تعويضـات مناسـبة مـن صاحـب العمـل. وحـين وضعـت زوجـة مـروان الجنائـيّ، طفلتهـا الأولى، ذهبـت لزيارتهـا في المستشـفى، ودفعـت تكاليـف المحضنـة الاصّطناعيّـة الـتي اضطّـرت الطفلـة السّـابقة لأوانهـا إلى قضـاء شـهرين فيهـا.

وصـارت أيضـا تتبّـع أخبـار المسـيرات، وتخـرج في كثـير منهـا خلسـة! أحيانـا مـع مدبّـرات المـنزل، وأحيانـا أخـرى مـع منـال.. وكثـيرا بمفردهـا.

تتـوه وسـط الجمـوع المسـتنفرة، تطلـق صوتهـا منـدّدة ومهـدّدة، وترفـع قبضتهـا في الهـواء مـع الرّافعـين. وكلّـما خرجـت، وصرخـت، شـعرت بأنّهـا تتفهّـم أمـين أكـثر وأكـثر. وتضـع نفسـها مـكان سـحر وتسـتوعب موقفهـا. وفي كلّ مـرّة، تدمـع عيناهـا وتتعـالى بداخلهـا موجـة حماسـة مُسْـكِرة، وتنـسى أنّهـا عـلى أبـواب النّهايـة قريبـا.

وكانـت كلّ ليلـة، تجلـس لتفكّـر، وتعتـصر ذهنهـا، دون أن تجـد جوابـا شـافيا للمشـكلة الوحيـدة المتبقّيـة. كان بإمكانهـا أن تعـوّض كلّ أولئـك الذيـن آذتهـم في المـاضي، وتسـاعد المحيطـين بهـا عـلى تجـاوز أزماتهـم، وتـذوب في زحـام قضيّـة الوطـن والثّـورة. كان بإمكانهـا أن تبحـث وتنقّـب وتجتهـد لاسـترجاع ذاكرتهـا، رغـم أنّهـا لـم تتوصّـل بعـد إلى نتائـج تذكـر.. إلّا أنّ بوسـعها المحاولـة. لكـنّ معضلـة واحـدة لـم تكـن تجـد لهـا أيّـة حلـول محتملـة أو خطـوات يسـعها تجربتهـا.

فراس!

لـم تكـن تـدري كيـف يمكنهـا أن تعوّضـه! كيـف يمكنهـا أن تمحـو مـا خلّفتـه حنـان السّـابقة مـن دمـار شـامل في حياتـه؟ وكلّـما فكّـرت، تعاظـم إحساسـها بالعجـز. وكان الوقـت يمـرّ، والمهلـة الـتي منحتهـا لنفسـها قـد شـارفت عـلى الانتهـاء. كلّـما زارت موقـع البنـاء، تجلّـت أمامهـا معالـم الشّـقّة الـتي يـشرف فـراس بنفسـه عـلى تجديدهـا. قريبـا سـتكون جاهـزة. أسـابيع قليلـة.. شـهر عـلى الأكـثر. بعدهـا سـيكون عليهـا الرّحيـل إلى جينيـف، وتسـليم نفسـها إلى السّـلطات.

هل يمكنها أن تجد مخرجا في الوقت القليل المتبقّي؟

***

حاول تجنّبها منذ تلك اللّيلة ما استطاع. طالما أرادت العزلة، فيمكنه أن يمنحها ذلك. في نهاية الأمر، هو المسؤول عن الحالة التي أصابتها. حين عرف من العمّال أنّها تزور الشّقّة في الصّباح، صار يرجئ المرور عليها إلى نهاية دوامه. لم تعد تشارك العائلة مائدة العشاء، ولم يثر أحدهم الموضوع على الإطلاق، مهما بدا شغور المقعد المخصّص لها مربكا للجميع. ثمّ حين غادرت سجنها الفرديّ الاختياريّ، كان عليه أن ينسحب طواعيّة من مجالها البصريّ. لقد رأى بأمّ عينه كيف انهارت في البهو، لمجرّد سماع صوته! ورغم أنّه لم يستوعب بشكل جليّ وكليّ علاقته بأزمتها، فإنّه تفهّمها دون كثير تفكير. لقد مرّ بتلك الأزمة من قبل. يمكنه أن يضع نفسه مكانها. في نهاية الأمر، لا أحد يمكنه أن يتوقّع ما قد تخلّفه الصّدمة عند أحدهم. ولعلّه ذكّرها في تلك اللّيلة بأحداث مؤلمة كانت قد توارت في مكان سحيق من لاوعيها.

ومهما احتفظ بمسافة عنها منذ ذلك المساء، فإنّه أبدا لم يستغن عن جلسته في الشّرفة عصر كلّ يوم. كان يجلس وينتظر، وكلّه أمل أن يصله صوتها ذات يوم وهي تقرأ الشّعر مثل سالف عهدها، ليعلم أنّها قد صارت بخير.

لكنّه أبدا، لم يتوقّع أن يفاجئه ظهورها بذلك الشّكل المباغت.

لم يشعر بوجودها في الشّرفة المجاورة ذلك العصر، ولم يصله أدنى صوت يدلّ على قدومها، لكنّها أدهشته ذلك اليوم بإتقانها للعبة التسلّل الخفيّ خاصّته، حين بادرته على حين غرّة، وهو سارح في أفكاره، وسألت:

- هل يمكن في يوم ما.. أن تسامحها؟

كان صوتها واضحا وقريبا، ولهجتها عميقة وكئيبة. كانت تعلم

يقينا أنّه هناك. وكان سؤالها مباشرا ومربكا. مرّت ثوانٍ طويلة قبل أن يتجاوز صدمته، ويفكّر في السّؤال الغريب. ردّد في تشوّش:

ـ أن أسامحها؟ علامَ بالضبط؟

ـ على كلّ شيء.

مرّت لحظات أخرى، تصاعدت خلالها مرارة الذّكريات لتسيطر على وعيه وتطغى على تفكيره.. يمرّ شريط الـ«كلّ شيء» بذهنه بسرعة، ويختبر مرّة أخرى أحاسيس المرارة والضّغينة.

ـ كلّ ما فكّرت فيه.. هو أن أكون خصيمها يوم القيامة، وأترك لله أن يقتصّ منها، ويشفي غليلي!

ساد صمت طويل من الجانبين. خيّل إليه أنّها كانت تبكي دون صوت. لا شكّ أنّها كانت تفعل. لم يدر ما الذي عليه فعله. هل زاد الطّين بلّة؟ لم يكن عليه أن يكون بتلك القسوة؟ مهما كان الأمر، فهي توأمها. كان يحاول تركيب اعتذار، يخفّف وقع كلماته السّابقة، لكنّها سبقته بقولها:

ـ هل تدري.. أحيانا يكون الغفران بوّابة للنّسيان والتّجاوز.. إن أنت غفرت لها ما مضى، قد يكون من الأيسر عليك تخطّي الماضي واستئناف حياتك.

لقد سمع كلاما مثل هذا، في دروس التنمية الذاتية! كلام باهت، لم يجد له في صدره صدى، ولم يتناوله بشكل جدّيّ على الإطلاق.

ـ لقد رحلت منذ زمن، ولعلّها تحاسب الآن.. لقد تسبّبت في حياتها القصيرة في الكثير من الألم للآخرين.. وتركت ندوبا لا تمحى. ربّما لو سامحتها، لوجدت بعض الرّاحة في قبرها. فكّر بأنّك ستكون خيرا منها.. وأنّها كائن ضعيف ومثير للشّفقة.. وعفوك سيزيدها ذلّا ويرفعك درجة. في النّهاية، سيكون كلاكما أفضل حالا من الآن. فكّر

في هـذا.. هـل تعـدني؟

مـرّة أخـرى، اسـتغرق ثـواني طويلـة ليحلّـل اقتراحهـا ويسـتوعب مـا ينطـوي عليـه. تنهّـد أخـيرا، ثـم تمتـم بصـوت شـبه مسـموع:

ـ أعدك.

ثـمّ، لا شيء عـلى الجانـب الآخـر. بعـد دقائـق مـن الصّمـت، أدرك أنّهـا غـادرت في هـدوء منـذ فـترة. لـم يتمالـك نفسـه أن ابتسـم.

في الأيّـام التّاليـة، صاحبـه السّـؤال في كلّ وقـت. كان يجلـس متأمّـلا ويسـأل نفسـه. هـل يمكنـه أن يسـامحها؟ في المـرّات الأولى، انتابـه غضـب شـديد حيـال الفكـرة. هـل يمكـن للضّحيّـة أن تسـامح قاتلهـا؟ هـذا ممّـا لا قِبَـل لـه بـه. كيـف تجـرّأت عـلى مثـل هـذا الطّلـب؟ إنّهـا لا تعـي شيئا ممّـا مـرّ بـه! مهمـا حدّثهـا عـن تفاصيـل حياتـه مـع حنـان، لا يمكنهـا أن تسـتوعب قسـوة الخيبـة ومـرارة الخيانـة الـتي مـرّ بهمـا. لا يمكـن لأحـد أن يشـعر بمـا عايشـه، ولا أن يقـدّر معاناتـه! هـذه مأسـاته الـتي لا يـدرك عظمهـا شـخص غـيره.

مـع تكـرار السّـؤال، وتعمّقـه في معالجتـه، أصبـح يفكّـر في وجوهـه الأخـرى. كان ينـسى حـين يفكّـر في حزنـه ومحنتـه الخاصّـة أنّ حنـان كانـت تعـاني مـن اكتئـاب حـادّ في أيّامهـا الأخـيرة. لـم يعتبرهـا يومـا عديمـة الأهليّـة أو مجنونـة، لكنّهـا كانـت قريبـة مـن ذلـك في الحقيقـة! كان أملـه في شـفائها حيّـا حـتّى اللحظـات الأخـيرة. لـم يفقـد إيمانـه بأنّهـا سـترجع يومـا، لتكـون الشـابّة الجميلـة، المتّقـدة حيويّـة الـتي تمـنّى أن ترافقـه في مشـوار حياتـه. بحجـم التوقّعـات الـتي هدهـدت أحلامـه، كانـت الخيبـة الـتي حطّمتـه إلى أشـلاء.

هل يمكنه أن يسامحها؟

يـدور في فلـك التّسـاؤل المـرّ، وتتخبّـط نفسـيّته بـين الغضـب والتفهّـم

والألـم والحنـين. لـو أنّـه يسـامحها الآن، هـل يمكنـه حقّـا أن يسـتعيد حيـاة سـويّة لا كوابيـس فيهـا ولا تـردٍّ عميـق في فجـاج الخـذلان؟ هـل...؟

-١٥-

تشعر بأنفاسها ضعيفة، تتردّد في صدرها بخفوت، وثقل عظيم يجثم فوق صدرها. تفتح عينيها بوهن، فتبصر عيونا حمراء تحدّق بها في الظلام الدّامس. لا شيء يظهر من حولها عدا العيون الدّمويّة المتّقدة، والمخالب والأنياب البرّاقة. تحاول أن تتحرّك، فلا تقدر. تعود نظراتها إلى الثّقل الذي يغمرها، ويلتفّ حولها. جسد رجل، يضمّها بين ذراعيه. وقع فوقها، ولم يفلتها. تشعر بالاختناق. تحاول التملّص من قبضته، وعيناها لا تفارقان وميض النّظرات المفترسة المحدقة بها. ثمّ، رأتها تنقضّ. رأت الأنياب والمخالب تمزّق الذّراع العارية التي تحميها، وتنهش ظهره الذي يصدّ عنها الأذى. رأت الذئاب تنشب قواطعها في لحمه، وهي آمنة خلف جسده، لا تطالها الوحوش.

حاولت أن تصرخ. حاولت أن تنادي باسمه، لعلّها توقظه، فيدافع عن نفسه! لعلّ صراخها يطرد الحيوانات الشّرسة. لعلّ النّجدة تصل! لكنّ صوتها لم يغادر حلقها أبدا. بقيت الصّرخة حبيسة صدرها. وحدها عيناها الفزعتان كانتا تبصران في عجز، والألم يعتصر كلّ قطعة في جسدها الواهن.

استيقظت، غارقة في عرقها، حلقها جافّ واللّهاث يقطع أنفاسها، ثمّ انهارت في بكاء مرير. تشدّ اللّحاف وتئنّ، وتضغط رأسها على الجدار، ولا تستطيع أن تطرد قساوة المشهد الماثل أمام عينيها.

تعرف الآن، لماذا لا تستطيع أبدا، أن تنطق باسمه. فراس. صرخة بقيت حبيسة صدرها، ولم تغادره منذ ذلك الحين. كانت ترتعد، كأنّ

بها حمّى. هل كان ذلك الكابوس حقيقة؟ هل هاجمتهم الذّئاب على الطّريق المقفرة؟ تغرق في نوبة بكاء ثانية، ويرتفع نشيجها أقوى.

بعد زهاء السّاعة، انقطع بكاؤها، ولمّا يفارقها الاضطراب. لبثت في السّرير، تحدّق في الفراغ بنظرات هائمة. بعد الفجر، نجحت في العودة إلى النّوم.

***

استفتحت يومها على مكالمة صباحيّة غير متوقّعة. كانت سحر تتمنّى لها يوم مولد سعيدًا! وقد كانت مكالمات سحر في الغالب خارج نطاق توقّعاتها، وكثيرا ما أخرجتها من مزاجها الكئيب. لقد نسيت يوم مولدها هذه السّنة. لم تفكّر في ظلّ ظروفها الرّاهنة أنّها من الممكن أن تحتفل بذلك الحدث. لم يكن يوم مولدها وحدها. إنّه يوم مولد توأمها كذلك. وليلى لم تعد موجودة. وهي السّبب في غيابها!

استسلمت أمام إلحاح سحر، ووعدت بالخروج برفقتها بعد زيارة والدها. فور دخولها قاعة الزّيارات، بادرها بابتسامة:

- لا تبدين سعيدة في عيد مولدك.. كان يجب أن تقيمي حفلة، وتدعي أصدقاءك.

- لا رغبة لي في الاحتفال.

- الخامسة والعشرون، مرحلة مميّزة.. أنت الآن أكثر نضجا، وفي سنّ مناسبة للزّواج.

فاجأها بإثارة موضوع الزّواج. كلّما ذكّرته بخطبة مأمون، انتهيا إلى طريق مسدود. سارعت تقول مغلقة الحوار الذي لم يبدأ بعد:

ـ بالنّسبة إلى شقيق سحر.. لقد انتهى الأمر.

ـ حقّا؟!

لم يكن يتوقّع أن تستسلم بتلك البساطة. أردف على الفور:

ـ إذن.. ما رأيك بفراس؟

تسمّرت في مكانها، ولم تنطق. فراس؟ ما الذي يعنيه؟ إنّه زوجك أيتها الغبيّة! عادت إليها الشّكوك التي أنكرها في المواجهة السّابقة. هل تكون عودتهما إلى الوطن بنيّة مبيّتة؟ يساعدها على استعادة ذاكرتها؟

تسارعت الأسئلة في رأسها بشكل جنونيّ، بينما استمرّ صمتها بشكل محرج. همست أخيرا بصوت مبحوح:

ـ ما.. شأنه؟

ـ أعني، أنّه شابّ ناضج ومسؤول.. ذو نسب معروف ومركز عائلته مرموق، وهو فوق ذلك رجل وسيم ومهندس ناجح.. كلّ المواصفات التي يتمنّاها أب في الزّوج المستقبليّ لابنته الوحيدة!

شعرت بكفّ تعتصر صدرها بشكل مؤلم. فكّرت، ما هو مدى براءة هذا المقترح؟ لماذا قد يودّ والدها أن يزوّج كلتا ابنتيه من الرّجل نفسه؟ إلّا إذا كان يشكّ أو يعلم.. أنّ البنت التي نجت من الحادثة فاقدة للذاكرة، هي نفسها التي كانت زوجته؟

اضطرب تنفّسها وغامت عيناها. قالت بلهجة جافّة:

ـ لا أفكّر في الزّواج في الوقت الحالي.

أشفق عليها، حين رآها على وشك البكاء، وإن لم يبد له السّبب مفهوما.

ـ حسن.. خذي وقتك.

التقت سحر عند السّاعة الحادية عشرة. تناولتا وجبة إفطار متأخّرة في مطعم راقٍ وسط المدينة، تطلّ شرفته في الطّابق الرّابع على الشّوارع المزدحمة وسكّة المترو الصّاخبة. لكنّها أحبّت الضّوضاء والفوضى من حولها، وهواء المدينة المترب، والعابق بروائح الدّخان والبنزين وعطر زهور الشّرفة اليانعة. كان جميلا أن تتلهّى عن صخب الأفكار في رأسها بصخب النّاس والعربات.

حين قدّمت لها سحر هديّة مأمون من أجلها، استيقظت من فاصل المرح الذي أوهمت نفسها بأنّه ممكن. تذكّرت حكاية مأمون المعلّقة.. والتي لم تعد ممكنة. تأمّلت السلسلة الفضيّة التي يتدلى منها حجر زمرّدي بحجم حبّة اللّوز، وذكّرت نفسها بأنّها تُعدّ متزوّجة، وإن لم تكن كذلك على الورق! لم يكن من حقّها بعد الآن أن تأمل أو تحلم، أو تترك مأمون يأمل ويحلم. كان يجب أن تنهي كل شيء في أقرب وقت. قالت بصوت منكسر بعد أن دفعت علبة الهدية لتعيدها إلى سحر:

ـ أعيديها إلى أخيك.. وأخبريه بأن ينسى أنّه عرف يوما فتاة اسمها ليلى.

حدّقت فيها سحر غير مستوعبة وقالت في شك:

ـ ما الذي حصل؟ هل هو والدك مرّة أخرى؟

هزّت رأسها نافية وأضافت في هدوء:

ـ إنّه قراري هذه المرّة، ولا رجعة فيه. أنت صديقتي، وستبقين كذلك.. هذا الأمر لا يؤثر على علاقتي بك.

ثمّ تهدّج صوتها، ومال إلى البكاء. أخذت سحر تربّت على كفّها مواسية، لكنّها لم تكن تدرك ما الذي أصاب صديقتها. بعد دقائق، استعادت ليلى هدوءها. خرجتا تتمشيان عبر الطّرقات في صمت.

تعـبران أمـام واجهـات المحـلّات ولا تتوقّفـان. ثـمّ افترقتـا عنـد محطّـة المـترو، ولـم تتواعـدا عـلى لقـاء جديـد.

عـادت إلى القـصر قبيـل العـصر، ونامـت عـلى الفـور. كلّمـا ضاقـت بهـا الحـال، هربـت إلى النّـوم.

تناولـت وجبـة العشـاء في الموعـد المعتـاد مـع خالهـا وأولاده. وكانـت سـاهمة طيلـة الوجبـة. تفكّـر في حديـث والدهـا، ومـا يمكـن أن يعرفـه بالضّبـط عـن الحادثـة وتفاصيلهـا. مـال عليهـا أمـين هامسـا:

ـ فيمَ سرحانك؟

منـذ عودتهـا مـن المزرعـة، كانـت تبـدو أقـلّ إشراقا مـن السّـابق، وأبهت حضـورا. لا يمكنـه الادّعـاء أنّهـا كانـت تجاريـه في ثرثرتـه أو تتحـدّث حـتّى بمـا تسـتدعيه اللّباقـة. لكنّهـا عـلى الأقـلّ كانـت هنـاك. تبتسـم أحيانـا، تبـدي ردود فعـل عـلى مـا يجـري حولهـا، عبوسـا واستحسـانا وحماسـا في أوقـات أخـرى. يقـرأ كلّ ذلـك في عينيهـا، حـتّى حـين تحافـظ عـلى صمتهـا. لكنّهـا الآن، حـاضرة غائبـة. إنّهـا بينهـم، لكـنّ أفكارهـا، ونظراتهـا ليسـت معهـم عـلى الإطـلاق. ومنـذ عـاد فـراس للانضمـام إلى مائـدة العشـاء، صـار ضيقهـا أبـرز للعيـان. رغـم إنكارهـا، يـدرك أنّ شـيئا مـا قـد حصـل تلـك اللّيلـة.

هزّت رأسها نافية وقالت بهدوء:

ـ لا شيء يستحقّ الذّكر.. المشاغل المعتادة.

بعـد العشـاء، اعتـذرت منـال لمواعيـد اجتماعيّـة مسـبقة، ولـم تحـاول ليـلى أن تردعهـا أو تعاتبهـا حـتّى لخروجهـا عـن الجـدول الـذي وضعتـاه سـويّا. كانـت لاهيـة عنهـا بهمومهـا، فصعـدت إلى غرفتهـا عـلى الفـور. بعـد نصـف سـاعة، تعالـت ضربـات عـلى بابهـا. فتحـت، لتجـد مدبّـرة المـنزل بهجـة.

ـ آنستي، عرفت من قام بطلاء جدارك بالأحمر!

ـ بهجة، عزيزتي.. لقد انتهينا من هذا الأمر.

ابتسمت وهي ترمقها في عتاب.

ـ فكّرت أنّك قد ترغبين في تلقي اعتذار.

هزّت رأسها علامة النفي، فأضافت بهجة بسرعة:

ـ إذن هناك أمر هامّ آخر.. يجب أن ترافقيني إلى الرّدهة!

ـ ما الأمر الآن؟

ـ ستعرفين هناك! هيّا بنا أرجوك!

سحبتها من كفّها مستعجلة، فاستسلمت ليلى رغم ضيقها وتبعتها.

في الأسفل، كان فراس ينتظر في غرفة المكتب أن ينتهي والده من مكالمة عاجلة، ليعرف سبب استدعائه المفاجئ له. لم يكن هناك أيّ جديد في الفترة الأخيرة.. عدا أنّ اليوم هو عيد مولد حنان. هل يعقل أن يكون قد نسي التّاريخ؟ لو لم تكن مفكّرته الإلكترونيّة تحفظ الذّكرى، هل كان هذا اليوم ليمرّ بسلام، دون سرحان طويل واجترار لصور من الماضي؟

انتبه حين اقترب والده ليجلس قبالته بعد أن أنهى اتّصاله. قال مبتسما:

ـ هل جعلتك تنتظر طويلا؟

هزّ فراس رأسه بسرعة وتطلّع إليه في فضول.

ـ هل كانت تريدني في أمر ما؟

رمقه نبيل بنظرة فاحصة، ثم قال متمهّلا:

ـ قل لي.. ما رأيك في ليلى؟

ـ ليلى؟

تردّد فراس برهة متفكّرا، ثمّ قال بلهجة محايدة:

ـ إنّها تبدو مختلفة عن السّابق.

شجّعه نبيل بإيماءة من رأسه:

ـ و...؟

ـ هذا كلّ شيء.

لم يبد على والده الاكتفاء. قال بشكل مباشر:

ـ ما رأيك بها.. كزوجة؟

بدت على ملامح فراس الدّهشة. لم يكن والده قد حدّثه بشأن الزّواج خلال السّنوات الأربع الماضية. كان من الغريب أن يبادر الآن، وخاصّة أن يقترح عليه شقيقة زوجته الرّاحلة! بل توأمها! تذكّر بسرعة ضيوف ليلى ليلة حفل الشّواء. إن لم يخب حدسه، فهناك علاقة ما بين ليلى وشقيق صديقتها، طبيب الأطفال. لا شكّ أنّ لديها مشاريعها الخاصّة التي تمتدّ جذورها إلى ما قبل مجيئها إلى القصر. قال على الفور:

ـ لا أفكّر في الزواج في الوقت الحالي!

لم يبد على نبيل الرّضا. قال مترفّقا:

ـ الظّروف لم تعد كما كانت.. وأنا أريد لك ولإخوتك الأفضل.. لذلك فكّرت في زواجك من ليلى، ومرافقتك لها إلى سويسرا.. افعل هذا ليطمئّن قلبي!

سأله في حدّة:

ـ لماذا أنا؟ لماذا ليلى؟ ولماذا سويسرا؟ كلّ هذا يبدو لي مريبا!

عقد نبيل ذراعيه أمام صدره وقال:

ـ لماذا أنت؟ لأنّ ياسين متزوّج.. وأمين مشغول في مشاريعه الثّوريّة، والمغفّل لا يدري أنّ والده يعلم كلّ شيء عن تحرّكاته! يظنّ نفسه روبن هود العصر الحديث، يأخذ من الأثرياء ويعطي الفقراء! لماذا ليلى؟ لأنّها ابنة عمّتك، ولأنّها تحمل الجنسيّة السّويسريّة، ولأنّ وضعها شبيه بوضعك.. والدها ووالدك في مأزق. هذا هو الحال!

ـ مأزق؟ أيّ مأزق؟

ابتسم نبيل وقال مؤنّبا:

ـ لقد سحبتني إلى موضوع لا أريد إثارته.. ليس في هذا التّوقيت. لكن بما أنّنا نتصارح، فسأخبرك بكلّ شيء!

استند إلى الخلف واستعدّ لحديث طويل:

ـ في هذه البلاد، حتّى تدخل مجال الأعمال، يجب أن تتزلّف وتتملّق وتكوّن العلاقات مع رجال الأعمال الأكبر منك.. وإلا سحقوك ووأدوك في المهد! في هذا البحر، الحوت يلتهم الأسماك الصّغيرة! هذا هو قانون الطّبيعة. والسّمكة الصّغيرة، عليها أن تجد لقمتها، وتأمن الحوت العملاق.. فتؤدي من أجله بعض الأعمال، لنقل، غير النّظيفة! تماما كما تنظّف الأسماك الصّغيرة فم الحوت من الشّائبات، يقوم صغار رجال الأعمال بالتّنظيف وراء رجال الأعمال الكبار! بعض الصّفقات الصّغيرة هنا وهناك، ليستمرّ المركب بالجميع.. لكن حين تتأزّم الأوضاع، يُضحّى دائما بالأسماك الصّغيرة، فتقع في شباك الصيّاد، لتنجو الحيتان الكبيرة بجلدها! نحن أكباش فداء لنجاح ثورة هذا الوطن! سيتحدّثون كثيرا عن مكافحة الفساد ومحاسبة الفاسدين، لكنّهم سيطاردون الأسماك الصّغيرة، ويتركون الحيتان نائمة في جحورها.. هل تفهمني يا بنيّ؟

بدت علامات الصّدمة جليّة على ملامح فراس، بينما واصل نبيل:

ـ هـذه الـثّروة رزق حـلال.. أقسـم عـلى ذلـك! كسـبتها بالعمـل الشّريـف والـدّؤوب طيلـة أكـثر مـن ثلاثـين سـنة! لكنّهـم يريـدون أن ينهبـوا كلّ ذلـك باسـم الثّـورة. هـل أتركهـم يفعلـون؟ وتعـبي وشـقائي؟ يذهـب هـدرا؟ ومسـتقبل أبنـائي؟ أضحّـي بـكلّ هـذا؟ مسـتحيل! الجـزء الرّئيـسيّ مـن الـثّروة سـأقوم بتهريبـه إلى سـويسرا.. في حسـاب باسـمك. لقـد اتّفقـت مـع نجيـب عـلى كلّ شيء. سـأترك لهـم الشّركـة عـلى مشـارف الإفـلاس، ويمكنهـم أيضـا مصـادرة الفيـلا والمزرعـة ومـنزل الشّـاطئ والسـيّارات والتّحـف والمجوهـرات.. سـأضحّي بـكلّ ذلـك.. في المقابـل، سـتعيد تنشـيط شركـة عمّـك نجيـب في جينيـف، وتسـتثمر رؤوس الأمـوال الـتي بحوزتنـا..

غـادر فـراس المكتـب في ذهـول، وانـبرى يصعـد الـدّرج بذهـن مشـتّت. مـا عرفـه اليـوم في مكتـب والـده مرعـب ومزلـزل. والـده يعتمـد عليـه لإنقـاذ ثروتـه! يهـرب؟ إلى سـويسرا؟ شـعر بجسـده يترنّـح، أغمـض عينيـه، ووضـع كفّـه عـلى الجـدار لئـلّا يفقـد توازنـه. مضـت ثـوانٍ قبـل أن ينتبـه إلى الظـلام الدّامـس مـن حولـه. لـم يكـن خلـلا في رؤيتـه. كانـت الرّدهـة والصّالـة العلويّتـان مظلمتـين بالفعـل. لـم يكـن مـن عـادة مدبّـرات المـنزل إطفـاء الأضـواء قبـل خلـود جميـع السّـكّان إلى النّـوم. امتـدّت كفّـه إلى زرّ الإنـارة ليـضيء المـكان، فارتفـع صراخ في الظّـلام، وأعـاد أحدهـم إغـلاق الإضـاءة:

ـ أطفئ الضوء!

ـ اششش.. هدوء!

ارتدّ فزعا، ولم يشعر إلا بكفّ تشده إلى الدّاخل.

في تلك اللّحظة، كانت بهجة تغادر غرفة ليلى وهي تسحبها وراءها.

ـ إلى أين نذهب؟

ـ سترين الآن.. لحظة واحدة.

حين وصلت إلى الصّالة العلويّة الغارقة في الظلام، انتابها نفس الخاطر الذي راود فراس قبلها بدقيقة واحدة. امتدّت يدها نحو زرّ الإنارة، وهي تفكّر أنّها لم تر المكان مظلما من قبل.

ـ من الذي أطفأ المصابيح؟

ـ مفاجأة!!!

شعرت بغتة بموجة من البالونات والشّرائط الملوّنة تندفع في اتّجاهها مع أصوات الصّافرات الصّاخبة والصّراخ. اتّسعت عيناها في ذهول، وهي تكتشف تلك الجموع التي أحاطت بها من كلّ اتّجاه. كان خدم القصر جميعا هناك، بلا استثناء، بالإضافة إلى منال التي تظاهرت بالمغادرة لتفاجئها.. وأمين وفراس وياسين أيضا! تسمّرت مكانها مذهولة، وامتلأت عيناها بالدّمع. لم تكن تأمل أن تحتفل بعيد مولدها اليوم. وكلّ محاولات التّهنئة من سحر ووالدها انتهت نهايات أليمة لا شأن لها بالمزاج الاحتفاليّ.

ـ كيف.. كيف عرفتم؟

تمتمت مشدوهة، ثمّ انتبهت إلى أنّ تاريخ اليوم لا يمكن أن يكون مجهولا بالنّسبة إليهم. تذكّرت بسرعة صور الاحتفالات التي كانت تنشرها حنان على مواقع التّواصل الاجتماعيّ. لقد كان عيد مولدها مناسبة مشهودة في سنواتها الأخيرة، يتجنّد لها الخدم عن بكرة أبيهم، فلا عجب أن يذكروا جميعا موعدها السّنويّ!

على المنضدة، اكتشفت كعكة مغلّفة بالكريمة البيضاء وحبّات الفراولة المغرية. لقد تذكّر العمّ هاشم أنّها كعكتها المفضّلة! اقتربت في ارتباك على وقع الغناء المستمرّ، في نشاز واضح، وبطبقات صوت متباينة، لكنّها حماسيّة وسعيدة، ونفخت شمعاتها الخمسة

والعشريـن، وقـد اغرورقـت عيناهـا دمعـا. همسـت منـال وهـي تحتضنها:

ـ هذا ليس وقت البكاء.. إنّه وقت الاحتفال!

ثـمّ تـداول الجميـع عـلى تهنئتهـا واحـدا واحـدا، مقدّمـين لهـا علـب الهدايـا المغلّفـة. وكانـت التّهـاني مصحوبـة باعترافـات مؤثّـرة. تكلّـم العـمّ هاشـم عـن ولـده الـذي تسـلّم التّعويـض أخـيرا مـن مشـغّله القديـم، ويفكّـر في فتـح مشروعـه الخـاصّ، بفضـل الاستشـارة القانونيّـة الـتي قدّمتهـا الآنسـة ليـلى! ثـمّ رفعـت جليلـة نظارتهـا الطبيّـة عـن عينيهـا، وقالـت في سـخرية:

ـ لـم أكـن أرى شـيئا تقريبـا، لكنّـني واصلـت العمـل في إنـكار تـامّ لحالتي الصحيّـة.. لـولا أن اكتشـفت الآنسـة ذلـك، وأجبرتـني عـلى الكشـف عـلى عينيّ !

أمّـا راضيـة، فقـد كان خاتـم خطبتهـا يزيّـن بنصرهـا. عانقـت ليـلى بشـدّة، ثـمّ تلقّـت التّهـاني بدورهـا مـن الآخريـن. كانـت قـد انقطعـت عـن العمـل في القـصر منـذ أسـبوع، لكنّهـا جـاءت خصّيصـا لتشـارك في حفلـة الآنسـة!

تنحنح ياسين وقال غامزا منال بطرفه:

ـ ليلى.. شكرا لأنّك أعدت إليّ زوجتي!

ضحـك الجميـع لوجـه منـال الملتهـب. كانـت تبـدو متألقّـة في تلـك السّـهرة، وقـد نقـص وزنهـا بشـكل واضـح. كان كل مـن في القـصر يعلـم أنّهـا قـد غـدت سـيّدة مشـغولة، ولـم يعـد مـن النّـادر أن تُـرى عائـدة مـن المركـز الثقـافي، محمّلـة بكتـب ودفاتـر. كانـت تحمـل بـين ذراعيهـا تحفـة زجاجيّـة ملوّنـة، ربـط عنـد عنقهـا شريـط الهدايـا. قدّمتهـا إلى ليـلى وهـي تقـول:

ـ هذا إنجازي الأوّل.. وقد أحببت أن أهديه إلى أعزّ صديقاتي.

تلقّتها ليلى بين ذراعيها في تأثّر، وتعانقتا طويلا.

لـم تكـن ليـلى وحدهـا مـن تلقّـى مفاجـأة بتلـك الحفلـة، فقـد اسـتمرّ ذهــول فــراس فــترة أطــول مــن الــلازم وهــو يحــدّق في الوجــوه، غــير مسـتوعب مـا يحصـل. لقـد خـرج مصدومـا مـن مكتـب والـده، ليتلقّـى صفعــة مــن نــوع آخــر. انتبــه إلى أنّــه الوحيــد مــن بــين الحضــور دون هديّـة! حـتّى أمـين الـذي تنـازل عـن سـهرته المعتـادة، كان يحمـل علبـة مغلّفـة! صدمتـه الحقيقـة، لقـد اتّفقـوا جميعـا مـن ورائـه لمفاجأتهـا.. أشـقاؤه وكلّ الخـدم، حـتّى راضيـة الـتي لـم تعـد تعمـل هنـا، كانـت عـلى علـم.. لكـنّ أحـدا لـم يكلّـف نفسـه مشـقّة إعلامـه! لمـاذا يدهشـه ذلـك؟ ألـم يكـن الحـاضر الغائـب لفـترة طويلـة؟ لقـد تعـوّدوا منـه اللامبـالاة وعـدم الاهتمـام، حـتّى أنّـه لا يذكـر أنّـه قـد قـدّم هديّـة لأحـد مـا، أيّ أحـد، منـذ سـنوات خلـت! كلّ المناسـبات الاجتماعيّـة الـتي حضرهـا، صـادف أن كان موجـودا خلالهـا دون رغبـة حقيقيّـة منـه. وكلّ العلاقـات الـتي يحتفـظ بهـا اليـوم، هـي محـض علاقـات مهنيّـة!

راقبهـا وهـي تتلقّـى الهدايـا في تأثّـر، وفكّـر بـأنّ عليـه الانسـحاب. ثـمّ توقّفـت عيناهـا عليـه فجـأة. لقـد رأتـه وانتهـى الأمـر. ابتسـم وهـو يلـوّح بكفّيـه الخاويـين، ثـمّ همـس:

ـ يوم مولد سعيد!

واستدار منصرفا.

***

عـادت إلى غرفتهـا محمّلـة بالهدايـا. أخـذت تفتحهـا واحـدة إثـر الأخرى، وتتّسـع ابتسـامتها أكـثر وأكـثر. لقـد أقامـت حفـلات في أعيادهـا السّـابقة.. حفـلات فاخـرة، تليـق بسـعادة السّـفير السّـابق ورجـل الأعمـال النّاجـح.. وكان زوّارهـا ومهنّئوهـا كـثرا، يهمّهـم والدهـا، أكـثر ممّـا تهمّهـم ذاتهـا عديمـة الشّـأن. وقـد شـعرت بالغربـة كثـيرا، بـين تلـك الوجـوه الغريبـة.. وقـد أوقعهـا غيـاب ذكرياتهـا في مواقـف محرجـة مـع الكثيريـن مـن ضيوفهـا. ببسـاطة، لـم تكـن تذكرهـم، ولا تذكـر هداياهـم الغاليـة السّـابقة، ولا تعلـم مصيرهـا! لقـد كانـت حفلاتهـا تقـام في الـنّزل وفي قاعـات الاحتفـالات الواسـعة.. لكنّهـا لـم تكـن مليئـة بالحـبّ، كمـا كانـت حفلـة اليـوم الصّغـيرة والمرتجلـة!

لـم تشـعر بالسّـعادة الـتي عاشـتها اليـوم في أيّ وقـت مـضى. ولا حـتّى حـين خطبهـا مأمـون.. ولا حـين تسـلّمت شـهادة تخرّجهـا! أن تكـون محاطـة بنفـوس مُحبّـة، لا متزلّفـة ولا مهادنـة، وأن تكـون محـطّ الاهتمـام والرّعايـة مـن كلّ أولئـك الذيـن كانـت تعدّهـم غربـاء منـذ شـهور قليلـة.. هـل يعـني ذلـك نجاحهـا في مهمّتهـا؟ شـعرت بالحـرارة تغمرهـا.. لقـد نجحـت!

قامـت مـن مجلسـها، وأدارت المفتـاح في قفـل درج المنضـدة العلـويّ، وأخرجـت المفكّـرة. تذكّـرت وجـه فـراس هـذا المسـاء. لقـد كان محرجـا، لقدومـه دون هديّـة، وانـصرف مبكّـرا. فتحـت المفكّـرة، ومـرّرت أصابعهـا عـلى الكلمـات.. لا يـدري أنّـه سـبق أن قـدّم إليهـا أثمـن هديّـة.. هـذه المفكّـرة!

كلّمـا قـرأت في صفحاتهـا، كانـت تصطـدم بـين سـطر وآخـر بمشـاعر فـراس الصّافيـة، تجـاه حنـان لا مباليـة وناكـرة للجميـل. وكلّمـا فعلـت، غرقـت في نوبـات بـكاء، واحـدة إثـر الأخـرى. فقـد كان يشـقيها يقينهـا بـأنّ زواجهـا التّعيـس كمـا تحـدّث عنـه الجميـع، والـذي لا تذكـر شـيئا مـن

تفاصيل يوميّاته، كان يمكن أن يكون قصّة مبهجة ورائقة.. لو أنّها لم تكن كما كانت!

لكنّها لم تستوعب، لماذا لا تستعيد ذاكرتها؟ لماذا لا ترى ومضات من الماضي وهي تقرأ مذكّرات فراس؟ لماذا تبدو لها أحداثا كرتونيّة، مجرّد قصّة على الورق، لا تنبعث حياة في مخيّلتها؟ ما الذي يمكنها فعله لتنشيط ذاكرتها ورتق ما تمزّق من دفاترها القديمة؟

كان التّساؤل يلازمها، كلّ يوم، وهي تسير في ردهات القصر وممرّات حديقته، تعيد رسم الحوادث التي قرأتها في فضائها الحقيقيّ، وتحاول أن تبصرها بعين الذّاكرة، فتفشل في كلّ مرّة.

وفي تلك الأحايين التي يملؤها خلالها الشكّ، كان يساورها إحساس غريب بأنّها ليست حنان! لقد بحثت عن حنان في داخلها، لكنّها لم تجدها. حنان التي في مذكّرات فراس، وحكايات الخالة مريم، وأحاديث الخدم.. لم تكن تميّز لها أدنى أثر. هل تكون ليلى في نهاية الأمر؟ لكن لا.. تبقى الكوابيس التي تراها بوضوح متزايد برهانا غير قابل للدّحض على حقيقتها المُرّة!

إنّها تكاد تفقد الأمل في استرجاع ذكرياتها قبل حلول الأجل المحدّد، لكنّ ذلك لن يمنعها من المضيّ في الخطّة.

***

فكّر فراس كثيرا ذلك المساء، حتّى كاد يشعر بخلايا عقله تحترق. كان طلب والده المفاجئ مربكا. لكنّه فوق ذلك لا يعنيه وحده. هناك ليلى على الطّرف الثّاني، والكبار يحاولون الآن تقرير مصيرها في غفلة منها. إن كان والداهما قد اتّفقا، فهل يمكنهما إلّا الإذعان؟ هذه ظروف طارئة، ومستقبل العائلتين يعتمد على قرارهما!

لقد عاش سنواته الأخيرة بعد الحادثة في قوقعته الخاصّة. لم تكن شؤون الآخرين تعنيه، ولا أحد يتدخّل في شأنه. وكانت فكرة الغفران التي اقترحتها ليلى تعود إلى ذهنه بين فترة وأخرى. أن ينسى، ويثق بالآخرين مرّة أخرى، وأن تكون لديه علاقات طبيعيّة بأشقّائه.. لماذا لا يحاول؟ لماذا لا يمنح نفسه هذه الفرصة؟ وقد كان يوشك على اتّخاذ قرار هامّ ببدء مرحلة جديدة من حياته. والآن، هذا الطّلب من والده يهدم كلّ شيء! توقيت سيّئ.. سيّئ جدّا!

تذكّر لقاءه السّابق بالدّكتور مأمون، وشعر بثقل في صدره. هل يكون السّبب في التّفريق بينها وبين رجلها؟ هل يجازي جميلها بالنّكران؟ تذكّر سعادتها اليوم، في حفلتها.. وتمنّى أن يكون في مقدوره الحفاظ عليها، لا تدميرها. اتّخذ قراره، مازال بوسعه أنّ يقدّم لها هديّة متأخّرة بمناسبة عيد مولدها! تناول هاتفه، وبحث عن رقم مسجّل في الذّاكرة أدخله منذ فترة. كان قد تبادل مع الدكتور مأمون أرقام الهاتف أثناء حفل الشّواء. لقد أحسن فعلا.

حين وصله صوت مأمون، قال بلهجة جادّة ومباشرة:

ـ دكتور مأمون، إن كنت جادّا بشأن ليلى.. فأنصت جيّدا لما سأقول.

***

فوجئت ليلى باتّصال سحر، باكرا في الصّباح التّالي. لم تكن تتوقّع أن تسمع منها في القريب بعد ما جرى بينهما بالأمس. كانت تعلم أنّ سحر متعلّقة بشقيقها بقدر يفوق المعتاد. لقد كانا صديقين، فوق كونهما شقيقين. وردّها له بذلك الشّكل المفاجئ والفجّ كان مهينا وجارحا. وكان يحقّ لسحر أن تغضب لشقيقها. لذلك، أدهشها صوت سحر المرح والحاني على الهاتف. بعد لفّ ودوران كثير، وسؤال متكرّر عن الصحّة والأحوال، قالت فجأة في عتاب:

ـ لقد اختلفنا في وجهات النّظر سابقا، ومواقفنا السّياسيّة متباينة ولا شكّ، لكنّني لم أصدّق لحظة واحدة أنّك قد تكونين خائنة أو متلوّنة! كنت أعلم أنّ شيئا ما قد حصل!

ـ ماذا؟

ـ كان يجب أن تقولي أنّ عائلتك تضغط عليك للزواج من قريبك!

سيطرت عليها الصّدمة لبرهة. كيف عرفت سحر؟ لم تكن قد أطلعت أحدا على الإطلاق على فحوى لقائها مع والدها. ولا يمكن للخبر أن ينتشر، إلّا إذا كان والدها قد قرّر الإخبار به بنفسه! ومن يمكنه أن يوصل الخبر إلى سحر من بين زوّاره القلائل في سجنه؟ إنّه أمر مستبعد إلى حدود الاستحالة! غمغمت في ارتباك:

ـ كيف.. كيف عرفت؟

ـ ابن خالك اتّصل بمأمون بالأمس.. ونصحه بلقاء خالك بأسرع وقت، بصفته وليّ أمرك مادام والدك في السّجن.. صحيح أنّ ثروة خالك عليها نقاط استفهام كثيرة، لكنّه يبقى وليّ أمرك!

ـ ابن خالي؟ من؟

ـ فراس! كان قد تبادل أرقام الهاتف في زيارتنا السّابقة، تذكرين؟

فغرت فاها، ولم تحر جوابا. فراس؟ هكذا تبدو الأمور أوضح. لا

شكّ أنّ خالها قد فاتحه بالأمر مثلما فعل والدها معها. هذا يفسّر كلّ شيء. لكن فراس.. كيف عرف بخطبة مأمون لها؟ هل تحدّثا بالأمر تلك الليلة؟ والآن، ما الذي يريده من لقاء مأمون بخالها؟ هل يعلن بذلك رفضه لها؟ هذا أمر وارد.. إن لم يكن يدرك بعد أنّها...

ـ بالمناسبة، من هو قريبك هذا الذي يريدون فرضه عليك؟

كتمت ليلى ضحكة صفراء كادت تفلت منها. لقد أغفل ناقل الخبر تفاصيله. ما الذي ترمي إليه يا فراس؟ تخلّصت من أسئلة سحر بسرعة وأنهت المكالمة. كان عليها أن تنظر في حلّ لهذه الأزمة الجديدة التي تسبّب بها فراس من حيث لا يدري! خرجت على الفور وطرقت باب غرفته. كان لا يزال هناك. فتح الباب مدهوشا وهو ينهي تزرير قميصه. لم يكن يتوقّع زيارة صباحيّة.. تماما كما لم تكن تتوقّع مكالمة سحر المبكّرة! بادرته على الفور:

ـ أنت اتّصلت بالدّكتور مأمون وطلبت منه لقاء خالي؟

هزّ رأسه علامة الإيجاب. كان من المدهش أن يصلها الخبر بتلك السّرعة.

ـ إذن أوقف كلّ هذا على الفور.. لا يجب أن يلتقي بخالي لأيّ سبب كان!

كانت لهجتها صارمة وحاسمة. حسن، لم يكن هذا ردّ الفعل الذي توقّعه! لا شيء من العرفان الذي انتظره! بل لعلّها بدت غاضبة، كأنّما ارتكب جرما بتدخّله السّافر في شؤونها. زوى ما بين حاجبيه، ثمّ هزّ رأسه ببطء. سيفعل إن كانت هذه رغبتها. كان هدفه المساعدة، لا أكثر! أخرج هاتفه أمام ناظريها واتّصل بمأمون:

ـ دكتور مأمون، أين أنت؟ حسن، انتظرني رجاء.. سأكون هناك خلال دقائق.

أنهى الاتّصال، ثمّ طالعها في صمت، ولسان حاله يقول: هل أنت راضية الآن؟ همّت بالانسحاب إلى غرفتها، ثمّ عادت كأنّما تذكّرت شيئا:

ـ لا أدري كيف عرفت بخطبة مأمون لي.. لكنّني سبق أن رفضته! لذلك فضّ الأمر بالطّريقة المناسبة.. لقد كان خطؤك أن تدخّلت وأنت لا تعرف تفاصيل القصّة!

ثمّ أضافت بلهجة ساخرة:

ـ وإن كان قصدك أن ترفض طلب والدك، فقد كان بإمكانك التحلّي بالشجاعة وتقديم اعتذار مباشر.. لا اتّباع الطّرق الملتوية!

ثمّ دارت على عقبيها ودخلت غرفتها موصدة الباب خلفها. بينما سيطر الذّهول على فراس. لا يدري كيف انقلب الوضع ضدّه! لم يكن يريد شيئا غير المساعدة!

وقفت ليلى خلف الباب، تسترجع أنفاسها. لقد انفعلت. لامت نفسها. ما كان يجدر بها أن تعبّر عن ضيقها بشكل مباشر. لقد تسرّعت. لكن ما الأمر؟ لماذا يضايقها رفضه؟ إنّه لا يعلم أنّها زوجته! ومع ذلك، كان من المهين لها كحنان أن تراه يدفع بها في اتّجاه رجل آخر، ويسعى لحلّ مشكلاتها العاطفيّة! ومن المهين لها أكثر، كليلى كما يراها، أن يتمّ رفضها بتلك البساطة! صحيح أنّها رفضت هي أيضا. لكنّ دوافعها مختلفة!

زفرت. ما الذي تريده بالضّبط؟ سينتهي هذا الأمر برمّته اليوم. فراس سيصلح خطأه مع مأمون ووالده. لكنّها لا تشعر بالرّضا. ليست راضية أبدا.

***

وصل فراس إلى مكتبه بعد أن مرّ بشكل عاجل على شركة القاسمي للمقاولات. من حسن حظّه أنّه قد التقى مأمون عند مكتب الاستقبال، قبل أن يتسنّى له تقديم نفسه أو طلب موعد مع والده! اعتذر. اعتذر كثيرا. لقد كان خطؤه أن تسرّع في تأويل الموقف. لم يستطع أن يشرح الكثير لمأمون، أخبره فقط أنّ ليلى لن تجبر أبدا على زواج لا تريده. وإن كانت قد رفضته كما يبدو فهو قرارها الخاصّ. قرأ الخيبة في ملامح الرّجل، فازداد حرجه. لقد منحه أملا مزيّفا.

تفارقا أخيرا عند مدخل الشّركة. صافحه بحرارة، واعتذر مرّة أخرى. عرض أن يوصله في طريقه، لكنّ مأمون رفض. شيّعه بنظراته حتّى ركب سيّارة أجرة، ثمّ ركب سيّارته بعد أن اطمأنّ لانصرافه.

حين انفرد بنفسه أخيرا، فاجأه خاطر جديد. إنّها ليست مرتبطة كما اعتقد! هل يغيّر هذا موقفه من اقتراح والده؟ ليس واثقا. فكّر من جديد في سؤاله: كيف تراها كزوجة؟ ليلى الجديدة، ليلى التي عرفها في الشّهور الأخيرة، هل يمكنه أن ينفي ارتياحه إليها؟ هل ينكر اهتمامه لأمرها، انتظاره لها في الشّرفة، توقه للاستماع إلى إلقائها الشّعريّ، رغبته في إسعادها؟ أذهلته اكتشافاته المتأخّرة لسلوكه الذي أفلت زمامه تماما! متى، وكيف صارت علاقته بها على هذا النّحو؟

غيّر وجهته فجأة. أوقف السيّارة عند شقّتها ونزل. ما الذي تحاول إثباته الآن يا فراس؟ أخذ نفسا عميقا ثمّ هرول في اتّجاه الدّرج. صعد الدّرجات أربعًا أربعًا، حتّى أصبح أمام باب الشّقة الموارب. وقف في الخارج، وأصغى في انتباه. سمع صوتها قادما من الصالة وهي تحادث المشرف على البناء. لم تكن راضية على لون الطلاء. ابتسم. كان يعلم أنّها ستكون هنا، في هذا الوقت من النّهار. وقد اشتاق فجأة إلى صوتها. ماذا؟ ماذا؟ هل يدرك معنى اعترافه هذا؟

سمع وقع خطوات قادمة في اتّجاه المدخل. استدار على عقبيه وقفز السلالم دون تفكير. كان عليه أن يختفي. لم يكن بوسعه مواجهة نفسه حتّى في تلك اللحظة، فكيف بمواجهتها هي؟!

***

كان لقاؤه الأوّل بليلى في جينيف.

كانت حنان تقيم في المصحّ معظم الوقت، وهو يزورها باستمرار، يمضي معها معظم ساعات النّهار. يحمل حاسبه الآليّ، ودفاتره ويجلس وإيّاها في ساحة المصحّ. يتحدّثان قليلا، ويحاول هو العمل على مشروع تخرّجه الذي يجب أن ينهيه في الأجل المحدّد. تغيب عنه ساعة أو اثنتين، من أجل حصص علاجها، ثمّ تعاود الجلوس في سكينة على المقعد إلى جواره، حتّى تنتهي ساعات الزّيارة المسموحة.

وفي أحد اتّصالات والده، مدّه بعنوان نجيب في جينيف! اقترح أن يزوره، ويعرّفه بحالة ابنته. كان فراس يكتشف أنّ والد زوجته على قيد الحياة، بل في المدينة نفسها! حين وصل إلى العنوان، فتحت ليلى الباب. نسخة أخرى من حنان. شلّته الصّدمة للحظات، قبل أن يستوعب أنّها ليست هي، بل شقيقتها التّوأم!

كانت فتاة متعالية، ومتعجرفة. تتكلّم الفرنسيّة معظم الوقت وأحيانا الإنجليزية، وبلكنة سليمة ومثالية. كانت سويسريّة خالصة، ثقافة ولغة وانتماءً.

بعد لقائه بنجيب، ذهب ثلاثتهم لزيارة حنان في المصحّ. كانت ردّة فعل حنان مفاجئة، عند رؤيتها لتوأمها. انفجرت في ضحك هستيريّ، وهي تشير إلى ليلى وتمسك بطنها. ثمّ حين هدأت، عبّرت عن

سـعادتها بشـقيقتها المكتشـفة.

لـم تكـن ليـلى تشـاركها المشـاعر ذاتهـا. خيّـل إليـه أنّهـا مجـبرة عـلى الحضـور لزيـارة شـقيقة لا رغبـة لهـا بوجودهـا. لقـد كانـت حياتهـا مثاليـة حـتى تلـك اللحظـة، بـدون أقـارب مزعجـين وشـقيقة مدمنـة! وقـد كان مجيئـه ذلـك المسـاء إلى شـقّة والدهـا بدايـة المتاعـب، كمـا صرّحـت لـه بشـكل مبـاشر ذات مـرّة!

خـلال الشّـهور الثلاثـة لعـلاج حنـان، التقاهـا بضـع مـرّات، في المصـحّ أو في شـقّة والدهـا، وقـد كانـت العلاقـة بينهمـا متوتّـرة. هـذا أقـل مـا يمكـن أن يقـال عنهـا. ثـمّ عـاد وحنـان إلى تونـس، وقـد أوشـكت أن تتماثل للشّـفاء. عـادت حياتـه إلى وتيرتهـا الاعتياديّـة. اسـتأنف دوامـه في الجامعـة، وحنـان كذلـك. لكـنّ الأمـور سرعـان مـا تدهـورت.

كانـت علاقتـه بحنـان حـتّى ذلـك الوقـت، نوعـا مـن الصّداقـة.. مـن طـرف واحـد. نظـرا للظّـروف الاسـتثنائيّة الـتي تمـرّ بهـا حنـان، لـم يكـن يُلزمهـا بـأيّ نـوع مـن الواجبـات تجاهـه. حـاول أن يكـون نوعـا مـا، طبيبهـا النّفـسيّ المـلازم لهـا. وقـد كانـت تسـتجيب لعاطفتـه أحيانـا، وتقابلهـا بالتمـرّد معظـم الأحيـان. حـتّى أقدمـت عـلى محاولـة الانتحـار!

كانـت قـد عـادت إلى تعاطـي المخـدّرات فـور عودتهـا إلى الجامعـة! نسـفت شـهور العـلاج الثقيلـة والمرهقـة في سـويعات قليلـة، مـا إن التقـت مجـدّدا بشـلّتها القديمـة! كانـت إرادتهـا منعدمـة، وانسـياقها وراء هواهـا الجامـح تامّـا. ذهبـت تضحياتـه كلّهـا هبـاء. حـين اكتشـف الحقيقـة، بعـد شـهرين مـن رجوعهمـا، انتابـه شـعور مقيـت بالخـذلان. تشـاجرا. عنّفهـا.. نفّـس عـن غضبـه، وكانـت كلماتـه جارحـة. كانـت صـدى للجـراح الـتي بداخلـه. فكّـر للحظـات بالطّـلاق. لـم يكـن بقـاؤه إلى جانبهـا يعـني لهـا شـيئا، وقـد كانـت مرارتـه عميقـة. يمكنهـا أن تواصـل تدمـير

نفسـها بعيـدا عنـه.. لـم يكـن يتحمّـل أن يراهـا تنحـدر إلى مسـتنقعها القديـم أمـام عينيـه!

وصلـه الخـبر، في الكلّيّـة، وهـو عـلى وشـك دخـول مناقشـة مـشروع تخرّجـه! لـم يكـن بإمكانهـا اختيـار توقيـت أكـثر سـوءًا! وقفت على سـطح البنايـة، بعـد أن كتبـت عـلى موقـع الجامعـة، خطابـا مؤثّـرا عـن زواجهـا الفاشـل، وزوجهـا العنيـف، وطلاقهـا الوشـيك! تـرك كلّ شيء وجـرى إليهـا. لام نفسـه بعـد ذلـك، لقـد كان السّـبب في انهيارهـا. مـرّت بـه أيّـام عصيبـة، بعـد قبولهـا في مصحّ نفسيّ هـذه المـرّة، بالعاصمـة التّونسـيّة. لازمهـا خـلال إقامتهـا الـتي دامـت أسـبوعين، وأجّـل تخرّجـه إلى الفصـل التّـالي. كانـت تحـت تأثـير المسـكّن معظـم الوقـت، وكانـت تمـرّ بفـترات جنـون حـين تسـتيقظ، بفعـل انسـحاب المخـدّر. لكنّـه لـم يتركهـا لحظـة واحـدة.

ثـمّ تقـرّر سـفرها إلى سـويسرا مـن جديـد. كان يلزمهـا أن تخضـع لعـلاج أطـول وأكـثر تركـيزا.. وتبتعـد تمامـا عـن محيطهـا السّـابق.

التقى ليلى في رحلته الثّانية إلى جينيف.

لـم يكـن يـدرك سـبب عدائهـا السّـافر. يفهـم حقّـا أنّهـا تعـدّ حنـان منافسـة عـلى اهتمـام والدهمـا ورعايتـه. لكـنّ الغـيرة في تلـك السّـنّ كانـت صبيانيّـة جـدّا! لقـد كانـت فتـاة راشـدة. كلتاهمـا ترتـاد الجامعـة، ومـن المفـترض بهمـا النّضـج والعقلانيّـة. لكـنّ إحداهمـا كانـت مدمنـة والثّانيـة تعـاني غـيرة مرضيّـة!

كان بإمكانـه أن يتغـاضى عـن كلّ عيوبهـا ومسـاوئها ونزواتهـا الشـخصيّة، فهـي لا تعنيـه. لكـنّ سـلوكها خـلال رحلـة التزلّـج كان مريعـا. يمكنـه أن يتجاهـل كلّ شيء، إلّا مـا فعلتـه في اللّيلـة الأخـيرة، قبيـل الحادثـة. لذلـك لـم يكـن مسـتعدّا عـلى الإطـلاق لاقتحامهـا حياتـه مـن جديـد.

لـم يكـن يتوقّـع أن يراهـا في صـورة مختلفـة بعـد كلّ ذلـك الوقـت. فكّـر أنّ الحادثـة كانـت بركـة ونعمـة لليـلى. لقـد وُلـدت بعدهـا، بذاكـرة نقيّـة وفطـرة سـليمة.

ليته يفقد الذّاكرة أيضا!

-١٦-

صـدر الحكـم ذلـك الصّبـاح. السّـجن لسـنتين، وغرامـة ماليـة بمائـة ألـف دينـار. هنّأهـا المحامـي عنـد بـاب المحكمـة. هـذا حكـم يسـير. لقـد انقضـت شـهور أربعـة عـلى سـجن والدهـا، ممّـا يعـني أنّ الفـترة المتبقّيـة هـي سـنة وثمانيـة أشـهر. انهـارت باكيـة وهـم يخرجونـه في ثيـاب السّـجن، والقيـود في معصميـه، في اتّجـاه سـجنه الجديـد. وقـف نجيـب محاطـا بحرّاسـه، احتضنهـا وطمأنهـا، سـيكون بخـير. لكنّهـا كانـت تبـكي لسـبب آخـر. لـن تكـون حـرّة حـين يسـترجع هـو حرّيّتـه. سـيكون عليهـا أن تسـلّم نفسـها في القريـب.

كانـت قـد مـرّت عـلى الشّـقة بالأمـس، وعرفـت أنّ الأشـغال قـد انتهـت. نفـدت مهلتهـا. غـادرت المحكمـة وقصـدت وكالـة أسـفار. حجـزت لهـا تذكـرة إلى جينيـف، صبـاح الغـد. تذكـرة ذهـاب دون عـودة.

عـادت إلى القـصر، وأخـذت تتجـوّل بـين الغـرف والأروقـة بهيئـة مـودّع. احتضنـت العامـلات، وشـكرتهنّ عـلى تقبّلهـنّ لهـا واعتبارهـنّ لهـا صديقـة لهـنّ. فعانقنهـا مسـتغربات. كان سـلوكها مريبـا. أثنـت عـلى الطبّـاخ والجنائـنيّ والحـارس والقائـم بالخدمـة واحـدا واحـدا، وقدّمـت للجميـع هدايـا رمزيّـة. باقـات ورد وأكاليـل صنعتهـا مـن زهـور الحديقـة. كان الجميـع قـد عـرف بالحكـم الصّـادر بحـقّ والدهـا. فعـزا البعـض سـلوكها للصّدمـة، والبعـض الآخـر توقّـع اقـتراب رحيلهـا إلى شـقّتها الـتي اكتمـل تجديدهـا.

بعـد العـصر، جلسـت مطـوّلا إلى منـال. تحدّثتـا عـن أيّ شيء وكلّ شيء. وبـدا أنّهـا لا تريـد للجلسـة أن تنتهـي. كانـت تفتقـد صديقتهـا مسـبقا،

وتريـد تعبئـة مخـزون مـن الحكايـات، تجترّهـا لاحقـا في وحدتها. اسـترجعتا مواقفهمـا المسـلّية والمؤثّـرة معـا.. ضياعهمـا عـلى طريـق المزرعـة، وكـرة المـاء الـتي أصابتهـا في رأسـها، تغيـير ورق جـدران غرفتهـا، تحضـير جـدول منـال الجديـد وخروجهمـا في المظاهـرات خلسـة.. وضحكتـا كثـيرا. قالـت منـال فجـأة:

ـ يسـعدني أن أراك تضحكـين اليـوم.. لقـد خفـت أن يكـون مزاجـك سـيّئا بعـد جلسـة النّطـق بالحكم!

ـ أنا بخير.. لا تقلقي.

ابتسمت، وكتمت تنهيدة طويلة في صدرها.

عـلى العشـاء، كانـت منطلقـة عـن العـادة. جـارت الجميـع في الأحاديث، وكانـت طيلـة الوقـت مبتسـمة. فكّـرت، مـن الأفضـل أن يذكروهـا بهـذا الشّـكل، رائقـة ومنفتحـة.

كانـت تهـمّ بالصّعـود إلى غرفتهـا، حـين اسـتوقفها فـراس. ارتجفـت. لـم تكـن مسـتعدّة لمواجهتـه. ليـس بعـد. حـتّى وهـي تفكّـر في الرّحيـل صبـاح الغـد بـلا رجعـة. لـوّح بسلسـلة مفاتيـح، وابتسـامة واسـعة عـلى شـفتيه:

ـ هنيئا.. شقّتك جاهزة الآن!

تلقّتهـا بـدون حمـاس. انطفـأت شـعلتها الـتي حافظـت عـلى اتّقادهـا طيلـة السّـهرة. قـرأت عـلى ملامحـه الحـيرة. ليـس هـذا مـا توقّعـه. كلّمـا فكّـر في صنـع شيء يسـعدها جـاءت النّتيجـة معاكسـة! قـال في ارتبـاك:

ـ هناك شيء آخر.

ـ ماذا؟

نظرت إليه في انتباه:

ـ تذكرين اقتراحك بالغفران، والبداية الجديدة؟ أظنّني أصبحت جاهزا الآن، لأسامحها.

أضاءت نظراتها فجأة، ورأى وميض السّعادة في عينيها. كان يمكنه أن ينتظرها على الشّرفة مثل عادته، ويقول ما قاله من وراء حجاب. لكنّه أراد أن تكون في مواجهته، فقط ليرى ذلك البريق الفاتن في مقلتيها. ابتسم، وقد حقّق تصريحه التأثير المنشود.

تركها تصعد إلى غرفتها وذهب لرؤية والده في غرفة مكتبه.

ـ أنا موافق!

رفع نبيل حاجبيه، وحدّق في سحنة فراس الجادّة، ثمّ ابتسم. لكنّ فراس أضاف على الفور:

ـ فقط إذا كانت ليلى موافقة!

ـ ستوافق، لا تقلق.

ربّت والده على كتفه في رضا، ثمّ شدّ ذراعه ليدعوه إلى الجلوس حذوه. كان هناك الكثير ليتّفقا عليه. ترتيبات الزّواج والسّفر وإدارة الأعمال.

***

سحبت حقيبتها الثّقيلة بهدوء عبر الممرّ، حتّى السّلالم الخلفيّة، ثمّ نزلت بحذر درجة إثر الأخرى. كانت تهمّ بالعبور إلى الحديقة، حين فتح الباب أمامها فجأة، وظهر فراس. كانت السّاعة تشير إلى السّادسة صباحا. وكان فراس عائدا من حصّة الجري الصّباحيّة. تسمّرت مكانها وانحبست أنفاسها. كان عليها المغادرة مبكّرا، لتحلق

برحلة التّاسعة. نظر فراس في دهشة إلى الحقيبة في يدها وقال:

ـ إلى أين؟ في مثل هذا الوقت؟

ثمّ أضاف مازحا:

ـ هل أنت مطاردة؟

كان يعلم يقينا أنّها ستنتقل في القريب إلى شقّتها التي أصبحت جاهزة. لكن أن تفعل ذلك خلسة، في ذلك الوقت المبكّر، وتتسلّل من البوّابة الخلفيّة، فهو ما يجده غريبا حقّا. انتبه بغتة إلى تذكرة السّفر التي تطلّ من حقيبتها. مدّ كفّه في جرأة ليستلّ الورقة، وقد غلبه الشكّ. قرأ الاسم، موعد الرّحلة والوجهة.

ـ جينيف؟ الآن؟ ما الأمر؟

انهمرت أسئلته في قلق. قالت مستعجلة:

ـ إنّها مسألة خاصّة بي.. والآن لو سمحت، لديّ رحلة تنتظرني!

كانت تهمّ بتجاوزه، لكنّه سدّ الطّريق أمامها في إصرار:

ـ أيّ مسألة تستدعي سفرك دون إعلام أحد، في وسط اللّيل؟

ازدردت ريقها بصعوبة وتمتمت:

ـ هناك دَيْن.. عليّ قضاؤه.

ـ دين؟ هل يستوجب الأمر سفرك بنفسك؟ ألا يمكن لأحد قضاؤه عنك؟ تحويل بنكي يفي بالغرض!

ـ إنّه دين معنويّ.. وليس ماديّا!

حدّق فيها في ارتياب. لم يكن الأمر مريحا. بتاتا. سألها فجأة:

ـ متى تعودين إذن؟

لم ينتظر جوابها، وأخذ يقلّب أوراق سفرها بين يديه، ثم قال

في حـدّة:

ـ لا أرى رحلة العودة! ماذا يعني هذا؟

ـ لا أعلم متى أعود بعد.. حين أقضي الدّين، ربّما أفعل.

ربّمـا. قالـت ربّمـا. آذتـه لامبالاتهـا. باغتتـه بحركـة سريعـة واسـترجعت أوراقهـا. راوده خاطـر مؤلـم. هـل تكـون فـارّة بجلدهـا، مـن الـزّواج المرتّـب الـذي ينويـه لهـا خالهـا؟ كان يهـمّ في لحظـة يـأس أن يتنحّـى عـن طريقهـا ويتركهـا ترحـل، لكنّـه توقّـف فجـأة. كانـت هنـاك نظـرة كئيبـة في عينيهـا. وهـو لـم يكـن مطمئنّـا لرحيلهـا بهـذا الشّـكل. حـتّى لـو جرحـت كرامتـه، لا يمكنـه أن يتجاهـل حدسـه بـضرورة إيقافهـا. قـال بصـوت منكـسر:

ـ ليلى.. قولي رجاء، ما الأمر؟

غـاص قلبهـا بـين ضلوعهـا. ليـلى؟ أنـت راحلـة الآن لتسـليم نفسـك. مـا الفـرق، إن علـم أنّـك حنـان أو لـم يعلـم؟ لـم يعـد هنـاك داعٍ للكتمـان بعـد الآن. لقـد أزفـت سـاعتك. همسـت بصـوت واهـنٍ يقطـر مـرارة:

ـ ما الأمر؟! الأمر هو أنّني.. لست ليلى!

للحظـة، لـم يسـتوعب قصدهـا. ثـمّ حـين ظـنّ أنّـه فهـم مـا تقصـد، لـم يسـتطع أن يصـدّق. كان توتّـره قـد بلـغ أعـلى مسـتوياته، وقـد أوشـك صـبره أن ينفـد. قـال في عصبيّـة:

ـ ماذا تعنين؟ هل استرجعت ذاكرتك؟

ـ ليس تماما.

ـ إذن ما الذي يجعلك تعتقدين أنّك لست ليلى؟

ـ لـم أسـترجع ذاكـرتي الـتي تسـبق الحادثـة.. لكنّـني أذكـر الحادثـة.. بـكل تفاصيلهـا.

ـ ثم؟

ـ أذكر السيّارة المنقلبة، صراخي الهستيريّ، والذّئاب.

هـل قالـت الذّئـاب؟ حـدّق فيهـا غـير مصـدّق. الذّئـاب. لا أحـد يعلـم عـن الذّئـاب مـن أفـراد عائلتـه، مـا عـدا والـده الـذي جـاء لرؤيتـه عـلى عـين المكان في غرفـة العنايـة المركّـزة، وقـد اسـتحلفه بـأن يكتـم تفاصيـل إصابتـه عـن كلّ أحـد. حـتّى نجيـب لا علـم لـه. لقـد بقـي عالقـا في السـيّارة مـع ليـلى، فاقديـن للوعـي حـتّى وصـول النّجـدة. الذّئـاب، هاجمتـه هـو فقـط، وحنـان الـتي حـاول حمايتهـا.

كانـت تنظـر إليـه، والعـبرات تسـيل أنهـارا عـلى وجنتيهـا. تابعـت وهـي تشـير بكفّهـا.

ـ لقـد مزّقـت ذراعـك اليـسرى، هنـا.. وهنـا.. وظهـرك أيضـا، عـلى مسـتوى الكتـف اليـسرى.

عقـد حاجبيـه في شـكّ. إنّـه متأكّـد، لـم يكشـف عـن ندوبـه أمـام أحـد قـطّ. ولا حـتّى والـده. لا أحـد يفـترض بـه أن يعلـم. لقـد انقطـع عـن السّـباحة وكـرة المـاء الـتي يعشـقها لهـذا السّـبب، وفي المـرّات القليلـة الـتي غامـر فيهـا بدخـول المـاء، كان يرتـدي حلّـة الغطـس الكاملـة. رفـع كـمّ قميصـه، وكشـف عـن المواضـع الـتي أشـارت إليهـا. كانـت العلامـات الشّـائهة هنـاك بالفعـل، شـاهدة عـلى صـدق ذكراهـا. شـهقت وهـي تـرى آثـار الحادثـة ماثلـة أمـام عينيهـا، لا في الحلـم، ثـمّ وضعـت كفّهـا عـلى فمهـا، لتواصـل البـكاء في صمـت. أعـاد فـراس كمّـه إلى موضعـه في هـدوء، بينمـا كان عقلـه يغـلي بأفـكار لا حـدّ لهـا ولا حـصر. حسـم أمـره أخـيرا. ومـاذا لـو كانـت حنـان؟ قـال بلهجـة قاطعـة:

ـ لا يهـمّ مـن كنـت في المـاضي.. مـا يهـمّ هـو مـن تكونـين الآن! لقـد كانـت الحادثـة ولادة جديـدة لـك.. لذلـك لا حاجـة لـك بهويّتـك القديمة.

كـوني ليـلى أو كـوني حنـان عـلى الـورق.. لكنّـك أنـت.. أنـت.. في الحقيقـة!

ـ أنت لا تفهم.. إن كنت حنان، أكون قد قتلت ليلى!

صرخ معترضا:

ـ لماذا تكونين قتلتها؟ لقد كانت حادثة!

ابتسمت وهي تقول في عتاب:

ـ ألا تذكر؟ أنت من قال ذلك! حنان عبثت بالفرامل!

ـ لقـد قلـت ذلـك، لأنـني أحقـد عـلى حنـان! لكـن كلامـي ليـس دليـلا! التحقيـق أسـفر عـلى اكتشـاف عطـب بالفرامـل، مـن الـوارد أن يكـون بفعـل فاعـل أو أن يكـون عطـلا مفاجئـا.. وقـد رجّحـت أنـا، حينهـا، بتفكـيري المريـض، وتحليـلي الفاشـل، أنّ حنـان قـد فعلتهـا! لقـد كنـت شـخصا متحامـلا، وأنـت تعلمـين أنّ شـهادة المتحامـل لا يعتـدّ بهـا! إن كان هـذا دليلـك، فهـا أنّـني قـد فنّدتـه! عـودي الآن إلى الدّاخـل!

كان منفعـلا، وقـد أخـذ صـدره يعلـو ويهبـط في اضطـراب. لكنّهـا لـم تتحـرّك مـن مكانهـا. قالـت في إصرار:

ـ إذن يجـب أن نتأكّـد مـن هـذا الاحتمـال.. سأسـلّم نفـسي ليسـتريح ضمـيري، وأتـرك للقانـون تحليـل الأدلّـة.

زفـر في عصبيّـة وأشـاح ببـصره عنهـا. تنفّـس ببـطء محـاولا السّـيطرة عـلى اضطرابـه.. ثـمّ عـاد ليقـف في اعتـداد وهـو يقـول بصرامـة:

ـ حسـن إذن.. تقولـين أنّـك حنـان؟ إذن لا يمكنـك السّـفر بـدون إذن زوجـك يـا سـيّدتي المحترمـة! هيّـا، إلى غرفتـك!

ثـمّ، وقبـل أن تسـتوعب عبارتـه، اسـتلّ مـن كفّهـا جـواز السّـفر والحقيبـة بحركـة سريعـة، وسـبقها صاعـدا الـدّرج. صعقـت لـردّه، ولـم تحـر جوابـا، ثـمّ التهبـت وجنتاهـا حرجـا. زوجهـا. قـال زوجهـا! وقفـت

عنـد المدخـل الخلفـيّ مـتردّدة. تسـمع وقـع خطواتـه الثّقيلـة وهـو يصعد الـدّرج ثـمّ يجـرّ الحقيبـة في الممـرّ. أخـذت نفسـا عميقـا، وانـبرت تصعـد الدّرجـات عـلى مهـل. حـين وصلـت إلى الغرفـة، كان فـراس بالدّاخـل. وضـع الحقيبـة قـرب الصّـوان، ثـمّ لـوّح بالتّذكـرة وجـواز السّـفر وقـال:

ـ سأحتفظ بهذه، حتّى نجد حلّا لهذه المسألة!

ثـمّ انـصرف قبـل أن يسـتمع إلى ردّهـا. قبـل أن تسـتردّ أنفسـها، فوجئت بـه يفتـح البـاب مـرّة ثانيـة. اقـترب مـادّا كفّـه وقـال بلهجـة آمرة:

ـ جواز السّفر الثاني!

أخرجت جوازها السّويسريّ دون مقاومة. خرج صافقا الباب وراءه.

بعد ساعتين، دخلت بهجة إلى غرفتها وهي تصرخ في هلع:

ـ آنسـتي.. المدّعـي العـامّ بالأسـفل! إنّهـم يحجـزون القـصر.. معهـم أمـر بمصـادرة ممتلـكات السّـيد نبيـل!

-١٧-

ارتـدت ليـلى ثيابهـا عـلى عجـل وهرولـت إلى البهـو. كان جميـع سـكّان القـصر مجتمعـين هنـاك. لمحـت خالهـا يجلـس عـلى الأريكـة، يتنـاول قهوتـه الصّباحيّـة مثـل العـادة، دون أن يـرفّ لـه جفـن، ويجلـس قبالتـه المدّعـي العـام الـذي جـاء لتنفيـذ أمـر الحجـز. كان رجـال الأمـن يدخلون ويخرجـون مـن غرفـة المكتبـة، محمّلـين بالدّفاتـر والملفّـات والكتـب. وراء الأريكـة، وقـف كلّ مـن ياسـين وأمـين وفـراس، وعـلى ملامـح كلّ منهـم تعابـير متباينـة. بـدا عـلى فـراس الضّيـق، بينمـا قـرأت الاطمئنـان في وجـه ياسـين، تمامـا كمـا بـدا لهـا خالهـا. إذن هـذه هـي وجـوه رجـال الأعمـال المتمرّسـين، لا يكشـفون مشـاعرهم بسـهولة! أمّـا أمـين، فقـد كان يبتسـم في سـخرية، بشـكل مسـتفزّ.. كأنّمـا يشـمت. ومـا إن التقـت نظراتهمـا، حـتّى أشـار لهـا بحاجبيـه، مذكّـرا إيّاهـا بحديـث قديـم، ولسـان حالـه يقـول: ألـم أخـبرك؟

عـلى الجانـب الآخـر، كان الخـدم مجتمعـين عـن بكـرة أبيهـم، متراصّين وملتحمـين، وقـد ارتفـع نشـيج خافـت. أدركـت ليـلى أنّـه صـوت بهجـة. هــذه صدمــة للجميـع. لكنّهـا كانـت تعلـم. حدّقـت في الوجــوه مـرّة أخـرى. كـم واحـدا هنـا كان يتوقّـع مثلهـا مـا سـيحصل، بالإضافـة إلى أمـين طبعـا؟

التفتـت ناحيـة قاعـة الطّعـام. كانـت منـال مـع ابنتهـا هنـاك. تحـاول إلهـاء الصّغـيرة بتنـاول الكعـك. انضمّـت إليهمـا. شـدّت عـلى كـفّ منـال وتبادلتـا نظـرة جزعـة. همسـت إليهـا:

ـ أين جدّتي؟

ـ لقد أغمي عليها.. أخذتها الخادمات إلى غرفتها.

بعـد دقائـق، كان رجـال الشّرطـة قـد انتهـوا مـن عملهـم. وقـف المدّعي العـام، ولـوّح بقـرار المحكمة:

ـ لديكـم أربـع وعـشرون سـاعة لإخـلاء المبـنى.. الحاجيـات الشّـخصيّة فقــط! لا تحــف ولا مجوهــرات ولا لوحــات ثمينــة! ســتظلّ الحراســة في الخـارج حرصـا عـلى تنفيـذ الأوامـر بشـكل سـليم.

ثمّ اقتيد خالها أمام الجميع إلى السيّارة القابعة في الفناء.

ران الصّمــت، بعــد أن خَفُــت وقــع الأحذيــة الثقيلــة عــلى الرّخــام. اسـتلم ياسـين زمـام الأمـور عـلى الفـور. نظـر إلى الخـدم وقـال بلهجـة مطمئنــة:

ـ يمكنكـم الرّحيـل الآن. سـيصلكم جميعـا خـلال أيّـام، ظـرف يحـوي كلّ مسـتحقّاتكم الماليّـة، ومكافـأة نهايـة الخدمـة أيضـا.

تحرّكـت الأقـدام في ارتبـاك وانـصرف الخـدم، في حـسرة باديـة. كانـت أيّـام عـزّ تمـضي وأيّـام ضنـك تقبـل. خمّنـت ليـلى أنّ الوضـع في الشّركـة سـيكون أسـوأ. مئـات العمّـال والموظّفـين سـيصبحون دون عمـل. سرت قشـعريرة بـاردة في جسـدها، ثـمّ وقفـت. عليهـا الاطمئنـان عـلى الجـدّة.

حـين دلفـت إلى الغرفـة، ألفـت السـيّدة الكبـيرة تجلـس في سريرهـا، مسـتغرقة في التّفكـير. تسـاءلت ليـلى إن كانـت قـد تظاهـرت بالإغمـاء منـذ قليـل؟ تعـرف جدّتهـا، ليسـت بذلـك الضّعـف. اقتربـت حـتّى جلسـت عـلى حاشـية المرتبـة. رفعـت الجـدّة عينيهـا إليهـا ثـمّ تنهّـدت.

ـ هل ترين ما أرى؟ إنّه النّحس من جديد!

أطرقـت ليـلى. لـم تكـن واثقـة مـن دور النّحـس فيمـا يحصـل لخالهـا. كلّ سـيدفع ثمـن مـا اقترفـت يـداه. إنّهـا تؤمـن بذلـك. لكنّـه قلـب الأمّ.. لا يمكـن للحاجّـة فريـدة أن تتحمّـل رؤيـة حيـاة ولدهـا الوحيـد المتبقّـي

تنهـار، وعائلتـه تتـشرّد.

- سأرحل إلى بيتي بعد قليل.. هل تأتين للإقامة معي؟

تردّدت. فكّرت أنّها قد تفعل. لكنّ شقّتها جاهزة. قالت معتذرة:

- سآتي لزيارتك كثيرا.

حـين خرجـت، كان أبنـاء خالهـا مجتمعـين في غرفـة الاسـتقبال. مـا إن لمحهـا ياسـين حـتّى قـال:

- ليـلى، مـن حسـن الحـظّ أنّ شـقّتك جهـزت في الوقـت المناسـب.. يمكنـك الآن الانتقـال إليهـا حـتّى ننظـر في الإجـراءات التّاليـة.

هـزّت رأسـها ببـطء وتفرّسـت في وجـوه الآخريـن. الآن لديهـا شـقّتها. مـاذا عـن أبنـاء خالهـا؟ واصـل ياسـين:

- سـأنتقل مـع منـال إلى مـنزل والدتهـا.. حـتّى نجـد حـلّا بديـلا.. فـراس، مـاذا عنـك؟

- يمكنني البقاء في المكتب. الأريكة مريحة ومناسبة للنّوم.

- أمين؟

كان أمين يعقد ذراعيه أمام صدره في استهانة، قال في لامبالاة:

- يمكنني تدبّر أمري!

أومأ ياسين برأسه وواصل دون نقاش:

- جيّد.

بـدا أنّ الاجتمـاع قـد انتهـى عنـد ذلـك الحـدّ. تـصرّف الجميـع بشـكل عمـليّ ومتعـاون. تسـاءلت ليـلى.. بـكلّ هـذه البسـاطة؟ لا يبـدو أحدهـم منهـارا أو متأثّـرا. كانـت عـلى وشـك الانـصراف، حـين اسـتوقفها ياسـين:

- ليلى.. أريدك في أمر ما.. هلّا انتظرت؟

عادت أدراجها، بينما واصل ياسين:

ـ فراس، أنت أيضا.. اتبعاني إلى المكتبة.

سار ثلاثتهم إلى المكتبة التي صارت رفوفها شبه خالية.. بينما غادر أمين على الفور، دون أن يأخذ شيئا من حاجياته، وصعدت منال إلى جناحها لتعدّ حقائبها. استأنف ياسين دون مقدّمات:

ـ لقد أوصى والدي برحيلكما إلى سويسرا.. على الفور!

ـ ماذا؟

هتفت ليلى في دهشة، والتفتت إلى فراس. بدا هادئا وغير متفاجئ. قال متسائلا:

ـ ماذا عنك؟

ـ سأبقى هنا في الوقت الحالي.. يجب أن يهتمّ أحدنا بمتابعة القضيّة.

عبست ليلى، وحدّقت فيهما. لقد كانت تفكّر في السّفر اليوم بالذّات. لكنّها لم تعد تستطيع ذلك بعد ما حصل. نعم، لقد كانت تتوقّعه، لقد حذّرها أمين.. ومأمون أيضا. لكنّ وقوع البلاء ليس مثل توقّعه! نظرت إلى فراس مستجوبة:

ـ ما معنى السّفر الآن؟ عائلتك في مأزق، كيف يمكنك الفرار وتخليف كلّ شيء وراءك؟

نظر إليها في حدّة:

ـ هل تظنّين أنّني أريد ذلك؟ إنّها رغبة والدي!

استطرد ياسين في برود:

ـ لن يكون زفافا فاخرا كما خطّط له الرّئيس.. لم تعد الظّروف مناسبة لهذا الآن. سترافقني في الغد إلى مكتب عدل الإشهاد، نعقد

قرانكمـا ثـمّ ترحـلان عـلى الفـور.. اتّفقنـا؟

صرخت ليلى هذه المرّة في انفعال:

ـ ما الذي تتحدّث عنه؟

قال فراس مستوقفا ياسين:

ـ رويـدك.. لـم يكـن والـدي قـد أخـذ موافقتهـا بعـد. لقـد تسـارعت الأمـور بشـكل غـير متوقّـع.

ـ آه.. أنـا آسـف. أشرح لـك إذن منـذ البدايـة.. والـدي ونجيـب اتّفقـا عـلى جعلـك وفـراس وصيّـين عـلى الـثروة. لقـد تـمّ تحويـل الأمـوال إلى حسـاب سـويسريّ. بعـد زواجكمـا سـيكون بإمكانكمـا الإقامـة في جينيـف بشـكل طبيعـيّ، حـتّى إشـعار آخـر. حـين تهـدأ الأوضـاع في البـلاد سـأبلغكما بكيفيّـة التـصرّف.

انهـارت ليـلى عـلى الأريكـة. حاولـت ألّا تسـتخدم مفـردات كبـيرة لوصف مـا يحصـل. تهريـب أمـوال؟ بعـد صمـت قصـير، قالـت في صرامة:

ـ آسفة.. لن أجاريكما في هذا.

***

صعـدت إلى غرفتهـا وأوصـدت بابهـا. نسـيت كلّ شيء عـن حنـان، وتسـليم نفسـها. كان الغضـب يملؤهـا. لـن تكـون شريكـة في هـذه الجريمـة. لـم يكـن عليهـا أن تجمـع حاجياتهـا. كانـت حقيبتهـا جاهـزة منـذ الأمـس، تقـف قبالـة الصّـوان، شـاهدة عـلى محاولـة هربها الفاشـلة. لكنّهـا لـم تتحـرّك. لبثـت قابعـة عـلى السّريـر، باطنهـا يغـلي، ووعيهـا لا يقـدر عـلى قـرار واحـد.

عنـد الظّهـيرة، طرقـت منـال بابهـا. كانـت آثـار الدّمـع جليّـة عـلى وجنتيهـا. عانقتهـا بقـوّة، وتناثـرت بقيّـة عـبرة لـم تذرفهـا وهـي تلملـم متاعهـا وتسـتعدّ للرّحيـل. كانـت جاهـزة للمغـادرة.

ـ هذا ليس وداعا.. سأراك قريبا!

ـ طبعا، نحن عائلة واحدة!

تعاهدتـا عـلى لقـاء قريـب، ثـمّ انسـحبت منـال. كانـت الجـدّة قـد انصرفـت دون وداع. لـم تشـأ أن يشـهد أحـد انكسـارها.

هبـط اللّيـل. خيّـم الظّـلام عـلى الحديقـة. لـم يـضئ أحـد الممـرّات ولا الأروقـة الخارجيّـة. مـن مجلسـها، كانـت تـرى العتمـة وحدهـا. حـوالى السّـاعة السّـابعة، طُـرق بابهـا مـرّة أخـرى. كان فـراس. بادرهـا بلهجـة محايـدة:

ـ لقـد غـادر الجميـع.. لـم يبـق غيرنـا. أنـت جاهـزة؟ سـأوصلك إلى شـقّتك.

لـم ينتظـر ردّهـا، أخـذ الحقيبـة الـتي صعـد بهـا الـدّرج الخلفـيّ ذلـك الصّبـاح وسـار في اتّجـاه البهـو الرّئيـسيّ. سـارت وراءه في استسـلام، وركبـت إلى جـواره، في سـيّارته. حـين تجـاوزت البوّابـة، لمحـت كشـك الحـارس الـذي أصبـح يشـغله رجـل أمـن الآن، بالإضافـة إلى السـيّارتين الرّسـميّتين المتوقّفتـين قبالـة القـصر. كان عليـه أن يوقـف السـيّارة عنـد الحاجـز الأمـنيّ ويسـمح للشرّطيـين بتفتيـش صندوقهـا، والتثبّـت مـن أنّ المجوهـرات والتّحـف المصـادرة لـم يقـع تهريبهـا.

كانـا صامتـين طيلـة الطّريـق، كلّ مسـتغرق في أفـكاره. لـم يتبـادلا كلمـة واحـدة، حـتّى توقّفـت السـيّارة أسـفل بنايتهـا. نـزل بنفـس الهـدوء، وحمـل حقيبتهـا حـتّى الطّابـق الثّـاني. أوسـع لهـا المجـال لتديـر المفتـاح في القفـل، ثـمّ دفـع الحقيبـة إلى الدّاخـل.

وقـف قبالتهـا في الصّالـة دون أن ينطـق، كفّـاه عنـد خـصره، ونظراتـه سـارحة. تسـاءلت في قلـق، مـا الـذي يفكّـر فيـه؟ حـين طـال الصّمـت، تجـاسرت عـلى السّـؤال:

ـ ما الذي ستفعله الآن؟

ألقى عليها نظرة ساخرة وقال متهكّما:

ـ هل هذه دعوة للبقاء؟

ازدردت ريقهـا في عصبيّـة. هـل يشـير إلى حديـث الصّبـاح؟ كونهـا حنـان؟ زوجتـه؟ لقـد كانـت مسـتعدّة لتقبّـل هويّتهـا الجديـدة، لكـن ليـس بهـذا الشّـكل. لقـد رضيـت بمسـؤوليّتها عـن كلّ شيء.. لكنّهـا لـم تتحـضّر لتكـون زوجـة فجـأة!

لانت ملامحه وقال مطمئنا:

ـ أنت ليلى.. وستبقين ليلى، حتّى يثبت خلاف ذلك.

شـعرت ببعـض الرّاحـة. فكّـرت في سـخرية. إنّهـا مثـل هـذا الشّـعب تمامـا، يريـد الثّـورة، لكنّـه ليـس مسـتعدّا لتقديـم كلّ التّضحيـات المطلوبـة. هنـاك تنـازلات يقبلهـا عـن طيـب خاطـر ومسـؤوليّات أخـرى لا يستسـيغها. إنّهـا بهـذا الشّـكل تمامـا.. لقـد قبلـت أن تكـون حنـان، أن تطلـب الصّفـح وتدفـع ثمـن أخطائهـا، لكنّهـا لا تريـد أن تفـي بـكلّ التزامـات حنـان السّـابقة.. زواجهـا عـلى سـبيل المثـال!

ـ ستكونين بخير بمفردك؟

أومأت برأسها بسرعة. آها.

ـ لا تفتحي الباب لأحد!

ابتسمت. هل يظنّها طفلة؟

ـ ستكونين فتاة عاقلة، أليس كذلك؟

إنّـه يشـير إلى محاولتهـا الفـرار ذلـك الصّبـاح. أومـأت مـرّة ثانيـة. كانـت صادقـة. لـم يعـد لهـا نيّـة الهـرب، أو تسـليم نفسـها. لا يمكنهـا أن تنفـي شـبه اقتناعهـا بمرافعتـه الصّباحيّـة. لـم تعـد تؤمـن بمسـؤوليّتها الكاملـة عـن الحادثـة. يمكنهـا النّظـر في ذلـك في وقـت لاحـق. أمّـا الآن، فلديهـا مسـؤوليّة أخلاقيّـة تجـاه عائلتهـا. هـذا مـا تؤمـن بـه في تلـك اللّحظـة.

بعـد أن انـصرف فـراس، تنفّسـت الصّعـداء. تجوّلـت في الشّـقة، وهـي تشـعر بالوحشـة. كانـت الإقامـة عنـد الجـدّة لتكـون أخـفّ وطـأة في ليلـة كهـذه.

رنّ الجـرس فجـأة، فقفـزت في مكانهـا. اقتربـت مـن البـاب في حـذر، وهتفـت مـن خلـف الدّفّـة الموصـدة:

ـ من هناك؟

ـ هذا أنا.. افتحي!

مـيّزت صـوت فـراس. فتحـت في دهشـة. مـا الـذي عـاد بـه بعـد نصـف سـاعة فقـط؟

تجاوزهـا محمّـلا بأكيـاس مشـتريات، ومـضى مبـاشرة في اتّجـاه المطبـخ. مـيّزت رائحـة شـهيّة، فتبعتـه. انتبهـت إلى علبـة البيـتزا، وهـو يضـع الأكيـاس عـلى الطاولـة. لقـد نسـيت أن تـأكل طـوال النّهـار! إنّهـا تتضـوّر جوعـا بالفعـل. تخلّـص فـراس مـن حملـه ثـمّ اسـتدار مغـادرا عـلى الفور. أغلقـت البـاب وراءه، ثـمّ هرولـت إلى المطبـخ وأخـذت تفتـح الأكيـاس في فضـول.. كان قـد اشـترى حاجيـات الطّبـخ الأساسـيّة مـن أجلهـا، السّـكّر والقهـوة، الحليـب والزّيـت والملـح، معجـون الطّماطـم، الأرز وبعـض المعجّنــات، بالإضافــة إلى ســلّة خضــار وفواكــه متنوّعــة. ابتســمت في امتنـان.

كانت تُنهي آخر شرائح البيتزا، حين رنّ هاتفها. كانت سحر.

ـ هل أنت بخير؟

خمّنت أنّ خبر مصادرة ممتلكات خالها قد انتشر!

ـ لقد عقد الوزير الأوّل ندوة صحفيّة منذ قليل، وأعلن عن الشّروع في تطبيق قانون المحاسبة.. ألقي القبض على عشرات رجال الأعمال الفاسدين اليوم، والنّاس يحتفلون في الشّوارع!

سخرت في سرّها. بماذا يحتفلون؟ رؤوس الأموال تهرّب خارج البلاد إلى الملاذات الضريبيّة والماليّة! كانت ممزّقة في داخلها. هل كان يجدر بها الاحتفال مع المحتفلين؟ هل يحتفل أمين اليوم مع رفاق ثورته؟ لماذا تشعر بغصّة في حلقها، حين تذكر مشهد الصّباح المهين، لعزيز قوم ذُلَّ؟ لقد لامت والدها، وآمنت بضرورة دفعه ثمن أخطائه. لكنّ أخطاء خالها تبدو أكثر فداحة. لم يصادر أحد شقّتها، ولا بطاقاتها الائتمانيّة!

***

تململ فراس على الأريكة غير المريحة. فكّر أنّ عليه شراء أريكة متحوّلة، يستعملها سريرا في الليل وتستقبل ضيوفه في النّهار. ربّما استمرّت إقامته في المكتب لبعض الوقت. لكنّ خشونة فراشه وقلّة اتّساعه لم تكن ما منع عنه النّوم. كان قد تلقّى اتّصالا من ياسين يستعجله. قال متهرّبا:

ـ ليلى غير مستعدّة الآن.. أمهلني بعض الوقت لإقناعها.

لكنّه لم يكن في حاجة إلى إقناع ليلى، بقدر ما كان يحتاج إقناع نفسه! كان مشتّتا حتّى تلك اللّحظة، بين قرارين أحلاهما مرّ. إمّا أن يخذل والده.. وإمّا أن يخذل نفسه، وليلى، ومبادئه وأحلامه. تساءل

في مـرارة. منـذ مـتى كانـت لديـه أحـلام؟ أحلامـه وليـدة، عمرهـا أيّـام قليلـة. لقـد عـاش سـنوات بـدون أحـلام أو آمـال أو أدنى مخطّطـات. ألا يمكنـه أن يئـد تلـك الأحـلام المتطفّلـة؟ لقـد جـرّب الحيـاة دونهـا.. وقـد كان بخـير!

بخـير؟ لـم يكـن بخـير! إذا كان يمكـن أن يطلـق عـلى سـنوات ضياعـه وتجمّـد مشـاعره ولامبالاتـه حيـاة، فهـي لـم تعـد ترضيـه اليـوم. ليـس بعـد أن استيقظ قلبـه وانتفضـت أحاسيسـه! أن يعـود إلى مواتـه اختيـارا، أن يتجاهـل إرادتـه ورغباتـه، أن يمـضي في طريـق يـرى في نهايتهـا ظلامـا.. هـذا ظلـم!

لكنّـه يـدرك أنّ اختيـاره ذاتـه وأحلامـه لـن يكفـل لـه السّـلام النّفـسيّ! سـيكون ذلـك عـلى حسـاب سـعادة الآخريـن.. والـده الـذي وضـع ثقتـه فيـه، وشـقيقه الأكـبر وعائلتـه الصّغـيرة! وطالمـا كان سـببا في تعاسـتهم، فلـن تنفعـه الأحـلام! سيشـقى بهـا، ويتذكّـر دائمـا أنّـه كان أنانيّـا. سـتطارده نظراتهـم المعاتبـة أو الحانقـة. وربّمـا يقاطعونـه!

نعـم، لديـه شـكوك بشـأن شرعيّـة ثـروة والـده. نعـم، لا يعتقـد أنّ اتّهامـات المدّعـي العـام قـد جـاءت مـن فـراغ. نعـم، يسـتوعب أنّ إرجـاع الحقـوق إلى أصحابهـا مطلـب مـشروع. لكنّـه لا يسـتطيع أن يكـذّب والـده. إن كان يقـول بـأنّ جـلّ ثروتـه حلالـه، مـا عـدا بعـض التّجـاوزات الصّغـيرة، فعليـه أن يصدّقـه! لـو أنّـه اعـترف بلسـانه، لـو أنّـه أعلـن مسـؤوليّته عـن الجرائـم الـتي يتّهـم بهـا، لاختلـف الأمـر. لـم يكـن ليحتار. كان ليرفـض طلبـه صراحـة، ويعلـن امتناعـه. لكـن وهـو يقسـم بأنّهـا مـن عـرق جبينـه، هـل يسـعه أن يتجاهـل رجـاءه؟

اتّصل به ياسين بعد يومين. قال في نفاد صبر:

ـ هل توصّلت إلى حلّ؟

ـ ليس بعد.

ثمّ أضاف في جدّيّة:

ـ دع ليلى خارج الموضوع. لا أظنّها ستقتنع.

لـم يكـن قـد فاتحهـا في الموضـوع ولا رآهـا منـذ أوصلهـا إلى شـقّتها. لكنّـه قـرّر ألّا يقحمهـا في مشـكلته. هـذه مسـألة عائليّـة بحتـة. إن كان عليـه أن يجـاري والـده، فـلا علاقـة لهـا بذلـك. زفـر ياسـين في ضيـق، ثـمّ قـال:

ـ حسنا.. دع الأمر لي.

لـم يكـن يـدرك مـا ينطـوي عليـه تصريـح ياسـين. لكنّـه تنفّـس الصّعـداء، وتـرك الأمـر لـه! ظـنّ لبرهـة بأنّـه تخلّـص مـن الحمـل الثّقيـل. ياسـين سـيتصرّف. ياسـين يتـصرّف دائمـا. لديـه حلـول لا تخطـر عـلى بـال أحـد. ألـم يكـن يجـدر بوالـده أن يعهـد بهـذه المسـؤوليّة لذراعـه اليمـنى؟ لـم يخيّبـه مـن قبـل، ولطالمـا اعتمـد عليـه في كلّ أعمالـه. لكنّـه لـم يعـرف أنّـه سـيكون جـزءًا مـن حـلّ ياسـين هـذه المـرّة، حـتّى ورده اتّصالـه بعـد يومـين آخريـن. قـال في اقتضـاب:

ـ مرّ عليّ في السّاعة العاشرة، صباح الغد.

كانـت سـيّارة ياسـين ربّاعيّـة الدّفـع قـد صـودرت، بالإضافـة إلى سـيّارة والـده المرسـيدس، وسـيّارة أمـين الرّياضيّـة. لـم يُبـق إلّا عـلى سـيّارته هو، الـتي أمكنـه الاسـتظهار بفواتيرهـا. كان قـد اشـتراها بمالـه الخـاصّ.

كان ياسـين في انتظـاره أمـام بوّابـة مـنزل والـدَيْ منـال. ركـب إلى جـواره وأشـار إليـه بالانطـلاق. أعطـى ياسـين التّعليمـات طـوال الطّريـق. اتّجـه إلى اليمـين، إلى اليسـار، ادخـل الطّريـق السّريعـة، خـذ المخـرج رقـم... إلى اليسـار ثـمّ إلى اليسـار مـرّة أخـرى، توقّـف، وصلنـا.

ـ تفضّل، من هنا.

حـدّق فـراس في واجهـة المبـنى الـذي قـد أصبحـا قبالتـه في اسـتغراب. كانـت عمـارة قديمـة، لا لافتـات ولا لوحـات عـلى واجهتهـا. سـأل في شـكّ:

ـ أين نحن؟

أخذ ياسين ذراعه وقال في تهكّم:

ـ تعال.. سأعرّفك على زوجتك الجديدة!

جذب فراس ذراعه في حدّة وقال في ضيق:

ـ هذا ليس وقت المزاح!

ـ لسـت أمـزح.. هـذا مقـرّ «الشّركـة».. تطلـب زوجـة، بمواصفـات معيّنـة، فيحضرونهـا! نريدهـا سـويسريّة، وهـي متوفّـرة لحسـن حظّـك!

حملق فيه فراس غير مصدّق، فأضاف ياسين:

ـ لا تنظـر إليّ هكـذا.. إنّهـا مجـرّد صفقـة! سـنوقّع عقـدا بالدّاخـل ونحصـل عـلى خدمـة. لسـت مضطـرا للعيـش معهـا تحـت سـقف واحـد.. إنّمـا سـتدفع لهـا لقـاء توقيعهـا عـلى عقـد الـزّواج الصّـوري، وللفـترة الـتي تناسـبك. نختـار نـوع الخدمـة.. تأشـيرة دخـول، إقامـة، إقامـة لعـشر سـنوات، جنسـيّة.. ثـمّ توقّـع عـلى العقـد! لـكلّ خدمـة ثمنهـا، ومدّتهـا. الجنسـية قـد تحتـاج اسـتمرار الـزّواج لسـنوات، ولذلـك سـتدفع لهـا أجـرة شـهريّة، حـتّى يقـع الطّـلاق.. هـل فهمـت؟

ارتجـف. لـم يكـن هـذا الحـلّ الـذي توقّعـه. تـردّد لثـوانٍ، ومـرّت ببالـه ليـلى. ثـمّ حسـم أمـره. قـال في عصبيّـة:

ـ لا أريـد أن أراهـا! اجعلهـا توقّـع عـلى العقـد، وأحـضر الأوراق إلى هنـا.. لا أريـد أن أدخـل هـذا المـكان القـذر!

***

حين رجعت إلى الشّقّة ذلك المساء، كان فراس ينتظرها عند الباب.

سرت قشعريرة باردة في جسدها حالما وقعت عيناها على سحنته المتعبة. كان يستند إلى الجدار بظهره، كفّاه في جيوبه، ونظراته ملتصقة بالأرض. رفع رأسه مع اقتراب خطواتها. بدا أنّه قد انتظر قدومها لوقت طويل. لم يكن أحدهما يعرف رقم هاتف الآخر! كانت تتصّل بمنال كلّ يوم، وتسأل عن الأخبار. لكنّها لم تعرف شيئا عن فراس. كانت منال منشغلة بمأساتها، ترثي نفسها وانهيار حياتها طيلة المكالمة، ولم تحاول ليلى أن تقاطعها. لذلك، حين ظهر أمامها فجأة، في حال يُرثى لها.. ارتجف قلبها.

فتحت الباب ودعته إلى الدّاخل.

كانت قد فكّرت طيلة الأيّام الماضية في الطّريقة الملائمة التي يجدر أن تعامله بها إذا ما زارها في شقّتها، وكانت تثق في أنّه سيفعل. لكنّه خيّب ظنّها وتأخّر أسبوعا كاملا. قرّرت أنّها ستعامله كأجنبيّ، لكن ببعض المرونة. ستحاول أن تتعوّد عليه، وتتعرّف إليه عن كثب.. حتّى يسهل عليها تقبّل وجوده في حياتها.. أو حتّى تستعيد ذاكرتها، أو تثبت هويّتها.

جلسا متقابلين في الصّالة التي اختارها لها بنفسه، وبقيا صامتين. كانت هي محرجة، تصارع أفكارها المتناقضة، حول المسافة التي يجوز لها أن تبقيها بينها وبينه، وبدا هو سرحان تماما، مشغولا عنها بأفكاره. سألها أخيرا في فتور:

ـ هل اعتدت على الشّقة؟ رتّبت حياتك بشكل جيّد؟

أومأت برأسها في صمت. تبخّر كلّ الكلام الذي جهّزته في رأسها. كانت تريد أن تحدّثه عن مقابلة عملها ووظيفتها الجديدة في جريدة وسط المدينة.. عن زياراتها لوالدها وهواية القراءة المستحدثة لديه،

بعد أن صارت الكتب متوفّرة في السّجون.. وعن جارتها أمّ أحمد التي تستوقفها كلّ مرّة لتستجوبها بخصوص عائلتها.. وأيضا عن الطّرائف الصّغيرة التي واجهتها وهي تجرّب التسوّق بمفردها من بقالة الحيّ، وتركب المواصلات العامّة لأوّل مرّة.

لكنّها أدركت على الفور أنّ ما يكتمه أهمّ من كلّ ما بجعبتها من حكايات سخيفة. لكنّه لا يقول شيئا.

ـ هل خالي بخير؟

ـ إنّه يبلي بلاء حسنا. لقد استعدّ نفسيّا للأزمة قبل وقوعها.

عاد الصّمت ليسيطر من جديد، قبل أن تقول على استحياء:

ـ لقد وجدت وظيفة.. في جريدة أسبوعيّة.

ـ ممتاز!

التمعت عيناه وهو يهنّئها. ثمّ، لا شيء. إنّه لا يقول شيئا. استمرّت المحادثة متقطّعة. أسئلة مستهلكة، وإجابات مقتضبة. بعد دقائق من التململ، بدا أنّه لن ينطق بما يُحرق جوفه. نهض ببطء، وطالعها بابتسامة صغيرة:

ـ اهتمّي بنفسك جيّدا.

شعرت بانقباض مفاجئ. لماذا يبدو كأنّما جاء يودّعها؟ هل يفعلها؟ يسافر كما أراد له والده؟ رأته يتّجه إلى الباب، يهمّ بالمغادرة. كان وقتها ينفد، وفرصتها تمضي. فكّرت أنّها ستندم، إن لم تفعلها. استجمعت شجاعتها، واستحضرت كلّ تدريباتها أمام مرآتها، وهتفت:

ـ فراس!

استدار في دهشة. إنّها تنطق باسمه للمرّة الأولى، منذ جاءت لتقيم مع عائلته، قبل أربعة أشهر! وجد لاسمه على لسانها نغمة حلوة.

ودّ أنّـه تجاهلهـا، لتنـادي مـرّة أخـرى! لكـنّ لهفتـه سـبقت، والتفـت إليهـا بـكلّ اهتمـام وإنصـات.

ـ هل تحتاجين شيئا؟

رأى دمعة معلّقة على أعتاب رموشها.

ـ ستسافر؟

كان في لهجتهـا عتـاب واتّهـام. وهــو مُـدان لا ينكـر ذنبـه. اعـترف ببســاطة:

ـ وهل أملك ألّا أفعل؟

لمسـت المـرارة والانكسـار في صوتـه. سيسـافر. شـعرت بألـم مفاجـئ في صدرهـا. تعـترف الآن أنّهـا قـد تعلّقـت بهـذا الرّجـل وألفـت وجـوده في حياتهـا. لا تذكـر شـيئا عـن علاقتهمـا القديمـة، قبـل الحادثـة، لكنّهـا تعـوّدت عـلى الرّجـل الـذي أمامهـا.. جـار شرفتهـا، صاحـب المذكّـرات المؤلمـة، صديقهـا الشّـهم في أوقـات العـسرة. وهـو الآن يخبرهـا برحيلـه، إلى أجـل غـير معلـوم.. فتشـعر بالخيانـة والخـذلان.

أحسّـت بحرقـة في حلقهـا وسـيلان في أنفهـا. تشـعر بالدّمـع عـلى بعـد ملّيمـترات مـن المجـرى، لكنّهـا تمسـكها بـكلّ مـا بداخلهـا مـن أنفـة. تبـادلا نظـرة طويلـة مؤلمـة، مثـل خناجـر تُسـدّد في صمـت، فتصيـب هدفهـا بـكلّ دقّـة.

فكّرت أن عليها أن تثنيه عن عزمه.

فكّر لو أنّها فعلت، فسيستجيب.

لكنّهـا لملمـت شـتاتها بسرعـة. ازدردت ريقهـا، ومنعـت العـبرة مـن الانحـدار عـلى وجنتهـا. اجتهـدت لترسـم بسـمة باهتـة عـلى ثغرهـا، وهمســت:

ـ رافقتك السّلامة!

موطني.. موطني!

لا نريدْ، لا نريدْ

ذلّنا المؤبّدا، وعيشنا المنكّدا

-١٨-

بعد سنتين..

استيقظت عند السّاعة السّابعة. كان والدها قد سبقها في الاستيقاظ بنصف ساعة كعادته. كان قد أعدّ الإفطار، وجلس قرب النّافذة، يطالع جريدته ويرقب تدرّج الشّمس في منازلها باتّجاه كبد السّماء. طبعت على جبينه قبلة سريعة وجلست قبالته مبتسمة. أكلت على مهل بينما كان نجيب يقرأ لها آخر الأخبار من صفحة السّياسة. أصغت إليه بانتباه. يمكنها الآن أن تجاريه في شغفه وقد صارت السّياسة مركز اهتمامها ومحور حياتها. كانت الصّحافة الاستقصائيّة اختصاصها، والاطّلاع على ما تكتبه المنافسة على مائدة الإفطار يختصر عليها ساعات عمل يمكنها استثمارها في النّشاط الميدانيّ.

قبيل السّاعة السّابعة والنّصف، كانت تنزل الدّرج بخطوات عجلى لتلحق بعربة المترو. حشرت جسدها بين الأجساد المتدافعة، وانسلّت بهدوء حتّى وجدت لها مكانا مناسبا، بعيدا عن زحام الأبواب وتيّارات الصّعود والنّزول. هذا روتينها اليوميّ منذ التحقت بعملها. تسرح نظراتها عشرين دقيقة، عبر زجاج النّافذة، ترقب المارّة والسّيّارات، ثمّ تعود إلى واقعها حين تعلن اللاّفتة عن محطّة «الحبيب ثامر» وسط العاصمة.

حثّت خطواتها حتّى وصلت إلى مقرّ الجريدة. حيّت زميلتها زبيدة، ورمت بحقيبتها على المقعد. دخل العمّ صادق، نادل المطعم الواقع أسفل البناية ذاتها على إثرها، وفي كفّه الصّينيّة اليوميّة. أعلن بصوت جهوريّ:

ـ الإفطار وصل!

دار على نفسه بحركة رشيقة ووضع على مكتبها قهوتها المعتادة مع توست المربى وفطيرة الجبن وقطعة فاكهة، ووضع المكوّنات نفسها على بقيّة المكاتب. ابتسمت في رثاء لحالها. كأنّ إفطارا واحدا لا يكفي! كان زملاؤها قد اتّفقوا مع المطعم على تزويدهم بوجبتي الإفطار والغداء كلّ يوم. وكان عليها أن تكون جزءًا من الصّفقة حتى يحصل الجميع على التخفيض الذي وعد به صاحب المطعم!

شربت جرعة من القهوة وشرعت تتصفّح الملفّات المكدّسة على المكتب أمامها. في السّاعة التّاسعة، رنّ المنبّه المبرمج على هاتفها ليذكرها بمواعيد مقابلاتها. رتّبت أوراقها ووضعتها في المحفظة، ثمّ جمعت مكوّنات وجبتها في كيس ورقيّ بعد أن اكتفت بالقهوة، وخرجت.

وهي تجدّ على رصيف شارع باريس، تذكّرت شيئا. توقّفت ودسّت كفّها في جراب داخليّ صغير في حقيبة يدها، لتخرجها قابضة على خاتم. أدخلته في بنصر يدها اليسرى وابتسمت في سخرية. إنّه خاتم رخيص، اقتنته من بسطة في سوق «أبو منديل»، مطليّ باللّون الذّهبي، ويبدو لمشاهد غير مدقّق مثل خاتم خطبة! إنّه الإشارة الواضحة التي تحتاجها لتعلن أنّها «غير متاحة» وتتجنّب الإحراج المتكرّر.

عرّجت على شارع الحبيب بورقيبة، حيث لمحت أوّل ما لمحت خيام المعتصمين المنصوبة حديثا قبالة المسرح البلديّ. مشت بخطوات ثابتة في اتّجاه الخيمة الأولى.

من فتحة الخيمة الجانبيّة، رآها أمين مقبلة، فأغمض عينيه وولّى المدخل ظهره. لكزه جاره منبّها وقال مشيرا إلى الخارج:

ـ ابنة عمّتك أتت!

تأفّف. نعم، يمكنه أن يرى ذلك. يعرف مواعيدها. كلّ من بالخيمة يعرف مواعيد مرورها. كانت قد وصلت أمام الخيمة، وخرج الآخرون لاستقبالها. أستاذة ليلى، هكذا ينادونها. قالت بعد أن تلقّت موجات من عبارات التّرحيب والغزل والتودّد:

ـ آسفة يا شباب، ليس لديّ جديد من أجلكم اليوم!

كانت مع ثلّة من الصّحفيين والمحامين الشّبّان المنخرطين في «الرابطة التّونسيّة لحقوق الإنسان»، تتابع قضيّة المعتصمين ضدّ الحكومة. اقتربت من أمين أخيرا بعد أن انفضّ بقيّة المعتصمين من حولها. رمت في حجره الكيس الورقيّ، وقالت مثل كلّ يوم:

ـ تشاركها مع الآخرين!

تلقّاه في اهتمام وفتحه على الفور وهو يقول:

ـ إنّها لي وحدي اليوم.. البقيّة مضربون عن الطّعام! تعالي يا فطيرتي الحلوة!

عبست ليلى وهي تسأل في اهتمام:

ـ مضربون؟ منذ متى؟

ـ مالك منذ مساء الجمعة.. منتصر منذ ظهر السّبت.. قولي، ألا يعدّ المطعم غير فطيرة الجبن؟ عليهم تنويع قائمة الطّعام قليلا!

أخذ قضمة شرهة من الفطيرة وأخذ يلوكها في استمتاع، بينما أردفت ليلى:

ـ هذا ليس جيّدا.. سأعلم الرّابطة حتّى يُرسل طاقم طبيّ لمتابعة حالتهم.

هزّ أمين رأسه وواصل الأكل في صمت. رمقته لبرهة ثمّ قالت

مقرّعــة:

ـ إنّهـم يعتصمـون ويضربـون عـن الطّعـام، وشـكواهم معروفـة.. فمـا دواعـي اعتصامـك هـذه المـرّة؟

قال في لهجة مسرحيّة:

ـ قضيّتهم هي قضيّتي!

ـ هــذا لا يُسـمّى اعتصامــا.. هــذا تــشرّد! أنــت لا تغــادر اعتصامــا حــتّى تدخـل آخـر.. تبحـث عـن قضايـا الآخريـن لتتبنّاهـا.. فمـتى تهتـمّ لقضيّتــك الخاصّــة؟

قال في هدوء:

ـ ليست لديّ قضيّة خاصّة!

ـ بلى، دراستك التي نسيت أمرها! مستقبلك الذي أهملته!

هزّ كتفيه في حركة مستهينة، وأخرج حبّة الموز من الكيس.

ـ هــذه ليســت حيــاة! قــل لي، مــتى تنــوي التوقّــف عــن الاعتصــام وتنـاول الأمـور بجدّيّـة؟ كلّهـم يعتصمـون فـترة، ثـمّ يعـودون إلى حياتهـم حـين تُلـبّى مطالبهـم أو يُخفـق الاعتصـام.. مـاذا عنـك؟ أنـت في الثّامنـة العشريـن، لكـنّ تصرّفاتـك مراهقـة جـدّا!

حدّق فيها في حدّة وقال في عصبيّة:

ـ هـل هـذا الـكلام مناسـب لموعـد الأكل! لـم أعـد أريـد صدقتـك.. خذيهـا! هيّـا ارحـلي مـن هنـا.. الآن!

قـال ذلـك ورمـى في اتّجاههـا الكيـس الـذي خـلا مـن محتوياتـه تقريبـا. أخــذت ليــلى نفســا وتلفّتــت حولهــا زامّــة شــفتيها. هــذا لا ينفــع. إنّهــا تخـوض معـه الحـوار نفسـه منـذ شـهور بـلا فائـدة. لقـد كان في اعتصـام الرّحيـل واعتصـام الصّمـود واعتصـام تقريـر المصـير! لقـد كان هنـاك،

عضـوا قـارّا في كلّ الحـركات الاحتجاجيّـة، كأنّ حيـاة التـشرّد واتتـه ولـم يعـد يريـد سـقفا يؤويـه وعائلـة ينتمـي إليهـا. منـذ رحـل عـن القـصر ذلـك الصّبـاح وقـال «سـأتدبّر أمـري»، لـم تعـد لـه صلـة بعائلـة القاسـمي.

قال في مرارة، دون أن ينظر إليها:

ـ هـذا مـا بقـي لي.. أن أعتصـم! هـل تعلمـين؟ لقـد كنـت ألعـب مـع بعـض الرّفـاق في صالـة ألعـاب الكترونيّـة ذلـك العـصر، حـين اندلعـت الاحتجاجـات الأكـبر في العاصمـة الـتي أطاحـت بالرّئيـس المخلـوع.. كنّـا نلعـب، ثـمّ فوجئنـا بتيّـار بـشريّ هائـل يمـلأ الشّـارع مـن أوّلـه إلى آخـره، وصراخـه المـدوّي يصـمّ الآذان «ديقـاج» (ارحـل)! خرجنـا مذهولـين، لا نـدرك مـا يحصـل.. لـم تكـن السّياسـة حـتّى تلـك اللحظـة تعـني لنا شـيئا، ولـم نكـن نتابـع أو نهتـمّ لمـا يحصـل في الجهـات الدّاخليّـة مـن بلبلـة.. وسرعـان مـا مـرّت إلينـا عـدوى الحماسـة، وانخرطنـا في الجسـد الأعظـم، جسـد الشـعب الواحـد، وأصبحنـا جـزءًا مـن حـراك مدمّـر زحـف حـتّى مبـاني الحكومـة وأضرم النّـار في مقـرّات أمنيّـة! لقـد هـرم الجيـل السّـابق، قبـل أن يشـهد لحظـات تاريخيّـة كتلـك.. حـتّى خلّـدت مقولـة الرّجـل الأشـيب، هنـا قريبـا مـن هـذا الموقـع، في نفـس هـذا الشّـارع «لقـد هرمنـا، مـن أجـل هـذه اللّحظـة التّاريخيّـة!».. وانظـري إلى مـا وصلنـا إليـه بعـد انقضـاء تلـك اللّحظـات بنشـوتها وبهجتهـا! بعـد عامـين مـن الثّـورة، لـم يصـدر قـرار ثـوريّ واحـد، ولـم يتحـرّك واقـع المواطـن العـاديّ إنشـا واحـدا! نحـن نسـير نحـو اسـتقرار تدريجـيّ، بـدون تحقيـق مطلـب واحـد مـن مطالـب الثّـورة! وخـوفي أن نهـرم نحـن أيضـا، دون أن نعيـش تلـك اللّحظـات التّاريخيّـة مـرّة أخـرى، لأنّنـا اكتفينـا بهـروب المخلـوع، وتركنـا للنّخبـة السّياسـيّة ذاتهـا أن تواصـل تسـيير شـؤون البـلاد! فهـل يمكنـني أن أفعـل شـيئا غـير الاعتصـام، لأعـبّر عـن إنـكاري للواقـع الـذي أصبحنـا عليـه؟

ابتسمت ليلى وتطلّعت إليه في إشفاق، ثمّ قالت:

ـ هـذا خطـاب مؤثّـر يـا عزيـزي، يجعلـك في أعـلى سـلّم الغيريّـة والإيثار! هـل تريـد أن تقنعـني بـأنّ العبـث الـذي أنـت فيـه هـو مـن أجـل حمايـة الثـورة المغـدور بهـا، وإيقـاظ الجيـل الـذي يفـوّت عـلى نفسـه فرصـة صناعـة لحظـات تاريخيّـة متكـرّرة؟ أفـق مـن سـباتك، أرجـوك! هـذا فـرار مُقَنّـع.. مـن خيبتـك وفشـلك! تطلّـع إلى وجهـك في المـرآة، وأعـد خطبتـك العصمـاء عـلى نفسـك.. سـتضحك! صدّقـني.. أنـت تخـدع نفسـك قبـل أن تخدعـني!

ثمّ أضافت في حدّة:

ـ تريـد أن تخـدم الثّـورة والوطـن؟ اخدمهـا بنجاحـك وسـعيك، لا بالخمـول والاتّـكال! منـذ سـنتين، تقتـات عـلى المسـاعدات، مثـل فقـير معـدم! ولا تقـدّم شـيئا مـن أجـل نجـاح ثورتـك! بالمناسـبة، مـتى أصبحـت ثورتـك؟ لقـد كنـتَ هنـاك صدفـة، شـهدت المظاهـرات صدفة، وغمرتـك سـكرة الاحتجـاج! فأصبحـت تحتـجّ بـلا مـبرّر أو دافـع.. هـذه ليسـت ثـورة، هـذا استسـهال!

نظـر إليهـا مسـتنكرا، ثـمّ أشـاح بوجهـه معرضـا. مـرّت لحظـات مـن الصّمـت قبـل أن تقـول ليـلى:

ـ هل اتّصلت بياسين؟ منال تقول أنّه يجدّ في البحث عنك!

ـ هل تذكّر الآن أنّ لديه شقيقا ضائعا؟

قـال في تهكّـم، ثـمّ التفـت إليهـا فجـأة كمـن تذكّـر شـيئا، وقـال مشـيرا إلى كفّهـا:

ـ متى تقدّمينه لنا.. خاطبك المجهول؟

حرّكت الخاتم في إصبعها في حركة لا إراديّة، ثمّ قالت في حدّة:

ـ حين تصبح شخصا محترما، سأقدّمه إليك!

ـ حسنا، دعك منّي.. هل تعرفه منال؟ ياسين؟ عمّي نجيب؟ الحاجّة فريدة؟

كانت نظرة مستهزئة في عينيه. لم يكن يصدّق ما تدّعيه. لكنّها ابتسمت في ثقة، وقالت في شفقة:

ـ يمكنك أن تصدّق ما تريد.. ليس يهمّني ما تعتقده!

ثمّ استدارت مبتعدة وهي تقول:

ـ لقد أضعت الكثير من الوقت على أحمق مثلك! لديّ عمل ينتظرني!

سارت بخطوات سريعة في اتّجاه المحكمة، حيث تغطّي قضيّة فساد ضدّ رجل أعمال معروف. تذكّرت تلك اللّحظة، منذ سنتين، بعد سفره بأسبوعين. كانت تزور منال، وكان ياسين هناك. في معرض الحديث، ودون أيّ نيّات مسبقة، قالها ياسين ببساطة لا غبار عليها. لقد تزوّج سويسريّة وسافر! مازال أثر تلك الطّعنة حيّا نازفا في صدرها. كلّما تذكّرت الموقف، أحسّت بالجرح الذي لم يندمل يفتح من جديد، فتتجدّد أوجاعها.

دلفت إلى قاعة المحكمة، ووقفت ترافع بصوت قويّ ثابت.. سيّدي الرّئيس، حضرات المستشارين، هذا القلب الذي في صدري غبيّ لا يتعلّم من الماضي! إنّه ما زال ينتظر، رغم الخيانة والغدر السّابقين، أن يعود الزّوج الهارب يوما! هذا مأزق لا فكاك منه.. أوراق الهويّة سليمة وتسمح بارتباط جديد، والعقل يؤيّد النّسيان والتحرّر من قيد زواج لا أثر له إلّا في كوابيسي.. لكنّ الضّمير يؤيّد القلب. لا يجوز، لا ينبغي أن أبدأ حياة أخرى، مادمت على عصمة رجل آخر، لا يقدّر ارتباطي به ولا يهتمّ! وهذا الخاتم السّخيف، دليل دامغ على الغباء

المستفحل لهذا القلب. ماذا تحكم عليه سيّدي الرّئيس؟ فلتسجنه طويلا، طويلا جدّا في زنزانة النّسيان!

خرجت من المحكمة، وانطلقت إلى الشّركة التي يديرها رجل الأعمال المعنيّ. كان عليها أن تسجّل شهادات بعض الموظّفين، وتحصل على بعض الوثائق، ثمّ ترجع إلى مكتبها، حيث تنهي ساعات النّهار. سيكون غداؤها قد برد وصار لحم الدّجاج بلا طعم، والبطاطس هزيلة بلا قوام. تنهّدت، وهي تنهي تسجيل ملاحظاتها. التفتت لتشكر الرّجل الواقف إزاءها وتعيد إليه القلم الذي استعارته. فجأة، شعرت بدمائها تتجمّد في عروقها، وهي تحدّق في نهاية الممرّ. كانت ثانية واحدة، لمحت خلالها طيفا يمرّ. وجه يشبه وجهه. ازدردت ريقها، وانتبهت إلى أصابعها التي تضغط على القلم، تمدّه إلى صاحبه ولا تفلته. اعتذرت وقد استردّت تركيزها. ماذا دهاك يا ليلى.. إنّها مجرّد تهيّؤات. ليست المرّة الأولى. كثيرا ما خيّل إليها أنّها تراه. لكنّها كانت مخطئة في كلّ مرّة. نظرة ثانية كانت تكفي لتقطع الشكّ باليقين، وتدرك الألاعيب التي يستمتع عقلها بممارستها. عادت لتدقّق في نهاية الممرّ. لم يكن هناك، ذلك الوجه المألوف. لقد مرّ بسرعة، ولم يسعها أن تفنّد ظنّها مثل كلّ مرّة. لكنّها واثقة، لا يمكن أن يكون هو.

وقفت ومضت لشأنها. هذا يوم آخر يمرّ، تعيش فيه للآخرين.. ولا نصيب لنفسها منه أبدا.

-١٩-

لـو أنّ لهـا أن ترسـم صـورة مبسّـطة عـن حياتهـا، منـذ وعـت بهـا، لقالـت إنّهـا سلسـلة مـن الصّدمـات. كلّ صدمـة، ترسـم لهـا مسـارا مغايـرا وتبعـث في وجودهـا معـاني كانـت في غفلـة عنهـا. الحادثـة الـتي أفقدتهـا ذاكرتهـا، القبـض عـلى والدهـا في مطـار تونـس قرطـاج، اكتشـافها اللُّبـس في هويّتهـا، ثـمّ رحيـل فـراس.. كلّهـا صدمـات تركـت في كيانهـا آثـارا لا تُمحـى. كان عليهـا أن تفتّـش عـن الصّدمـة التّاليـة لتجـد طريقهـا. كانـت تمـشي متلفّتـة منتبهـة لأبسـط الأحـداث، تبحـث عـن بـوادر الصّدمـة فيهـا.. وتتسـاءل، هـل يصلـح هذا بـذرة لزوبعـة تهـزّ أركان حياتهـا الرّتيبة؟ وكلّمـا هـيّئ لهـا أنّ الصّدمـة آتيـة، تشـبّثت بهـا وقالـت هـا هـي ذي! لكنّهـا سرعـان مـا تشـيح عنهـا حـين تجدهـا عقيمـا مـن دوافـع التّغيـير. مَثلهـا في ذلـك كمثـل صيّـاد يصطـاد السّـمكات ثـمّ يلقـي بهـا في البحـر، يترقّـب سـمكة أكـبر. حـتّى وقفـت ذات يـوم وقالـت: هـذه صدمـتي، هـذه أكـبر!

كان ذلـك حـين دخـل الأسـتاذ عبدالـرّؤوف، رئيـس التّحريـر، ذات عشـيّة وخاطبها متسـائلا:

ـ لقد وصلتك هذه الرّسالة من ألمانيا.. هل تعرفين أحدا هناك؟

كان قـد اقـترب حـتّى مكتبهـا ملوّحـا بالظّـرف الـذّي خُطّـت عـلى صفحتـه كلمـات باللّغـة الألمانيّـة. أخذتـه منـه في فضـول. طالعـت الغـلاف وقـرأت: «مركـز دراسـات الأنثروبولوجيـا الاجتماعيّـة والثّقافيّـة في هامبـورغ، إلى السـيّدة ليـلى كامـل». فضّـت المغلّـف وفـردت الورقـة، وأخـذت تطالعهـا في صمـت. سـألتها زبيـدة فجـأة:

ـ هل تفهمين الألمانيّة؟

هزّت رأسها، ثمّ شرعت تقرأ وتترجم بشكل فوريّ ودون تعثّر:

ـ إلى الأستاذة ليلى كامل.. تحيّة وبعد.. لقد اطلعنا على تقريرك الذي يحمل عنوان «حقوق الإنسان في سجون تونس ما بعد الثّورة»، وتسعدنا دعوتك للمشاركة في دراسة معمّقة يعمل المركز على إنتاجها، وتشمل حقوقيّين وإعلاميّين من بلدان الرّبيع العربي.. بالإضافة إلى ثلّة من علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع من جميع أنحاء العالم.

توقّفت فجأة عن القراءة مبهوتة، في حين هتف الأستاذ عبدالرّؤوف:

ـ هذا رائع يا ليلى! إنّها فرصة ممتازة!

كانت قد أعدّت ذلك التّحقيق بالفعل منذ ثلاثة أشهر، لفائدة رابطة حقوق الإنسان، وإلهامها الأساسيّ تجربة والدها. وقد عرفت أنّه قد نشر أيضا في مواقع مختلفة، وبعد شهر من انتشاره، طلبت منها الرّابطة ترجمته إلى الانجليزيّة، وقد فعلت. الكلّ كان يشيد بإقدامها وجسارتها. لم تكن تهتمّ إلّا بتغطية القضايا الشّائكة والمواضيع الحرجة. لكنّها تدرك أنّها لم تكن بالشّجاعة التي يدّعونها. لو أنّها كانت، لأقدمت على الكتابة بالعربيّة! بعد مرور سنتين من تجربتها الصّحفيّة، لم تتجرّأ على نشر مقالها الأوّل بلغتها الأمّ. كانت تكتب المسودّة إثر الأخرى، لكنّها لا تجرؤ أبدا على إرسالها إلى رؤساء التّحرير.

تعالت وتيرة التّهاني، من زميلتها زبيدة والصحفيّ المتمرّن والكاتبة، بينما بدت ليلى ذاهلة لبرهة. أردف عبدالرّؤوف بسرعة:

- إنّهم يقدّمون أجرا لائقا، أليس كذلك؟

هزّت رأسها ببطء، وهي تلقي نظرة على بقيّة النّص، وقالت بلا تركيز:

- وظيفة باحث زائر لمدّة ستّة أشهر، والعرض التفصيليّ مرفق.

قالت ذلك في سرحان، ثمّ طوت الرّسالة وهتفت في اضطراب وهي تجمع حاجاتها:

ـ أعتذر أستاذ عبدالرّؤوف.. سأغادر المكتب مبكّرا اليوم!

ضحك الرّجل وهو يقول مداعبا:

ـ بالتّأكيد.. اذهبي واحتفلي يا صغيرتي!

خرجت متعجّلة، تسابق الرّيح، وقد استحوذت فكرة واحدة على تفكيرها.. هل تكون هذه صدمتها؟ هل هذه هي الهزّة المنشودة؟ كانت تحتاج إلى إجابة واحدة لتهدأ. ركبت المترو، ونزلت في محطّتها. هرولت حتّى البناية، وارتقت الدّرجات قفزا، حتّى وصلت أمام باب شقّتها. وقفت في الخارج، تسترجع أنفاسها. ثمّ أدارت المفتاح في القفل، وخطت إلى الدّاخل.

لوهلة، حسبت نفسها تتوهّم.

كان هناك صوت واضح يصلها من غرفة المعيشة. صوت مألوف.. ومستبعد! لكنّه هنا الآن، يطرق أذنيها! هل هو يوم الصّدمات؟ فليكن، ستطرح سؤالها إذن، مرّة واحدة! ازدردت ريقها وأخذت نفسا عميقا، رغم ذلك ارتجفت، وهي تعبر الصّالة حتّى وصلت إلى مصدر الصّوت.

كان نجيب يضحك وهو يستمع إلى ضيفه، يروي دعابات ونكات لا تنتهي. التفت الرّجلان، حالما انتبها إلى وجودها. سيطرت على رجفتها، ألقت التحيّة، ثمّ جلست إلى جوار والدها على الأريكة. قالت بابتسامة باردة وهي ترنو إليه:

ـ أرى أنّ لدينا ضيوفا اليوم!

ـ فـراس وصـل هـذا الصّبـاح، وقـد حـرص عـلى المجـيء ليسـلّم عـلى عمّـه العجـوز.. لـم تقـصّر يـا ولـدي!

قالت في سخرية مبطّنة:

ـ طبعا.. التّقصير ليس من طبعه!

تجنّبت أن تطالـع في اتّجاهـه بشـكل مبـاشر، بينمـا كانـت تشـعر بنظراته عليهـا طيلـة الوقـت. قالـت فجأة:

ـ تذكّرت اليوم شيئا.. هل كانت حنان تجيد الألمانيّة؟

رفعـت رأسـها عـلى حـين غـرّة، وحدّقـت فيـه مـع سـؤالها، فـرأت الدّهشـة في عينيـه. نعـم. لقـد كان السّـؤال موجّهـا إليـه دون غـيره. قـال في ارتبـاك:

ـ لا أعتقد ذلك.. لم تكن مولعة باللّغات!

ابتسمت في تهكّم لاذع، ثمّ التفتت إلى والدها:

ـ أبي، قل لي.. هل تعلّمتُ الألمانيّة في صغري؟

ردّ نجيب على الفور بكلّ حماس:

ـ لقـد كانـت لغتـك المفضّلـة في المدرسـة الثانويّـة! وقـد سـافرت إلى زوريـخ في رحلـة لغويّـة مـدّة شـهرين، وتعلّقـت بمؤلّفـات جوتـه ونيتشـه في وقـت مبكّـر!

عادت بعينيها إلى فراس، بنظرة انتصار صاخبة. ثمّ قالت في هدوء:

ـ عن إذنكما.. سأحضّر القهوة!

مشـت حـتّى المطبـخ، متظاهـرة بالثّبـات. لكـن مـا إن تـوارت عـن أنظارهمـا، حـتّى انهـارت عـلى المقعـد الأقـرب إليهـا. هـذه صدمتهـا.. هـذه أكـبر! وضعـت رأسـها بـين كفّيهـا، وأخـذت تضحـك في عصبيّـة.. ثـمّ انتابتهـا رغبـة ملحّـة بالبـكاء. لقـد كانـت صدمـة مضاعفـة. فـراس هنـا..

وأنـت، ليـلى! ليـلى! لقـد أضعـت سـنتين مـن عمـرك في انتظـار الرّجـل الخطـأ! لكـنّ المريـح هـو أنّـك غـير مضطـرّة للانتظـار بعـد الآن! أنـت حـرّة! لقـد تفتّتـت قيودهـا الوهميّـة! انتهـت الحـيرة والتمـزّق!

أخـذت تعـدّ القهـوة في مـزاج يتقلّـب سريعـا بـين الضّحـك البـكاء.. تضحـك سـخرية مـن نفسـها، وفرحـا بحريّتهـا.. وتبـكي غباءهـا الـذي سـجنها في قمقـم حنـان لأكـثر مـن سـنتين! هـدأت أخـيرا، وتنفّسـت وهـي ترصـف الفناجـين عـلى الصّينيّـة. أنـت لـم تقتـلي أحـدا، لـم تكـوني مدمنـة، ولـم تسـيئي إلى أحـد.. وخاصّـة، لسـت زوجـة أحـد!

عـادت إلى عينيهـا نظـرة التحـدّي وهـي تسـير في الاتّجـاه المعاكـس وصـولا إلى غرفـة المعيشـة. لـم يعـد فـراس يـروي النّـكات ويضحـك الآن. كان نجيـب يتحـدّث وحـده، عـن أحـوال البلـد، وأمـور السّياسـة، وبـدا فـراس غائبـا تمامـا. يهـزّ رأسـه في صمـت، وعينـاه تراقبـان بـاب المطبـخ المـوارب بنظـرات قلقـة.

عـادت وهـي تحمـل الصّينيـة. وضعتهـا عـلى الطاولـة المنخفضـة، ثـمّ قالـت بصـوت ثابـت، رغـم البراكـين الـتي تتفجّـر داخلهـا:

- أبي.. لقـد وصلتـني اليـوم دعـوة مـن مركـز أبحـاث ألمـانيّ.. لأشـارك في بحـث أكاديمـي لمـدّة سـتّة أشـهر.. إنّـه عـن مسـتقبل الثّـورات العربيّـة وتأثـير بعضهـا عـلى بعـض. مـا رأيـك؟

التفـت إليهـا نجيـب بكليّتـه، وأمسـك بكفّيهـا وقـد لمعـت عينـاه في إثـارة:

ـ هذا جميل يا عزيزتي.. جميل جدّا!

اتّسـعت ابتسـامتها، وسـكن كلّ التّوتّـر المتقافـز في باطنهـا.. حـتّى تكلّـم فـراس، وقـال بصـوت مبحـوح:

ـ هذا خبر رائع.. تهانينا!

ثمّ التفت إلى نجيب وقال معتذرا:

- علـيّ الانـصراف الآن.. لقـد كانـت أمسـية جميلـة.. ليـلى، تهـانيّ مـرّة أخـرى!

صافـح نجيـب بحـرارة، ثـمّ مـشى في اتّجـاه المخـرج. وقفـت ليـلى، وسـارت وراءه، مدفوعـة برغبـة لا تتحكّـم بهـا. وقـف عنـد البـاب، ثـمّ التفـت إليهـا. أطرقـت بنظراتهـا، فوقعـت عيناهـا عـلى حقيبـة أوراقـه السّـوداء. بـدا لهـا الشّـعار المرسـوم عليهـا مألوفـا. لـم تكـن قـد خمّنـت أيـن سـبقت لهـا رؤيتهـا، حـين سـمعته يقـول بابتسـامة باهتـة:

- تبدين في حال جيّدة!

سـكتت. فكّـرت أنّـه لـم يكـن بخـير عـلى الإطـلاق. لكنّـه لـم يبـد متفاجئـا أيضـا لاكتشـافها. أحسّـت بالألـم القديـم يغـزو صدرهـا. سـألته بغتـة:

- منذ متى تعرف؟

- لا أدري.. لـم أسـتطع أن أصـدّق أبـدا.. أنّـك حنـان! لكنّـك بـدوت مقتنعـة.

- لذلك تركتني لتهيّؤاتي كلّ هذا الوقت؟!

كانـت هجمتهـا مباغتـة. ارتقـى صوتهـا طبقـة في شراسـة، واحتـدّت قسـماتها.

- هـل كنـت لتغـيّري قناعتـك، لـو أنّـني أخبرتـك بـرأيي؟ لقـد قلـت لـك سـابقا.. أنـت ليـلى حـتّى يثبـت خـلاف ذلـك! لكنّـك صدّقـت الكوابيـس وحدهـا.

سكن غضبها قليلا. بينما أضاف فراس معترفا:

- لكـنّ ذلـك عـلى الأقـل كان يضمـن لي أنّـك سـتكونين في انتظـاري.. لـم

أكـن أريـد خسـارتك.

انحبسـت أنفاسـها، وارتجفـت. لـم يكـن يريـد خسـارتها؟ هـذا اعترافـه، يـأتي متأخّـرا. لـم تعـد بحاجتـه الآن. لقـد اسـتلمت صـكّ عتقهـا اليـوم، وليســت تفكّــر في الرّجــوع إلى العبوديّــة، قبــل أن تســتمتع بحريّتهــا! ابتسـمت في سـخرية وقالـت بـبرود:

ـ لكنّك خسرتني.. وانتهى الأمر!

تنهّــدت وهــي تغلــق البــاب بعــد انســحاب فــراس مذيّــلا بالخيبــة، وشـعرت برغبـة البـكاء تعاودهـا. كـم يبـدو كلّ شيء سـخيفا الآن. حــين ودّعتـه منـذ سـنتين، وقفـا تلـك الوقفـة نفسـها عنـد البـاب. وكانـت تتمـنّى أن تسـمع تلـك العبـارات. انتظريـني.. لا أريـد خسـارتك. لا يمكنهـا في تلك اللّحظـة أن تقـدّر مـدى خسـارتها أو ربحهـا في مـداولات اليـوم العاطفيّـة! سـارت إلى الدّاخـل مهـزوزة ومشـوّشـة.

كان نجيب في انتظارها في غرفة المعيشة. قال مبتسما:

ـ ما رأيك الآن؟

لـم يكـن ذهنهـا بالصّفـاء الـذي يسـمح لهـا بوضـع الخطـط، لكنّهـا اجتهـدت:

ـ السّفر سيكون خلال شهر تقريبا.

ـ لا أتحدّث عن السّفر!

كانت في عينيه نظرة شقيّة. أضاف مداعبا:

ـ لسـت سـاذجا لأصـدّق أنّ فـراس قـد هـرول لرؤيـة زوج عمّتـه العجـوز، في اليـوم الأوّل لوصولـه بعـد غيـاب دام سـنتين!

أطرقت في حرج، وأخذت أصابعها تعبث بطرف وشاحها في توتّر.

ـ أعــرف.. قبــل الأزمــة، كنــت قــد أثــرت الموضــوع، وقــد رفضــتِ..

لكنّـني أحسـب أنّ شـيئا مـا قـد تغـيّر منـذ ذلـك الوقـت، أليـس كذلـك؟ أعـني أنّـك خـلال سـنتين رفضـت كلّ المتقدّمـين.. ألا يعـني ذلـك أنّـك كنـت تنتظريـن شـخصا بعينـه؟

عـادت رغبتـا البـكاء والضّحـك لتتجاذباهـا بنفـس الإلحـاح. لـو أنّهـا أفلتـت عنـان جنونهـا، سـيجزع والدهـا بالتّأكيـد. قالـت مسـتنفرة كلّ مـا تبقّـى داخلهـا مـن ثبـات:

ـ أبي.. لا أريـد الحديـث في هـذا الآن. لقـد قـرّرت السّـفر.. أليسـت فرصـة جيّـدة؟

صمت نجيب في وجوم، ثمّ قال مسلّما:

ـ نعم.. إنّها فرصة جيّدة.

تذكّـرت فجـأة. الشّـعار! إنّـه الشّـعار نفسـه! كان ذلـك شـعار شركـة والدهـا! نظـرت إليـه في شـكّ، ولـم تـرد أن تصـدّق. هـل يكـون والدهـا قـد تـورّط في خطّـة خالهـا لتهريـب أموالـه؟ واجهتـه في صرامـة وقالـت:

- أبي، أخبرني بصراحة.. ما علاقتك بما كان يفعله فراس في سويسرا؟

تنهّـد نجيـب، ثـمّ عـاود الجلـوس عـلى الأريكـة، بينمـا وقفـت ليـلى قبالتـه في تحفّـز واسـتمعت إلى شرحـه:

- لقـد كان مـن المفـترض أن أكـون شريـك نبيـل، في مشروعـه الجديـد بجينيـف. كان يحتـاج أصـلا تجاريّـا جاهـزا، وقـد كنـت أملـك واحـدا. لذلـك اقـترح الشّراكـة، وزواجـك وفـراس. لكـن بعـد أن فشـلت الزّيجـة وتداعـى الوضـع سريعـا، جـاء ياسـين لزيـارتي في الحبـس، وصـاغ اقتراحـا جديـدا.. أن أبيعـه الأصـل التّجـاريّ بشـكل نهـائيّ.

- وهل فعلت؟

- نعـم، لقـد اتّصلـت بالمحامـي الـذي كان مـوكّلا للتـصرّف في غيـابي،

وقـد تمّـت عمليّـة البيـع بعـد وصـول فـراس إلى جينيـف.

استردّت ليـلى أنفاسـها. هكـذا أفضـل. لـو أنّ والدهـا كان شريـكا لخالهـا في العمليّـة، لا تـدري أيّ خيبـة كانـت لتكـون مـن نصيبهـا.

***

حـين خرجـت في اتّجـاه الجريـدة في الصّبـاح التـالي، لـم تفكّـر في وضـع الخاتـم المزيّـف في بنصرهـا. كانـت الحاجـة إليـه قـد انتفـت. حاولـت أن تسـتحضر بواعـث السّـعادة وهـي تركـب المـترو مثـل كلّ يـوم، لكنّهـا بـدت أكـثر عبوسـا مـن العـادة. لـم تكـن حريّتهـا المسـتعادة كافيـة لتلقـي ظـلال المـرح عـلى يومهـا.

أمام البناية، كان فراس في انتظارها.

كـشّرت في اسـتياء. مـا الـذي يحـاول فعلـه الآن؟ لكنّهـا شـعرت بتحسّـن غـير متوقّـع في مزاجهـا. تجاهلـت وجـوده وارتقـت الـدّرج حـتّى الطّابـق الثالـث حيـث مقـرّ الجريـدة. تبعهـا في صمـت، ثـمّ دخـل البهـو عـلى إثرهـا. جلسـت إلى مكتبهـا دون أن تبـدي اهتمامـا بحضـوره، لكنّهـا سـمعت صوتـه يخاطـب الكاتبـة:

- هل الأستاذ عبدالرّؤوف موجود؟

- لم يصل بعد.. تفضّل يمكنك انتظاره هنا.

أصغـت إلى وقـع خطواتـه وهـو يتحـرّك في اتّجـاه مقاعـد الانتظـار، ثـمّ سـاد الصّمـت مـن جديـد. حـين دخـل العـمّ صـادق بطبـق الإفطـار رفعـت عينيهـا ببـطء لتلقـي نظـرة عابـرة عـلى مقاعـد الانتظـار. فوجئـت بنظراتـه ثابتـة عليهـا! أشـاحت بوجههـا بسرعـة، وعـادت إلى ملفّاتهـا دون

تركـيز.

لـم تكـن السّـاعة قـد بلغـت التّاسـعة، حـين قـرّرت أنّ عليهـا الخـروج. ازدردت مـا تبقّـى مـن قهوتهـا دفعـة واحـدة، وعبّـأت إفطارهـا في الكيـس الـورقيّ مثـل العـادة، وانطلقـت. كمـا توقّعـت، وقـف فـراس عـلى إثرهـا. مشـت عـلى رصيـف شـارع باريـس، بنسـقها المعتـاد في اتّجـاه خيمـات الاعتصـام أمـام المـسرح البلـديّ. ومـشى فـراس خلفهـا عـلى بعـد خطـوات دون أن يقـول شـيئا.

حـين أصبحـت عـلى مشـارف شـارع الحبيـب بورقيبـة، اسـتدارت في حـدّة وهتفـت:

ـ ما الذي تريده الآن؟

ـ ألا تريدين أن تسأليني شيئا؟ ما الذي فعلته خلال سنتين؟

ابتسمت في سخرية. باستثناء زواجه من سويسريّة؟ قالت في برود:

ـ لست مهتمّة!

قال في رجاء:

ـ أعلـم أنّـني أخطـأت بحقّـك، ولسـت أنكـر! لذلـك سـأعمل عـلى إصـلاح كلّ شيء، حـتّى أسـتحقّ عفـوك!

زفـرت في ضيـق ثـمّ اسـتدارت لتعـاود المـشي في عصبيّـة. حسـنا.. كان عليـه أن يدفـع ثمـن انتظارهـا، وهـي تعـرف كيـف تجعلـه يفعـل!

ما إن وصلت إلى موقع الاعتصام حتّى تحلّق حولها الشّبّان:

ـ أنت مبكّرة اليوم أستاذة ليلى!

ـ لديك موعد؟

أشـار أحدهـم إلى فـراس الـذي وقـف جانبـا، قريبـا بشـكل كافٍ ليسـتمع إلى كلّ مـا يقـال. غمزهـا ثالـث وقـال بلهجـة ذات معـنى:

- صاحب الخاتم؟

- أين الخاتم؟

كانوا قد انتبهوا إلى غياب الخاتم اليوم. علّق الأوّل:

- تشاجرتما؟

- هل أصبح المجال مفتوحا لي الآن؟

- اسكت أنت.. لست في مستوى الأستاذة ليلى! تزوّجيني أنا! صحيح أنّني عاطل عن العمل، لكنّني أحمل شهادة ماجستير!

ضحك الجميع رغم المرارة البادية، ولم تعلّق ليلى. قالت أخيرا في جدّيّة:

- كيف حال الإضراب؟

- لا تخافي.. نحن صامدون!

- لقد مرّت البعثة الطّبّيّة بعد ظهر الأمس.. شكرا لاهتمامك أستاذة!

هزّت رأسها وهي تستمع إلى خليط شكاواهم وتطميناتهم، ثمّ ألقت نظرة إلى داخل الخيمة. لم يكن أمين قد ظهر. التفتت إلى فراس وقالت بلهجة آمرة:

- اتبعني!

كانت حركتها مفاجئة، لكنّه انصاع دون تردّد. داخل الخيمة، كان أمين يلفّ نفسه بالملاءة ويولّيهما ظهره. خمّنت أنّه قد رأى فراس يقف خارجا. قالت ليلى في سخرية:

- تسألني إن كنت أريد أن أعرف ما الذي فعلته خلال سنتين؟ فهل اهتممت أنت بأن تعرف، ما الذي كان شقيقك الأصغر يفعله خلال هاتين السّنتين؟

عقـدت ذراعيهـا أمـام صدرهـا وهـي تشـير إلى الرّجـل المتكـوّر عـلى الأرض، محتميـا مـن نظراتهـا الصّارمـة، ونظـرات فـراس المصدومـة.

ـ أمين؟ هذا أنت؟!

قالت ليلى في اقتضاب:

ـ لديّ عمل ينتظرني.. أرني كيف ستصلح الأمور الآن!

ثمّ استدارت مغادرة، مخلّفة الأخوين وجها لظهر.

-٢٠-

ما معنى رجوعك الآن يا فراس؟

لازمــه السّــؤال طيلــة رحلــة الطّائــرة، إلى أن لامســت قدمــاه أرض الوطــن. لمــاذا انتظــر ســنتين حــتّى اتّخــذ هــذا القــرار؟ كان بإمكانــه أن يتمهّــل قليــلا بعــد.. حــتّى يتــمّ مراحــل الخطّــة الــتي رســمها ياســين، أو أن يرفــض السّــفر منــذ البدايــة! لكــنّ العــودة الآن، بعــد أن قطــع نصــف المســافة، مــاذا تعــني بالضّبــط؟

لــم تكــن هنــاك إجابــات كثــيرة. كان صــبره قــد نفــد. ذلــك النّــوع مــن الحيــاة، لــم يعــد يطيقــه!

فكّــر وهــو يجلــس في قاعــة الرّكــوب مترقّبــا إقــلاع الطّائــرة.. ألــم يكــن بمقــدوره أن يتّخــذ ذلــك الموقــف منــذ ســنتين، ويرفــض السّــفر؟ لمــاذا رضي بضيــاع ســنتين إضافيّتــين مــن عمــره هبــاءً؟ لقــد كان مــن اليســير أن يقتنــع في ذلــك الوقــت بمعــاني الوفــاء والتّضحيــة والعائلــة.. لكــن منــذ أصبــح الرّحيــل وشــيكا، بــدأ إحســاس مقيــت ينمــو داخلــه بــأنّ تضحيتــه بــلا معــنى!

لقــد ظــنّ أنّ نبــل نيّتــه سيشــعره بالارتيــاح.. وأنّــه ســيكون قــادرا عــلى الصّــبر والتحمّــل. لكنّــه غــرق في مســتنقع النّــدم قبــل أن يســافر حــتّى.. منــذ وضــع توقيعــه عــلى عقــد الــزّواج البغيــض ذاك! لقــد عــرف أنّ انصياعــه لتعليمــات ياســين كان خطــأ منــذ البدايــة. واســتمرّ يجــترّ الألــم والخيبــة كلّ يــوم، حــتّى اتّخــذ قــراره بالعــودة.

حــين ظهــر أمــام ياســين، في شــقّته الجديــدة، مســاء اليــوم الثــاني لرجوعــه، قــرأ علامــات الصّدمــة في ملامــح أخيــه:

ـ فراس! ما الذي جاء بك؟

عاتبته منال وهي تشير إلى الصّالة:

ـ رحّب بالرّجل أوّلا، يا لبرودك! اعذرنا يا فراس، تفضّل أرجوك!

جلس على الأريكة في صمت، بينما حاصرته نظرات ياسين في إصرار:

ـ هل حصل شيء؟ هل أمور الشّركة بخير؟

الشّركة؟ هذا كلّ ما يهمّ ياسين. ألم يخطر بباله لحظة واحدة أنّ أخاه ليس بخير؟ أنا لست بخير يا ياسين، ولم أكن بخير يوما واحدا منذ غادرتكم. ابتسم فراس في تهكّم وقال بلهجة مرّة:

ـ لا تخف.. كلّ شيء على ما يرام!

ـ إذن.. ماذا تفعل هنا؟

ـ لقد قرّرت العودة.. الدّور عليك الآن!

ـ ماذا؟ ماذا تقصد؟

ـ لقد فعلت ما طُلب مني.. واتّبعت التّعليمات حرفيّا. رتّبت أمور الشّركة في سويسرا وتواصلت مع العملاء والمزوّدين والمصانع.. أنت تعلم أفضل منّي كيف هو نشاط الشّركة.. التقارير تصلك أوّلا بأوّل!

ـ أعلم طبعا.. لقد قمت بعمل جيّد.. لكن...

ـ لكنّني تعبت! تعبت من كوني أعيش حياة بديلة!

أطلق ياسين ضحكة عصبيّة:

ـ تعبت؟ وهل هناك من يتعب من سويسرا؟ هل جننت؟ نحن كلّنا شبه مساجين هنا، نتحرّك خفية خوفا من الرّقابة! وأنت تصول وتجول في جينيف برفقة سويسريّة حسناء، وتقول أنّك تعبت؟ دعنا نتبادل الأدوار يا أخي!

رمقته منال بنظرة حارقة، في حين قال فراس بلهجة عدائيّة:

ـ هـل هـذا مـا أخـبرت بـه ليـلى؟ أنّـني أصـول وأجـول برفقـة سـويسريّة حسـناء؟

رفع ياسين كفّيه في حيرة وقال متضاحكا:

ـ متى دخلت ليلى على الخطّ؟ اعذرني، لقد اختلط الأمر عليّ!

أمام صمت فراس، هتف ياسين في شكّ:

ـ هل هناك شيء بينك وبين ليلى؟

ـ بفضلك.. لم يعد هناك!

ضرب ياسين كفّا بكفّ، ثمّ التفت إلى منال:

ـ هل كنت تعرفين شيئا عن هذا؟

هزّت منال رأسها في حيرة، وأردف ياسين:

ـ لـو أنّـني كنـت أعلـم منـذ البدايـة.. لاجتهـدت في إقنـاع ليـلى! تعـرف أنّهـا كانـت الخيـار الأوّل.. ابنـة عمّتنـا أولى مـن الأجنبيّـة! لكنّـك اقترحـت بقاءهـا خـارج الصّفقـة! ألـم تفعـل؟

هتف فراس في انفعال:

ـ لأنّني لم أرد تلويثها.. يكفي أن أتلوّث وحدي في هذه الصّفقة!

ـ الآن أصبحت شركة والدك مصدر تلوّث؟!

ارتفعت أصوات الأخوين واحتدّت، فتدخّلت منال مهدّئة:

ـ أخفضا صوتيكما.. رانيا نائمة بالدّاخل!

أشـاح فـراس بوجهـه في اتّجـاه النّافـذة دون أن يفارقـه التجهّـم، في حـين أطـرق ياسـين وكفّـاه يحتضنـان رأسـه، ثـمّ سـأل فجـأة:

ـ أين زوجتك؟

أجاب فراس دون أن يلتفت إليه:

- طلّقتها.

- هل جننت؟ لم يبق إلّا القليل لتحصل على الجنسيّة!

- لا أريـد الجنسيّة.. الإقامـة تفـي بالغـرض.. كمـا أنّـني لـم أعـد أحتمـل البقـاء هنـاك. دورك لتسـتلم مقاليـد العمـل!

- ألا تعلـم؟ العيـون كلّهـا علينـا! لا يمكنـني اسـتئناف نشـاط الشّركـة بشـكل رسـميّ! سـيقولون مـن أيـن لـك هـذا؟ وسـنتعرّض للمحاسـبة مـن جديـد!

- لا تبالـغ. لقـد مـرّت سـنتان الآن، ولـم يعـد أحـد في السّـوق يعـرف مـن هـو نبيـل القاسـمي.. كمـا أنّ اسـم الشّركـة قـد تغـيّر ومقرّهـا في جينيـف. يمكنـك أن تقـدّم عقـد وكالـة مـع شريـك أجنـبيّ، أو.. تـصرّف يـا أخـي! أعلـم أنّـك أوسـع حيلـة مـني ولـن تعـدم الأفـكار إن أنـت أردت أن تفعـل!

زفـر ياسـين في تسـليم. لـم يكـن هنـاك مـن سـبيل لإقنـاع فـراس بالعـدول عـن قـراره. كان قـد وصـل إلى طريـق مسـدود. قـال في اهتمـام:

- من سيكون صلتنا هناك؟

- دانيـال.. إنّـه أهـل للثّقـة. وإن لـم يقنعـك أداؤه يمكنـك أن تـوكّل مـن تـراه مناسـبا. أنـت لسـت ممنوعـا مـن السّـفر، ويمكنـك أن تحصـل عـلى تأشـيرة بسـهولة بعـد توقيـع عقـد الشّراكـة الـذي في حـوزتي!

ثمّ أشار إلى حقيبة أوراقه. ابتسم ياسين ساخرا:

- أرى أنّك قد فكّرت في كلّ شيء يا أخي العزيز!

رمقه فراس بنظرة حادّة، ثمّ قال متهكّما:

- بمناسبة الأخوّة، أين أمين؟

- أمين؟ لا تسألني عنه! إنّه مختف منذ آخر مرّة.. في القصر!

- مختف؟ كيف ذلك.. وقد رأيته صباح اليوم؟

ـ رأيته؟ أين؟ كيف وجدته؟ نحن نبحث عنه منذ سنتين!

ـ تبحث؟ لا شكّ في ذلك!

وقف فراس، أخرج العقود من حقيبته وألقى بها على المنضدة.

ـ إلى أين؟ لم ننه حديثنا بعد!

ـ أنا متعب. أريد بعض الرّاحة.

ـ طيّب.. ألا تبيت عندنا؟

ـ سأبيت في المكتب.. إنّه مريح كفاية!

***

سار ببطء على الرّصيف، بعد أن هبط الظّلام على العاصمة. كانت السّاعة قد ناهزت السّابعة مساءً، والحركة مستمرّة في الشّارع. يتناهى إليه صوت أبواق السيّارات المستعجلة وأزيز العجلات المراوغة في الزّحام، وضجيج المقاهي المتخمة بروّاد الشّيشة والورق، وصرخات مشجّعي «دربي العاصمة» الصّاخبة.. وروائح المحروقات وسندويتشات الشاورما والكفتاجي، وأكوام الزّبالة التي لم تُرفع منذ أيّام.. فيتأكّد إحساسه بأنّه ليس يحلم. هذه هي معالم الوطن التي يألفها!

ها أنّك قد رجعت، فماذا بعد؟ لقد ضاع كلّ شيء في غيابك! ضاعت الأخوّة، ضاعت ليلى، وضاع احترامك لنفسك!

شعر بغصّة في حلقه. هل يستسلم الآن؟ لديه الكثير ليهتمّ به، لكنّ طاقته نافدة. لقد كانت لقاءاته منذ الأمس مخيّبة! زار والده في السّجن، وتحدّث إلى ظهر أمين المتجاهل، وتشاجر مع ياسين الغارق

حتّى النّخاع في أمور العمل.. واستقبلته ليلى بالنّفور والبرود. ماذا كان يتوقّع؟ جرعة من الطمأنينة، قليلا من الدّفء والاحتواء، لمسة حنيّة وشوق! هل هذا كثير؟ لكنّه قد عاد مثل غريب غير مرغوب. لم يكن أحد بانتظاره!

بلى، ليلى كانت تنتظره! لكنّها لم تعد تفعل.

تذكّر كلمات طرقت مسامعه عند خيمة الاعتصام، جعلته يحبس أنفاسه ويصغي في انتباه شديد. لقد كانت تضع خاتما! ابتسم لذلك الخاطر، وراوده بعض الارتياح. لقد كانت تعلن ارتباطها به! كانت تلك الفكرة كافية لتهوّن عليه خيبته الثّقيلة. لم تعد تفعل، لكنّها فعلت طيلة سنتين. حتّى لو كان ذلك على وجه الخطأ، حتّى لو كان نتيجة التباسها في هويّتها، فقد فعلت! لم يكن هناك شيء يجبرها على أن تفعل. لقد أرادت ذلك. وهذا يُسعده ويُحرقه في آن!

كان عليه أن يضع خاتما في يدها قبل رحيله! لقد كان عليه أن يفعل! أن يصارحها بما يشعر به، ويأخذ منها عهدا بأن تنتظر. أو يستميت في إقناعها بأن ترافقه. لكنّه كان أكثر جبنا من أن يفعل. لقد فضّل أن يحتفظ بالأمل، حتّى لو كانت النتيجة وهما.

أخذ هاتفه يهتزّ فجأة في جيب سترته. طالع الرّقم الغريب في حيرة. كان خطّا حديثا قد حصل عليه بالأمس في المطار إبّان وصوله. ولم يكن قد شاركه الكثيرون.

- ألو؟

- فراس؟ هل يمكنك المجيء غدا إلى مقرّ الجريدة؟

كان صوتها! هي ولا أحد غيرها! كان قد أعطى الرّقم لنجيب في زيارة الأمس. هل طلبت منه الرّقم؟ هل عدلت عن جفائها؟ وتطلب منه المجيء؟

ـ أنا قريب من الشّقّة الآن.. هل تحتاجين شيئا؟

لـم يسـتطع أن يخفـي لهفتـه. لمـاذا الانتظـار إلى الغـد؟ بوسـعه الذّهـاب الآن حـالا!

ـ جوازات سفري!

ـ ماذا؟

ـ هل مازالت بحوزتك؟

تسأل إن كانـت جـوازات سـفرها بحوزتـه؟ وأيـن يمكـن أن تكـون؟ إنّـه يحتفـظ بهـا مـع أوراقـه الشـخصيّة عـلى الـدّوام. نـسي أن يردّهـا قبـل سـفره، وسرّه أن يحتفـظ منها بذكـرى.. مهمـا كانـت! لكنّـه لـم يفكّـر أنّهـا قـد تطلبهـا يومـا. لقـد مـرّت سـنتان. كان بوسـعها أن تُسـجّل محـضر ضيـاع، وتُصـدر أخـرى منـذ زمـن!

ـ طبعا.. سأحضرها.

***

ليـلى.. لمـاذا الغضـب؟ ألـم تكـن ردود أفعالهـا مبالغـا فيهـا منـذ رؤيتـه؟ لقـد بـدت عصبيّـة ومزاجيّـة للغايـة، في حـين أنّـه لـم يكـن هنـاك مـا يسـتحقّ. لقـد رحـل، ثـمّ عـاد.. مثلمـا يفعـل الآخـرون. لـم تكـن هنـاك علاقـة مـن أيّ نـوع بينهمـا في أيّ وقـت مـن الأوقـات.. عـدا كونـه ابـن خالهـا طبعـا! ألـم تكـن عـلى وشـك الارتبـاط بمأمـون حـين عرفتـه، ولـم تنتـه علاقتهـا بـه إلّا بسـبب سـوء الفهـم الـذي وقعـت فيـه؟ حـتّى أنّهـا ردّ فعلهـا إزاء زواج مأمـون لـم يكـن ينطـوي عـلى أدنى حـدّة أو وجـع. حـين اتّصلـت سـحر تعلمهـا الصّيـف المـاضي، هنّأتهـا دون تـردّد. لـم

تكن مجروحة أو تعيسة. لقد مضى كلّ منهما في سبيله، وانتهى الأمر.. مهما بدا ذلك قاسيا للوهلة الأولى. فلماذا لا تواجه فراس بنفس البساطة؟

لقد حسبت نفسها حنان لبعض الوقت.. لسنتين ونصف إن أرادت الدّقّة. وكان هذا خطأها وحدها.. وقد كيّفت نفسها في تلك الفترة، وقرّرت تقبّل وجود رجل في حياتها. نعم هو ذاك.. مجرّد تكيّف! والآن ما عليها إلّا أن تكيّف نفسها على العكس. سيعود رجلا غريبا.. بدون ضيق أو انفعال.

لقد استشاطت غضبا حين عرفت بزواجه. لكنّ ذلك أمر طبيعيّ. حتّى أكثر الزّوجات تعاسة كانت لتشعر بالخيانة إذا ما تزوّج زوجها عليها! لقد تقمّصت دور الزّوجة، هذا كلّ ما في الأمر! لقد عاشت دور الزّوجة المتروكة والمعلّقة. وهو إحساس فظيع ومرّ. لكنّها الآن قد تحرّرت من الوهم.. وعليها أن تتحرّر أيضا من كلّ الأحاسيس الجانبيّة التّابعة.

أخذت نفسا عميقا وهي تفتح باب الشّقّة. كانت السّاعة تشير إلى السّابعة والنّصف مساءً. اتّصلت به منذ نصف ساعة فقط، وها هو قد وصل. رسمت على شفتيها ابتسامة هادئة. إنّها تستقبل ضيفا، وعليها أن تكون طبيعيّة ومسترخية. هكذا يُستقبل الأغراب من الضّيوف. لا انفعالات مبالغ فيها.

- تفضّل أرجوك.. أعتذر على الاتّصال المفاجئ.. وعلى تعبك.

بدت على ملامحه الصّدمة، لاستقبالها غير المتوقّع. كيف تكون قد تحوّلت مائة وثمانين درجة منذ الصّباح؟

تبعها إلى غرفة المعيشة، حيث كان نجيب يتابع مباراة رياضيّة.

- سأحضّر القهوة.

انسحبت بسرعة إلى المطبخ. هنّأت نفسها وهي تضع الماء على النّار. لقد كانت هادئة وأداؤها مقنعا. بإمكانها أن تعيد كلّ شيء إلى نصابه. غالبت أحاسيسها المشوّشة، وابتلعت غصّتها. ستتعوّد مع الوقت. لن يثير فيها حضوره أو غيابه أيّ نوع من المشاعر بعد الآن. كوني قويّة يا ليلى. كلّ هذا سيمرّ.

عادت إلى غرفة المعيشة، وضعت الصّينيّة على المائدة المنخفضة، وتعلّقت نظراتها بشاشة التّلفاز. سمعت والدها يقول في إصرار:

- يجب أن تبقى للعشاء معنا اليوم! ليلى أعدّت السّلطة بنفسها!

أطلق نجيب ضحكة قصيرة ثمّ قال مشاغبا:

- ليس من السّهل أن تتذوّق شيئا من صنع يديها! أنت لا تعلم كم تُغرق نفسها بالعمل.. حتّى أنّ دخولها المطبخ مناسبة تستحقّ الاحتفال!

احمرّ وجهها في خجل وهمّت بالاعتراض، لكنّها تمالكت نفسها. لمحت الابتسامة على شفتيه ونظرته الحائرة. إنّه ينتظر دعوة منها. صمتها سيعني استمرار غضبها، والدّعوة نوع من الكياسة واللّباقة.. تجاه الضّيف الغريب. اعترفي يا ليلى، أنت ترغبين في بقائه لشيء في نفسك. تتذرّعين باللاّمبالاة والنّسيان، لكنّ رؤيته لدقائق أطول تشعرك بالرّضا!

استمرّ صمتها أكثر من اللاّزم، فوصل تردّدها إلى فراس. قال معتذرا:

- مرّة أخرى ربّما.. لقد تناولت الغداء في وقت متأخّر، ولا أشعر بالجوع!

ثمّ أخرج ظرفا من حقيبة أوراقه، ووضعه على المائدة.

- لقد جئت لتسليم هذا.. لا غير.

- شكرا لعنائك!

هـذه المـرّة، لـم تقـم لترافقـه حـتّى البـاب. تناولـت الظّـرف، ودخلـت غرفتهـا. تفقّـدت الجـوازات ووضعتهـا في مكانهـا في درج المنضـدة، ثـمّ بقيـت هنـاك. أتاهـا صوتـه مـن وراء البـاب المغلـق، يتبـادل عبـارات الشّـكر والتحيّـة مـع والدهـا. ثـمّ صـوت بـاب الشّـقّة وهـو يوصـد، وخطـوات نجيـب وهـو يعـود أدراجـه وحيـدا. تنهّـدت. لقـد رحـل أخـيرا.

- ليلى.. أنت هنا؟

كان والدها يقرع باب غرفتها. فتحت في ارتباك.

- سأضع العشاء حالا!

- اهدئي.. لست مستعجلا على العشاء.

كان يطالعهـا بذلـك النّـوع مـن النّظـرات الـذي يجيـده الآبـاء، فتسـبر الأغـوار وتقـرأ الأفـكار. جلسـا عـلى طـرف سريرهـا، ثـمّ قـال بلهجة جـادّة:

- ما الذي جاء فراس من أجله؟

قالت في حرج:

- جوازات سفري.

- حسنا.. هل لي أن أسأل، كيف وصلت جوازات سفرك عنده؟

- كان ذلـك منـذ زمـن بعيـد.. حـين كنـتَ في السّـجن. حصـل موقـف مـا.. واضطـررت إلى إيداعهـا عنده.

رمقها بنظرة طويلة، ثمّ تنهّد.

- ليلى، اصدقيني القول.. ما الذي بينك وبين فراس؟

هزّت رأسها بقوّة وإصرار:

- لا شيء! صدّقني لا شيء!

ـ إذن ما الذي يشغلك؟ لا تحسبي أنّ همومك تخفى عليّ!

ـ السّفر! أريد السّفر.. في أقرب وقت!

قالــت ذلــك، وعانقتــه بشــدّة وقــد ارتفعــت شــهقاتها. أخــذ نجيــب يربّــت عــلى ذراعهــا في حــيرة. ليتــه يــدري مــا الــذي يشــقيها!

ـ فلتسافري يا ابنتي.. فلتسافري إن كان في ذلك راحتك!

-٢٠-

للأسبوع الماضي عنوان واحد: السّفر!

شـغلت يومهـا كامـلا بالتّجهـيزات لرحلتهـا المرتقبـة. معامـلات إداريّـة، اسـتخراج وثائـق وتسـوّق. كانـت تمـضي القليـل مـن الوقـت في مقـرّ الجريـدة، والكثـير منـه في المصالـح الحكوميّـة ومحـلّات الملابـس الشّـتوية، بعـد أن تفهّـم الأسـتاذ عبدالـرّؤوف ظروفهـا وأمـر بتوزيـع مهامهـا عـلى زملائهـا.

كانـت فكـرة السّـفر نفسـها مفاجئـة، واسـتعجالها السّـفر خـلال عـشرة أيّـام فقـط مـن وصـول الدّعـوة جعـل أيّامهـا ماراثونـا مسـتمرّا، لترتيـب كلّ شيء في أجـل قصـير. يـوم الأحـد، كانـت حقيبتهـا جاهـزة، ووثائقهـا كاملـة. لكـنّ قلبهـا متعـب ومختنـق.

بعـد الظّهـر، ذهبـت لزيـارة منـال مودّعـة. لـم يكـن ياسـين هنـاك. مـا إن دخلـت، حـتّى أمسـكت منـال بذراعهـا وهتفـت في عتـاب:

ـ هل تعلمين؟ لقد حسبتنا صديقتين! لكنّني آخر من يعلم!

ابتسمت ليلى في حرج:

ـ لقـد جـاء قـرار السّـفر فجـأة.. وقـد كنـت مشـغولة بالتحضـيرات طيلـة الأسبوع.

تغيّرت قسمات منال إلى الدّهشة:

- تسافرين؟! إلى أين؟ ولماذا؟

- هامبورغ، ألمانيا.. من أجل بحث أكاديمي!

رمقتها منال في صمت ثمّ قالت:

ـ لماذا الآن؟ فراس عاد منذ أسبوع واحد.. والآن تسافرين أنت؟

ـ لقد أخبرتك.. جاءت الدّعوة بشكل مفاجئ.

ضايقها ذكر فراس، فسارعت تقول مغيّرة الموضوع:

ـ إن لم تكوني على علم بموضوع السّفر.. فعلام العتاب إذن؟

ـ أنت لم تخبريني.. أنّ هناك شيئا بينك وبين فراس!

ضحكت ليلى في عصبيّة. لم يكن هناك مفرّ من سيرته!

ـ لم يكن هناك شيء لأخبرك عنه.. صدّقيني!

لكنّ نظرات منال كانت مليئة بالشّك.

ـ لقد كان فراس هنا منذ أسبوع.. تشاجر مع ياسين، ولم نره منذ ذلك الوقت.. كان يلومه، لأنّ الزّواج الصّوريّ كان من تدبيره.. ولأنّ ذلك أفسد علاقتكما!

شحب وجه ليلى وازدردت لعابها بصعوبة. زواج صوريّ؟ لم يذكر أحد ذلك التّوصيف أمامها من قبل. ولا حتّى فراس نفسه. تذكّري يا ليلى، أنت رفضت الاستماع إليه! لحظة واحدة.. هذا لا يعني شيئا في مطلق الأحوال! كان ذلك ليخفّف من غضب حنان، الزّوجة المكلومة.. لكنّه لا يمثّل شيئا في نظر ليلى! ركّزي!

قالت في برود:

ـ ما كان بيني وبين فراس.. مجرّد سوء فهم!

ـ سوء فهم؟!

ضحكت منال في عدم تصديق، ثمّ أردفت بجدّيّة:

ـ ربّما كان سوء فهم من ناحيتك.. لكنّني أعرف فراس جيّدا. إنّه جادّ تماما بشأنك!

قالت ليلى في ضيق:

ـ أرجـوك، هـلّا انتهينـا مـن هـذا الموضـوع؟ سأسـافر مسـاء الغـد.. هـل نسيت ؟

تنهّدت منال في استسلام، ثم قالت في استياء:

ـ سفرك بهذه السّرعة، يسمّى هروبا!

ابتسمت ليلى في وهن. ربّما هو كذلك. قالت دون اكتراث:

ـ سمّه ما شئت!

ـ متى تعودين؟

ـ ربّما خلال ستّة أشهر.

ـ أرسلي رقمك إليّ.. لا تنسي!

همّـت أن توصيهـا، بـألّا تعطـي الرّقـم لأحـد.. ثـمّ عدلـت. لا يهـمّ لـو أنّهـا أعطـت أو لـم تعـط. لا يهـمّ إن اتّصـل أو لـم يتّصـل. أو لعلّهـا تـترك بـاب الأمـل مفتوحـا؟ إنّهـا لا تعـرف بعـد مـاذا تريـد بالضّبـط. مازالـت مشـاعرها تتأرجـح، في نسـق غـير مضبـوط. سـينتهي كلّ هـذا قريبـا.. خـلال شـهور قليلـة سـتكون قـد نسـيت كلّ شيء عـن إرث حنـان المشـؤوم.. وسـتقول نفسـها المطمئنّـة حـين تغمرهـا السّـكينة مـن جديـد: ألـم أقـل لـك؟

كان عليهـا أن تـودّع الجـدّة أيضـا. كانـت لا تـزال تعاتبهـا رغـم مـرور سـنتين، عـلى رفضهـا الإقامـة معهـا. وهـذا الخـبر الجديـد بالسّـفر، لـم يكـن نبـأ سـعيدا البتّـة. رمقتهـا بنظـرة جانبيّـة وهـي تنهمـك في حياكـة الصـوف الـتي أدمنتهـا منـذ أقعدهـا الرّوماتـيزم عـن مشـاويرها الخارجيّـة، وقالـت لائمـة:

ـ تتغرّبـين مـرّة أخـرى؟ ومـا هـو الخـير في هـذه الغربـة حـتّى تغريـك بتكـرار التّجربـة؟

قالت ليلى مترفّقة:

- هـذه التّجربـة مفيـدة لمسـيرتي المهنيّـة.. وربّمـا تتيـح فرصـة الحصول عـلى شـهادة في الدّراسـات العليا.

ارتفع صوت الحاجّة فريدة غاضبا:

- شـهادة أخـرى! مـا تصنعـين بهـا؟! أليـس مـا حصّلتـه مـن الدّراسـة كافيـا؟! مـا يلزمـك الآن هـو زوج وأطفـال.. وليـس شـهادة!

ابتسـمت في وهــن. حـتّى أنـت يـا جـدّتي؟ لقـد تآمـر الجميـع عليهـا، هــذا مؤكّـد.

توقّفـت عنـد خيمـة المعتصمـين في آخـر زيـارة لهـا لمقـرّ الجريـدة. حدجهـا أمـين بنظـرة طويلـة، وهـي تعلـن رحيلهـا المزمـع، ثـمّ قـال بلهجـة حـادّة:

ـ أنت تهربين، من جديد!

ـ من جديد؟

لـم تسـتنكر الهـرب، فهـي تـدرك أنّهـا تفعـل. لكـن مـتى كان هربهـا الأوّل؟

ـ لقـد فـررت أوّلا إلى مـلاذ «الالـتزام الدّيـني»! وهـذا سـلوك معـروف في علـم النّفـس، الارتمـاء في أحضـان الرّوحانيّـات، والاحتمـاء بالغيبيّـات، لاسـتعادة الاطمئنـان وتمويـه الأزمـات! هـذه خطّـة دفـاع قديمـة، قـدم النّفـس البشريّـة، وقـدم الأديـان الوضعيّـة والسّـماويّة.. لكـن يبـدو أنّهـا لا تـزال فعّالـة في عصرنـا الحديـث أيضـا.

ابتسمت في سخرية وقالت:

ـ تبدو ملمّا بالموضوع!

ـ أكـثر ممّـا تتصوّريـن! لكـنّ الهـروب السّـابق لـم يكفـك. هـا هـي قطعة

القماش ما زالت على رأسك، ومع ذلك تمعنين في الفرار. وهذا يعني شيئا واحدا.. أنّ مصدر الخطر قد صار أقرب!

تحزر ما يدور في خلد أمين الآن. لم ينس مطلقا شكوكه السّابقة بشأن علاقتها بفراس. ولقد كان محقّا في تخمينه، مرّتين. لكن هيهات أن تعترف. قالت منكرة:

ـ كفاك فلسفة فارغة، وافعل شيئا ينفع.. حين أعود، يجب أن تكون قد صنعت شيئا ذا فائدة لنفسك. هل تعدني؟

دفن أمين رأسه متأفّفا تحت الغطاء:

ـ ألن ننتهي من هذا الحديث؟ حسنا، حسنا، عمّتي ليلى! سأكون ولدا مطيعا!

ابتسمت وهي تمشي مبتعدة. لماذا تشعر بمسؤوليّتها تجاه ذلك الولد الذي يكبرها بسنة كاملة!

***

في الصّباح التّالي، تلقّت اتّصالا من زبيدة. كانت قد أوصتها بأن تبلّغها بكلّ ما يستجدّ بشأن الاعتصام. لكنّها لم تكن تتوقّع أن تتطوّر الأمور بتلك السّرعة. لقد فضّت قوات الأمن الاعتصام بالقوّة! أزيلت الخيام التي انتصبت على السّاحة لأكثر من شهرين، وضُرب المعتصمون بالهراوات لإجبارهم على مغادرة المكان.

هرعت إلى شارع الحبيب بورقيبة على الفور. لم تفكّر في تغطية الحدث كصحفيّة، بل شعرت أنّ المعتصمين بحاجة إلى مواساتها. لقد قرأت على وجوههم الخيبة بالأمس وهي تودّعهم. لا شكّ أنّهم قد

شعروا بالخذلان. واليوم، تدخّل الشّرطة لطردهم قد يكون القطرة المشؤومة التي تفيض كأس يأسهم المترعة أصلا. ما الذي يفعله أحدهم بعد أن تسدّ كلّ الطّرق في وجهه.. بعد تقديم المطالب للوزارات والتّظاهر ثمّ الاعتصام والإضراب عن الطّعام؟

حين وصلت إلى الشّارع، تراءى لها الجواب أمام عينيها.

كان المارّة يتجمّعون قرب مبنى المسرح، ورؤوسهم متّجهة إلى أعلى، تطالع عيونهم مشهدا سرياليّا لشابّ يتسلّق عامود الكهرباء. حثّت ليلى الخطى وقد تملّكها الفزع. اقتربت حتّى تبيّنت ملامح الشّاب. لقد كان شكّها في محلّه. إنّه منتصر! واحد من شباب الاعتصام. يمكنها أن تميّز جذعه النّحيل ووجنتيه الغائرتين، بفعل أسابيع متّصلة من الإضراب عن الطّعام، وتلك الثّياب الرّثّة السّوداء التي لم يغيّرها منذ شهرين، علامة حداد واحتجاج.

تذكر بوضوح كلماته المحرجة وهو يحدّثها عن وضعيّته، وأسلوبه المطعّم بمزاح أسود، متوائم مع سوداويّة مزاجه. كان أصيل ولاية «القصرين»، واحدة من المناطق التي هُمّشت طويلا على مرّ العقود الماضية، وكانت أولى الانتفاضات الثورية، بعد سيدي بوزيد، قد اندلعت في ربوعها. منتصر ليس مختلفا كثيرا عن أقرانه، ثلاثينيّ صاحب شهادة جامعيّة، ومعطّل عن العمل. كان المعيل الوحيد لعائلته المكوّنة من ثمانية أفراد، بعد أن أقعد حادث شغل والده. لكنّ محاولاته المتكرّرة للتّوظيف في تخصّصه باءت بالفشل. وبعد سنوات من العمل في المقاهي والحظائر، انتفض على وضعه وقرّر مطالبة الدّولة بتعويضات لوالده المقعد، وتعيين له في الوظيفة العموميّة.

الآن، تحدّق في هلع في منتصر الذي أنهى تسلّقه، وجلس على

قمّة العامود في تحدّ. عند قاعدة العامود، رجال أمن يبعدون المارّة ويحاولون إقناع الشّاب بالنّزول. هتفت بصوت عالٍ:

- منتصر.. ما الذي تفعله! انزل حالا!

استدارت نحوها عيون مستطلعة، ثمّ اقترب رجل أمن:

- هل تعرفين الشّاب؟ تعالي من هنا أرجوك.

تبعت الرّجل حتّى اقتربت من عامود الكهرباء. كانت مضطربة ومرتبكة، لكنّها لن تسمح للشّابّ بإنهاء حياته أمام عينيها دون أن تحرّك ساكنا. عليها أن تحاول على الأقلّ. استرجعت ما تعلّمته من فنون التّفاوض. يمكنها أن تجرّب طمأنته، تحفيزه أو مخاطبة عواطفه. انتقت الخيار الأخير. لكنّها ظلّت ترتجف، وصورة مهتزّة ترتسم في رأسها، لحنان تقف على سطح مبنى الكليّة وتهدّد بإلقاء نفسها. صرخت ليصل صوتها إليه، في خضم الجلبة واللّغط المرتفعين:

- منتصر، هذا ليس حلا.. من لعائلتك من بعدك؟ أنت تفرّ الآن وتخلّفهم بلا عائل! هل هذا ما وعدت به أمّك؟ ألّا ترجع خالي الوفاض؟ تريد أن تهديها جثّة؟

لم يبد منتصر مهتمّا بكلماتها، لم تتحرّك عيناه باتّجاهها، ولم تبد على ملامحه علامات الاستماع إلى ما تقول. كان في عالمه المنفصل، كأنّه يؤدّي طقوسا خاصّة تستغرقه تماما. شاهدته يفلت كفّيه، وينتصب واقفا على رأس العامود في وضعيّة خطرة، ثمّ يمدّ بصره في اتّجاه الأفق، وبحركة مسرحيّة يلقي قبلة في الهواء إلى كيان مجهول وغير مرئيّ.. فجأة، ألقى بنفسه، لا إلى الأسفل، ولكن إلى الأمام، ليعانق جسده أسلاك الكهرباء المعلّقة، ذات التيّار العالي!

أمام عشرات المتفرّجين، اشتعلت النّار في جسد منتصر، مثل قطعة حطب لا شأن لها. تطاير الشّرر في الهواء، وتصاعد دخان

أسـود مـع احـتراق قمـاش قميصـه أوّلا، ثـمّ انبعـثـت رائحـة شـواء كريهـة. رأت ليـلى الجسـد الملتهـب يتهـاوى مـن ارتفاعـه الشّـاهق ويحـطّ عـلى الأسـفلت، عـلى بعـد أمتـار قليلـة مـن موقفهـا. شـهقت في لوعـة، لتتزامـن شـهقتها مـع شـهقات كثـيرة أخـرى للوجـوه الـتي كانـت تراقـب المشـهد حـتّى تلـك اللّحظـة، في فضـول وشـفقة. لـم يقـترب أحـد. كان الـكلّ متيقّنـا أنّ الـرّوح قـد فارقـت وعاءهـا لا محالـة، إن لـم يكـن مـن الصّعقـة الكهربائيّـة، فمـن السّـقطة الحـرّة. اسـتمرّت النّـيران تطقطـق وتلتهـم الجسـد المسـجّى بينمـا سرت همسـات ضيـق وتقـزّز، حـتّى اقـترب رجـل أمـن ورمـى فـوق الجثّـة بطانيـة أطفـأت اللهـب.

تناثـرت العـبرات عـلى وجنـتي ليـلى في حـسرة وغضـب. كيـف انتهـى الأمـر إلى هـذه الحـال؟ لقـد كان نابضـا بالحيـاة منـذ أيّـام، يرسـل النّـكات ويبتسـم رغـم كلّ شيء. لكنّـه قـد غـدا اليـوم أثـرا بعـد عـين. تلفّـتـت، تسـاءلت أيـن يكـون الآخـرون.. أمـين ومالـك ورفاقهمـا؟ هـل يتابعـون المشـهد مـن مسـافة مـا؟ هـل كان أحدهـم عـلى علـم بمـا نـواه منتـصر؟

انتبهت حين اقترب منها رجل الأمن:

ـ لو سمحت، هل يمكنك تأكيد هويّة المنتحر؟

أومـأت وهـي تلاحـق رجـل الأمـن مـرّة أخـرى، بـدون حمـاس. توقّفـت بعـد أن خطـت خطوتـين، وهتفـت وهـي تشـير إلى جسـد منتـصر المحترق الـذي تـوراى تحـت الغطـاء:

ـ هل سيبقى هنا؟

هزّ الرّجل كتفيه في ضيق وقال:

ـ يجب أن يصل رجال الحماية المدنيّة أوّلا!

-٢١-

حطّت الطّائرة القادمة من تونس العاصمة في هامبورغ بعد الساعة السّادسة مساء بدقائق قليلة، ونزلت ليلى ووالدها مع ركّاب الدّرجة السّياحيّة. كانت آخر رحلة لهما معا، من أوروبا إلى تونس قد صارت ذكرى بعيدة ومثيرة للشّجن. لقد حصل الكثير منذ ذلك الوقت. أكثر ممّا كانت تأمل أو تتوقّع أو تتخيّل. خلال سنتين ونصف، أثقل رصيدها في الحياة بخبرات لا حدود لها.. ونضجت بشكل متسارع. واجهت سجن والدها وانهيار عائلة خالها، تزوّجت -في خيالها- وانفصلت، حملت ثقل جريمة قتل ودفعت ثمن توبة لا تعنيها، نزلت إلى الشّارع مع المتظاهرين ودافعت عن المعتصمين، وتصدّت لانتهاكات حقوق الإنسان! ليلى، هذه أنت.. هذه امرأة لا يعرفها الشقّ الأوروبيّ من هويّتك!

تلك رحلتها الأولى، دون جواز السّفر الدّيبلوماسيّ وفي غير درجة رجال الأعمال. تغيير يتناسق مع التحوّل في باطنها. هذه ليلى الكادحة التي تركب المواصلات العامّة، وتسير مسافات على قدميها كلّ يوم، بين مقرّ الجريدة والمحاكم والسّجون وخيام الاعتصام ومحطّات المترو والشّقة.

ضحكت طويلا وهي تستعرض مع نجيب الفروقات المذهلة بين حياتهما السّابقة في جينيف، والحياة الحاليّة في تونس. لم يكن أحدهما يتحسّر أو يشعر بالمرارة. لقد كانت محطّة السّجن تطهيريّة بالنّسبة إلى نجيب.. وكانت ليلى قد مرّت بما هو أقسى. لذلك، فقد كانت حياة الصّحفيّة الوديعة ورجل الأعمال المتقاعد تعتبر رخاءً

بعـد شـدّة.

كان المركـز قـد أعـدّ مـن أجلهـا شـقّة مفروشـة في السّـكن الجامعـيّ، مكوّنـة مـن غرفـة نـوم وصالـة. قالـت ليـلى وهـي تنهـي جولتهـا الاستكشـافيّة:

ـ الصّالـة واسـعة.. يمكننـا تقسـيمها إلى جـزء خـاصّ بالنّـوم وآخـر للمعيشـة.

قاطعها نجيب في حسم:

ـ لا تتعـبي نفسـك.. مجيـئي كان للاطمئنـان عليـك وحسـب.. سـأغادر خـلال يومـين.

رمقتـه في عبـوس. لـم يقتنـع أبـدا بالبقـاء، رغـم محاولتهـا استعطافه طيلـة الرّحلـة.

ـ ستكونين بخير؟

هزّت رأسها علامة النّفي، فأطلق ضحكة مرحة.

ـ لقـد كنـت عـلى مـا يـرام أثنـاء سـجني.. أعـرف أنـك سـتبلين بـلاء حسـنا.

يـوم الأربعـاء، غـادر نجيـب عائـدا إلى تونـس، وانسـجمت ليـلى مـع حياتهـا الجديـدة.

كانـت آخـر الواصلـين في البرنامـج البحـثيّ عـن الثّـورات العربيّـة. كان هنـاك تونسـيّة أخـرى قـد سـبقتها بالانضمـام، ومصريّـان -رجـل وامـرأة- وسـوريّ واحـد.. بالإضافـة إلى فريـق متعـدّد الاختصاصـات مـن أوروبـا وآسـيا.

استقبلها مدير المركز وقال معتذرا:

ـ المـشرف عـلى رسـالتك، البروفيسـور باورمـان Bauermann في إجـازة..

لـم نحسـب أنّـك سـتصلين بهـذه السّرعـة!

ابتسمت في حرج. لقد شعر الجميع بلهفتها!

في يومها الأوّل، بادرتها سوسن -المصريّة- قائلة:

ـ البروفيسور باورمان لا يشرف على الإناث عادة، لأنّ صديقته غيورة!

ضحكـت ليـلى في سـخرية. هـذا مـا ينقصهـا! رجـاء أخـرى؟ وألمانيـة أيضـا؟ لكـنّ سوسـن أضافـت:

ـ كمـا أنّ انضمامـك في مثـل هـذا الوقـت مـن السّـنة أمـر غـير مألـوف! البحــوث تبــدأ عــادة في مطلــع السّــنة الدّراســيّة.. وطلبــات القبــول والتّسـجيل تكـون جاهـزة منـذ الصّائفـة.. أنـت الوحيـدة في البرنامـج الـتي حصلـت عـلى دعـوة اسـميّة للمشـاركة، وهـذا يثـير الكثـير مـن التّسـاؤلات في المركـز!

لـم تبـد سوسـن مازحـة أبـدا. حـتّى أنّ ليـلى نفسـها قـد انتابهـا الشـكّ. لمـاذا وجّـه إليهـا البروفيسـور باورمـان الدّعـوة بشـكل خـاصّ؟ كانـت هناك احتمـالات معقولـة.. أن يكـون أحـد أسـاتذتها السّـابقين في جينيـف –وهـو أمـر لا تذكـره– أو أن يكـون صديقـا قديمـا لوالدهـا –وهـو أمـر مسـتغرب، لأنّ البروفيسـور باورمـان في نهايـة الثلاثينـات مـن عمـره، ولا يمكـن أن يكـون في دائـرة معـارف السّـفير السّـابق! كان أمـر دعوتهـا غامضـا ومحـيّرا.. والبروفيسـور لـم يعـد بعـد مـن إجازتـه.

استطردت سوسن مغيّرة الموضوع:

ـ هــذا لا يمنــع أنّــك وصلــت في الوقــت المناســب! ســيبدأ الثلــج في التّســاقط عــلى المناطــق الجبليّــة قريبــا، والمركــز ينظّــم رحلــة تزلّــج الشــهر المقبــل!

لـم تسـتطع منـع نفسـها مـن التعليـق في داخلهـا متهكّمـة. حقـوق الإنسـان والثّـورات العربيّـة، كانـت مواضيـع مناسـبة لرحلـة التّزلّـج في

المرتفعات الألمانيّة!

خلال يومين، كانت قد اجتمعت بكلّ المساهمين في الدّراسة، وجلست معهم في حلقات عمل للتعرّف على إصدارات كلّ منهم والظّروف التي أدّت به إلى الوصول إلى هذا المركز.

كانت التّونسيّة الأخرى نجاة، في منتصف الأربعينات، أستاذة جامعيّة في الفلسفة، تصارع طول النّهار خصلاتها اللّولبيّة الثّائرة وترفع نظارتها الطبيّة عن أنفها في لازمة لاإراديّة. زوجها معارض سياسيّ اشتراكيّ وسجين رأي، وكانت بدورها قد تعرّضت للحبس والتّعذيب في عهد النّظام السّابق. لم تكن قد غادرت تونس في ظلّ ديكتاتوريّة الرّئيس الواحد، لكنّها لم تحتمل البقاء يوما واحدا بعد أن فازت الأحزاب الإسلاميّة بأغلبيّة المقاعد في مجلس نوّاب الشّعب. صادف سفرها الإعلان عن مشروع الدّراسة، فتقدّمت هي وزوجها.. لكنّها قبلت وحدها، بعد أن اعتبر ماضي زوجها السّياسيّ عائقا أمام مساهمة موضوعيّة ومحايدة في الدّراسة.

وكان الشابّ السّوريّ نزار أصغر المشاركين عمرا، بسنواته الأربع والعشرين. مهاجر وصل بحرا في قارب متخم بالفارّين من سوريا المحترقة منذ سنة ونصف، بعد أن فقد أهله جميعا.. وحصل على منحة دراسيّة في بداية السّنة ليعدّ رسالة الماجستير. كانت شجاعته ومقدرته على البدء من جديد مثالا يحتذى بالنّسبة إلى ليلى.

أمّا صديقتها سوسن، المصريّة المفعمة بالحيويّة، فقد كانت في بداية الثلاثينات، رغم أنّها تبدو أصغر من سنّها بكثير. لا يظنّها الرّائي قد تجاوزت الخامسة والعشرين، رشيقة وقصيرة القامة، وترتدي ملابس رياضيّة عمليّة طول الوقت. كانت تلازمها منذ وصولها. تتأبّط ذراعها وتأخذها في جولات في الحرم الجامعيّ، تعرّفها إلى الأشخاص

والمبـاني والخدمـات. عرفـت ليـلى أنّهـا كانـت تعـاني وحـدة قاتلـة قبـل وصولهـا، نظـرا إلى التّركيبـة العمريّـة للباحثـين.

ولـم يكـن الباحـث المـصريّ الأخـير إلّا أكـبر المشـاركين سـنّا، وقـد بـدا الدّكتـور فـوزي رجـلا وقـورا عـلى مشـارف السّـتّين، لـه أربعـة أبنـاء متوزّعـون في أصقـاع الأرض مـن أجـل الدّراسـة والعمـل. فكّـرت ليـلى أنّ لوالدهـا فرصـة في القبـول أيضـا! لكـنّ نجيـب ضحـك مـن اقتراحهـا حـين فاتحتـه بالأمـر.

ـ دماغـي لـم يعـد قـادرا عـلى الدّراسـة والتّحليـل! لقـد أحلتـه عـلى التّقاعـد وانتهـى الأمـر!

سريعـا بعـد وصولهـا، انضمّـت ليـلى إلى الشّـلّة الشّـبابيّة في الفريـق، بزعامـة سوسـن. كانـت كثـيرا مـا تُـرى في الممـرّات متبوعـة بليـلى ونـزار، يتناولـون وجبـة الغـداء معـا ويثرثـرون في الاسـتراحات بلهجـات عربيّـة هجينـة، هـي خليـط مـن لهجاتهـم المحليّـة والعربيّـة الفصحـى، مطعّمـة بكلمـات إنجليزيـة.

بعد أسبوع، قالت سوسن حال دخولها المكتب:

ـ لقد رجع البروفيسور باورمان!

كانـت قدرتهـا عـلى تقـصّي الأخبـار مذهلـة بالنّسـبة إلى ليـلى. ولـم تخطـئ سوسـن، إذ دخـل البروفيسـور المكتـب في السّـاعة العـاشرة، واتّجـه نحوهـا مبـاشرة بابتسـامة عريضـة. كان ألمانيّـا صرفـا، بقامتـه الفارعـة وشـعره الأشـقر وعينيـه الزرقاويـن وبشرتـه البيضـاء الـتي تحمـرّ بسرعـة كلّمـا ضحـك.. وكثـيرا مـا كان يفعـل. فكّـرت ليـلى في سـخرية أنّـه ربّمـا يكـون رجـل أحـلام الكثـيرات في الجامعـة.. لـو أنّـه كان مسـلما، لربّمـا انضّمـت إلى فريـق المعجبـات!

تحـدّث بلهجـة ودّيّـة، وحـدّد موعـدا للاجتمـاع بهـا بعـد الظّهـر، ريثمـا

يكـون قـد راجـع بعـض الملفّـات. عنـدي السّـاعة الثّانيـة، حملـت أوراقهـا وطرقـت بـاب مكتبـه. جلسـت عـلى المقعـد المقابـل وهـي تحـدّق في دهشـة في الفـوضى المهولـة الـتي تغـرق فيهـا الغرفـة. كانـت الأوراق مكدّسـة عـلى سـطح المكتـب وعـلى الرّفـوف وعـلى الأرض. أوراق وأوراق ومزيـد مـن الأوراق! لـم يكـن بإمكانهـا أن تسـتوعب أنّ البروفيسـور الثلاثيـني مـا زال يفضّـل الـورق عـلى التّكنولوجيـا الرّقميّـة!

انتبه باورمان إلى نظرتها المستهجنة، فقال:

ـ أرى أنّـك قـد تعرّفـت إلى مهمّتـك الأولى.. تصنيـف الدّراسـات الـتي ترينهـا أمامـك كلّهـا!

اتّسعت عيناها في فزع، فأطلق ضحكة صاخبة ثمّ قال مطمئنا:

ـ أمـزح! كلّ شيء مرتّـب كمـا هـو الآن.. إيّـاك أن تحـرّكي ورقـة مـن مكانهـا!

هزّت رأسها في صمت.

ـ قبـل أن نبـدأ العمـل.. هـل لديـك تسـاؤلات معيّنـة، عـن المركـز أو البرنامـج؟

خمّنـت ليـلى أنّ خصلتـين فيـه تروقانهـا حـتّى الآن.. المـرح والعمليّـة. يمكنهـا التّغـاضي عـن فوضويّتـه وطريقـة عملـه عتيقـة الطّـراز، فتلـك سـمة العباقـرة. كانـت قـد فكّـرت منـذ أيّـام في طريقـة مناسـبة لتسـأل عمّـا يحيّرهـا، دون أن تبـدو وقحـة. قالـت في لباقـة:

ـ لقـد كانـت الدّعـوة مفاجـأة لي.. وقـد أردت أن أشـكر المسـؤول عنهـا بنفـسي.

ـ العفو.. وصل امتنانك!

إذن فقد كان صاحب الدّعوة بالفعل! سألت بابتسامة:

ـ هل لي أن أعرف، كيف ولماذا وقع عليّ الاختيار؟

عقد ذراعيه أمام صدره وأخذ يحرّك كرسيّه الدوّار يمنة ويسرة وهو يقول:

ـ حسنا.. لم يكن الأمر بسيطا. الدّراسة طرحت من قبل قسم علم الاجتماع السّنة الماضية، وقد وصلتنا خلال فترة وجيزة طلبات انضمام كثيرة. بعد أن نظرنا في الترشّحات، حاولنا أن نراعي التنوّع في القبولات.. من حيث الشريحة العمريّة، التجربة البحثيّة، الاختصاصات، والخلفيّة السّياسيّة.. ثمّ أرسلنا دعوات لبعض المؤسّسات العلميّة والحقوقيّة لترشّح بدورها أسماء مناسبة.. ومن ضمنها رابطة حقوق الإنسان في تونس. كان اسمك قد ورد في قائمتها، مرفقا بالتقارير التي عملت عليها خلال نشاطك الحقوقيّ.. لقد كان عملك مميّزا، لكنّ ذلك لم يكن كافيا، فقد كان على القائمة أفراد لهم مساهمات بحثيّة أو ميدانيّة أكثر قيمة. كانت سيرتك الشّخصيّة هي العامل الحاسم!

امتقع وجه ليلى. سيرتها الشّخصيّة؟ ما الذي يعنيه؟

ـ تونسيّة سويسريّة، عشت طيلة عمرك في أوروبا، ثمّ رجعت بعد الثّورة.. ليس لأنّك من الفئة المضطهدة أو ممّن يحملون خلفيّة سياسيّة مناهضة للنظام السّابق، لا! أنت ابنة سفير سابق، بل أكثر.. إنّ والدك ممّن طالتهم المحاسبة بتهمة الفساد! ما الذي يجعل شخصا مثلك ينخرط في المنظومة الحقوقيّة ويشارك بشكل فعّال في تدوير عجلة الثّورة؟ هذا شيء مذهل في نظري.. وأنا أحييك بشدّة!

التهبت وجنتاها حرجا. إنّه يعرف عنها كلّ هذا! ذلك المذهل بالنّسبة إليها. لو أنّه يدرك أنّ ثوريّتها الحديثة ما هي إلّا نتاج أزمات

شخصيّة لم تجد لها متنفّسا! عدّت نفسها محظوظة لأنّ تحرّياته لم تصل إلى تلك الدّرجة من العمق.

ـ ثمّ أخيرا، وهي نقطة لا تقلّ أهميّة.. أنت تجيدين اللّغة الألمانيّة! وهذا مريح لي بشكل خاصّ!

الألمانيّة! هي نفسها لم تكن تدرك إتقانها للّغة قبل أن يصلها خطاب المركز! فكّرت، من أين استقى معلوماته؟ سيرة ذاتيّة قديمة؟ سجلّها الدّراسيّ؟

استطرد باورمان:

ـ دعينا نبدأ بتجربة صغيرة.. معظم الباحثين الأجانب في المركز لا يتكلّمون الألمانيّة.. ما عدا أولئك الذين يحضّرون لرسالة الماجستير، فإنّهم يأخذون دروس لغة.. لذلك فاللغة الرّسميّة للتواصل في المركز هي الانجليزيّة. حين نكون مجتمعين مع الآخرين، إذا ما خاطبتك بالألمانيّة.. جاريني في ذلك!

سكتت ليلى في استغراب ثمّ سألت:

ـ هل لذلك علاقة بالبحث؟

ـ ربّما! سأترك لك الاستنتاج في نهاية التّجربة!

لم تفهم الكثير. لكنّها أومأت في انصياع.

صباح الغد، عُقد اجتماع في قاعة النّدوات. كان هناك عدد قليل من الألمان، والكثير من الأجانب، وكان هؤلاء يتكتّلون في مجموعات عرقيّة بشكل شبه تلقائيّ. بعد أن انفضّ الاجتماع، كان من السّهل تمييز المجموعات العربيّة والآسيويّة والأوروبيّة، وهي تغادر مقاعدها بشكل منظّم. كانت ليلى قد وقفت مثل عادتها مع سوسن ونزار، وغير بعيد عنهما نجاة وفوزي، رغم التّنافر الواضح بين هاذين الأخيرين. فجأة اقترب باورمان من المجموعة وقال بالألمانيّة وبصوت

واضح سمعه جميع من بالقاعة:

ـ ليلى، هل تريدين تناول كوب من القهوة في مكتبي؟

ارتبكت ليلى وقد فاجأها الاقتراح، لكنّها تذكّرت الاتّفاق على الفور، فقالت ببساطة:

ـ نعم، بالتّأكيد!

ثمّ اعتذرت من رفيقيها وتبعته في صمت. خمّنت أنّ كلمة «قهوة» Kaffeeستكون مفهومة بالنّسبة للجميع، وكلمة «مكتب» Buro قريبة بشكل كبير من كلمة Bureau الفرنسيّة، وبالتّالي ستكون نجاة قادرة على استنباط المعنى الإجمالي للعبارة. وربّما كان نزار أيضا قادرا على فكّ الشّيفرة نظرا لمتابعته دروس اللّغة، وإن كان لا يزال مبتدئا. لم تكن الجملة البسيطة لتشكّل تحدّيا لغويّا عويصا على المجموعة. بإمكانهم التوصّل إلى المقصد ببعض التفكير وتشارك الخبرات! لكنّها لم تصل بعد إلى مغزى التّجربة بالنّسبة إلى البروفيسور باورمان.

حين صارا في مكتبه قال مبتسما:

ـ ما الذي تعتقدين أنّه سيحصل الآن؟

شرحت استنتاجاتها بسرعة، وقالت:

ـ أعتقد أنّ الجميع يظنّ الآن أنّنا نشرب القهوة في مكتبك!

ضحك ثمّ قال:

ـ بإمكاني أن أؤكّد لك أنّ ما يقال الآن أكثر من ذلك!

ـ ماذا تقصد؟

ـ هناك شائعة تنتشر بينما نتحدّث بأنّ هناك علاقة خاصّة بين البروفيسور باورمان وطالبته الجديدة!

ـ ماذا؟!

تصاعد الدّم إلى وجهها، بينما أردف البروفيسور موضّحا:

ـ المسألة لا تتعلّق بمضمون الجملة.. بل باللّغة المستعملة! لقد تحدّثنا بلغة لا يتقنها الآخرون.. وهذا يوحي بنوع من الخصوصيّة لمن يتابع المشهد.. بشيفرة خاصّة، أو قناة تواصل أكثر حميميّة! وهذا يجعل النّاس يمرّون إلى الاستنتاجات المستعجلة.. حتّى لو كان ما قلته مجرّد كلمات متداخلة بلا معنى!

فكّرت ليلى.. أوّلا الدّعوة الاسميّة، ثمّ قناة التّواصل الخاصّة. هذا سيغذّي الشّائعات بالتّأكيد.

ـ نحن في مجتمع علميّ بامتياز، والجميع هنا على قدر من النضج والوعي. لكنّ عوامل صغيرة وبلا معنى أحيانا توجّه التفكير الجمعيّ في اتّجاهات مغلوطة.. وسرعان ما تنتشر الشّائعات بشكل لا يمكن السّيطرة عليه! أسقطي هذا على واقع شعوب الرّبيع العربي، وائتني باستنتاجاتك!

خرجت من المكتب بتفكير مشوّش. لعلّها تسرّعت في الحكم عليه! لقد حسبته قديم الطّراز، لكنّ أساليبه البحثيّة تعتبر غير تقليديّة بالمرّة!

ما إن دخلت المكتب، حتّى استقبلتها سوسن بابتسامة ذات معنى.

ـ كيف كانت القهوة مع البروفيسور باورمان؟

كتمت ليلى ضحكتها. كيف يمكن أن تشرح لها أنّه ما من قهوة أساسا!

ـ قولي.. ما الذي تخفينه بالضّبط؟

ـ لا شيء!

ـ انتظري حتّى يصل الخبر إلى صديقة البروفيسور!

التفتت إليها ليلى في دهشة. يصل إليها الخبر؟ كيف يصل؟ وأيّ خبر في الأصل؟ أنّها تحدّثت الألمانيّة مع المشرف على رسالتها؟ أم أنّهما قد تناولا القهوة بعد الاجتماع؟ يمكنها أن تتفهّم غيرة الأنثى، لكنّ الصّديقة الألمانيّة لن تحدث زوبعة لمجرّد حدث تافه أو كلمات بسيطة! لا شكّ أنّها أكثر تعقّلا!

في الغد، وبعد أن ناقشها باورمان في بعض نقاط البحث، قالت بعد تردّد:

ـ تجربة الأمس، لقد قمت بها وأنت تعلم بشكل مسبق بأنّ الشّائعات ستنتشر.. ألا يضايقك هذا؟ أعني.. الأمر محرج بالنّسبة لي أيضا!

هزّ كتفيه وهو يقول ببساطة:

ـ أنا لا أهتمّ.. إنّها مجرّد ثرثرة!

ثمّ أضاف ضاحكا:

ـ أنت تقصدين.. صديقتي الغيورة! هل وصلك خبرها؟!

هزّت رأسها علامة الإيجاب، فارتفع ضحكه أكثر:

ـ اطمئنّي، تلك الصّديقة لا وجود لها! إنّما هي نتاج تجربة سابقة، ربّما أقصّ عليك تفاصيلها يوما! انسي ذلك الآن وركّزي في البحث!

ثمّ وقف مغادرا وهو يواصل الضّحك.

-٢٢-

منـذ وصولهـا، لـم تتوقّـف عـن تحـرّي أخبـار المعتصمـين. كانـت تتّصـل بزبيـدة مـن حـين إلى آخـر لتتقـصّى الأنبـاء. وتفتـح محـرّك البحـث لتفتّـش في أخبـار السّياسـة، تتحقّـق هـل مـن اعتصامـات جديـدة في العاصمـة. قـدّرت أنّ أمـين الـذي ألـف حيـاة الشّـوارع سيكون قـد انضـمّ إلى أحدهـا! فكّـرت أنّ فـراس ربّمـا يكـون متابعـا لأخبـاره. لـم تعـرف أبـدا مـا دار بينهمـا ذلـك الصّبـاح، يـوم تركتهمـا معـا داخـل الخيمـة. ربّمـا يكونـان عـلى اتّصـال.. وربّمـا يكونـان قـد تشـاجرا وتنافـرا، تمامـا كمـا كان الأمـر مـع ياسـين!

سرعـان مـا انشـغلت عـن المسـألة بعـد وصـول زملائهـا إلى المكتـب المشـترك، وانغمسـت طيلـة النّهـار بالتّفكـير في تجربـة البروفيسـور باورمـان. كانـت تلـك مهمّتهـا الأولى، وهـو ينتظـر منهـا في الغـد تقريـرا باسـتنتاجاتها. كانـت قـد أمضـت الأسـبوع المنـصرم منكبّـة عـلى التفكـير، بينمـا تحاصرهـا النّظـرات ذات المعـاني المبطّنـة، كلّمـا تحـدّث إليهـا باورمـان بالألمانيّـة أمـام الآخريـن! كان حرجهـا وضيقهـا يـزدادان مـرّة بعـد مـرّة، بينمـا كان يبـدو عليـه الاسـتمتاع! لـم يعـد يطلـب منهـا أن توافيـه إلى المكتـب أو تطبـع بعـض الأوراق وحسـب.. في إحـدى المـرّات، وقـف لربـع سـاعة يناقشـها في نقـاط البحـث في قاعـة الاسـتراحة باللغـة الألمانيّـة عـلى مـرأى ومسـمع مـن الجميـع. كان الأمـر ليكـون بسـيطا وبـلا أهميّـة، لـو أنّـه الـتزم لهجـة جديّـة، لكنّـه كان يلقـي النّـكات ويطـرح أمثلـة مضحكـة طيلـة الجلسـة بشـكل يوحـي بـأنّ الحديـث ودّيّ لا عمـليّ!

طمأنها ذلك الصّباح وهو يقول في مرح:

ـ غدا ستنتهي التّجربة، بعد الاستماع إلى تقريرك!

في المساء، اتّصلت بوالدها مثل عادتها. فكّرت أن تسأل عن أمين، إن كانت قد وصلته أخباره بشكل ما. لكنّها عدلت. كانت تعلم أنّ فراس يزوره باستمرار. لو أنّ خبرا ما قد طرق مسامعه فسيخبرها بنفسه. سألها نجيب مداعبا:

ـ كيف تسير الأمور معك؟ هل فكّت عنك نجاة الحصار؟

كانت زميلتها التّونسيّة خبيرة في الاعتراض. لعلّها حسبت من المفيد إسقاط تجربة زوجها في المعارضة على مجموعة المركز! كانت تناقر الدّكتور فوزي بشكل مستمرّ، لخلفيّته الإسلاميّة التي تمقتها، فيحتدّ النّقاش بينهما أحيانا.. وكثيرا ما تفاجئها هي وسوسن بأسئلة غريبة بلا سياق، تستخدمها في تصنيف محادثيها بناء على الإجابات المثاليّة التي في تصوّرها.

سألتها ذلك الصّباح وهي ترمق بنظرة ازدراء حجاب رأسها:

ـ ما رأيك في نظريّة التطوّر؟

حدّقت فيها ليلى مستغربة، ثمّ قالت بلا اهتمام:

ـ ليس لديّ رأي في الموضوع!

ـ ماذا تقصدين؟ هل توافقين النّظريّة أم تعترضين؟ الجواب بسيط: نعم أم لا!

لم تستفزّ حدّتها ليلى، بل قالت بهدوء:

ـ للأسف لست مطّلعة بشكل كاف.. إنّها نظريّة بيولوجيّة.. وأنا مختصّة في الإعلام كما تعلمين! كيف لغير مختصّ أن يبدي رأيه في نظريّة بعيدة عن مجاله؟ حتّى أهل الاختصاص، إنّهم يمضون سنوات طوال، يضعون النّظريات ثمّ يعملون على إثباتها أو دحضها!

سؤالك غريب، وغير علميّ بتاتا.. لم أكن أتوقعه من أكاديميّة مثلك. هذا سلوك جدير بالعامّة!

حين روت الحادثة على والدها، ضحكا كثيرا، وعلّق نجيب في سخرية:

ـ نجاة ونجاة.. لا يبدو أنّهما تتشاركان الاسم فقط!

غمغمت ليلى في وجوم:

ـ رحمها الله.

كان نادرا ما يأتي على ذكر والدتها. وكان الحديث في سيرتها ينقطع قبل أن يبدأ.

قالت مغيّرة الموضوع:

ـ هناك رحلة تزلّج ينظّمها المركز خلال أسبوعين.

ـ ستكونين بخير؟

لم يكن يخفى عليها سبب قلقه. لم يكن أحدهما قد اقترب من محطّة تزلّج أو منطقة جبليّة منذ تلك الحادثة. وهو لا شكّ يخشى أن تثير التّجربة بداخلها آلاما منسيّة. قالت مطمئنة:

ـ لقد مضت سبع سنوات الآن. سيكون كلّ شيء على ما يرام!

لم تكن واثقة. كان بوسعها الاعتذار لو أنّها أرادت. لكنّ المواجهة مع ماضيها وكوابيسها كانت مغرية. فكّرت ساخرة، من يدري، ربّما تتعرّض لصدمة أخرى تُرجع إليها ذاكرتها!

في الصّباح التّالي، كان باورمان ينتظرها في قاعة النّدوات. كان عليها أن تعرض بشكل أكاديميّ نتائج بحثها خلال الأسبوع الماضي. وقفت في ثقة وأخذت تقدّم فقرات عرضها. تحدّثت عن دور الشّائعات في صنع الرّأي العام بشكل عام وعن دورها في تحويل مجريات الحياة

السّياسيّة بشكل خاصّ.. قدّمت أمثلة معروفة في تاريخ الدّيمقراطيّات الأوروبيّة، ثمّ تطرّقت إلى دور الشّائعات في دفع عجلة الثّورات أو تعطيلها، وما لجأت إليه بعض الأنظمة العربيّة من تشويه لسمعة الجماعات الثّوريّة لتفتيت دعاماتها وتحطيم شعبيّتها. ثمّ ختمت التّقديم بتساؤلات حول التّأثير المستقبليّ لهجمات الأحزاب السيّاسيّة بعضها على بعض على محطّات التلفزيون من خلال بثّ الاتّهامات الملفّقة أو المفتقرة إلى الأدلّة الملموسة في صناعة حكومات ما بعد الثّورة.

وقفت في ترقّب تتطلّع إلى ردّة فعل باورمان. كان مازال يتصفّح التقرير المكتوب دون أن تظهر على ملامحه أيّة انفعالات. أغلق الملفّ أخيرا ورفع نظراته إليها:

ـ سطحيّ جدّا! هذا الكلام مستهلك وقديم، لا قيمة له في عالم الأبحاث! لا يمكننا أن ننشر شيئا كهذا حتّى لا نتعرّض لسخرية العالم! من الجيّد أنّ الجلسة كانت مغلقة، وإلا لكانت النّتيجة كارثيّة!

شحب وجه ليلى، وتجمّعت العبرات في مقلتيها. لم يكن عليه أن يكون بتلك القسوة. إنّها ليست مختصّة في علم الاجتماع، بل الإعلام! كان باورمان يواصل تقييمه:

ـ تحليلك منغلق على المعنى المباشر للمصطلحات.. لقد توقّفت عند معنى واحد للتّجربة: الشّائعات! في حين أنّ المنطلق كان اللّغة المشتركة، لو تذكرين! تجرّدي.. وغادري أسوار تجربتك الشّخصيّة ومنطقة أمانك المألوفة!

هل يجهل سبب تركيزها على نقطة الشّائعات؟ لأنّ الشّائعات هي ما أصبحت تحاصرها مؤخّرا، بسبب تجربته السّخيفة! كانت تشعر بالغيظ والسّخط على أسلوبه المستفزّ. لكنّه زاد الطّين بلّة حين قال

بمرحـه المعتـاد:

ـ طبعا، سنواصل تجربتنا الصّغيرة، حتّى تصلي إلى النّتائج المرجوّة!

غـادرت القاعـة بمـزاج متعكّـر. مـا إن دخلـت مكتبهـا حـتّى بـادرت سوســن ونــزار قائلــة في تصميــم:

ـ في الغد، حين يحضر البروفيسور باورمان.. سنتحدّث بالعربيّة!

حدّقا فيها في عدم استيعاب، فأضافت:

ـ جارياني وحسب!

في الصّبـاح التّـالي، كانـت مسـتعدّة ومتحفّـزة. جـاء باورمـان في تمـام السّـاعة العـاشرة في جولتـه الصّباحيّـة المعتـادة، وتوقّـف عنـد مكتبهـا. قـال بالألمانيّـة في لهجـة ودّيـة:

ـ لا أريـد لعـرض الأمـس أن يحـطّ مـن عزيمتـك.. هـذه البدايـة، والتّعثر أمـر طبيعـي. منهجيّـة البحـث أمـر مسـتجدّ بالنّسـبة إليـك، سـتبلين حسـنا مـع الوقـت.

التفتت فجأة إلى سوسن وقالت بالعربيّة:

ـ إنّـه يظـنّ لعبتـه السّـخيفة هـذه ممتعـة.. ولكنّهـا ليسـت كذلـك بالنّسـبة إليّ!

التفتـت سوسـن مفزوعـة حـين انتبهـت إلى أنّ ليـلى قـد تجاهلـت باورمـان وصـارت تخاطبهـا! تجلّـت علامـات الصّدمـة عـلى ملامـح باورمـان للحظـة، ثـمّ مـا لبـث أن انفجـر ضاحـكا وقـال:

ـ هجـوم معاكـس غـير متوقّـع! محاولـة جيّـدة.. لكنّـني لـو تعلمـين طالـب مجتهـد، يمكنـني أن أتعلّـم العربيّـة بـأسرع ممّـا تعتقديـن!

كان يواصل حديثه بالألمانيّة، بينما تكلّمت ليلى بالعربيّة مرّة أخرى:

ـ يعتقـد أنّ تعلّـم العربيّـة أمـر سـهل! طيّـب، جـرّب لـنرى! ثـمّ إذا أنـت

أخـذت دورة في العربيّـة الفصحـى فمـن أيـن لـك بـدورات في اللّهجـات مـن الـشّرق إلى المغـرب العـربي؟ قـد تحتـاج عـشر سنوات، وقـد لا تكـون كافيـة حـتّى!

لـمـ تسـتطع سوسـن أن تكتـم ضحكتهـا، وانضـمّ إليهـا نـزار أيضـا. كانـت عـدوى الضّحـك قـد مـرّت إلى ليـلى، فقـد كان الموقـف كوميديّـا بامتيـاز. اسـتغرق ثلاثتهـم الضّحـك، في حـين امتقـع وجـه البروفيسـور. وقـف بهـدوء وقـال هـذه المـرّة بالإنجليزيـة:

ـ حسنا.. لقد فهمت.

ثمّ استدار مغادرا في وجوم.

وقفت سوسن وهبّت إلى ليلى:

ـ هـل جننـت؟ لقـد أغضبـت باورمـان! هـل تدركـين مـا الـذي فعلتـه بالضّبـط؟

حدّقـت ليـلى في البـاب الـذي أغلـق عـلى قامـة البروفيسـور الفارعـة وملامحـه الصّارمـة، وعـاد إليهـا إدراكهـا الـذي غيّبـه الانفعـال. مـا الـذي فعلتـه يـا ليـلى؟! إنّـه يبقـى المـشرف عـلى بحثهـا ورئيسـها المبـاشر في المركـز، وسـلوكها يعـدّ وقاحـة عـلى أقـلّ تقديـر! انسـحبت الدّمـاء مـن وجههـا، ودفنـت رأسـها بـين كفّيهـا. مـاذا سـتفعل الآن؟

خـلال الأيّـام التّاليـة، رأت وجهـا جديـدا لباورمـان. كان جديّـا بشـكل غـير معهـود، متجّهمـا وجـافّ اللّهجـة بشـكل مربـك، وقـد انقلبـت لغتـه إلى إنجليزيّـة غايـة في الرّسـميّة. لـم يكـن مـن العسـير عـلى ليـلى أن تـدرك كـم هـو غاضـب! كان عليهـا أن تفكّـر في طريقـة للاعتـذار.. لكنّهـا، وبعـد ثلاثـة أيّـام مـن الـتردّد، لـم تجـد إلّا الأسـلوب المبـاشر. كان اليـوم جمعـة، وعطلـة نهايـة الأسـبوع مقبلـة، ولـم تكـن تريـد أن تسـتقبل الأسـبوع الجديـد عـلى وجهـه العابـس.

بعد الاجتماع، راقبته في صمت وهو يجمع أوراقه، وأخيرا تجاسرت وقالت بالألمانيّة وعيناها إلى الأرض:

- بروفيسور، أنا آسفة على ما حدث يوم الثلاثاء.

- آسفة علامَ بالضّبط؟

- على المزحة السّخيفة.

ابتسم، ثمّ قال مستعيدا مرحه:

- جيّد أنّك اعتذرت اليوم! كانت نهاية الأسبوع لتكون كئيبة لو أنّك لم تفعلي!

احمرّت وجنتا ليلى فجأة. لقد عاد إلى المزاح بأسرع ممّا توقّعت. أردف باورمان ضاحكا:

- لو أنّك لم تعتذري اليوم، كنت أنا لأفعل! التّظاهر بالجدّيّة لثلاثة أيّام كان عقابا كافيا.. ألا تعتقدين ذلك؟ لقد تعلّمت الدّرس!

ضحكت رغما عنها.

- لقد كنت مرعبا، أليس كذلك؟

كانت مازالت تصارع رغبة الضّحك، فأومأت برأسها في صمت وهي تعضّ على شفتيها. واصل باورمان:

- إليك الاقتراح.. نتحدّث الألمانيّة في مكتبي.. والإنجليزيّة أمام الآخرين.. هل اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

-٢٣-

كانــت الأجــواء حماسـيّة في المركــز منــذ بدايــة الأســبوع، والجميــع يتحـدّث دون انقطاع عـن رحلـة التزلّـج المرتقبـة. كانـت ليـلى تبتسـم دون حمـاس. لـم تكـن تـدري مـا الـذي تخفيـه لهـا تلـك الرّحلـة، لكنّهـا كانـت تعيـش نوعـا آخـر مـن الترقّـب. تجربـة تعنيهـا وحدهـا.

كان باورمـان قـد الـتزم بالاتّفـاق. كان يبـدو أكـثر جديّـة حـين يخاطبهـا أمـام الآخريـن بالإنجليزيـة، ويقتـصر مزاحـه عـلى الألمانيّـة في المكتـب!

يـوم الجمعـة، بعـد انتهـاء الـدّوام، كانـت الحافلـة الخاصّـة بالرّحلـة متوقّفـة أمـام مبـنى المركـز. خـلال نصـف سـاعة، كانـت الحقائـب قـد عبّئـت وانتظـم الـرّكاب في مقاعدهـم. كانـت البدايـة مقلقـة بالنّسـبة إلى ليـلى. الحافلـة سـتنطلق عنـد السّـاعة السّادسـة مسـاء، ليسـتمرّ السّـفر لمـدّة ثـلاث سـاعات. لـم يكـن السّـفر ليـلا أمـرا مريحـا. كان لاوعيهـا يربــط العوامـل بالذّكـرى السّـابقة بشـكل آليّ.

جلســت إلى جــوار سوســن، وأخــذت زميلتهــا تتحــدّث بحمــاس عــن تجربتهـا الأولى للتزلّـج الـتي لـم تحصـل بعـد! تسـاءلت ليـلى، هـل تراهـا تجيـد التزلّـج؟ لا شـكّ أنّهـا تفعـل. هـل يمكـن أن تقيـم في سـويسرا طيلـة حياتهـا ولا تفعـل؟ لقـد نسـيت أن تسـأل والدهـا! فكـرت في سـخرية، لـن تعـرف حـتّى تقـف بنفسـها عـلى الحلبـة!

بـدا الأمـر محرجـا، حـين تجـوّل أحـد المشرفـين بـين المقاعـد، يجمـع أسـماء المسـافرين ويسـجّل درجـة خبراتهـم في التزلّـج! قالـت ليـلى في ضيـق:

ـ مـضى وقـت طويـل منـذ تزلّجـت آخـر مـرّة.. ربّمـا أكـون نسـيت! هـل

يمكـن أن أكـون مـع المبتدئـين؟

طالع الرّجل أوراقه ثمّ قال معتذرا:

ـ فرقـة المبتدئـين تخـصّ مـن لـم يسـبق لـه التزلّـج عـلى الإطـلاق.. وعددهـم كبـير في الحقيقـة، أكـثر ممّـا تسع المجموعـة! لذلـك سـأضطرّ إلى تسـجيل اسـمك مـع الفرقـة المتوسّـطة.. هـل يناسـبك هـذا؟

أومـأت دون اقتنـاع. تطلّعـت إلى الجـدول في فضـول، بينمـا أصغـت إلى المـشرف يواصـل:

ـ لا تخـشي شـيئا، ستسـتعيدين قدراتـك سريعـا مـا أن تجـدي نفسـك عـلى الحلبـة.. وربّمـا تطلبـين الانتقـال إلى الفرقـة المحترفـة لاحقـا!

كان اسـم باورمـان ضمـن فريـق المحترفـين. ابتسـمت شـاكرة وهمسـت لنفسـها سـاخرة. لا بـأس بالفرقـة المتوّسـطة أبـدا.. سـيكون ذلـك كافيـا في الوقـت الحـالي.

غـادرت الحافلـة شـوارع هامبـورغ وانعطفـت باتّجـاه الطريـق الجبـليّ، عـلى أصـوات الـرّكّاب المرتفعـة بالغنـاء. كان المنشّـط قـد اقـترح لعبـة مسـلّيّة، بحيـث تتـداول كلّ مجموعـة عـلى الغنـاء، بلغتهـا الأمّ، عـلى أن تكـون أغنيـة حماسـيّة!

اسـتمرّت موجـة الغنـاء، بالألمانيّـة أوّلا، ثـمّ بالفرنسـيّة والإيطاليّـة والإنجليزيّـة، وقـد كانـت اللّغـات كلّهـا مفهومـة بالنّسـبة إلى ليـلى.. ثـمّ جـاء دور الصّينيّـة والرّوسـيّة والتّركيّـة، وأصبحـت المفـردات مجهولـة تمامـا! ثـمّ توقّـف الرّتـل عنـد الفريـق العـربيّ. خلافـا للفـرق الأخـرى، كان العـرب ينتمـون إلى بلـدان مختلفـة، وذات إرث حضـاريّ وثقـافيّ متبايـن. لـم تكـن ليـلى تهتـمّ بمسـألة الغنـاء واختيـار الأغنيـة الـتي يجـدر بالفريـق أداؤهـا، فثقافتهـا الشـخصيّة أوروبيّـة بالأسـاس، وانتماؤهـا التّونـسيّ حديـث. لذلـك لـم تكـن ذاكرتهـا تسـتحضر شـيئا، باسـتثناء النّشـيد

الوطنيّ وبعض المقاطع الثّوريّة التي كانت تردّد في المظاهرات! كان الخلاف قائما بين سوسن ونجاة. وبينما كانت الفرق الأخرى تنشد، استمرّ الجدال بين المرأتين. كانت سوسن ترى أنّ مصر هي الأكثر إشعاعا بين بلدان الوطن العربيّ من حيث التّأثير والانتشار الفنّيّين، لذلك من البديهيّ أن يتمّ اختيار أغنية مصريّة! بينما اعترضت نجاة بضراوة.. لم يكن ذلك سببا كافيا في نظرها لطمس هويّة باقي أفراد المجموعة!

بعد نقاش حادّ، قرّرت كلّ منهما أن تؤدّي أغنيتها منفردة، فاختارت سوسن أغنية شبابيّة موقّعة، بينما عبّرت نجاة عن ثوريّتها بأغنية «آمال المثلوثي» التّونسيّة: أنا حرّ وكلمتي حرّة!

كان كلّ ذلك اللّغط ملهيا بالنّسبة إلى ليلى. أن تجد ما يشغلها عن هواجسها طيلة الرّحلة، فلا تحدّق في الظّلام الذي سحب رداءه على المشاهد الجبليّة الموحشة التي تحفّ الحافلة من الجانبين. اكتفت بالمتابعة دون تدخّل في مجريات النّقاش.. كان ذلك قبل أن تنقطع الأجواء الاحتفاليّة بشكل مفاجئ، مع اهتزاز الحافلة في حركة حادّة وغير متوقّعة.

توقّفت الحافلة على جانب الطّريق، مطلقة إشارة الطّوارئ الضّوئيّة، ونزل السّائق والمشرفون لاستطلاع الوضع. ثمّ سرعان ما صعد أحدهم ووجّه رسالة مطمئنة إلى الجميع. كانت إحدى العجلات قد انفجرت. لا شيء يدعو إلى القلق، سيتمّ تغييرها خلال وقت قصير. لذلك على الجميع النّزول الآن والانتظار جانبا.

نزل المسافرون واحدا بعد الآخر، وتجمّعوا في المساحة المضاءة أمام الحافلة. كانت مخروطات بلاستيكيّة برتقاليّة قد صفّفت لتحيط بالمنطقة، وتخطر السيّارات المارّة بوقوع الحادثة. وقفت ليلى في

توتّـر، تتنقـل نظراتهـا في ذعـر بـين العربـات المسرعـة الـتي تطـوي الطّريـق المنحـدرة صعـودا ونـزولا عـلى يمينهـا، والجـرف السّـحيق الـذي لا يُـرى قـراره عـن شـمالها. ثـمّ أخـذ تنفّسـها يضطـرب وأوصالهـا ترتجـف. اقتربـت منهـا سوسـن في قلـق:

- ليلى، أنت بخير؟

أومـأت بابتسـامة واهنـة. لكنّهـا لـم تكـن بخـير. تشـبّثت بـذراع سوسـن لتوقـف ارتجـاف أطرافهـا، لكـنّ مخاوفهـا لـم تخمـد. حدّقـت خـلال الأجمـات المظلمـة الـتي تغطّـي جوانـب المنحـدر، فـرأت نقاطـا حمـراء لامعـة تلـوح لهـا مـن بعيـد! شـدّت ذراع سوسـن بقـوّة حـتّى تأوّهـت.

- ما الأمر؟

- انظري هناك.. هل ترين عيون الذّئاب الحمراء؟

كان صوتهـا مرتعشـا، ووجهـا شـاحبا. أطلّـت سوسـن إلى حيـث أشـارت ليـلى ثـمّ قالـت ضاحكـة:

- لا أرى إلّا أضواء السيّارات البعيدة في سفح الجبل!

لكـنّ ليـلى لـم تهـدأ. شـعرت أوّلا بالـبرد يلفّهـا. كانـت محطّـة التزلّـج قـد غـدت قريبـة، عـلى مسـافة سـاعة ربّمـا. وهـواء المنطقـة ثلجـيّ، وإن لـم يكـن الثّلـج عـلى مرمـى البـصر بعـد. فجـأة أصبـح تنفّسـها عسـيرا وصدرهـا ثقيـلا. كنـت تشـعر بالاختنـاق وبأطرافهـا تتجمّـد. فزعـت سوسـن، وهـي تراهـا تشـهق طلبـا للأكسـجين، ويـزداد ارتجافهـا. هرولـت بسرعـة ونـادت الدكتـور فـوزي الـذي كان يقـف عـلى مقربـة.

- ليلى ليست بخير!

عاينها فوزي في قلق ثمّ صرخ بصوت عالٍ:

- هل هناك طبيب هنا؟ أو شخص يستطيع المساعدة؟

التفت الجميع في فضول وقلق، لكنّ أحدا لم يلبّ النّداء. ما من طبيب. اقترب باورمان في اهتمام، تطلّع إلى وجه ليلى الباهت وعينيها الغائرتين ثمّ قال جازما:

ـ إنّها حالة رهاب!

ثمّ أشار إلى سوسن:

ـ خذيها إلى داخل الحافلة رجاء!

صعدت البنتان إلى الحافلة عائدتين إلى مقعديهما، ثمّ تبعهما باورمان بعد لحظات. كان يحمل بطّانيّة وإبريقا حافظا للحرارة. أسدل ستائر نافذتها أوّلا والسّتائر القريبة والمقابلة، ثمّ فرد البطّانيّة، ولفّها بها. انحنى باتّجاهها لتصبح عيناه في مستوى عينيها.

ـ تنفّسي الآن.. اتبعي حركتي.. شهيق.. زفير! هكذا!

امتثلت ليلى في استسلام، أخذت تحاول التنفّس بالنّسق الذي يمليه، بينما كانت العبرات تسيل على وجنتيها بلا إرادة منها. بعد دقائق، كان تنفّسها قد انتظم. انكمشت داخل البطّانيّة ولم يزول عنها الارتجاف رغم ذهاب البرد.

ـ اشربي هذا!

كان الوعاء يحوي قهوة دافئة. ارتشفتها في هدوء رغم مرارتها اللّاذعة، وبدأت الدّماء المنسحبة تعود إلى وجهها. سألها في اهتمام:

ـ ما الأمر؟ هل لديك رهاب مرتفعات؟

هزّت رأسها نافية، ثمّ قالت في اضطراب:

ـ تعرّضت إلى حادثة منذ سنوات، على طريق جبليّة في سويسرا.. كنّا عائدين من رحلة تزلّج.. شقيقتي توفّيت في الحادثة.

هزّ رأسه في صمت، ثمّ قال مشجّعا:

ـ ستنسين الحادثة بعد هذه الرّحلة.. سنستمتع كثيرا، اتّفقنا؟

أومـأت ببـطء، بينمـا كان بقيّـة الـرّكّاب يأخـذون مقاعدهـم مـن جديـد. نظـر باورمـان إلى سوسـن وقـال آمـرا:

ـ إذا عاودتها الأزمة أخبريني على الفور!

ثـمّ عـاد بـدوره إلى مقعـده. أسـندت ليـلى رأسـها إلى النّافـذة، وأغمضت عينيهـا. كانـت منهكـة ومفرغـة. سرعـان ما أخـذت حركـة الحافلـة المنطلقة مـن جديـدة تهدهدهـا، فغلبهـا النّعـاس، رغـم القهوة.

أيقظتهـا سوسـن حـين توقّفـت الرّاحلـة عنـد المنتجـع. كانـت لا تـزال تشـعر بالـدّوار. عنـد نزولهـا مـن الحافلـة، ألفـت باورمـان ينتظرهـا.

ـ أنت أفضل الآن؟

ابتسـمت وهـي تعيـد إليـه البطّانيـة والإبريـق. إنّهـا أفضـل، لكـنّ رغبـة الاسـتغراق في النّـوم كانـت تسـيطر عليهـا. لذلـك، مـا إن اسـتلمت مفاتيـح غرفتهـا المزدوجـة وسوسـن، حـتّى غطّـت في النّـوم مـرّة أخـرى، دون تناول وجبة العشـاء.

في الصّباح، شاغبتها سوسن وهما تستعدّان للنّزول إلى المطعم:

ـ لقـد تلقّيــت أمـرا مــن البروفيســور باورمــان بــأن أكــون ممرّضتــك الخاصّــة!

ضحكـت ليـلى. كان مزاجهـا أحسـن بكثـير، بعـد ليلـة نـوم هادئـة. أخـذت سوسـن تقلّـد طريقـة باورمـان المتعاليـة في الحديـث بإيمـاءات مضحكـة، ثـمّ أردفـت:

ـ مغرور ومزعج!

ـ ألا يليق به أن يكون مغرورا؟ بروفيسور، وهو بعد دون الأربعين؟

أغاظتها ليلى متعمّدة، فهتفت سوسن:

ـ طبعا.. تهكّمي كما تشائين! أنت المستفيدة في القصّة!

بعـد الإفطـار، تسـلّم الجميـع بطاقـات الدّخـول إلى محطّـة الرّياضـات الشّـتويّة، ثـمّ توجّهـوا إلى محـلّ اسـتئجار أدوات التزلّـج. اختـارت ليـلى بدلـة تزلّـج مؤلّفـة مـن قطعتـين، معطـف طويـل يصـل إلى ركبتيهـا وبنطـال، ثـمّ أخـذت تجـرّب الأحذيـة السّـميكة، لتجـد المقـاس المناسـب لقدميهـا. وضعـت قفازيهـا الجلدّيـين، قبعتهـا الصّوفيّـة عـلى رأسـها، والنّظـارات عـلى عينيهـا، وانضمّـت إلى مجموعتهـا.

لوّحـت لسوسـن الـتي كانـت تنطلـق مـع مجموعـة المبتدئـين لسـاعات متّصلـة مـن التـدرّب عـلى وضعيّـة «طـرد الثّلـج»، أوّل دروس التزلّـج للمسـتجدّين، عـلى حلبـة شـبه منبسـطة في منطقـة قريبـة مـن المنتجـع. أمّـا المجموعـة المتوسّـطة، فقـد كانـت وجهتهـا الحلبـة الزّرقـاء. أوضـح المـدرّب:

ـ سـنبدأ بالممـرّات الأسـهل، ثـمّ نتـدرّج في نسـق تصاعـديّ.. مـن يشـعر منكـم بالثّقـة، يمكنـه أن يجـرّب الحلبـة الحمـراء بعـد الظّهـر.

كانـت حلبـات التزلّـج توسـم بالألـوان حسـب درجـة انحدارهـا ومسـتوى صعوبتهـا. الحلبـة الزّرقـاء هـي الأبسـط، لا يزيـد انحدارهـا عـن خمـس وعشريـن درجـة، تليهـا الحمـراء بانحـدار أقصـاه أربعـون درجـة، ثـمّ تـأتي الحلبـات السّـوداء، للمحترفـين والمغامريـن.

وقفـت ليـلى أسـفل التلّـة تنتظـر دورهـا لتتعلّـق بالعامـود المعـدنيّ الآليّ الـذي سيسـحبها إلى أعـلى المرتفـع. راقبـت بعينـين مأخوذتـين التلّـة المكسـوّة بطبقـة سـمكها مـتران عـلى الأقـلّ مـن الثلـج المخمـليّ النّاصـع! عـلى مـدّ البـصر، تـرى المتزلّجـين في خـطّ واحـد صعـودا، ثـمّ ينطلقـون مثـل المدافـع المنفلتـة هبوطـا، كلّ حسـب طاقتـه وخبرتـه. الأعمـدة تتقـدّم في مسـار مسـتقيم صعـودا وهبوطـا، ولا تتوقّـف، والمتزلّجـون

يقفـون في صـفّ، يترقّبـون مرورهـا، يتمسّـكون بهـا، ثـمّ يفلتونهـا حـين يصلـون إلى الارتفـاع المناسـب. جـاء دورها، فتمسّـكت بعامودهـا بإحكام، وراقبـت وضعيّـة زلاّجتيهـا، تحـاول إبقاءهمـا متوازيتـين، حـتّى لا يختـلّ توازنهـا. حـين وصلـت إلى المنبسـط الأوّل في منتصـف المسـافة، أفلتـت العامـود كمـا أوصى المـدرّب. والآن، أصبحـت تسـتقبل المنحـدر الأبيـض بجسـدها كلّـه.

استعدّت، وجّهـت الزّلاجتـين نحـو مسـار الانـزلاق، انحنـت إلى الأمـام وغرسـت عكّازيهـا في الثلـج لتمنـح جسـدها دفعـة قويّـة، وانطلقـت! كان انتباههـا بدايـة منصبّـا عـلى زلّاجتيهـا، تهتـمّ بـألا تتباعـدا أو تتقاربـا أكـثر مـن الـلّازم، ثـمّ رفعـت رأسـها، تستكشـف الأخطـار المحيطـة بهـا وتتجنّـب حـوادث الاصطـدام.. وسريعـا مـا نسـيت كلّ ذلـك، حـين ملأهـا إحسـاس التّحليـق نشـوة!

قبـل أن تصـل إلى أعمـاق التّجربـة، كانـت قـد وصلـت إلى السّـفح! كبحـت سرعتهـا قبـل أن ترتطـم بشـبكة الحمايـة، وجـرّت قدميهـا إلى أعمـدة السّـحب. رفعـت نظراتهـا إلى أعـلى التلّـة وهـي تترقّـب دورهـا. قـرّرت بسرعـة. لـم تكـن المسـافة كافيـة. سـتصعد أكـثر.

مـن أعـلى الحلبـة الزّرقـاء انطلقـت هـذه المـرّة. لـم تحتـج أن تراقـب زلّاجتيهـا مـرّة أخـرى. كانـت تنزلـق مثـل متزلّجـة محترفـة. لا شـكّ أنّهـا قـد تزلّجـت طيلـة حياتهـا! طـارت عـلى الحلبـة، في مسـارات متعرّجـة، تنحـني يمنـة أو يـسرة لتضـع ثقلهـا عـلى إحـدى قدميهـا وتغـيّر اتّجاههـا بمرونـة، ثـمّ تعتـدل لتخفّـض مـن سرعتهـا وتمتّـع عينيهـا بجاذبيّـة المشـهد، أو تثـني ركبتيهـا لتقـترب مـن الأرض كلّمـا أرادت أن تزيـد اندفاعهـا في المسـارات المسـتقيمة. كانـت تتحـرّك بعفويّـة وتسـتعيد خـبرات منسـيّة، وتسـتمتع!

بسرعـة، قـرّرت أنّ عليهـا تجربـة الحلبـات الأكـثر صعوبـة. لقـد عرفـت الآن أنّهـا ليسـت مبتدئـة عـلى الإطـلاق! كانـت تحتـاج أن تحلّـق أعـلى، أن ترتفـع عـن الأرض وتقفـز فـوق الكثبـان! فكّـرت، لا فائـدة مـن المـرور بالحلبـات الحمـراء، سـتتّجه مبـاشرة إلى السّـوداء!

تجاهلـت المـدرّب والمجموعـة المتوسّـطة الـتي كانـت تكـرّر الهبـوط مـن المنبسـط الأوسـط عـلى الحلبـة الزّرقـاء، ومشـت في اتّجـاه الغـرف الزّجاجيّـة المتسـلّقة. صعـدت إلى الغرفـة، مـع عـدد مـن الأشـخاص، وقد غمرتهـا الحماسـة وتسـارع وجيـب قلبهـا. حدّقـت في قامـات المتزلّجـين الـتي أخـذت تتصاغـر وتتكمـش كلّمـا ابتعـدت الغرفـة في اتّجـاه القمّـة، حـتّى صـارت مجـرّد نقـاط متناثـرة عـلى امتـداد الجبـل.

إنّهـا الآن في القمّـة. الحلبـة أسـفل منهـا طويلـة ووعـرة. انتابهـا الـتردّد. هـل هـي مسـتعدّة حقّـا لتجـرّب الحلبـة الأكـثر انحـدارا؟ مـاذا لـو فقـدت توازنهـا؟ طمأنـت نفسـها عـلى الفـور، إنّهـا تعـرف التّقنيـات كلّهـا، كيـف تزيـد مـن السّرعـة وكيـف تكبـح اندفاعهـا، كيـف تلتـفّ وتـراوغ في مسـارات متعرّجـة، وكيـف تتوقّـف أيضـا إذا مـا وجـدت المنعطـف حـادّا وغـير مريـح. ثـمّ مـاذا لـو سـقطت؟ إنّ عمـق الثلـج كافٍ لتكـون وقعتهـا مريحـة وبـلا ضرر! إنّهـا مسـتعدّة. يكفيهـا أن تفكّـر الآن في تحليقهـا المرتقـب، مثـل صقـر جبـل ينقـضّ عـلى فريسـته! اتّسـعت ابتسـامتها، ووقفـت في وضعيّـة الانطـلاق.. ثـمّ أفلتـت العنـان لزلّاجتيهـا.

لقـد كان الطّـيران مـن ذلـك الارتفـاع مدوّخـا! اسـتقبلتها هبّـة ريـح عنيفـة، تكاتفـت مـع سرعتهـا الجنونيّـة لتفقدهـا إحساسـها بـالأرض تحتهـا وبالعكّازيـن بـين كفّيهـا! لـم تكـن تتوهّـم. إنّهـا تطـير! أطلقـت صيحـة منتشـية، ثـمّ حطّـت زلّاجتاهـا عـلى الثّلـج بخفّـة. لكنّهـا لـم تكتـف. جذّفـت بقـوّة لتنطلـق مجـدّدا، في اتّجـاه السّـماء، رغـم المنحـدر النّـازل! إن كان للحريّـة مـرادف مـاديّ، فهـو مـا تعيشـه الآن!

علـى بعـد مائـة مـتر، كان هنـاك شـخص يلـوّح لهـا، ويشـير باتّجـاه المنزلـق. كانـت تقـترب منـه بسرعـة. لـم يكـن بوسـعها التوقّـف. تفرّسـت في ملامحـه المغطـاة بالكامـل تقريبـا بالقبعـة والنظـارة والوشـاح. باورمان؟ رفعـت كفّهـا لتلـوّح لـه بدورهـا، ثـمّ اسـتدارت لتواصـل مسـارها. لكنّهـا انتبهـت في تلـك اللّحظـة إلى مـا كان يشـير إليـه. كان المنعطـف الـذي أمامهـا يضيـق في آخـره، ويتحـوّل اتّسـاعه السّـابق إلى جـدار ثلجـيّ! لقـد فهمـت متأخّـرة مـا عنـاه. كان يأمرهـا باتّخـاذ المسـار الأيمـن! لكـنّ الأوان قـد فـات الآن لتغـيّر خـطّ انزلاقهـا. كانـت الكثبـان ترتفـع عـلى الجانبـين، والجـدار ينتظرهـا! مالـت إلى المضيـق المفتـوح، المسـار الوحيـد الممكن، وحاولـت كبـح سرعتهـا. لكـنّ الانحـدار شـديد، والأرض وعـرة، كأنّ سـمك الثلـج هنـا أقـلّ مـن المناطـق الأخـرى! قرّبـت زلاجتيهـا مـن بعضهمـا بعضـا، وجمعـت كفّيهـا أمامهـا، لتمنـع الاحتـكاك بالجـدار وهـي تعـبر المضيـق. يمكنهـا أن تفعـل ذلـك.

لقـد مـرّ كلّ شيء كمـا خطّطـت. ضبطـت مسـارها لتكون وسـط المضيق تمامـا، دون احتـكاك، وهنّـأت نفسـها عـلى البراعـة الـتي أبدتهـا في اجتيـاز الأزمـة. كان ذلـك قبـل أن تنحـرف زلاجتهـا اليمـنى بعـد اصطدامهـا بقطـع حجـارة تفـرش أرض المضيـق، فيرتـدّ جسـدها كلّـه ليصطـدم بالجـدار! فقـدت توازنهـا، ووقعـت عـلى جانبهـا الأيمـن، ولـم تتوقّـف عـن الانزلاق! هـذه المـرّة، لـم يكـن هنـاك مفـرّ مـن الارتطـام بالكثبـان الثّلجيـة الـتي ابتلعتهـا تمامـا.

-٢٤-

سـمعت طرقـات عـلى بـاب غرفتهـا. قالـت دون أن ترفـع رأسـها عـن كتابهـا:

ـ نعم؟

دارت الأكـرة ودُفعـت الدّفـة، ثـمّ أطلّـت حنـان بابتسـامة واسـعة. رمتهـا ليـلى بنظـرة عابـرة وقالـت بـبرود:

ـ تريدين شيئا؟

ـ ما رأيك أن نلعب لعبة؟

هـزّت ليـلى حاجبيهـا وهـي مركّـزة بعـد عـلى قراءتهـا، ولـم يبـد عليهـا الاهتمـام. لكـنّ حنـان اقتربـت حـتّى وصلـت عنـد سريرهـا وواصلـت بحمـاس:

ـ نتبادل الأدوار!

أطلقت ليلى ضحكة ساخرة وقالت:

ـ هـل رأيـت هـذا في شريـط سـخيف؟ توأمـان تتبـادلان الأدوار وتسـخران مـن الجميـع؟ اعذريـني يـا عزيـزتي.. ليـس في حياتـك شيء يغريـني بالتّبـادل!

لكنّ حماس حنان لم يفتر. تابعت في إصرار:

ـ ليومـين فقـط! نمـرح قليـلا بينمـا نحـن في محطّـة التزلّـج، ثـمّ تسـتعيد كلّ منّـا هويّتهـا في نهايـة الرّحلـة!

قلّبـت ليـلى الفكـرة في رأسـها. إنّهمـا متطابقتـا الملامـح تقريبـا، غـير أنّ حنـان تضـع الكثـير مـن المسـاحيق، بينمـا تكتفـي هـي بملمّـع الشّـفاه

وخـط العـين. هـي تضـع نظّـارة طبيّـة، بينمـا حنـان تضـع عدسـات لاصقـة ملوّنـة، بغـرض الزّينـة لا أكـثر. لا يمكنهـا أن تجـزم بلـون عينيهـا الحقيقـيّ. الشّـعر، في نفـس الطّـول تقريبـا، ونفـس الانسـياب.. شـعرها أطـول قليـلا، لكنّهـا ترفعـه معظـم الوقـت، بينمـا تسـدله حنـان عـلى كتفيهـا. يمكنهـا أن تقـصّ أطرافـه بضـع سـنتميترات، ليكـون الطّـول مناسـبا. توقّفـت. لكـن مـا جـدوى هـذا؟ إنّهـا لا تسـتمتع أصـلا بالتّواجـد إلى جـوار حنـان وزوجهـا، فلمـاذا تتعـنّى لخـوض التّجربـة؟ قالـت أخـيرا:

ـ لست مهتمّة!

ضربت حنان بقبضتيها على ركبتيها في احتجاج، ثمّ تبدّلت لهجتها:

ـ تعجبـك حياتـك المهمّـة؟ دون أصدقـاء ولا علاقـات؟ اعـترفي، أنـت تسـتكثرين عـليّ فـراس، لأنّـني تزوّجـت قبلـك! ولأنّـك غـير مرغوبـة، جدّيّـة أكـثر مـن الـلّازم ومملّـة!

حدجتهـا ليـلى بنظـرة صارمـة، رغـم أنّ كلماتهـا لـم تجانـب الصّـواب تمامـا. اسـتفزّتها. لكنّهـا نجحـت في السّـيطرة عـلى أعصابهـا. لـن تنـال منهـا مـا تريـد. تلـك الفتـاة المدلّلـة وعديمـة الفائـدة! إنّهـا تتسـاءل حقّـا، منـذ عرفتهـا، كيـف تزوّجهـا فـراس؟ هـذا شيء لا يسـعها اسـتيعابه مهمـا حاولـت! قالـت في بـرود:

ـ عودي إلى غرفتك، ودعيني لحياتي المملّة!

انسـحبت حنـان أخـيرا، بعـد أن يئسـت مـن محاولتهـا. كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت التّاسـعة مسـاء. الحيـاة في المنتجـع خاملـة في المسـاء. بعـد العشـاء، يـؤوي كلّ منهـم إلى غرفتـه، ثـمّ يسـتيقظون مبكّـرا، لاسـتقبال شروق الشّـمس مـن الشّرفـات. كانـت ليـلى تفكّـر في الخلـود إلى النّـوم، حـين عـادت حنـان مـرّة أخـرى. كانـت تحمـل في يمناهـا زجاجـة عصـير وفي يسراهـا كوبـا طويـل العنـق. قالـت وهـي تطـرق إلى الأرض في حـرج

وتغمغم معتذرة:

ـ لقد كنت وقحة قبل قليل.. ما رأيك لو نتصالح؟

ابتسمت ليلى رغما عنها. تلك الفتاة، إنّها توأمها.. لكنّها طفلة حقا! تصالحها بكوب عصير؟ لِمَ لا؟ جلست حنان على طرف سريرها، ومدّت إليها كوبا ملأته للتوّ. تذوّقت ليلى المشروب، ثمّ سألت:

ـ عصير ماذا؟ إنّ مذاقه غريب!

قلّبت حنان الزّجاجة بين يديها، كأنّما تبحث عن قائمة المكوّنات:

ـ حقّا؟ إنّه مزيج من الفواكه.. جوافة ومانجو وخوخ.. ربّما كان طعم المانجو؟

مطّت ليلى شفتيها في استغراب، لكنّها واصلت احتساء مشروبها. قبل أن تنهي ثلثي الكوب، شعرت بثقل في رأسها، وأوشك الكوب أن يفلت من يدها. امتدت كفّ حنان لتأخذه عنها على الفور وهي تقول بابتسامة واسعة:

ـ تشعرين بالنّعاس، أليس كذلك؟ تمدّدي.. واسترخي!

استسلمت ليلى. كانت عيناها نصف مغلقتين، لكنّها ما عادت تقدر على رفع ذراعيها أو تحريكها. كانت تشعر بحركة حنان حولها، رغم حواسّها شبه المعطّلة. اقتربت، وبيدها المقصّ، فردت شعرها على كتفيها وأخذت تقصّ أطرافه بعناية. قالت مطمئنة:

ـ لا تقلقي.. ستكون قصّة شعري جميلة عليك!

بعد ذلك، نزعت حنان عدسات عينيها وأخذت تثبّتها في عيني ليلى. تدسّ إصبعها في بؤبؤها وترفع جفنيها بقسوة. لم تكن ليلى تستطيع الحركة أو الاحتجاج، لكنّ العبرات انسالت على وجنتيها في عجز، بينما لم يبد أنّ حنان ستنتهي من مهمّتها قريبا! استمرّت تُنَكِّرها في هيئتها، قليلا قليلا. بعد الشّعر والعينين، مرّت إلى أصباغ

الوجـه، ثـمّ طـلاء الأظافـر، انتهـاءً بتبديـل ملابسـها. لـم تنـس شـيئا. ثـمّ اهتمّـت بتنكّرهـا هـي. رفعـت شـعرها، مسـحت وجههـا، ووضعـت نظّـارة ليـلى الطبيّـة عـلى أنفهـا، ثـمّ أخـذت تتأمّـل وجههـا في المـرآة وتضحـك.

ـ هكذا تبدو الطّالبات المجدّات إذن!

ثمّ تنحنحت، وتظاهرت بالجدّيّة.

ـ ليـس مـن العسـير تمثيـل دور الفتـاة العاقلـة.. لكنّـني اعتقـدت أنّ تمثيـل الجنـون سـيكون مهمّـة صعبـة! لذلـك أردت مسـاعدتك! العصـير، إنّـه يحـوي جرعـة مميّـزة.. مزيـج مـن أدويـة الأعصـاب والمسـكّنات الـتي أتناولهـا في المصـحّ. لـن يشـكّ أحـد في جنونـك في الغـد! لكـن يـا للأسـف، لـن يكـون بإمكاننـا مواصلـة الرّحلـة، حـين تبـدأ نوبـة جنونـك الأولى! سـيكون علينـا أخـذك إلى المصـحّ عـلى الفـور!

ثمّ أطلقت ضحكة مجنونة.

***

فتحـت ليـلى عينيهـا مفزوعـة. إنّهـا في سريرهـا. في المنتجـع. عـلى السّريـر المجـاور ترقـد سوسـن. تذكّـرت بسرعـة. الحادثـة. لقـد فقـدت وعيهـا بعـد ارتطامهـا بكثبـان الثّلـج. والآن.. إنّهـا تذكـر كلّ شيء! دون تفكـير، تناولـت هاتفهـا، واتّصلـت بالرّقـم الأوّل الـذي خطـر ببالهـا.

رنّ هاتـف فـراس في إلحـاح. فتـح عينيـه متثاقـلا. الهاتـف. تطلّـع إلى السّـاعة. الثانيـة صباحـا! ثـمّ طالـع الرّقـم الأجنـبيّ، وأجـاب عـلى الفـور. جـاءه صوتهـا مرتجفـا وتنفّسـها مضطربـا:

ـ لقد تذكّرت كلّ شيء!

ـ ليلى؟

ـ إنّها حنان! لقد وضعت لي مخدّرا ومزيجا من أدوية الأعصاب في العصير.. وتنكّرت في شكلي، وجعلتني أبدو مثل شكلها!

استمع إليها في ذهول، ثمّ أخذت ذاكرته تستعيد الصّور تدريجيّا. في تلك اللّيلة، أصيبت حنان بحالة من الهستيريا. لقد كانت بخير حتّى تلك اللّحظة. بدت شبه معافاة في الفترة الأخيرة، ممّا سمح برحلة التزلّج. لكنّ تلك الأزمة المفاجئة أفسدت كلّ شيء. خرجت حالتها عن السّيطرة، وكان عليهم أخذها إلى أقرب مصحّ في ساعة متأخّرة. كانت ليلى تواصل وقد تهدّج صوتها نحو البكاء:

ـ الدّواء، جعلني أفقد السّيطرة على حواسّي.. وأعصابي.. لقد كنت في حالة من الهستيريا، ولم أكن حتّى أستطيع أن أنظّم أفكاري أو أعبّر بشكل سليم.. تلك العبارة.. سنموت جميعا.. لقد كنت أردّدها دون توقّف!

لقد كانت ليلى، المصابة بالهستيريا.. وكانت حنان، من جاء إلى غرفته تلك اللّيلة! قال مهدّئا:

ـ جيّد.. لقد تذكّرت كلّ شيء.. لقد عرفنا الآن ما الذي حصل تلك اللّيلة.

لكنّها كانت قد استسلمت للبكاء وارتفع نشيجها. لبث يطمئنها:

ـ لقد انتهى كلّ شيء.. لا مزيد من الكوابيس بعد الآن. لا ذنب لك في الأمر.

ـ أنا آسفة.

همست فجأة باعتذارها ثمّ أغلقت الخطّ.

استلقى فراس على سريره وابتسم. كان ممتنّا لاتّصالها، رغم أنّه يدرك يقينا أنّها لم تكن تعي ما تفعل. لقد استيقظت من كابوسها، واتّصلت دون تفكير بالشّخص الوحيد الذي شاركته سرّ كوابيسها.

لـو أنّهـا فكّـرت للحظـة واحـدة، لمـا اتّصلـت! السّـاعة تشـير إلى الثانيـة والرّبـع. إنّهـا تلـوم نفسـها الآن، دون شـكّ!

لكنّـه يشـعر بالارتيـاح. لقـد حسـب طيلـة الوقـت أنّ ليـلى هـي الـتي طرقـت بـاب غرفتـه السّـاعة العـاشرة مسـاء، تلـك اللّيلـة! كيـف لـه ألّا يخلـط بينهمـا، وهـي ترتـدي نظّـارة ليـلى، وشـعرها مرفـوع عـلى طريقتهـا، وترتـدي نفـس الملابـس الـتي كانـت عليهـا وقـت العشـاء؟ لكـنّ الأسـلوب لـم يكـن أسـلوب ليـلى.. لكـن في تلـك اللّحظـة، أنّى لـه أن يمـيّز؟!

حين فتح الباب، فوجئ بوجودها. قالت بأسلوب جادّ:

ـ هل يمكن أن نتحدّث؟

ثـمّ اقتحمـت الغرفـة دون أن تنتظـر ردّه. قالـت وهـي تجلـس عـلى الأريكـة، قـرب الشّرفـة:

ـ لقـد فكّـرت كثـيرا، لكنّـني لـم أجـد جوابـا شـافيا.. أنـت وحنـان لا يليـق أحدكمـا بالآخـر عـلى الإطـلاق! إنّهـا مدمنـة، مجنونـة.. وأنـت طالـب مجتهـد، تأخّـر تخرّجـك مـرّة بعـد مـرّة بسـببها.. وهـذا مثـير للشّـفقة!

تحوّلـت انفعالاتـه مـن الدّهشـة إلى الاسـتنكار ثـمّ إلى الغضـب. كيـف تسـمح لنفسـها؟ كان لا يـزال عنـد البـاب، أشرع الدّفّـة وأشـار بصرامـة:

ـ هـلّا غـادرت الغرفـة رجـاء؟ لا أريـد أن أتحـدّث معـك في هـذا الموضـوع!

ـ لكنّـك لـم تـردّ عـلى سـؤالي؟ هـل هـو الـتزام أخـلاقيّ؟ واجـب عائـليّ؟ شـهامة؟ مـا الـذي يبقيـك إلى جوارهـا؟

ـ هذا ليس من شأنك! انصرفي رجاء!

وقفـت في امتعـاض، وسـارت ببـطء في اتّجـاه البـاب. وقفـت أمامـه قبـل مغادرتهـا وقالـت بلهجـة مهدّدة:

ـ تذكّـر أنّـني قـد طرحـت عليـك السّـؤال.. وأنّـك رفضـت الـرّدّ! لذلـك لا

تلمـني عـلى مـا سـيحصل لاحقـا!

بعـد سـاعتين، اسـتيقظ المنتجـع كلّـه عـلى نوبـة حنان/ليـلى الهسـتيريّة. ولـم يعلـم أبـدا أنّ حنـان مـن كانـت عنـده! لقـد كانـت تحتـاج أن يطمئنها وحسـب. كانـت تريـد أن تعـرف إن كان يحبّهـا، أم تزوّجهـا عـلى سـبيل الشّـفقة أو الإجبـار! شـعر بالتّعاسـة. لقـد ضـنّ عليهـا بكلمـة ربّمـا كانـت تعـني لهـا الكثـير، وربّمـا منحتهـا بعـض العـزاء قبـل موتهـا! تدحرجـت عـبرة عـلى جانـب وجهـه واسـتقرّت عـلى الوسـادة. لكنّـه لـم يعـرف! لـم يعـرف أنّهـا هـي!

في الصّبـاح، اتّصـل بنجيـب. لـم يكـن قـد نـام جيّـدا، وتجـلّى الإرهـاق في صوتـه. دردشـا لبعـض الوقـت، مثـل العـادة، قبـل أن يقـول فـراس في جدّيـة:

ـ عمّي نجيب.. هل يمكن أن أطلب منك شيئا؟

ـ طبعا.. تفضل!

ـ إذا اتّصلـت ليـلى، مـن الآن فصاعـدا، لا تخبرهـا بـأيّ شيء يخصّـني.. إلّا إذا سـألت.

لـم يسـتوعب نجيـب مغـزى الطّلـب. لقـد كان يحدّثهـا كلّ مـرّة عـن زيـارات فـراس واتّصالاتـه، بشـكل عفـويّ، كمـا يحدّثهـا عـن بـاقي أحـداث يومـه. لكنّـه يفعـل ذلـك متعمّـدا، لأنّـه يـدرك اهتمام ابـن خالهـا لأمرها.. ويتمـنّى لـو أنّهـا تهتـمّ أيضـا. لكـنّ طلـب فـراس لـم يكـن مفهومـا عـلى الإطـلاق.

ـ هل حصل شيء؟ هل اتّصلت بك؟

ـ ليس تماما.. لقد اتّصلت على وجه الخطأ.

ـ على وجه الخطأ؟ ماذا قالت؟

ـ سـتخبرك بنفسـها لاحقـا. لكنّـني أعتقـد أنّ الأفضـل بالنّسـبة إليهـا الآن

أن أختفي من الصّورة.. إنّها بحاجة إلى بعض السّلام النّفسي.. وكلّ ما حصل في الفترة الأخيرة يشكّل ضغطا عليها.

لم يفهم نجيب شيئا! لكنّه جارى فراس، وهو يخطّط للاستفسار من ليلى حين تتّصل لاحقا. سأله في فضول:

ـ هل تريد أن تعرف إن كانت تسأل؟

فكّر فراس لبرهة، ثمّ قال في حسم:

ـ لا.. سينطبق الأمر عليّ أيضا. لا تخبرني شيئا، إلّا إذا سألت!

ـ هل تفكّر في شيء محدّد؟

ضحك فراس. لم يكن واثقا ممّا يفعله. تحدّي إرادة؟ يختبر اهتمامها؟ يعطيها مساحة لتتأكّد من مشاعرها؟ أم يساعدها على نسيانه، ونسيان تجربة التباس هويّتها؟ ألم تسافر لتهرب وتنسى؟

ـ ليس بالضّبط.. إنّه مجرّد خاطر!

***

نزلت إلى مطعم المنتجع حوالي السّادسة صباحا. كانت تتضوّر جوعا. لم تكن قد أكلت شيئا منذ صباح الأمس. بعد إغماءتها القسريّة بين كثبان الثّلج، نامت خمس عشرة ساعة متّصلة، استردّت خلالها خلايا ذاكرتها الكثير ممّا كان في عداد المفقودين.

حين استعادت كامل وعيها، اكتشفت ما اقترفته. لقد اتّصلت بفراس! شعرت بالعار يجلّلها. كيف تجرّأت؟ وما الذي يظنّه بها الآن؟ على هاتفها، كان وقت الاتّصال شاهدا على وقاحتها. فكّرت في سخرية، الثّانية صباحا.. وقت مناسب للمخابرات الدّولية!

تناولـت إفطارهـا عـلى مهـل، وقـد تخلّلتـه فـترات لا بـأس بهـا مـن السّرحـان. قبيـل السّـابعة والنّصـف، نزلـت مجموعـة المركـز إلى المطعم. دخـل باورمـان مـع اثنـين مـن زملائـه، وبـدا منهمـكا في روايـة تفاصيـل الحادثـة، للمـرّة العـاشرة ربّمـا منـذ ظهـر الأمـس:

ـ رأيـت قذيفـة مقبلـة في اتّجاهـي.. قذيفـة صاروخيّـة لا يمكـن إيقافهـا، لكـن يمكـن توجيههـا عـلى الأقـل لتصيـب هدفـا أقـل خطـورة.. لوّحـت لهـا وأشرت إلى المسـار الأسـلم.. لكنّهـا لـم تهتـمّ واندفعـت إلى المنزلـق الخطـر.. ومـا هـي إلا ثـوانٍ حـتى كان الارتطـام المـدوّي! انهـارت الكثبـان وردمتهـا تمامـا، لقـد ظللنـا نحفـر في الثّلـج أنـا وإتيـان ربـع سـاعة ربّمـا، حـتّى أخرجناهـا.

في تلـك اللّحظـة، انتبـه إلى وجودهـا في قاعـة الطّعـام، وقـد دفنـت رأسـها في طبقهـا خجـلا. اقـترب منهـا ضاحـكا:

ـ كيف حال قذيفتنا؟ أرى أنّك أصبحت بخير!

قبل أن تردّ، كانت سوسن قد وصلت مهرولة. بادرتها في عتاب:

ـ أنت هنا؟ لقد فزعت حين أفقت ولم أجدك في سريرك!

ـ لا شكّ أنّها كانت جائعة.. لم تأكل شيئا نهار أمس!

كان باورمان يواصل مداعبتها. وقفت معتذرة، وقد التهبت وجنتاها:

ـ سأكون في الخارج، وافيني حين تجهزين.

حملت طبقها وسارت في اتّجاه المخرج. فوجئت به يتبعها:

ـ ما الذي تنوين فعله؟

طالعته في استغراب.

ـ التزلّج!

ـ انـسي الأمـر! تعـالي، عنـدي لـك نشـاط آخـر يناسـب قذيفـة متحطّمـة

علـى جـدار ثلجـيّ!

في الحديقـة الخلفيّـة للمنتجـع، كان هنـاك سريـر شـبكيّ متأرجـح، معلّـق بين شــجرتين.

ـ تفضّلي، سيكون هذا نشاطك الصّباحيّ.. تأمّل السّماء!

ضحكـت. كانـت أطرافهـا موجوعـة بالفعـل، ومفاصلهـا تـئنّ، وصـداع رأسـها لـم يذهـب تمامـا. قـدّرت أنّ الاقـتراح لـم يكـن سـيّئا في نهايـة الأمـر. هنـاك شيء آخـر يمكـن فعلـه في محطّـة رياضـات شـتويّة، غـير التزلّـج! اسـتلقت عـلى السّريـر، وتطلّعـت إلى السّـماء. كانـت زرقتهـا شـديدة الصّفـاء، ولـم تكـن تتخلّلهـا سـوى نـدف بيضـاء متفرّقـة. حدّقـت بعيـدا، وشـعرت ببصرهـا يـسرح ويغـوص في الزّرقـة حـدّ الدّوخـة. سرعـان مـا اسـترخت عضلاتهـا، وأخـذ نسـق الأرجوحـة يهدهدهـا. لـم تشـعر بخطـوات باورمـان وهـو يبتعـد، ليخلّفهـا تحلّـق في عالمهـا.

بهـدوء، أخـذت مشـاهد مـن ذاكرتهـا تنسـاب إلى وعيهـا. راحت تسـترجع ماضيهـا، دون قلـق أو اضطـراب، مثـل شـابّة ناضجـة تسـتعيد مواقـف مـن طفولتهـا ومراهقتهـا، فـلا تثـير فيهـا سـوى الحنـين. كانـت تتسـاءل، هـل يغـيّر اكتشـاف مـا كانـت عليـه شـيئا في حاضرهـا؟ هـل سـيجعلها إرث سـنواتها السّـابقة المسـتردّ تتّخـذ القـرارات بشـكل مختلـف، أو تغـيّر مواقفهـا؟ هـل سـتكون ليـلى أخـرى؟ لكنّهـا، في ذلـك الوقـت، عـلى مـتن أرجوحتهـا، وفي كنـف السّـماء الصّافيـة الـتي تحتضنهـا، لـم تشـعر بـأيّ اختـلاف. لـم تكـن مجـبرة عـلى مواءمـة حاضرهـا مـع المـاضي، لتسـتقيم هويّتهـا. لقـد كانـت مـا كانـت.. وهـي الآن مـا هـي!

في أعماقهـا، كانـت تشـعر بموجـات الارتيـاح تغمرهـا. لـم تكـن مضطـرّة إلى أن تختـار بـين كونهـا حنـان، أو كونهـا ليـلى، أو كونهـا شـخصيّة ثالثـة ولـدت بعـد الحادثـة. لقـد كانـت هـي في كلّ تلـك المراحـل، كلّ منها شـكل مـن أشـكال وجودهـا، تجـلّ مختلـف لمـا تخفيـه أغوارهـا السّـحيقة. وكانت

كلّ مرحلـة تخلّفهـا أكـثر نضجـا وأثبـت قدمـا عـلى مـتن الكـرة الأرضيّـة. هـذا كل مـا في الأمـر. ابتسـمت للسّـماء، وفتحـت ذراعيهـا لتعانـق ذاتهـا القديمـة الجديـدة.

بعـد برهـة، فكّـرت أنّ عليهـا الاتّصـال بوالدهـا. ردّ منـذ الرّنّـة الأولى، وبـدا في صوتـه القلـق. انتابهـا الشـكّ وهـي تصغـي إليـه يسـتجوبها عـلى غـير العـادة:

ـ أنت بخير؟ كلّ شيء على ما يرام؟

ـ هل اتّصل بك فراس؟

اغتنـم نجيـب الفرصـة. لقـد سـألت، إذن بوسـعه أن يخبرهـا دون أن يكـون قـد أخـلّ باتّفاقـه مـع فـراس! قـال بسرعـة:

ـ نعم، لقد اتّصل منذ ساعة.. وقال كلاما غامضا وغير مفهوم!

ـ ماذا قال بالضّبط؟

ـ قال إنّك اتّصلت على وجه الخطأ.

عـلى وجـه الخطـأ؟ كادت ضحكـة سـاخرة تفلـت منهـا. على وجـه الخطأ! لـو أنّهـا شـاءت أن تجـد لنفسـها تبريـرا، لمـا تجـرّأت أن تدّعـي اتّصالهـا عـلى وجـه الخطـأ! لكنّـه أوجـد لهـا عـذرا غريبـا. سـألت في فضـول:

ـ وماذا أيضا؟

ـ طلـب مـنّي ألّا أحمـل إليـه أخبـارك بعـد الآن.. وألا أحمـل إليـك أخبـاره أيضا.

استولت عليهـا الصّدمـة. حسـنا، لقـد كان مـن المفـترض أن يكـون هـذا مطلبهـا هـي منـذ سـفرها، بمـا أنّهـا كانـت تريـد الابتعـاد والنّسـيان. لكـن أن يطلـب فـراس ذلـك، والآن؟ لـم تكـن تجـد تفسـيرا. هـل تـراه يحسـبها قـد تغـيّرت، بعـد أن اسـتعادت ذاكرتهـا؟ أم أنّ ليـلى السّـابقة لا تروقـه؟ تذكّـرت، لقـد كان عدائيّـا في فـترة إقامتهـا الأولى عنـد خالهـا، ولـم تتغـيّر

معاملتـه إلّا حـين عـرف بفقدانهـا الذّاكـرة!

ـ ما الذي حصل بالضّبط؟

حاولت أن تضبط مسار أفكارها، لتقول مبتسمة:

ـ أبي، لقد استعدت ذاكرتي!

ـ ليـلى! هـذا لا يصـدّق! تهانينـا! هـذا أمـر يسـتدعي الاحتفـال! كيـف تشـعرين الآن؟ هـل أنـت بخـير؟ كيـف حصـل ذلـك؟ أخبريـني بـكلّ التّفاصيـل!

أخـذت تقـصّ عـلى والدهـا مغامـرة التزلّـج والارتطـام. ضحـكا طويـلا عـلى نزقهـا وتسرّعهـا، ثـمّ سـألت ليـلى فجـأة:

- كيـف عرفـت أنـذاك أنّ المتوفـاة هـي حنـان، رغـم التنكّـر؟ ألـم يـراودك الشـكّ في هويّـة النّاجيـة مـن التّوأمـين؟

ضحك نجيب وقال ببساطة:

- التنكّـر قـد يكـون مقنعـا حقّـا.. لكـن بعـد الحادثـة اختفـت آثـاره كلّهـا. النّظـارات تحطّمـت، والثّيـاب اسـتبدلت بثيـاب المستشـفى حـين دخلتمـا أنـت وحنـان قاعـات العمليّـات. حنـان رحمهـا الله نزفـت كثـيرا قبـل وصـول النّجـدة، ولـم يكـن إنقاذهـا ممكنـا. وقـد كنـت أنـا أفضلكـم حـالا. وبينمـا كنـت أنـت وفـراس في العنايـة المركّـزة، طَلـب مـنّي تأكيـد هويّـة الجثّـة. كان مـن اليسـير بالنّسـبة إليّ بـدون التنكّـر المربـك أن أمـيّز كلّا منكمـا. لكنّـني احتجـت إلى دليـل مـاديّ قاطـع حـتّى أجـزم في تلـك الظّـروف.. وقـد كانـت آثـار الإبـر عـلى ذراع حنـان ذاك الدّليـل

استـمرّت وصلـة اسـترجاع الذّكريـات المشـتركة ردحـا مـن الزّمـن. رغـم ذلـك، حـين أنهـت الاتّصـال، كانـت أقـلّ ارتياحـا ممّـا كانـت قبلـه. حاولـت أن تسـترجع مـا قالـه فـراس عـلى الهاتـف. لـم يبـد لهـا متغـيّرا أو مختلفا.. لقـد حـاول أن يحتـوي انفعالهـا، تمامـا كمـا كان يفعـل في كلّ مـرّة قصّـت

عليه شيئا من كوابيسها. لماذا إذن؟

ـ ما زلت هنا؟ فتاة عاقلة!

أخرجها صوت باورمان من أفكارها. كان قد رحل منذ ثلاث ساعات، وهي لم تبارح مكانها. استقامت في حرج وقالت في امتنان:

ـ لقد كان نشاطا مفيدا.. شكرا لك!

ـ هل تفكّرين في التزلّج بعد الظهر؟

ـ ربّما.

ـ إذن من الأفضل أن تبقي مع المجموعة.. إن كنت ستجرّبين الحلبة السّوداء مجدّدا.

أومأت في رضا. لكنّها بشكل ما كانت قد فقدت شهيّتها لكلّ شيء. حاولت أن تقنع نفسها. سيكون ذلك للأفضل. ستنسى أمره تماما هذه المرّة.

***

بدا له اتّصال نجيب بعد ظهر اليوم نفسه مثيرا للشّكّ. لكنّه لبّى الدّعوة عن طيب خاطر. طرق الباب على السّاعة الخامسة بعد أن أنهى دوام عمله. فتح نجيب بأسارير متهلّلة ومزاج رائق. خمّن فراس أنّ خبر استرجاع ليلى ذاكرتها قد وصله لا محالة. قاده مضيّفه إلى غرفة المعيشة وجلس على الأريكة قبالته. على الطّاولة المنخفضة كان هناك جهاز حاسب آليّ مفتوح. قال نجيب في حماس:

ـ ليلى أرسلت صورا.. هل تريد أن تراها؟

ثمّ استدرك ضاحكا كمن تذكّر أمرا:

ـ لقـد نسـيت.. أنـت لا تريـد أن تعـرف عنهـا شـيئا! سـأعود بعـد لحظـات.. شـاي؟

أومـأ فـراس بابتسـامة. بعـد أن اختفـى نجيـب في المطبـخ، حانـت منـه التفاتـة عابـرة، فوقعـت عينـاه عـلى شاشـة الحاسـب الآليّ الـتي يظهـر جـزء منهـا مـن زاويتـه. دون عنـاء، يمكنـه أن يمـيّز ألبـوم صـور تركـه نجيـب مفتوحـا، عمـدا أو سـهوا. كانـت تمـلأ الشاشـة صـورة ليـلى، في بدلـة تزلّـج، وهـي ترفـع ذراعيهـا عاليـا في حركـة حماسـيّة، والخلفيّـة مـن ورائهـا مسـاحات ثلجيّـة بيضـاء. رفـع حاجبيـه دهشـة. هـو ذاك إذن! لقـد اسـتردّت ذاكرتهـا بسـبب رحلـة التزلّـج! ضغـط في اهتمـام عـلى لوحـة المفاتيـح ليتصفّـح بقيّـة الصّـور. كانـت هنـاك صـورة جماعيّـة، ليـلى وزمـلاء عملهـا ربّمـا، أمـام غرفـة زجاجيّـة متسـلّقة.. ثـمّ صـورة أخـرى، ليـلى وإلى جوارهـا رجـل فـارع الطّـول، ذو ملامـح أجنبيّـة. أغلـق الصّـورة عـلى الفـور وقـد اسـتولى عليـه الضّيـق.

ـ الشّاي!

حـاول فـراس أن يطـرد مشـاعر الاسـتياء الـتي انتابتـه ورسـم ابتسـامة ودودة وهـو يتنـاول كـوب الشّـاي مـن نجيـب ويقـول:

ـ ما الذي أردتني من أجله إذن؟

ـ نعـم، فلنتكلّـم في المهـمّ.. أريـد أن أشـتري قطعـة أرض، أبـني عليهـا عمـارة سـكنيّة ومكاتـب.. جـزء منهـا سـيكون مـن أجـل ليـلى طبعـا، حـتّى تفتتـح مشروعهـا الإعلامـيّ الخـاصّ بهـا.. ولـم أجـد غـيرك أهـلا للثّقـة أعتمـد عليـه في هـذه المهمّـة..

هزّ فراس رأسه في اهتمام، ثمّ سأل:

ـ هل تفكّر في منطقة معيّنة؟ مساحة محدّدة؟

كان قـد أخـرج دفـتره وراح يسـجّل معايـير نجيـب وشروطـه. حـين

أنهـى، سـأله نجيـب فجـأة:

ـ كيف حال أمين؟ ألا ينوي زيارتنا قريبا؟

قال فراس ساخرا:

ـ إنّه يتعوّد تدريجيّا على حياة المدنيّة!

ـ هـل يمكنـني أن أخـبر ليـلى أنّـه يعيـش معـك الآن؟ أعتقـد أنّهـا سـتهتمّ بمعرفـة ذلـك.

ثمّ أضاف ضاحكا:

ـ هذا خبر لا يعنيك بشكل مباشر!

ابتسم فراس، ثمّ قال بهدوء:

ـ أنت لا تأخذ طلبي على محمل الجدّ، أليس كذلك؟

كان مـن الواضـح أنّ نجيـب يـأتي عـلى ذكـر ليـلى في كلّ جملـة بشـكل مبالـغ فيـه، وكأنّ طلـب الصّبـاح لـم يكـن! الصّـور، ثـمّ مـشروع البنـاء الخـاصّ بهـا، وأخـيرا اهتمامهـا بأمـر أمـين. ابتسـم نجيـب وقـال معترفـا:

ـ عليّ أن أفهم أوّلا.. حتّى آخذه على محمل الجدّ!

تنهّد فراس، ثمّ قال بلهجة جادّة:

ـ سـأكون أكـثر وضوحـا إذن! لعلّـك تعـرف أنّ ليـلى التبسـت في هويّتهـا بعـد الحادثـة، وحسـبت نفسـها حنـان لفـترة مـن الزّمـن.

ـ نعـم، لقـد ذكـرت ذلـك مـرّة أو اثنتـين، حـين كنـت في السّـجن.. ثـمّ لـم تـأت عـلى ذكـره مـرّة أخـرى، فظننـت أنّ الشـكّ قـد ذهـب!

ـ ليـلى أمضـت أكـثر مـن سـنتين، تعيـش بذلـك الاعتقـاد.. أنّهـا حنـان. ولـم تتبـدّد شـكوكها إلّا منـذ شـهر تقريبـا، قبـل سـفرها بأيّـام قليلـة.

ـ يا إلهي!

ـ طـوال تلـك الفـترة، كانـت حيـاة حنـان تحاصرهـا، مثـل قـدر لا مفـرّ

منـه، لا خيـار لهـا بشـأنه.. تخيّـل، أن تسـتيقظ ذات صبـاح، فتجـد إلى جـوارك زوجـة، لا تذكـر أنّـك اخترتهـا أو خطبتهـا ولا كيـف التقيـت بهـا وتزوّجتهـا.. لكـن لا مهـرب مـن مسـؤوليّتك تجاههـا! هـذا مـا حصـل مـع ليـلى بالضّبـط.. فيمـا يخـصّ علاقـتي بهـا. هـل تفهـم مـا أعـني؟ لقـد شـعرت لـكلّ ذلـك الوقـت، أنّ رجـلا اسـمه فـراس، فـرض عليهـا فجـأة، وعليهـا تقبّـل وجـوده في حياتهـا، بـلا حـول لهـا ولا قـوّة!

حدّق فيه نجيب في صدمة، بينما واصل فراس:

ـ إذن فـإنّ أوّل مـا تفكّـر فيـه بعـد أن تبـدّد الوهـم وظهـر اليقـين هـو أن تتخلّـص مـن تبعـات تلـك الهويّـة الوهميّـة.. وهـذا مـا أبـدو عليـه بالنّسـبة إليهـا.. رمـزا مـن رمـوز النّظـام السّـابق، حـين يتعلّـق الأمـر بثورتهـا!

قال ذلك بلهجة ساخرة ومرّة في آن.

ـ هـل تفهـم الآن، لمـاذا يجـب أن أختفـي مـن الصّـورة؟ لقـد تشـبّثت بفرصـة السّـفر وهربـت بأقـصى سرعـة، فـرارا مـن الضّغـط.. ولا يمكنـني أن ألومهـا، بـل لعـلّي أتفهّـم ولـو بشـكل متأخّـر حاجتهـا إلى الابتعـاد واسـترداد أنفاسـها. لذلـك أسـألك.. أن تفعـل هـذا مـن أجلهـا أوّلا.

أطرق نجيب في حيرة. هذا لم يكن يخطر له على بال.

ـ لكن.. هل انتهى كلّ شيء؟ ماذا بعد أن تنسى؟

قال فراس في استسلام:

ـ أنـت تعـرف، وهـي تعـرف أيضـا، حقيقـة مشـاعري تجاههـا. لـم يكـن هنـاك التبـاس مـن ناحيـتي في أيّ وقـت مـن الأوقـات. لذلـك سـأنتظر، أن تصبـح مسـتعدّة لتقبّـل وجـودي في حياتهـا مـرّة أخـرى!

ضرب نجيب كفّا بكفّ وهو يحوقل، ثمّ تنهّد.

ـ لعلّه خير!

-٢٥-

كانت العودة إلى العمل بعد رحلة التزلّج مهمّة مضنية!

وصلت الحافلة إلى الجامعة قرابة السّاعة العاشرة مساء، وكانت ليلى قد أمضت رحلة الإياب كلّها نائمة تقريبا. ومع ذلك، فقد كانت تعاني من شدّ عضليّ في كلّ أنحاء جسدها صباح الاثنين. وقد طمأنها أنّ ذلك لم يكن حالها وحدها! في ممرّات المركز وفي قاعات الاستراحة، كان كلّ زملائها يشكون من آلام الظّهر والمفاصل!

على السّاعة العاشرة، حين دخل باورمان في جولته الصّباحيّة مثل عادته، لم تتمالك نفسها أن ابتسمت. كانت قد أمضت فترة ظهر يوم الأحد مع فرقة المحترفين. ثنائيّ فرنسيّ، إيطاليّ وثلاثة من الألمان من ضمنهم باورمان. وقد كانت رفقتهم مسليّة وممتعة أكثر ممّا توقّعت. لم تحلّق بشكل مندفع كما فعلت في يومها الأوّل، بل تحرّكت مع المجموعة بشكل منظّم، واستمعت إلى تعليمات مدرّبها الخاصّ، باورمان، بحذر وانتباه. لذلك لم يكن هناك المزيد من الحوادث.

ـ ما هذه الابتسامة الحالمة؟ سنركّز على العمل الآن! لا تنسي أنّني أنتظر تقريرك يوم غد!

ذلك الأسلوب الصّريح والمباشر، لقد ألفته الآن، لكنّها لا تملك إلّا أن تحمرّ خجلا في كلّ مرّة. فوجئت به يلقي بقصاصة على مكتبها. تطلّعت في فضول، فألفتها صورة. صورة لكومة ثلج تتخلّلها أطراف نافرة وزلّاجات متشقلبة!

ـ التقطها إتيان أوّل أمس!

احتاجـت بضـع ثـوان لتـدرك أنّهـا صـورة ارتطامهـا! حـين رفعـت عينيهـا المشـدوهتين، كان البروفيسـور قـد انصرف.

انكبّـت عـلى إنهـاء تقريرهـا في تفـانٍ، مسـتحضرة ملاحظاتـه السّـابقة. وضعـت عنوانـا لتقريرهـا أعـلى الصّفحـة «خارطـة اللّغـات في زمـن الثّـورة»، ثـمّ رسـمت شـبكة مـن الفقاقيـع المتّصلـة. فكّـرت في اللّغـة أوّل الأمـر، اللّهجـات بشـكل أدقّ. كان بإمكانهـا تمييـز عـدد لا بـأس بـه مـن اللّهجـات التّونسـيّة: لهجـة العاصمـة، ولهجـات المناطـق السّـاحليّة والدّاخليّـة والجنوبيّـة. رسـمت أسـهما علائقيّـة بينهـا، هـي اتّجـاه تدفّـق تيّـار الثّـورة، مـن سـيدي بوزيـد، وصـولا إلى تونـس العاصمـة. ثـمّ أضافـت لهجـة المسـتعمر، اللّغـة الفرنسـيّة. لقـد اسـتعملها الثّـوّار في اللاّفتـات، وفي صرخـة الاحتجـاج الأكـثر شـهرة «ديقـاج»، ارحـل.

ثـمّ تذكّـرت نصيحتـه، تجـرّدي! أضافـت فقاعـات أخـرى.. لغـة العقـل، ولغـة العاطفـة، ولغـة القانـون، ولغـة المواطنـة، ولغـة التّنميـة الجهويّة. لقـد تحـدّث مختلـف المتصدّريـن للمشـهد الإعلامـيّ زمـن الثّـورة وبعدهـا تلـك اللّغـات، لمخاطبـة الشّـعب الثّائـر، وتوجيـه الـرّأي العـامّ. يمكنهـا أن تربـط بشـكل مبـاشر بـين لغـة التّنميـة ولهجـات المناطـق الدّاخليّـة الـتي اندلعـت منهـا الثّـورة. أمّـا بالنّسـبة إلى مـا تبقّـى، فعليهـا أن تضيـف طبقـة جديـدة مـن الفقاقيـع، تقابـل فئـات المجتمـع.. المتـضرّرون مـن النّظـام السّـابق، سـيتكلّمون لغـة الثّـأر وتصفيـة الحسـابات، والمتّصلـون بالحـزب الحاكـم والمسـتفيدون منـه سـيتكلّمون لغـة المصالحـة والوطـن للجميـع. السيّاسـيّون سـيتكلّمون حسـب أجنداتهـم الخاصّـة والاتّفاقيّـات فيمـا بينهـم لغـة العاطفـة لكسـب القواعـد الشـعبيّة، ولغـة العقـل لمخاطبـة النّخبـة المثقّفـة ولغـة القانـون لإثبـات جدّيتهـم أمـام جميـع الفئـات!

نظرت إلى خارطتها التي أصبحت في فوضى الآن، وعبست. عليها أن تعيد رسمها من جديد، وتركّز على المعطى الثّاني.. وحدة اللّغة، والشّائعات!

إنّ وحدة لغة المناطق الدّاخليّة، لغة الحاجة إلى التنمية والشّعور بالتّهميش هو ما جعل كرة الثّورة تتدحرج وتشمل نطاقا واسعا من خارطة البلاد، قبل أن تشمل كامل التّراب التّونسيّ. لا يمكنها أن تجزم، هل كانت لغة العاطفة -التّعاطف مع البوعزيزي الذي أحرق نفسه- أم لغة العقل -لن نرفع الظلم إلّا إذا اتّحدت كلّ القوى الشّعبيّة- هي ما رجّح الكفّة وأدّى إلى اندلاع شرارة الثّورة؟ ليس من السّهل أن تحلّل نفسيّات مئات الآلاف من الأشخاص الذين اندفعوا إلى الشّوارع محتجّين. ربّما هو مزيج من هذا وذاك. وربّما هو شيء آخر تماما، مثل ذلك الذي شعرت به حين جرّبت بنفسها الخروج في المظاهرات.

ربطت بين شرارة الثّورة، وكلّ من لغات العاطفة والعقل والمواطنة مع فقاعة أخرى ظلّلتها بلون خاصّ. لغة الظّروف الشخصيّة! لا شكّ أنّ لكلّ شخص في ذلك الحشد أسبابا شخصيّة لا يعلمها أحد، تفسّر اتّخاذه قرارا في تلك اللّحظة للانضمام إلى الثّورة! لا شيء يمكن أن يفسّر الاستنفار العامّ الذي حصل. كان يمكن أن يمرّ الخبر مرّ الكرام. رجل أحرق نفسه، ثمّ انتهى الأمر! عليها أن تعترف، لا تقوم ثورة كلّ يوم من أجل رجل أحرق نفسه! مازالت تذكر في مرارة مشهد احتراق منتصر أمام ناظريها، إزاء تجاهل ولامبالاة عامّة. لقد كان هناك هاجس فرديّ خفيّ، هو ما جعل كلّ واحد من أولئك الذين خرجوا إلى الشّارع يستيقظ صباحا ويقرّر أنّه يريد أن يكون جزءا من الحراك الجماعيّ! ظرف إنهاك، استنزاف ماديّ، إحساس بالظّلم، مشاكل اجتماعيّة، أزمة عاطفيّة.. لكلّ واحد منهم زرّه الدّاخليّ

الخـاصّ الـذي ضُغـط في ذلـك الوقـت بالـذّات اتّفاقـا!

توقّفت، وفكّرت مرّة أخرى. وحدة اللّغة، الشّائعات.

هـل كانـت الثّـورة مجـرّد شـائعة في بدايتهـا؟ هـل كانـت فكـرة إسـقاط النّظـام وليـدة خرافـة صدقتهـا الحشـود بسـذاجة؟ هـل كان يحلـم أحدهـم بـأن يرضـخ الرّئيـس ويتنحّـى؟ ليسـت تونـس بلـدا ديمقراطيّـا يسـقط الـوزراء فيـه والرّؤسـاء بسـبب المظاهـرات! بـل ديكتاتوريّـة عريقـة منـذ زمـن الاسـتقلال تُحكـم بيـد مـن حديـد. بعـد قرابـة ثـلاث سـنوات مـن الثّـورة، تقـول الوثائقيّـات الـتي تنقـل وقائـع ليلـة ١٤ ينايـر، أنّ التنحّي لـم يكـن مطروحـا.. بـل مجـرّد تهدئـة للأوضـاع وتقديـم وعـود بالتّنميـة وتنـازل عـن التّرشّـح لـدورة رئاسـيّة جديـدة.

كيف.. كيف أصبحت الشّائعة حقيقة؟

أنهـت تقريرهـا، وطـوت الصّفحـة.. لكـنّ التّسـاؤلات لازمتهـا. حـين جلسـت مـع سوسـن ونـزار في فـترة الاسـتراحة، سـألت في اهتمـام:

- هل يمكن أن تكون فكرة الثّورة مجرّد شائعة في البداية؟

بعد لحظات تفكير، قالت سوسن في سخرية:

- أظنّها شائعة حتّى النّهاية!

ضحك نزار وقد مرّت إليه عدوى السّخرية:

- مـا هـي الثّـورة أصـلا؟ إن كانـت نجـاح الشّـعوب في تقريـر مصيرهـا مـن خـلال حركـة احتجاجيّـة، فهـي شـائعة بالتّأكيد!

فكّـرت ليـلى، مصطلـح الثّـورة تاريخيّـا يطلـق عـلى الحـركات الاحتجاجيّة الـتي تصنـع تغيـيرا.. مثـل الثّـورة البلشـفية أو الثّـورة الفرنسـيّة.. أمّـا تلـك الاحتجاجـات الـتي تنتهـي مقموعـة، فهـي توصـف بأعمـال الشّـغب أو الانتفاضـات الشّـعبيّة. مـن هـذا المنطلـق، هـل يمكـن أن تُسـمّى الثّـورات

العربيّـة ثـورات مـن الأسـاس؟ كانـت تسـتوعب سـخرية زميليهـا. الثـورة مجـرّد شائعة، إذا استمرّ النظـام يذبّـح الشّـعب ويهجّـره حـتّى اللّحظـة!

عـادت إلى أوراقهـا، وكـبّرت رقعـة بحثهـا. إذا خرجـت مـن نطـاق الحـدود التّرابيّـة التّونسـيّة، سـترى موجـة الثّـورة الـتي صُـدّرت إلى البلـدان الشـقيقة، أو استنسـخت، فخرجـت في صـورة مشـوّهة. البلـدان العربيّـة الـتي تتكلّـم اللّغـة نفسـها، لغـة الضّـاد، تتكلّـم كذلـك حكوماتهـا لغـة الدّيكتاتوريّـة وحكـم الفـرد.. تفشّـت شـائعة الحريّـة، انطلاقـا مـن سـيدي بوزيـد، وتلقّفتهـا الشّـعوب المجـاورة بلهفـة، وصدّقتهـا. لكنّهـا ظلّـت مجـرّد شـائعة في معظـم البلـدان الـتي جرّبـت حظّهـا!

رتّبـت أفكارهـا، وفصلـت الخرائـط بشـكل واضـح.. خارطـة اللّهجـات وانتشـار الثـورة داخـل تونـس، ثـمّ شـائعة الثّـورة وتدحـرج كـرة الخيبـات العربيّـة، وأخـيرا، خارطـة اللّغـات المجـرّدة وتأثيرهـا عـلى صناعـة الـرّأي العـام. كانـت أكـثر رضـا هـذه المـرّة.

في الغـد، وقفـت أمـام باورمـان في اعتـداد. شرحـت وجهـة نظرهـا وطريقـة اسـتنباطها للخرائـط، ثـمّ توقّفـت عنـد التّسـاؤلات المعلّقـة. قـرأت الاهتمـام عـلى ملامـح مشرفهـا، ثـمّ أنـارت الابتسـامة وجهـه وقـال مهنّئـا:

ـ بعض النّقاط تحتاج تعمّقا أكثر، لكنّها بداية طيّبة!

-٢٦-

بعـد أسـبوعين، حـين أنهـت اجتماعهـا مـع باورمـان، سـألها فجـأة وبـدون مقدّمـات:

- هل تجيدين الطّبخ؟

تـردّدت، وتسـاءلت عمّـا يفكّـر فيـه بالضّبـط. هـل تـراه يزمـع دعـوة نفسـه للعشـاء عندهـا؟ لـم تكـن لتسـتغرب جـرأة كهـذه منـه. لقـد باتـت تعـرف أنّـه لا حـدود لجنونـه! ضحكـت في عصبيّـة وقالـت في إحـراج:

- ليس كثيرا.. بعض الوجبات البسيطة، لا أكثر!

- مثل ماذا؟

إنّه يصرّ على إحراجها. تمتمت في ضيق:

- بعض السّلطات والمشويّات والمعكرونة.

- المشويّات، هذا سيفي بالغرض.

حدّقـت فيـه غـير مسـتوعبة، بينمـا ضرب بكفّيـه عـلى ركبتيـه وقـال معلنـا:

- استعدّي لحفل شواء يوم الجمعة، في ساحة المركز!

هتفت في ذهول:

- هل سأعدّ الشّواء لكلّ موظّفي المركز؟

- ليس تماما. ستكون مسابقة، بيني وبينك. من يبِع أكثر هو الفائز.

- يبيع؟

شرح باورمـان الفكـرة. سـيحضّر كلّ منهمـا مشـويّاته، مـع مقبـلات

مختلفـة، ويعرضهـا بشـكل مغـرٍ كأطبـاق غـداء. مـن ينجـح منهمـا في تسـويق كميّـة أكـبر يكـون المنتـصر في التّحـدّي. كلاهمـا سـيحدّد قائمتـه وسـعر البيـع الخـاصّ بـه. سـألها في اهتمـام:

- هل تستطيعين تحضير مقبّلات أو صلصات تونسيّة أصيلة؟

فكّرت لبرهة، ثمّ قالت ضاحكة:

- هريسة الفلفل الأحمر الحارّ مثلا؟

- هـذا يبـدو مناسـبا. أيّ شيء مختلـف وخـاصّ بموطنـك سـيكون مفيـدا للتّجربة.

لـم تسـأل، مـا هـي التّجربـة بالتّحديـد. سـتفهم في وقـت لاحـق، مثـل العـادة.

عـادت إلى المكتـب وأعلنـت حالـة الاسـتنفار الشّـاملة. أخـذت معهـا سوسـن ونـزار وخرجـت للتسـوّق. مـرّت عـلى متجـر اللّحـوم، والبقالـة وسـوق الخـضر، واقتنـت مـا يلزمهـا مـن أجـل الوصفـات. في المسـاء، اتّصلـت بوالدهـا وسـجّلت تعليماتـه بخصـوص تحضـير المقبّـلات الـتي تنـوي إعدادهـا.. ورق البريـك المحشـوّ والمقـليّ، سـلطة الخضـار المشـويّة بالفلفـل الحـارّ، سـلطة الجـزر والثّـوم بهريسـة الفلفـل الحـارّ. كانـت سوسـن قـد تطوّعـت بتحضـير محـشيّ الملفـوف المـصريّ، بينمـا تعهّـد نـزار بتوفـير محـشيّ ورق العنـب الشّـاميّ والكبّـة!

صبـاح الجمعـة، كانـت صناديـق مقبّلاتهـا الشـهيّة جاهـزة ومعبّـأة بعنايـة. طالعتهـا في فخـر واعـتزاز ثـمّ أنهـت تصفيـف قطـع اللّحـم المتبّـل ببهـارات شرقيّـة، وانطلقـت في اتّجـاه المركـز.

عـلى السّـاعة الحاديـة عـشرة، خرجـت إلى السّـاحة، حيـث كان باورمـان قـد اهتـمّ بنصـب معـدّات الشّـواء. رصفـت صناديقهـا وجهّـزت الصّحـون والشّـوكات البلاسـتيكيّة، ثـمّ شرعـت في شـواء قطـع النّقانـق الحـارّة،

ولحـم الكفتـة المتبّـل وشرائـح لحـم الضّـأن. كانـت قـد قطعـت شـوطا لا بـأس بـه في مهمّتهـا، حـين ظهـر باورمـان يسـير عـلى مهـل وهـو يؤرجـح ثلّاجـة اللّحـم المحمولـة. توقّـف عندهـا وألقـى نظـرة انبهـار عـلى معدّاتهـا وأطباقهـا، مـلأ رئتيـه برائحـة الشّـواء ثـمّ هتـف مهنّئـا:

- هذا يبدو شهيّا.

ابتسمت ليلى في ثقة. إنّها شهيّة بالفعل.

- سأبدأ العمل إذن، حظّا موفّقا.

بسرعـة، اتّخـذ باورمـان مكانـه، وأخـرج شرائـح لحـم البقـر الطريّـة وشرع في شـيّها. راقبتـه ليـلى في اهتمـام. لـم يكـن في حقيبتـه شيء عـدا قواريـر الصلصـات الجاهـزة، وسـلطة خـسّ وطماطـم بسـيطة. هـل يمازحهـا؟ لقـد أمضـت أمسـيتين تعمـل عـلى مقبّلاتهـا التّونسـيّة، وجنّـدت زميليهـا لتحضـير وصفاتهمـا التقليديّـة الأصيلـة، وهـو يواجههـا بسـلطة وصلصـات السـوبر ماركـت؟

لا يهمّ. هذا سيجعل الفوز أيسر بالنّسبة إليها.

عـلى السّـاعة الثّانيـة عـشرة، بـدأ الموظّفـون في التّوافـد عـلى السّـاحة. كان باورمـان قـد أعلـن بالأمـس عـن حفـل الشّـواء، وطلـب مـن الجميـع التفاعـل مـع الحـدث وتنـاول وجبـة غدائهـم في سـاحة المركـز. بسرعـة، تحلّـق عـدد كبـير مـن الموظّفـين حـول محطّـة شـوائها، في فضـول واهتمـام. كانـت قـد علّقـت لافتـة بسـعر الوجبـة، خمسـة عـشر يـورو. كان السّـعر مدروسـا، باعتبـار كلفـة المـواد الأوّليـة والجهـد المبـذول في الطّبـخ، وهامـش ربـح بسـيط.

تلقّـت طلبـات كثـيرة في الدّقائـق الأولى، وانضمّـت إليهـا سوسـن لتسـاعدها في توزيـع الأطبـاق وقـد تهافـت الجميـع عـلى قائمـة طعامهـا الشرقيّـة المسـيلة للّعـاب. كان بوسـع كلّ مشـترٍ أن ينتقـي نوعـين مـن

اللّحوم وثلاثة أصناف من المقبّلات حسب رغبته. في المقابل، كانت محطّة باورمان شبه خالية، عدا عدد قليل من زملائه كانوا يمازحون بينما يواصل تحريك مروحته على اللّحم الذي تأخّر نضجه. رمقته ليلى في سخرية، ما كان عليه الاستهانة بها والمجيء متأخّرا. ستسبقه في التحصيل لا محالة.

بعد انقضاء نصف السّاعة الأولى، كان تهافت الشّراء قد خفت، وبدأ الموظّفون يتفرّقون من حولها. مرّت بضع دقائق من الخمول، لم تبع خلالها طبقا واحدا، بينما شرع تيّار المشترين يتّجه إلى محطّة باورمان. تطلّعت في دهشة. كانت شرائحه جاهزة الآن، قطع شهيّة مشويّة بعناية، يرفعها من الشّبكة المعدنيّة بحركة بهلوانيّة ماهرة، يرميها في الهواء ثمّ يتلقّاها برشاقة، يضعها على الطبق ويرسم فوقها أشكالا من الصّلصة! كان يقدّم عرضا متكاملا، يحصد الإعجاب من الجميع!

خلال الدّقائق التي تلت، انقلبت الموازين. كانت كميّة باورمان تنفد بسرعة، بينما مازالت صناديقها ملأى. كان سعر طبق باورمان أقلّ من سعر طبقها بثلاثة يورو، وهو أمر مفهوم نظرا للمكوّن الوحيد الذي يحويه الطّبق، وهو اللّحم! فليكن، ستجرّب تخفيض سعرها أيضا تماشيا مع المنافسة. ثمّ فكّرت في غيظ، أيّ عرض يمكنها أن تقدّم لتشدّ انتباه الزّبائن؟ كان من العبث أن تحاول رمي قطع اللّحم في الهواء، ستنتهي كلّها على الأرض!

على السّاعة الواحدة والنّصف، أخذت ليلى تجمع ما تبقّى من الأكل في وجوم. كان الموظّفون قد عادوا جميعا إلى مكاتبهم. اقترب باورمان مبتسما وقال:

- هل يمكنني الحصول على طبق؟

رفعـت رأسـها وطالعتـه بنظـرة متشـكّكة، ثـمّ عبّـأت طبقـا بسـخاء، فقـد كان مـا لديهـا كثـيرا. أخـذ باورمـان يتنـاول وجبتـه بهـدوء، بينمـا انهمكـت ليـلى في تنظيـف المـكان مـن مخلّفـات تجربـة الشّـواء. سـمعته يقـول:

- هــذا اللّحــم لذيــذ، لكــنّ تتبيلتــه لاذعــة، وغــير مناســبة للــذوق الألمــانيّ، والأوروبيّ بشــكل عــام.

قالت في اعتراض:

- لقد خدعتني! لقد طلبت أن أعدّ صلصة الفلفل الحارّ!

- نعـم، لقـد فعلـت. ليـس بنيّـة خداعـك، ولكـن مـن أجـل التّجربـة! تعـالي نحلّـل مـا حصـل.

تقدّم باتّجاه سلّة الفضلات وألقى نظرة. قال آمرا:

- اقتربي!

أطلّـت ليـلى بدورهـا. كان نصـف أطباقهـا ينتهـي تقريبـا إلى السـلّة! دقّقـت النّظـر، الصلصـات الحـارّة، المحـاشي، الكفتـة المتبّلـة.. كانـت تلـك المكوّنـات الـتي لـم تلائـم ذائقـة زبائنهـا. بينمـا كانـت صحـون باورمـان نظيفـة تمامـا، وقـد التهـم زبائنـه كلّ ذرّة مـن مكوّنـات الطّبـق!

كان يجـب أن تعلـم. كلّمـا كان الطّعـام غريبـا ومختلفـا، انخفضـت حظوظـه في نيـل إعجـاب أكـبر قـدر مـن المعجبـين! هنـاك مـن الأوروبيّـين مـن يحبّـذ الأطعمـة الشرقيّـة وتتبيلاتهـا اللّاذعـة، لكنّهـا ليسـت القاعـدة. القسـم الأوفـر منهـم يفضّلـون المـذاق المعتـاد البـارد لوجباتهـم الاعتياديّـة.

- في البدايـة، كان هنـاك إقبـال عـلى أطباقـك الغريبـة، مـن بـاب الفضـول والتّجربـة.. ثـمّ تناقـص شـيئا فشـيئا حـتّى اختفـى. هـذا مـا يسـمّى بخوارزميّـة خليّـة النمـل. في البدايـة، يجـرّب النمـل كلّ مصـادر

الغـذاء، ويبحـث عـن أفضلهـا. ومـع الوقـت ينتظـم النّمـل كلّـه عـلى خـطّ واحـد في اتّجـاه المصـدر المناسـب. ولقـد كانـت شرائـح العجـل الـتي أعددتهـا مناسـبة لمعـدة النّمـل في المركـز!

أومأت ليلى في اقتناع، في حين أضاف باورمان:

- سأنتظر تحليلك، كالعادة.

***

رغـم فشـلها في تحـدّي الشّـواء، فقـد أمضـت ليـلى أمسـية طيّبـة. كانـت قـد دعـت زملاءهـا العـرب والآسـيويّين -ممّـن تحتمـل معدتهـم الوجبـات الحـارّة- عـلى وجبـة عشـاء سـخيّة بعـد انتهـاء الـدّوام. في سـاحة المركـز، جلسـوا يتسـامرون أمـام أطبـاق الشّـواء والمحـاشي والسّـلطات اللّاذعـة. اسـتمرّت الأجـواء مرحـة ومنبسـطة، حـتّى قـال نـزار ضاحـكا وهـو يلتهـم قطعـة ورق عنـب ملفـوف:

- هـذا منطقـيّ، مـن لـم يتعـوّد عـلى التعامـل مـع النّـار، فسـيحرق حتمـا أصابعـه!

كان الجميـع يعـي تمامـا مـا يرمـي إليـه نـزار. ولـم تكـن الضّحكـة المفتعلـة إلّا تمويهـا لحقيقـة مـا يمـور بـه باطـن الشّـابّ، الـذي فقـد في السّـنوات الأخـيرة وطنـا وعائلـة وسـندا وانتمـاءً، مـن حـسرة وحنـين. لـم تكـن الأخبـار الـتي تصـل عـن الثّـورة السّـوريّة ومـا آلـت إليـه المـدن والقـرى مـن دمـار، والشّـعب من تـشرّد وفاقـة، مطمئنـة أبـدا. الإحصاءات تعـدّ أكـثر مـن مليـون سـوريّ قـد فقـدوا المـأوى منـذ انـدلاع شرارة الثّـورة الحارقـة. الآن، يسـخر نـزار مـن سـذاجة قومـه الذيـن أقدمـوا عـلى اللّعب بنـار أحرقـت بيوتهـم وأجسـادهم كلّهـا، لا أصابعهـم وحدهـا!

علّقت نجاة في جدّيّة:

- هـذا ليـس منطقيّـا أبـدا! والأمـر هكـذا، هـل يجـب عـلى الشّـعوب أن تستسـلم لجلّاديهـا في خنـوع ولا تقـاوم، حـتّى لا تحـترق بنـار الثّـورة؟ تلـك ضريبـة وجـب أن تُدفـع عـلى طريـق الحريّـة!

كانــت النّظــرات في عيــون نــزار وسوســن وفــوزي تتمايــز في درجــات المـرارة والسّـخرية. لقـد دفعـت مـصر وسـوريا وليبيـا واليمـن حـتّى ذلـك الوقـت ثمنـا فادحـا لحريّـة لـم تُكتسـب! كان مـن اليسـير عـلى نجـاة أن تنظّـر، وقـد عاشـت أكـثر الثّـورات سـلميّة وأقلّهـا دمويّـة وخسـائر بشريّـة.

لـم تكـن ليـلى قـادرة عـلى مواجهـة زملائهـا بنفـس الجـرأة. إنّهـا لا تعــرف تلــك التّجربــة، أن تكــون مــشرّدا في وطنــك، عــدوّا لحكومتــك، ضحيّــة الأيــدي الــتي يفــترض بهــا حمايتــك.

رجعـت إلى شـقّتها بالسّـكن الجامعـيّ، وهـي مشـغولة التّفكـير بتجربـة باورمــان، وعلاقتهــا بالثّــورات المعلّقــة والمنهكــة. كانــت متعبــة بعــد يومهـا الحافـل. لكـنّ مزاجهـا اعتـدل فجـأة، حـين رنّ هاتفهـا. كان أمـين. عرفـت منـذ الوهلـة الأولى أنّ شـيئا مـا قـد تغـيّر. أمـين الـذي يفـرّ عـادة مـن مواجهـة عتابهـا ونقدهـا يبـادر بالاتّصـال! لا شـكّ أنّـه يحمـل مفاجـأة مرضيـة. قـال في ثقـة:

- لقد تطوّعت للجنديّة.. سألتحق بوحدتي الأسبوع المقبل.

كان قــد وفى بوعــده. تــرك حيــاة التــشرّد، واتّخــذ قــرارات حكيمــة بخصــوص مســتقبله. ابتســمت وهــي تقــول:

- لقـد عرفـت أنّ الجيـش يناسـبك، منـذ رأيـت انضباطـك وحماسـتك في الفرقـة الكشـفيّة.. تهانينـا.

شعرت بالحماس يسري في صوته وهو يردف:

- لقــد فكّــرت جيّــدا، ووجــدت أنّ الالتحــاق بالجيــش هــو فرصــتي

الوحيـدة المتبقّيـة لاسـتكمال أحلامـي الثّوريّـة! لقـد كان الجيـش حـاضرا، جنبـا إلى جنـب مـع الشّـعب في كلّ المناسـبات الحاسـمة.. واتّخـذ القرارات المناسـبة لدعـم الثّـورة الشّـعبيّة. أشـعر الآن أنّـني أريـد الانتمـاء إلى هـذه المؤسّسـة النّبيلـة والقويّـة، لأكـون قـادرا في المسـتقبل عـلى حمايـة مـن يهمّـني أمرهـم.

كانـت هنـاك صـور انتـشرت في فـترة الثّـورة، وتناقلتهـا مواقـع التّواصـل بكثافـة، لسـيّدة عجـوز تقبّـل يـد جنـديّ امتنانـا لمواقـف الجيـش الجليلـة وحمايتــه للمتظاهريــن، وأخــرى لطفــل يتطــاول عــلى أطــراف أصابعــه ليقـدّم وردة عرفانـا لجنـديّ يعتـلي دبّابـة. كانـت رمزيّـة الجيـش حـاضرة بقـوّة في وجـدان الشّـعب. وكان هنـاك تثمـين إعلامـيّ وشـعبيّ عـلى مـرّ السّـنوات الماضيـة لبقـاء الجيـش عـلى الحيـاد وتجنّبـه الخـوض في دهاليز السّياسـة.

ابتسـمت ليـلى وهـي تسـتمع إلى أحـلام أمـين الشّـاعريّة والمثاليّـة. لـم يتغـيّر فيـه شيء، مثـل طفـل يحتفـظ بصنـدوق أمنياتـه، يفتحـه كلّ مسـاء ليتأكّـد مـن بقـاء قصاصاتـه الملوّنـة في جوفـه، ثـمّ يغمـض عينيـه وينتظـر أن تتحقّـق. هكـذا هـو أمـين. إنّهـا تحسـده عـلى براءتـه الـتي لـم تفارقـه وهـو عـلى أبـواب الثّلاثـين، وعـلى طفولـة قلبـه الـتي لا تشـترى بثمـن.

صبـاح الغـد، دخلـت المكتـب بابتسـامة واسـعة. كان اتّصـال أمـين مصـدر بهجتهـا. جلسـت أمـام أوراقهـا، ثـمّ استسـلمت لفيـض الأفـكار الـتي تزاحمـت في رأسـها. كان عليهـا أن ترتّبهـا وتسـكبها عـلى الـورق، وتعـدّ تقريـرا متماسـكا يـرضي مشرفهـا صعـب المـراس.

لازمهـا مثـال «خليّـة النّمـل». تـدبّ نمـلات طـوال النّهـار في رأسـها عـلى مسـار واحـد، تلاحـق إحداهـا آثـار الأخـرى. الأفـراد داخـل الوطـن الواحـد، والشّـعوب في البلـدان المختلفـة، هـل كانـت مثـل النّمـل، يتتبّـع

بعضهـا خطـى البعـض الآخـر؟ لقـد بـدا مسـار الثّـورة مغريـا، لتلـك النّملات/الشّـعوب الـتي راقبتهـا نظيراتهـا وقـد سـبقت بتنفيـذ التّجربـة، ووجـدت «مصـدر الطّعـام» المناسـب لهـا.. الحريّـة! لكنّهـا سرعـان مـا أدركـت أنّ الوجبـة الـتي لاءمـت معـدة الجـارة كانـت لاذعـة للغايـة بالنّسـبة إلى معدتهـا!

تفرّقت النّملات وتشرذمت، ولم يبق من سابق وحدتها إلّا الأثر.

بعـد يومـين، وهـي تـشرح تحليلهـا أمـام باورمـان، انتابهـا إحسـاس غريـب بالضيـق. قالـت فجـأة بعـد أن فرغـا مـن نقـاش التّجربـة:

- هل يمكن أن أسأل، ما هو الهدف من كلّ هذا؟

- الهدف من ماذا؟ التّجربة؟

- أقصد، هذه الدّراسة.. عن الثّورات العربيّة!

ابتسـم باورمـان، كان يشـعر بأنّهـا قـد اقتربـت أكـثر مـن عالمـه وهـي تواجهـه بذلـك السّـؤال الصّريـح.

- دورنـا كأكاديميّـين هـو أن نحلّـل الظّواهـر والأحـداث والتحـرّكات الشـعبيّة، ونسـتنبط منهـا قـراءة للواقـع، للمجتمعـات، وللتحـوّلات التّاريخيّـة، ونضـع نظريّـات وتوقّعـات اسـتشرافيّة للمسـتقبل.

- لكنّـني لسـت أكاديميّـة، أنـا صحفيّـة! ودوري هـو تبليـغ المعلومـة، توجيـه الـرّأي العـام ورفـع مسـتوى الوعـي!

- نعـم، هـذا جـزء مـن دورك، وبوسـعك، كصحفيّة قـادرة عـلى التّحليل والغـوص فيمـا تحت سـطح الحـدث، أن تكـوني أكـثر تأثـيرا وتألّقا!

سكتت لبرهة، ثمّ قالت تستدرك:

- لـم يكـن هـذا مغـزى السّـؤال. هـذه التّجـارب ومـا ينجـرّ عنهـا مـن تحليـلات واسـتنتاجات.. أنـت تعرفهـا كلّهـا مسـبقا، ويمكنـك أن تكتـب

الدّراسـة بنفسـك، لتكـون عـلى قـدر مـن الاحـتراف والدّقّـة.. فلمـاذا تضيّـع وقتـك الثمـين معـي؟ تفتعـل التّجـارب لتقـودني في مسـار تـدرك نتائجـه تمامـا؟

- هـذا ليـس صحيحـا. أنـا لا أدرك النتائـج تمامـا! قـد أبـدأ التّجربـة بفكـرة معيّنـة، ثـمّ تنتهـي إلى نتيجـة مغايـرة! وتلـك مـيزة التّجـارب التّفاعليّـة. إنّهـا لا تتوقّـف عـلى مـن يضـع بنودهـا وقواعدهـا، بـل عـلى مـن يفـكّ رموزهـا ويسـبر أغوارهـا! كـم مـن سـؤال يطرحـه الأسـتاذ في الاختبـار، وهـو يضـع إجابـة نموذجيّـة في رأسـه، ثـمّ يفاجئـه الطّلبـة بفهـم مختلـف وإجابـات غريبـة وإبداعيّـة. هـذا هـو شـأننا تمامـا. أنـت لسـت أداة في هـذه الدّراسـة، أنـت تصنعينهـا!

لانـت ملامحهـا قليـلا. كانـت مخلّفـات أمسـية الأمـس قـد تكاتفـت مـع اسـتنتاجات التّجربـة المـرّة لتعمـل عـلى إحباطهـا. اسـتمعت إلى باورمـان وهـو يواصـل:

- التّجربـة نفسـها، مـع شـخص آخـر، كانـت لتعطـي نتائـج مختلفـة. طبيعـة انتمائـك وإيمانـك بقضايـا بعينهـا، يجعلـك تفكّريـن بطريقـة خاصّـة. أنـت تفكّريـن بعقلـك وقلبـك وذاكرتـك وآمالـك، بـكلّ ذاتـك! بينمـا أفكّـر أنـا بشـكل محايـد وأكاديمـيّ بحـت، بـلا مشـاعر أو دوافـع شـخصيّة.

ضحكت، ثمّ قالت في شك:

- وهل هذا شيء جيّد، أن أفكّر بمشاعري؟!

- ليس تماما!

ضحك بدوره ثم أضاف بجدّيّة:

- لا ضرر مـن المشـاعر، مادامـت تدفعـك إلى نقـد الواقـع بغـرض الإصلاح.. لكنّهـا تصبـح خطـرة حـين تشـدّك إلى مركـز الدّفـاع، غـيرة عـلى

مـا تحبّـين، ورفضـا للاعـتراف بالخلـل!

-٢٧-

مرّت الشّهور متسارعة، وغرقت في روتين العمل، المثير لا الرّتيب! لقد كان في جعبة البروفيسور باورمان المزيد من المفاجآت من أجلها، والكثير من التّجارب التي تتخذ منهج بحث غير تقليديّ عمادا لها. شعرت في تلك الفترة أنّها تعيش تجارب حياتيّة مكثّفة، وتتزوّد بتقنيات دراسة للنّفس البشريّة، تكيّفها وردود أفعالها، لا عهد لها بها. كان باورمان يسلّحها بأساليب جديدة عليها تطبيقها في تحقيقاتها الصّحفيّة في وقت لاحق.

عادت مساء الجمعة إلى شقّتها بالسّكن الجامعيّ، واستعدّت ليومين من الاسترخاء والكسل. كانت قليلا ما تغادر السّكن، تتسوّق من المتجر الصّغير آخر الشّارع حاجياتها القليلة، وتقضي نهارها ممدّدة على الأريكة، محتضنة حاسبها الآليّ، أو تطالع كتابا. أحيانا تزورها سوسن، فتمضيان جزءا من الأمسية أمام شريط ما، وفي صباح الأحد، تتمشّيان ساعة أو نحوها في طرقات الحديقة.

تناولت عشاءها بمفردها، وهي تتصفّح أخبار السّياسة التّونسيّة. لقد كان والدها يقرأ عليها كلّ صباح على مائدة الإفطار مقالات المنافسة، وقد عزفت عن متابعة المستجدّات لفترة بعد وصولها إلى هامبورغ. والآن، عادت لتتابعها بشغف، كأنّما تعوّض نقصها، تسدّ فراغ الوجبات الخالية من الرّفقة، تقرأ الأخبار وتتخيّل صوت والدها يلقي بها على مسمع منها.

في السّاعة الثّامنة، اتّصلت به. هذا جزء من الرّوتين اليوميّ. اتّصال يدوم بضع دقائق، تطمئن على الأحوال وتسمع الجديد والمثير في

حياة السّفير السّابق ورجل الأعمال المتقاعد، ثمّ تتلو تقريرا مختصرا عن تقدّم مهمّتها البحثيّة، وربّما تسرد بعض النّوادر أيضا.

أصغت طويلا إلى رنين الجرس على الجانب الآخر، دون ردّ. فكّرت، هل يكون قد أوى إلى فراشه مبكّرا اللّيلة؟ أم تراه غلبه النّعاس على الأريكة وهو يشاهد برامج المساء؟ لم يسبق له أن فوّت مكالمتها المعتادة. أعادت الكرّة بضع مرّات، ثمّ فكّرت. لا شكّ أنّه مشغول الآن. سيتّصل بها لاحقا، حين يجد اتّصالاتها التي لم يردّ عليها.

ما إن فتحت عينيها في الصّباح التّالي، حتّى تلبّدت سحب القلق في رأسها. تحقّقت من هاتفها. ما من اتّصالات واردة. غلبها النّعاس بالأمس دون أن تتمكّن من الحديث إليه. غادرت إلى الجامعة في وجوم، وانغمست في أعمالها على الفور، محاولة ألّا تنجرف إلى منحدرات المخاوف والظّنون. كان الوقت لا يزال مبكّرا لتتّصل. ربّما يفزع إن رنّ هاتفه صباحا على غير العادة.

حوالي السّاعة العاشرة، تركت مشاغلها واتّصلت من جديد.. دون جدوى. هذه المرّة، تسلّلت الهواجس لتحتلّ مساحات وعيها. لم تستطع أن تركّز في شيء من عملها بعد ذلك. داومت على الاتّصال كلّ بضع دقائق، وقد استبدّ بها التّوتّر. ثمّ راودها خاطر. لو أنّ شيئا ما أصاب والدها، بمن يمكنها الاتّصال لطلب المساعدة؟ لامت نفسها لأنّها لم تحصل على رقم جارتها أمّ أحمد!

كانت تجرّب الاتّصال مرّة أخرى، حين فتح الخطّ فجأة، وجاءها صوت رجل:

- ليلى؟

- أين أبي؟ هل هو بخير؟

قال فراس مطمئنا:

ـ إنّه بخير الآن.

ـ ما الذي حصل؟

ساد الصّمت لبرهة. بدا أنّه يفكّر في جدوى إخبارها أو إخفاء الوقائع عنها. حسم أمره أخيرا وقال:

ـ غيبوبة سكّر.

شهقت في فزع. إنّها تعرف عشقه للحلويّات، مع أنّه انتظم أخيرا والتزم بالنّظام الغذائيّ الذي أمر به طبيبه. فكيف ينساق في طيش مع شهواته حتّى يصل إلى الغيبوبة!

ـ وضعه مستقرّ الآن، لا داعي للقلق.

ـ كيف.. عرفت بالأمر؟

ـ حين اتّصلت به بالأمس ولم يردّ، جئت لزيارته. حارس العمارة فتح الباب بعد أن طرقت طويلا بلا طائل.. حين دخلت إلى الشّقة وجدته مغمى عليه. أخذته إلى الطّوارئ، وقد تمّ التعامل مع وضعه سريعا.. لقد استقرّ تماما الآن.

استمعت إلى روايته للفاجعة في اضطراب، ثمّ قالت بسرعة:

ـ سأركب الطّائرة في أقرب وقت.. سأحاول الحجز هذا المساء.. هل يمكنك الاعتناء به حتّى ذلك الحين؟

قاطعها بلهجة حازمة:

ـ لا داعي لذلك. إنّه معي في شقّتي، سأهتمّ بأمره. متى من المفترض بك العودة؟

ـ بعد شهر.

ـ إذن حافظي على جدولك ولا تقلقي من أجل نجيب.

سكتت. لم تدر إن كان يجدر بها أن تصدّقه.

ـ هل يمكنني الحديث إليه؟

ـ إنّه نائم.. سأجعله يتّصل بك حالما يستيقظ.

همست في خفوت:

ـ شكرا لك.

كانت تعلم في قرارة نفسها أنّها لم تكن لتعتمد على غير فراس في مثل هذه الحالات. وهي تفكّر منذ حين في الشخص المناسب لتتّصل به، كان اسمه يعود إلى وعيها في إلحاح. تعرف من حديث والدها أنّه يزوره كثيرا، وعلاقتهما قد توطّدت بشكل واضح في الشّهور الأخيرة.

بعد ساعة، رنّ هاتفها. كان والدها المتّصل. ضحك في محاولة منه لتبديد مخاوفها:

ـ ليس هناك ما يستحقّ القلق، أنا بخير الآن.

قرّعته مثل أمّ تخاطب ولدها:

ـ غيبوبة، يا أبي.. إنها غيبوبة! كيف وصلت إلى هذه الحال؟

ـ خرجت للمشي بعد ظهر الأمس، ولم أشرب الماء بالقدر الكافي.. بعد أن صعدت الدّرج حتّى الطّابق الثّاني، أحسست بالإنهاك والدّوخة.. وما إن تخطّيت عتبة الشّقة حتّى فقدت الوعي.. ولا أذكر شيئا بعد ذلك، حتى استيقظت في المشفى!

زفرت. على الأقلّ، لم تكن الحلوى سبب أزمته. لم يتهاون في اتّباع تعليمات الطّبيب. لكنّ بقاءه وحده ليس حلّا. لو أنّه يرضى بالسّفر إليها!

ـ أنا بخير، أؤكّد لك.. لكنّ فراس يصرّ على بقائي عنده.

ـ نعم، لا يجب أن تبقى وحدك ليلا ونهارا.

هتف متأفّفا:

ـ حسنا، حسنا.. سأبقى بضعة أيّام فقط، حتّى يطمئّن الجميع!

ـ بل شهر واحد، حتّى أرجع.. اتّفقنا؟

***

رغم وعده القديم بألّا يحدّثها بشيء عن فراس، فقد كان والدها يخبرها بالكثير عنه، كلّ يوم! كانت إقامته عنده خلال الأسابيع الماضية تعلّة كافية. لقد أرادها أن تعرف مقدار اهتمام مضيّفه به، وقد عرفت. كانت تدرك أنّها قد غدت مدينة لفراس بالكثير.

انتهت فترة البحث ذلك الأسبوع، وكان عليها العودة إلى تونس أخيرا. ستّة أشهر انقضت بكلّ مغامراتها وتحدّياتها ومتعتها وتعبها. ذلك الصّباح، فاجأها رفاقها في المركز بإعداد حفلة صغيرة في قاعة الاستراحة، لوداعها. كانت تعلم مسبقا أنّها ستشتاق إلى كلّ شيء في هامبورغ، الجامعة والأصدقاء، وأيضا الهواء النّقيّ والخضرة الدّائمة، والحضارة والانضباط الألمانيّين! كان كلّ شيء يذكّرها بحياتها السّابقة في جينيف.

لكنّ الفرق، بين رحلتها الأولى إلى تونس من جينيف، ورحلتها الثّانية من هامبورغ، شاسع! إنّه مثل الفرق بين رحلة الطّير المهاجر شتاءً إلى وجهة لا يعرفها ويخشاها، وبين رحلة عودته ربيعا إلى موطنه يسبقه الحنين.

بعد الظّهر، كان باورمان ينتظرها من أجل التّقرير الختاميّ. استمع إلى ملخّص أعمال الفترة المنصرمة بابتسامة خفيفة، ثمّ وضعا معا خطّة مبدئيّة للأعمال التي تنتظرها في تونس. حين أنهيا نقاشهما، كانت السّاعة تشير إلى الخامسة مساءً. كانت قد حجزت رحلة مسائيّة،

لتكـون عنـد والدهـا في اللّيلـة نفسـها. بينمـا كانـت تجمـع حاجياتهـا، كان باورمـان يرقبهـا في صمـت. وقفـت، مسـتعدّة للمغـادرة، وخمّنـت أنّ لحظـات الـوداع تبـدو دراميّـة أكـثر ممّـا توقّعـت. كان صمتـه الطّويـل غامضـا ومربـكا.

تكلّم أخيرا بلهجة جادّة:

ـ هـل تعلمـين؟ أنـت شـخصيّة مثـيرة للاهتمـام عـلى الـورق، شـددت انتباهـي منـذ الوهلـة الأولى.. لكنّـك أكـثر إثـارة في الواقـع. وأنـا ممـتنّ لهـذه الفرصـة الـتي سـمحت بالعمـل معـك.

أطرقت ليلى في خجل من إطرائه المفاجئ. بينما واصل باورمان:

- لا أريـد لهـذا اللّقـاء أن يكـون الأخـير. إن كنـت ترغبـين، فهنـاك وظيفة شـاغرة بالمركـز تناسـب اهتماماتـك البحثيّـة. سـيكون مـن دواعـي سروري أن أواصـل العمـل معـك.

كان عرضـه مفاجئـا ومغريـا. لكنّهـا لـم تقـدر عـلى اتّخـاذ قرارهـا عـلى الفـور. قالـت بـتردّد:

- سأفكّر في الأمر.

قـرأت الخيبـة عـلى ملامحـه. لـم تسـتقبل عرضـه بالحفـاوة الـتي تليـق بـه. هـزّ رأسـه بهـدوء وقـال:

- نعم، افعلي رجاءً.

موطني.. موطني!

لا نريدْ، بل نعيدْ

مجدنا التليدْ، مجدنا التّليدْ!

-٢٨-

كان الوقـت متأخّـرا حـين وصلـت. السّـاعة تتجـاوز الحاديـة عـشرة ليـلا، وقـد جـاء والدهـا لانتظارهـا في المطـار هـذه المـرّة، رغـم إلحاحهـا عليـه بـألّا يفعـل. كان بوسـعها أن تتدبّـر أمرهـا. لقـد فعلـت ذلـك سـابقا، وهـي غريبـة لا تعـرف أحـدا.. فكيـف وقـد غـدت مواطنـة كاملـة الأهليّـة! كانـت تحمـل هـمّ غيبوبتـه الأخـيرة، وتشـفق مـن خروجـه وحيـدا مهمـا كانـت الوجهـة. ولـم تكـن ترغـب في أيّ حـال مـن الأحـوال أن يصحبـه فـراس لاسـتقبالها! لذلـك سرّهـا أن يرجـع إلى الشـقّة قبـل عودتهـا بأيّـام. ومـع ذلـك، فقـد كانـت وجلـة وهـي تتجـاوز بوّابـة الوصـول، تتطلّـع إلى الصّالـة وتتصفّـح وجـوه المسـتقبلين. تنفّسـت في ارتيـاح حـين لمحـت والدهـا يلـوّح لهـا. لقـد جـاء بمفـرده.

عـلى الطّريـق، وهـي تراقـب الشّـوارع المظلمـة والهادئـة في تلـك الآونـة مـن اللّيـل، كانـت تبتسـم بـلا إرادة منهـا. تتذكّـر رحلتهـا منـذ ثـلاث سـنوات خلـت، مـن المطـار، في وقـت حظـر التجـوّل مـع السّـائق المتذمّـر، وانطباعهـا الأوّل عـن الرّبيـع التّعـس، فتتّسـع ابتسـامتها. هـذه المـرّة، كانـت قـادرة عـلى رؤيـة كلّ شيء بعيـون أخـرى.

حـين يمـدح أحدهـم جمـال شيء وحلاوتـه أمـام أصحابـه، مـن الـدّارج أن يـردّ البعـض بتلـك العبـارة المجاملـة: عيونـك هـي الحلـوة! وتلـك العبـارة عـلى بسـاطتها، تلخّـص كلّ شيء بالنّسـبة إليهـا في تلـك اللّحظـة. الجمـال نسـبيّ، جـدّا! تحتـاج عينـين مـن نـوع خـاصّ لتبـصر مواطـن الجمـال في أشـياء بعينهـا، لا يلمحهـا آخـرون، لا يشـاركونك الخلفيّـة والثّقافـة والتّاريـخ، مهمـا حاولـوا ودقّقـوا. تسـاءلت، مـتى أصبحـت

«عيونها حلوة»، لترى بسهولة جمال الأشياء من حولها؟

كانت الشّقّة كما خلّفتها منذ ستّة أشهر، لم يطرأ عليها أيّ نوع من التّغيير. وكان من المريح، أن ترجع إلى مكان يمكنها أن تطلق عليه اسم «وطن». على سريرها، نامت قريرة العين، وهدهدتها أحلام سعيدة حلوة.

حين استيقظت صباحا، ألفت والدها يجلس قريبا من الشّرفة، يتصفّح جريدته، كما عهدته دوما. راودها إحساس ممتع بأنّها لم ترحل يوما. كأنّ سفرها كان حلما طويلا، وهي قد عادت إلى الواقع الآن. استمعت إليه مثل الأيّام الخوالي، يثرثر بخصوص الأخبار والسيّاسة، في شغف وانتباه مضاعفين. كان إحساسها بالتّفاصيل الصّغيرة مختلفا. كأنّما تخزّنها في حرص لتستحضرها كاملة في أوقات وحدتها المستقبليّة.

قال نجيب وهما يتناولان الإفطار المتأخّر:

ـ لقد نفّذت طلبك ولم أخبر أحدا بموعد وصولك.. لكنّني دعوت الجميع اليوم لقضاء السّهرة.

رفعت رأسها عن طبقها وسألت دون تفكير:

ـ الجميع؟

ـ منال وياسين، أمين وفراس.. والحاجّة فريدة بالتّأكيد.

تعلم أنّ أمين قد أخذ فسحة لأسبوع واحد، وسبقها بالوصول. أومأت بابتسامة. كانت قد سرحت مع أفكارها لبرهة. تتردّد إن كان عليها أن تخبره بعرض باورمان على الفور. لكنّها لا تملك بعد إجابة على السّؤال التقليديّ المتوقّع: وما رأيك أنت؟ هذا القرار يرجع في النّهاية إليها وحدها. تعرف أنّ أباها لن يضغط عليها لترفض إن هي وافقت. لكنّه سيناقش دوافعها بموضوعيّة، ويترك الخيار لها.

ستؤجّل الأمر في الوقت الحالي، ريثما تتّضح رؤيتها.

***

في المساء، وصلت منال أوّلا، تصحبها الجدّة، ثمّ فراس وأمين معا. لم يحضر ياسين. ولعلّ الجميع قد وجد ذلك أفضل. لم يكن على وفاق مع أخويه منذ حصلت الأزمة. لم يسامحه فراس أبدا على توريطه في مسائل الشّركة التي لا تهمّه، بينما اعتبر أمين أنّ علاقتهما انتهت في ذلك اليوم، حين اختار كلّ واحد الطّريق التي تناسبه.

اجتمعت العائلة في غير المعيشة، استغلّت الجدّة الفرصة لتوزّع عبارات العتاب على أحفادها المقصّرين في زيارتها. قالت وهي ترنو إلى ليلى:

- لقد كانت عندي حفيدة واحدة، وبعد سفرها لم يعد يسأل عنّي أحد!

تعلّلت منال بالحمل الذي أثقلها، واعتذر فراس لأنّ العمل يلتهم كلّ وقته، في حين داعبها أمين الذي لم يكن مشمولا بالعتاب، بحكم ارتباطه بفرقته العسكريّة:

- تريدين نصيحتي يا جدّتي؟ تزوّجي! ما دمت في صحّة جيّدة، جدّدي شبابك. سآخذك إلى مأوى العجزة، تعرّفي هناك على أرمل وحيد، ثمّ خذيه ليقيم جوارك. ماذا قلت؟

بحركة خاطفة لا تتلاءم مع ثقلها المعتاد، انحنت الحاجّة فريدة لتلتقط فردة حذائها، وسدّدتها في حرفيّة باتّجاه أمين، لتصيبه في مقتل. انحنى متأوّها، وقد اختلط الضّحك بالدّمع، ثمّ اندفع محاولا

الفـرار مـن الفـردة الثانيـة الـتي كانـت تحلّـق بدورهـا في اتّجاهـه، بينمـا أتبعـت الجـدّة القذيفـة بوابـل مـن الشّـتائم الأصيلـة الـتي لا تجيدهـا إلّا الجـدّات.

دار أمـين حـول الأريكـة، ثـمّ اسـتقرّ قـرب ليـلى، وقـد أخفى وجهـه وراء وسـادة، مسـترقا النّظـر باتّجـاه العـدوّ. مـن مخبئـه، همـس إلى جارته:

ـ ما الذي يشغل بالك؟ لقد لاحظت شرودك منذ وصلت.

التفتــت ليــلى في تــردّد، ثــمّ أطرقــت تحــرّك الملعقــة في فنجــان القهـوة، وتختلـس نظـرات حـذرة إلى ضيوفهـا المنشـغلين بمناكفـة الجـدّة واسـترضائها. همســت أخــيرا:

- لقد عرضت عليّ وظيفة في ألمانيا.

أطلـق أمـين صيحـة اسـتنكار بشـكل مفاجـئ جعلـت العيـون تلتفـت إليهمـا، بينمـا التهبـت وجنتـا ليـلى ودفنـت رأسـها في فنجانهـا، ثـمّ وقفـت وسـارت باتّجـاه مائـدة العشـاء، تتشـاغل بترتيـب الصّحـون والملاعـق. بعـد لحظـات، لحـق بهـا أمـين. قـال في عتـاب:

- هل تنوين الفرار؟

أشاحت عنه في إعراض، وزفرت.

- هل أخبرت فراس؟

التفتت إليه في حدّة:

- ولمَ أخبره؟

- ربّما يمكنه أن يساعدك في اتّخاذ القرار.

كان يبـدو جـادّا الآن. هـل هـذا مـا جـادت بـه قريحتـه مـن اقتراحـات؟ اسـتدارت، فالتقـت عيناهـا بعيـني فـراس القاسـيتين. كان يتابـع باهتمـام حوارهـا مـع أمـين، لكـنّ همسـهما لا يصـل إليـه. لـم تكـن قـد ردّت، حـين

ارتفع صوته فجأة:

- الرجاء منكم الانتباه.. لدى أمين إعلان هامّ!

استدارت الرّؤوس لتحدّق في أمين بنظرات مستطلعة، وسألت ليلى في فضول:

- أمين، ما الأمر؟

حدج أمين فراس في شيء من الضيق، ثمّ ما لبث أن ابتسم. تجاوز بسرعة حرجه، ومشى حتّى توسّط القاعة، واتّخذ هيئة الرّجل المهمّ. تنحنح أخيرا ثمّ أعلن بأسلوب مسرحيّ:

- هناك فتاة، أفكّر في خطبتها.

علت الهتافات والتّهاني من الجميع. أمين آخر العنقود، يفكّر في الزّواج أخيرا. هتفت ليلى في فضول:

- من سعيدة الحظّ؟ هل أعرفها؟

أومأ ببطء وقال:

- نعم، تعرفينها.. نسرين، من فرقة الكشّافة.

صفّقت ليلى في جذل. لقد خمّنت في وقت مضى أنّ عاطفة ما تجمع نسرين بأمين، وها أنّ حدسها قد صدق.

أضافت منال:

- الجيش فرصة مناسبة لك، على الأقلّ، ستوفّر مصاريف مأكلك وملبسك وإقامتك.. وبعد سنتين ستكون وضعيّتك الماديّة مريحة أكثر، لتكون قادرا على الزّواج.

قالت الجدّة في انزعاج:

- وكأنّ ما يفكّر فيه الذّاهب إلى الحرب هو المال! هذا ما يشغلك أنت يا صغيرتي!

أشــاحت منــال بوجههــا، وزفــرت في ضيــق، بينمــا توجّهــت نظــرات الجــدّة إلى فــراس:

- ماذا عنك؟ ها أنّ أخاك الأصغر سيتزوّج أخيرا.. ما الذي تنتظره؟

سرت موجـة مـن عـدم الارتيـاح بـين الحضـور. بينمـا قـال فـراس بعـد تـردّد قصـير:

- سأفعل يا جدّتي، لا تقلقي.. في الوقت المناسب.

عنــد منتصــف اللّيــل، كانــت السّــهرة قــد شــارفت عــلى الانتهــاء. انصرفـت منـال مـع الجـدّة منـذ سـاعة، ودخلـت ليـلى المطبـخ، تنهـي جـلي الصّحـون وترتيـب مخلّفـات العشـاء، بينمـا كان يتناهـى إليهـا صـوت أمـين الصّاخـب وهـو يلاعـب والدهـا لعبـة إلكترونيّـة. حـين أنهـت عملهـا، ألقـت نظـرة عـلى غرفـة المعيشـة. مـن موقفهـا، كان تلمـح فـراس مـن زاويــة جانبيّــة، يســتلقي في اســترخاء عــلى مقعــده ويطالــع اللّاعبــين بابتســامة مســتمتعة، مثــل أب يراقــب أولاده يلهــون!

لقـد فعلـت كلّ شيء، حـتّى لا تفكّـر بأمـره. لقـد هربـت. وظنّـت أنّهـا إن هـي فعلـت فإنّهـا سـتنسى. لكنّهـا وهـي تقـف الآن قبالتـه، تراقبـه خفيـة، تـدرك أنّهـا لـم تنـس شـيئا. وأنّ المشـاعر الـتي خنقتهـا وأدانتهـا مازالـت حيّـة في فؤادهـا. لقـد كان كلّ ذلـك عبثـا. حـتّى وهـي تقلّـب عـرض باورمـان وتحــاول اتّخــاذ قرارهــا، يقفــز اســمه في ثنايــا عقلهــا في إصرار، يشــوّش عليهــا ويربكهــا. انتبهــت حــين التفــت باتّجاههــا، كأنّمــا شــعر بنظراتهــا، فاسـتدارت بسرعـة واختفـت داخـل غرفتهـا.

فتحـت درج المنضـدة. لقـد كانـت هنـاك، أيـن تركتهـا. مفكّـرة سـوداء. تنهّـدت وهـي تخرجهـا مـن مكمنهـا. مـرّرت كفّهـا عـلى الغـلاف الممـزّق، وقلّبــت الصّفحــات في سرحــان، ثــمّ ســارت في تصميــم في اتّجــاه غرفــة المعيشــة. مــازال والدهــا منســجما مــع أمــين في لعبتــه الصّبيانيّــة

الحماسـيّة. اقتربـت مـن الأريكـة، وجلسـت ببسـاطة، ثـمّ ودون تـردّد، مـدّت المفكّـرة في اتّجـاه فـراس وقالـت:

ـ أعتقد أنّ هذه لك.

التفـت إليهـا في اسـتغراب، ثـمّ امتـدّ كفّـه ليسـتقبل الكـرّاس. بـدت عـلى ملامحـه المفاجـأة.

ـ أين وجدتها؟

ـ في غرفة حنان.

قالـت ذلـك ونظراتهـا مثبّتـة عـلى الشاشـة، حيـث تتقافـز شـخصيّتا رسـوم متحرّكـة وتتلاكمـان، كأنّمـا تفـرّ مـن دهشـته وفضولـه واستفسـاراته المتوقّعـة. نعـم، لقـد مـرّ عـلى ذلـك زمـن طويـل. يفضّـل ألّا يسـأل الآن مـتى وجدتهـا وكيـف، ولمـاذا احتفظـت بهـا كلّ هـذا الوقـت.

من حسن الحظّ أنّه لم يفعل.

سـمعت حفيـف الـورق، فاسـترقت نظـرة باتّجاهـه. كان يتصفّـح المفكّـرة باهتمـام، كأنّـه يراهـا للمـرّة الأولى. مـرّت دقائـق مـن الترقّـب مـن طرفهـا، والاستكشـاف مـن جانبـه، قبـل أن يرفـع رأسـه، ويعيـد إليهـا المفكّـرة. قـال بابتسـامة:

ـ إنّها ليست لي!

هتفت في دهشة:

ـ ماذا؟

هـل يمكـن أن تكـون قـد أخطـأت؟ ليسـت لـه؟ لمـن هـي إذن؟ مـن يتكلّـم في تلـك المذكّـرات عـن حنـان؟ هـل يكـون أحـد مـا قـد «ألّفهـا»؟ مذكّـرات مختلقـة؟ لمـاذا يوجـد اسـم فـراس عـلى الصّفحـة الأولى؟ هـل حـاول أحدهـم تضليلهـا؟ أم أنّهـا تسرّعـت في الاسـتنتاج؟ هـل كانـت

مـا قرأتـه الحقيقـة؟ أم مجـرّد أحـداث متخيّلـة؟ لـم تعـد متيقّنـة ممّـا يمكنهـا تصديقـه. كلّ شيء يبـدو قابـلا للمسـاءلة الآن. مـا اعتبرتـه حقائـق في المـاضي، لا يبـدو كذلـك الآن.. وخاصّـة، رأيهـا في فـراس. إنّـه لا تعـرف عنـه مـا حسـبت أنّهـا تفعـل. كانـت الأفـكار تتدافـع في رأسـها وتنعكـس عـلى صفحـة وجههـا، في حمـرة وجنتيهـا، جفـاف حلقهـا، وجحـوظ عينيهـا.

قال فراس وقد أدرك ما يدور في خلدها:

ـ لقـد كانـت لي في المـاضي.. لكنّهـا لـم تعـد تعنيـني الآن. هـذا مـا قصدتـه.

اسـترجعت أنفاسـها، وخمـد الـبركان. هـزّت رأسـها وقـد اسـتوعبت. لـم يكـن هنـاك داعٍ للهلـع. فلتعـد كلّ الوقائـع إلى أماكنهـا في دماغهـا. تطـرد الآن مـن رأسـها الأسـئلة المشـوّشـة والاسـتنتاجات المتهافتـة. كانـت المفكّـرة بـين كفّيهـا مـرّة أخـرى. سـألته بغتـة:

ـ لا تريدها، لأنّك تريد أن تنسى؟

ـ لا أريدها.. لأنّني نسيت!

تذكـر حديثهمـا ذات عـصر، مـن وراء الحاجـز، عـن الذّكريات والنّسـيان. لقـد نـسي، وهـي تذكّـرت كلّ شيء. لقـد حقّـق كلّ منهمـا أمنيتـه، خـلال الوقـت الـذي فصـل تلـك الجلسـة وهـذه. ارتسـمت على شـفتيها ابتسـامة فاتـرة. لقـد كان ذلـك للأفضـل.

-٢٩-

عادت، والعود أحمد.

كان مكانها بالجريدة في انتظارها. استقبلتها زبيدة بالأحضان والقبلات، وأحاطت بها الابتسامات من كلّ جانب. لازمها إحساس ممتع بالنّشوة طيلة أسبوعها الأوّل. إنّها في وطنها الآن.

كان ذلك قبل أن تخبو جذوة الحنين، وتتفتّح عيناها على حقيقة الوضع الرّاهن.

كانت آخر ذكرياتها، قبيل الرّحيل، مؤلمة. مشهد منتصر وهو يهوي من عامود الكهرباء ثمّ يحترق، لم يكن من المسلّي تذكّره. لكنّه كان يأتي إلى ذاكرتها قسرا، مرارا وتكرارا، كلّما ورد ذكر حالة انتحار جديدة! كانت متلازمة «محمّد البوعزيزي» قد انتشرت، واستفحلت في صفوف الشّباب، ولم يعد من النّادر أن تسمع عن حالات الاحتراق الاختياريّة. وكأنّ شباب الثّورة قد انتخب بالإجماع أبشع صور العذاب -الاحتراق حتّى الموت- بوّابة للعبور إلى العالم الآخر!

لكنّ أيّا من تلك الحالات لم يخلق ثورة جديدة!

كان يتأكّد لديها كلّ يوم أنّ تلك الهبّة الشّعبيّة الرّهيبة نسيج وحدها، ولم يبد أنّها قابلة للتكرار في وقت قريب. لقد باتت هناك منابر حرّة كثيرة، يتبوّأها متكلّمون أحرار، مفكّرون وسياسيّون ورجال دين، لكنّ أيّا من المواعظ والخطب العصماء لم تصنع تغييرا، أو تحرّك ضميرا، أو تدفع عجلة الثّأر أو النّسيان! لم تكن هناك حركة، أدنى حركة، في أيّ اتّجاه كان! لوهلة، بدا أنّ الشّعب الذي ثار وقام عن بكرة أبيه إثر حادثة الاحتراق التّاريخيّة الخالدة، قد أنهك خلال

ثلاث سنوات، بالوعود والترقّبات، والخيبات وطول الأمل، ولم يعد له طاقة إلّا للتذمّر والشكوى!

لم تعد السّياسة مثيرة ومرغوبة. لم يعد المواطن العاديّ، الذي مارس بغزارة حقوق التّحليل والتّأويل في الشّهور الأولى للهوجة الثّوريّة، يجد في صدره نفسا يصلح إهداره على الشّأن السّياسيّ! مثل كلّ نزوة، تنازل التّونسيّ العامّيّ عن حقّه في التّصدّر للإفتاء السّياسيّ. عادت هموم الحياة اليوميّة لتسيطر على انتباه النّاس، فتأسرهم في شعابها وتشدّهم من حلبة السّياسة قسرا. لقد انتبه الجميع، بعد ثلاث سنوات من التجربة، ألّا فائدة.

وكانت العبارة التي تتردّد في الأفواه، في المترو، في سيّارة الأجرة، في المحكمة، في السّوق وفي الشّوارع: لو بقي النظام السّابق! على الأقلّ كنّا حافظنا على الأمان الذي كنا نعيش في كنفه، على الأقلّ كان الاقتصاد منتعشا، على الأقلّ كانت السّياحة مزدهرة، على الأقلّ كانت الشّرطة تسيطر وتخفّض من مستوى الجريمة، على الأقلّ...

وذات يوم، بادرتها زبيدة، بشكل مفاجئ:

- إن كانت هناك إمكانية تعاون مع المركز الألمانيّ، لا تعودي إلى هذه البلاد! ابقي هناك يا عزيزتي، مادامت لديك فرصة جيّدة. لا شيء يستحقّ البقاء هنا!

حدّقت ليلى فيها في ذهول. لم تكن تصدّق أنّ الوضع قد تداعى، خلال ستّة أشهر فقط، هي زمن غيابها، لينحدر إلى القاع! أم تراها لم تلتقط الإشارات التّحذيريّة التي سبقت الانهيار التامّ؟

مرّة أخرى، تواجه نظرة أمين القاتمة، كأنّه يقول من جديد: ألم أقل لك؟

لقد كانت نظرته التّشاؤميّة أيّام الاعتصام قد غدت رأيا عامّا

مشـتركا ومسـتشريا بدرجـة عاليـة. لقـد فهمـت أنّ اختيـاره الانضمـام إلى الجيـش كان في الحقيقـة هروبـا إلى الأمـام. لـم يعـد يتحمّـل أن يكـون جـزءا مـن كيـان عاجـز، بعـد أن هدهدتـه أحـلام صناعـة التّاريـخ! لقـد أيقـن أنّ الأحـداث التّاريخيّـة لا تصنـع إلّا مـرّة كلّ ربـع قـرن، ومـا مـن حـدث عظيـم ينتظـره عنـد المنعطـف. لذلـك اختـار القطيعـة مـع الحلـم.

أمـين الـذي عرفتـه بأفـكاره الطّوباويّـة الجامحـة، تحـوّل إلى شـابّ مستسـلم، كأسـه مترعـة بالمـرارة، تسـكنه أحـلام «أرضيّـة» وبسـيطة. الوظيفـة والزّوجـة والشّـقّة. حـين التقيـا للمـرّة الأخـيرة قبـل رحيلـه ليلتحـق بفرقتـه، سـألها:

- هل أظلم نسرين بطلب الزّواج منها في هذا الوقت؟

سألته بدورها في قلق:

- هل أنت متردّد؟

- أشـعر أنّـني لا أصلـح لإقامـة عائلـة والالـتزام بمسـؤوليّات زوجـة وأطفـال! لذلـك أشـفق عليهـا مـن المسـتقبل الـذي ينتظرهـا مـع رجـل مهـزوم.

أطلق ضحكة صفراء ليخفّف من تشنّجه، فقالت ليلى بجدّيّة:

- ألا تعتقـد أنّ هـذا الرّجـل المهـزوم قـد سـئم حيـاة الوحـدة، وهـو يبحـث عـن السّـكن والمـودّة والرّحمـة في نصفـه الآخـر؟ أظـنّ أنّ الـزّواج سـيكون خـير دواء لـك، ولانهزاميّتـك.

ضحك من جديد، ثمّ قال ساخرا:

- أراك أصبحت خبيرة في الزّواج فجأة!

لا تـدري لمـاذا انقلـب مزاجهـا إلى المـرارة في تلـك اللّحظـة، لتقـول في

سخرية بدورها:

- لماذا لا تسأل فراس؟ إنّه الخبير في الزّواج بيننا!

- فراس؟ خبير في الزّواج؟ هل أنت جادّة؟ إنّه خبير في شيء آخر.. إبرام العقود الفاشلة! لقد كان عقده الأوّل لمهمّة جليسة أطفال.. وعقده الثّاني إنقاذ ثروة القاسمي. ما عدا ذلك، فهو مسكين!

ابتسمت في استهانة. طبعا، سيدافع عنه، فهو شقيقه. سمعت أمين يقول مستنكرا ردّة فعلها:

- هل تعتقدين أنّني سأدافع عن فراس لمجرّد كونه أخي؟ تعرفين أنّني لست من هذا النّوع.

ثمّ أضاف في مرارة:

- اسأليني رأيي في ياسين مثلا، وسترين!

نعم، إنّها تعرف أمين. لا يحابي ولا يجامل. لكنّها لم ترد أن تصدّق دفاعه عن فراس. سألها فجأة:

- أنت لم تختاري العودة إلى ألمانيا بعد، أليس كذلك؟

راودتها حينها فكرة الهرب. باورمان كان يهديها فرصة الانسحاب إلى أرض محايدة، دون أن يبدو ما تفعله تخاذلا أو استسلاما. لو أنّها تتخذ قرار البقاء في ألمانيا، فلن يلومها أحد! لكن ماذا عن عهدها وواجبها تجاه الله والوطن؟ كفى يا ليلى، لقد كان مجرّد قسم كشفيّ، وأنت لم تستمرّي مع العشيرة طويلا على أيّ حال! فما بالك تتمسّكين بذلك العهد، وكأنّه دستورك الشّخصيّ؟

تتعالى داخلها أصوات حادّة تزعق فيها بالشّيء ونقيضه. هل تكون نشازا في الجوقة العامّة؟ لم تعد تلمح الأمل، في أيّ مكان من حولها، فكيف يمكنها أن تحتفظ بجذوته متّقدة داخلها؟

في الأسـبوع التّـالي، وطيلـة ثلاثـة أيّـام، خرجـت إلى الشّـارع، وقفـت عنـد مدخـل المـسرح البلـديّ، وأخـذت تسـتوقف المـارّة مـن الشّـباب في العشرينـات. وتسـألهم السّـؤال ذاتـه: مـا الـذي يجعـل شـبابا في مقتبـل العمـر، يعتـبر المسـتقبل -نظريّـا- أمامهـم، ولديهـم أحـلام مـن المفـترض بهـا أن تجعلهـم يحبّـون الحيـاة ويقبلـون عليهـا، يفكّـرون في الانتحـار؟ *

لقـد كانـت الثّـورة أملنـا الـذي ربطنـا بـه مسـتقبلنا كلّـه، فلمّـا فشـلت، شـعرنا بالهزيمـة، والأحـلام الـتي كانـت ممكنـة قبلهـا غـدت مسـتحيلة، ماديّـا وحـتّى نفسـيّا.

هـل يمكـن لمـن نـزل إلى الشّـارع ثائـرا، وخلـع الرّئيـس وطـرده خـارج البـلاد، وحـاز الوطـن مـلء كفّيـه، أن يرجـع ليعانـق الأحـلام الأرضيّـة، شـقّة ووظيفـة وزوجـة؟ مـا هـذه التّفاهـة؟

انهيـار الثّـورة كان ضربـة قويّـة لإيماننـا بـكلّ شيء. لـم تعـد هنـاك أرض صلبـة نقـف عليهـا، سـواء في الدّيـن أو التّفكـير أو الطّمـوح أو العلاقـات.

كنّـا نعلـق كلّ حياتنـا عـلى الثّـورة. كلّ شيء جميـل سـيحصل حـين تنجـح الثّـورة. لكـن احـزري مـاذا؟ الثّـورة لـم تنجـح.

أحسسـنا للحظـة أنّنـا الجيـل المختـار، نحـن الذيـن كتـب لنـا أن نبـدأ عـلى أسـس سـليمة ونظيفـة، ثـمّ اصطدمنـا بالواقـع. أيقنّـا أنّنـا كنّـا واهمـين.

الأفـكار القديمـة كلّهـا أثبتـت فشـلها، فأصبـح مـن الملـحّ توليـد أفـكار جديـدة. تجـد نفسـك تحتـاج أن تجـرب كل شيء حـتّى تبـني أفـكارك وثوابتـك وأهدافـك لتصـل إلى السـلام الدّاخـليّ. لكـن للأسـف ليسـت كلّ

---

* اقتباس من بحث استقصائي للكاتب والمدوّن محمد خميس.

التّجـارب مريحــة، وليـس مـن الهـيّن أن تدخـل إليهـا كلّهـا وتغادرهـا في أمـان.

في السّـابق، كنـت أجـد المدمـن غبيّـا وأحتقـر مـن يتعاطـى الحشـيش. حاليّـا، يمكنـني أن أجـد مـبرّرات لـكلّ منهـم وأتعاطـف معـه. نفـس الـشيء ينطبـق عـلى المنتحـر.

أنـا لا أريـد أن أكـون نسـخة مكـرّرة مـن أبي، ولا مـن أخـي الأكـبر. إذن مـاذا أريـد أن أكـون؟ لا أعـرف. إذن مـا جـدوى البقـاء عـلى هـذه الأرض؟

هـذا الجيـل يحتـاج أن يـرى معجـزة بعينيـه، مثـل معجـزات الأنبيـاء، حـتّى يسـترجع ثقتـه وإيمانـه المفقوديـن.

إن أسـعد شيء قـد يحـدث، أن يصبـح لهـذا الجيـل هـمّ وظيفـي في الحيـاة، بعيـدا عـن همومـه المعرفيـة والإدراكيـة المؤلمـة حـدّ المـوت. أتمـنى فقـط أن يكـون لي في يـوم مـن الأيـام طمـوح يقتـصر عـلى وظيفـة مرموقـة، أو زوجـة جميلـة وأولاد. فقـط أتمـنى أن يكـون هـذا طموحـي، فضـلا عـن تحقيقـه.

حـين جلسـت ليـلى أخـيرا إلى مكتبهـا في نهايـة التّجربـة، تراجـع محتـوى الشّـهادات وتجمّعهـا، هالهـا مـا حصّلتـه مـن تصريحـات. لـو أنّهـا أهملـت الأسـماء، فربّمـا حسـبته تقريـرا مسترسـلا كتبـه شـخص واحـد! أيقنـت حينهـا أنّ الثّـورة، لـو كانـت لهـا حسـنة واحـدة، فهـي إهـداء الأمـل للأجيـال الشّـابّة. ولـو أنّ لهـا سـيّئة واحـدة، فهـي سرقـة الأمـل بعـد فـترة يسـيرة، دون أن يكـون قـد اسـتوفى الوقـت المطلـوب للحضانـة والفقـس. لقـد أنتجـت العمليّـة كلّهـا جنـين أمـل مشـوّها، كُتـب لـه الإجهـاض!

ذلـك المقـال، قـرّرت أن تكتبـه بالعربيّـة. كان الأوان قـد حـان لتتجـرّأ وتتحـدّى نفسـها.. أو تتحـدّى كلّ الذيـن أشـاروا عليهـا بالرّحيـل! إنّهـم يحسـبونها الأجنبيّـة الـتي يجـدر بهـا الفـرار إلى موطنهـا الأصـليّ إذا مـا

ساءت الظّروف في بلد الضّيافة! وإنّها لتستشعر مسؤوليّتها عن تلك النّظرة المجحفة. أليست تواصل التّعبير عن أفكارها بلغة الأجانب؟ إن كانت تريد اعترافهم بمواطنتها، فلتقنع نفسها أوّلا.

-٣٠-

اقتحـم الخـوف حياتهـا، ذلـك اليـوم، دون سـابق إنـذار، ودبّ ببـطء في ثناياهـا حـتّى اسـتحكم. لا تذكـر أنّهـا قـد ارتعبـت مـن قبـل، كمـا فعلـت منـذ ذلـك الصّبـاح، وبنسـق متزايـد. غـدت تقـوم عـلى الترقّـب للأنبـاء الجديـدة، وتبيـت عـلى القلـق ممّـا تخفيـه ليلـة نـوم مضطربـة، قـد يكـون صباحهـا لـه مـا بعـده.

كان ذلـك منـذ صحـت مـن سـباتها، ليقابلهـا وجـه نجيـب ممتقعـا، وهو يقبـض عـلى جريدتـه الصّباحيّـة، في مجلسـه المعتـاد قـرب النّافـذة. لـم يرفـع رأسـه بالابتسـامة الـتي لا تفـتر عـلى شـفتيه، حـتّى أيّـام سـجنه، ليسـتقبل مجيئهـا، بـل قـال بلهجـة حازمـة، فيهـا شيء مـن الارتجـاف:

ـ اتّصلي بأمين رجاءً.

مـرّت إليهـا عـدوى القلـق. التقطـت هاتفهـا عـلى المنضـدة وسـألته بينمـا تتّصـل:

ـ ما الأمر؟

ـ لقد انفجر لغم على شاحنة عسكريّة، في منطقة القصرين.

يعـرف كلاهمـا أنّ وحـدة أمـين تغطّـي ولايـة القصريـن. ويعرفـان أيضـا أنّ المنطقـة غـير مسـتقرّة منـذ الثـورة، وقـد ازداد الأمـر سـوءا في الفـترة الأخـيرة. بعـد بضـع رنّـات، ردّ أمـين. قـال متضاحـكا:

- ما الأمر، ماما ليلى؟

- ماذا؟

- لقد اتّصل بابا فراس منذ حين، فشعرت بأنّ والديّ يسألان عنّي!

تجاوزت تعليقه وقالت رغم حرجها:

- أنت بخير؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟

قال مطمئنا:

ـ أنـت تعنـين الانفجـار؟ لا شيء يدعـو إلى القلـق.. لـم تكـن هنـاك خسـائر بشريّـة.

ـ ما الذي حصل بالضبط؟

ـ ليسـت لـديّ معلومـات دقيقـة بعـد. لقـد كنّـا في الثكنـة، ووصلنـا الخـبر كمـا وصـل إلى وسـائل الإعـلام. إنّـه مجـرّد لغـم.. منـذ عهـد المسـتعمر عـلى الأغلـب.

تنهّـدت ليـلى، وهـي تنهـي المحادثـة. لكنّهـا باتـت تعلـم ألّا سـبيل إلى الارتيـاح بعـد الآن. حـين يكـون لديـك قريـب في الطّـيران، فسـيرتجف فـؤادك مـع كلّ حادثـة طائـرة، وحـين يقيـم صديـق لـك في منطقـة مهـدّدة، فسـتفزع مـع كلّ كارثـة طبيعيّـة تصيبهـا، وحـين يكـون شـقيقك عـلى الجبهـة، فسـتتوقّع الأسـوأ مـع كلّ اشـتباك عسـكريّ! وقـد كان أمـين ابـن خالهـا وصديقهـا، وبمثابـة شـقيقها الأصغـر.

تابعـت باهتمـام التطـوّرات في جهـة القصريـن في الأيّـام التّاليـة، وقـد اتّخـذت الأحـداث منحـى تصاعديّـا. لـم يعـد تقريـر والدهـا الصّباحـيّ كافيـا. بـات عليهـا الاطّـلاع بنفسـها عـلى التّحاليـل والنّقاشـات السّياسـيّة والتوقّعـات المرتقبـة للوضـع. بعـد يومـين، وقـع اغتيـال وكيـل أوّل، بنـيران صديقـة، حسـب التصريحـات الرّسـميّة.. مـع أنّ الهمسـات الجانبيّـة تؤيّـد احتمـال تنكّـر إرهابيّـين في زيّ عسـكريّ واندساسـهم داخـل الوحـدة!

ثـمّ انفجـر لغـم جديـد، بعد أسـبوع واحـد مـن الانفجـار الأوّل، مخلفا ضحايـا هـذه المـرّة. لقـي عسـكريّان حتفهمـا، عـلى مسـافة كيلومـترات

قليلـة مـن مدخـل مدينـة القصريـن بعـد أن انفجـرت العربـة العسـكرّية مثـل سـابقتها! لـم يعـد التـذرّع بالألغـام القديمـة الـتي زرعهـا المسـتعمر مجديـا.

وفي كلّ مـرّة اتّصلـت فيهـا بأمـين، كان يطمئنهـا ويطيّـب خاطرهـا. الجيـش لـن يقـف سـاكنا أمـام هـذه التّهديـدات العلنيّـة، وسـيلقّن المتمرّديـن درسـا لائقـا. الجيـش ليـس مؤسّسـة هشّـة يسـهل اختراقهـا والعبـث مـع مسـؤوليها، سـيتوصّل في وقـت يسـير إلى أصحـاب الفعلـة ويحاسـبهم. الجيـش قـد اتّخـذ الإجـراءات الاحترازيّـة اللّازمـة، لـن تتكـرّر عمليّـات كهـذه في المسـتقبل!

تسـتمع إليـه وهـو يصـدح بجملـة الرّسـائل الجاهـزة الـتي ربّمـا لقّنهـا إيّـاه قادتـه مـع بقيّـة المجنّديـن، ليحملوهـا إلى ذويهـم، وتستشـعر موجـات الخـوف الخفيّـة في ثنايـا صوتـه. وهـل يمكـن للمـرء إلّا أن يرتجـف فرقـا في مواجهـة المـوت؟ لقـد كان الضّحايـا شـبابا في مثـل سـنّه، وربّمـا عـرف بعضهـم، مـن قريـب أو بعيـد، واختلـط بهـم في بعض المناسـبات. فهـل يمكـن ألّا يجتاحـه الرّعـب ليـلا وهـو يرابـط في موقعـه، أو يسـتلقي في سريـره القـاسي، محدّقـا في سـقف المهجـع، ويفكّـر، كان يمكـن أن أكـون محلّـه؟

ولـم يكـن بيدهـا إلّا أن توصيـه، في كلّ مـرّة، بـأن ينتبـه لنفسـه، ويأخـذ حـذره، وتدعـو لـه طويـلا بـأن يحميـه الله مـن كلّ سـوء، فيناكفهـا ضاحكا:

- عـسى أن ينفعنـا غطـاء رأسـك بـشيء عـلى الأقـلّ، يـا حاجّـة ليـلى! ربّمـا تكـون دعواتـك مقبولـة وقـد صرتِ إلى الله أقـرب!

لكنّ مزاحه لم يكن يسلّيها أبدا.

ولـم يتخـلّ أمـين عـن أسـلوبه المتفائـل. ذكّرتهـا نبرتـه بوالدهـا أيّـام حبسـه. لقـد كان للحبـس في الوطـن، زمـن الثّـورة، طعـم آخـر. وقـد كان

للدفـاع عـن الحـدود زمـن الثّـورة أيضـا طعـم آخـر. كان أمـين بشـكل مـا يحقّـق حلمـه! يفـي بعهـده تجـاه الوطـن، ويصنـع شـيئا مـن أجـل ثورتـه.

فكّـرت ذلـك اليـوم، أنّ العهـود الـتي يقطعهـا المـرء عـلى نفسـه مخيفـة. وذلـك القسـم الكشـفيّ البسـيط، قـد لا يأخـذه الكثـيرون عـلى محمـل الجـدّ. قـد يكـون بالنّسـبة إلى معظمهـم مجـرّد إجـراء شـكليّ، عبـارة جوفـاء، كلمـات منسّـقة يتوجّـب التلفّـظ بهـا لاسـتلام المهمّـة. لكنّهـا شـعرت بثقـل العهـد عـلى ضميرهـا. وأمـين شـعر بذلـك أيضـا. لأنّـه لـم يقطـع الوعـد عـلى أحـد آخـر، بـل عـلى ذاتـه وحدهـا.

فاجأهـا اتّصالـه ذات مسـاء. لـم يكـن يتّصـل في العـادة، كانـت هـي مـن يفعـل، وقـد كان يتأفّـف مـن حرصهـا الزّائـد عـن الحاجـة. كان يهـرب مـن قلقهـا، تمامـا كمـا كان يفعـل أيّـام الاعتصـام. لكنّـه اتّصـل بنفسـه ذلـك المسـاء، ليقـول أنّـه بخـير! كان ذلـك كافيـا لتعلـم أنّـه لـم يكـن بخـير. رغـم إلحاحهـا، لـم يبـح بـشيء مـن «أسراره العسـكريّة». خمّنـت أنّ التعليمـات لا شـكّ صارمـة، لكنّهـا أدركـت أنّـه عـلى مشـارف مهمّـة خطـرة. طلـب منهـا ألّا تتّصـل في الأيّـام الآتيـة. سـيكون خـارج نطـاق التّغطيـة.

حمّلتـه بوابـل مـن الدّعـاء، ولـم يتذمّـر أو يمـزح هـذه المـرّة، بـل أمّـن بحـرارة. ثـمّ اختفـى.

ستكون تلك آخر مرّة يصلها صوت أمين عبر الأثير.

بعـد أيّـام، اسـتيقظ الوطـن كلّـه عـلى الفاجعـة. ثمانيـة عسـكريّين، مـن أصحـاب الرّتـب والمجنّديـن المتطوّعـين، هاجمتهـم مجموعـة مسـلّحة أثنـاء تمشـيطهم لجبـل الشّـعانبي. ألقيـت عـلى العربـات العسـكريّة قنابـل ورصـاص كثيـف، حـتّى لقـي الثمانيـة مصرعهـم. كان كمينـا محكمـا، لـم يتوقّعـه الجيـش ولـم يحسـب لـه حسـابا، لـم يتّخـذ إجـراءات كافيـة

لتلافيـه، ولـم يمكنـه أن يفعـل شـيئا لحمايـة الشّـباب الثمانيـة مـن مغبّته.

خــلال السّــاعات الثّمانيــة والأربعــين الــتي ســبقت إعــلان قائمــة الشّــهداء، دأبــت ليــلى عــلى الاتّصــال بأمــين، والغصّــة تتصاعــد لتســدّ حلقهـا تدريجيّـا. أبـت أن تصـدّق أو تستسـلم، رغـم جـرس الإنـذار الـذي لـم يفتـأ يـرنّ في رأسـها منـذ اتّصالـه الأخـير، ورغـم إحساسـها المؤلـم بقـرب الفاجعـة. احتفظـت بالأمـل حـتى آخـر رمـق، حـتّى وصلهـا اتّصـال منــال، لـتزفّ إليهـا النّبـأ وسـط الشّـهقات والعـبرات.

كان ياســين قــد تلقّــى اتّصــالا رســميّا مــن النّاطــق باســم الجيــش الوطــنيّ، يبلّغــه بصفتــه وليّ أمــين باستشــهاده في الحادثــة الأليمــة!

ما كان مخاوف وهواجس بالأمس، بات اليوم حقيقة صارخة.

لقد رحل أمين، نهائيّا.

في مــنزل الحاجّــة فريــدة، أقيــم سرادق العــزاء، في انتظــار وصــول جثمــان الشّــهيد. ولولــت الجــدّة وضربــت فخذيهــا بكفّيهــا في حــسرة، وســط النّســاء المتّشــحات بالسّــواد، وذكــرت النّحــس الــذي يلازمهــا ويطــارد أولادهــا وأحفادهــا.

جــاء ممثّلــون رســميّون عــن الحكومــة والأحــزاب السّياســيّة لتقديــم التعــازي، وتصــدّر ياســين المشــهد، رغـم غيابـه التّـام مـن حيـاة أخيـه بعـد انفـراط عقـد الأخـوة. وقـف ببدلتـه السّـوداء الأنيقـة وربطـة عنقـه الفاخـرة، يصافـح الكـبراء وعليـة القـوم ويجـدّد عهـده مـع الوجاهـة والفخامـة. كان المصـاب بركـة بالنّسـبة إليـه، فقـد أعـاده إلى الواجهـة، وانتشـله مـن هـوّة النّسـيان السّـحيقة.

وقــف فــراس إلى جــواره، منكــسرا، وقــد تــرك رحيــل أخيــه الأصغــر ندبــة عميقــة في صــدره. لقــد تقاربــا في الفــترة الأخــيرة وهمــا يتشــاركان الشّــقّة الصّغــيرة، كمــا لــم يتقاربــا مــن قبــل في القــصر الكبــير الفــاره.

ما تبادلاه من أحاديث خلال ستّة أشهر، يفوق حجم الكلام الذي وجّهه أحدهما إلى آخر خلال سنوات أمين التّسعة والعشرين. عرف أحدهما الآخر متأخّرين، ورأبا صدع الأخوّة بينهما بعد سنوات من الجفاء. لقد كان هناك زمن اعتبر فيه فراس أمين طفلا ومراهقا، لم يكن فيه للحديث الجادّ معه مكان. ثمّ سنوات عجاف فقد خلالها فراس صلته بكلّ أفراد عائلته وانزوى في قوقعة صلبة من اللّامبالاة. ثمّ زمن فرّ فيه إلى سويسرا ليطارد أموال والده المهرّبة. وجاء زمن أخير، قصير الأمد، حاول خلاله أن يعوّض عمّا فات، ولكن هيهات!

في وقت متأخّر من تلك اللّيلة، كانت الدّار قد خلت أو كادت من المعزّين. اجتمع أفراد العائلة حول الجدّة مرّة أخرى، دون أمين. قال ياسين فجأة وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة مزهوّة:

ـ لقد تحدّثت مع كاتب الدّولة بشأن أبي.. وقد وعد خيرا.

لم يتردّد وهو يصافح الرّجل الذي جاء معزّيا أن يوشوش في أذنه، يطلب تدخّله من أجل والده المحبوس ظلما في قضيّة فساد ملفّقة! لقد كان على الوطن أن يثمّن تضحيات الشّهداء، وما من شيء يعوّض الأب المكلوم في فلذة كبده. لذلك وجبت إعادة النّظر في قضيّة نبيل القاسميّ، إكراما للشّهيد!

ضربت الحاجّة فريدة كفّيها ببعضهما وهي تحوقل، ولم يعلّق أحد. لكنّ هواء الغرفة كان مشحونا بالتوتّر. وقف فراس وغادر الغرفة على الفور. في حين زمّت ليلى شفتيها في ضيق. لم يكن جثمان أمين قد وُرِيَ التّراب بعد، وياسين يعلن مهلّلا أنّ العفو في طريقه إلى والده! ألم يكن بإمكانه أن يمثّل الحزن ولو قليلا؟ ألم يكن بمقدوره أن يحترم حزن عائلته، ويخفي لهفته على اغتنام الفرصة التي جاءت على طبق من دماء؟

بعد دقائق، خرجت إلى الحديقة. كان السّكون يسيطر على الممشى المظلم، ونسيم صيفيّ فاتر يحرّك أوراق أغصان شجيرات الزّيتون واللّوز التي تؤنس الجدّة في شيخوختها. مشت في شرود، تدور في حلقات مفرغة وقد فاض صدرها بالحزن واللّوعة. لقد بكت كثيرا في غرفتها حسرة وألما، منذ وصلها الخبر. لم يكن بوسعها أن تتقبّل النّهاية التّراجيديّة لحلم أمين الوطنيّ. لقد أراد أن يصنع لحظات تاريخيّة. لكنّه لقي حتفه وهو في بداية المسار.

لم تهوّن عليها سوى فكرة واحدة. لقد كان أمين وفيّا لعهده حتّى الرّمق الأخير، لقد أدّى واجبه كاملا تجاه الوطن. وهل هناك أجزى من الموت في سبيله؟ كانت كلمة «الشهيد» قد تكرّرت كثيرا على مسامعها منذ الأمس. لقد مات ورفاقه دون مالهم وأهلهم، فتمنّت له قبول الشّهادة. إنها تحسبه صادقا، وترجو أن يكون شهيدا حقّا.

تناهى إليها فجأة نشيج خافت، يشقّ سكون الحديقة. اقتربت في حذر، حتّى لمحت فراس. كان يجلس على مقعد حجريّ في ركن مستتر خلف أجمة ورد، ورأسه بين كفّيه. خمّنت أنّه ربّما أكثر شخص على سطح البسيطة وجعا لفقدان أمين. حدّقت في اتّجاهه لبرهة، ثمّ تراجعت. لم يكن يجدر بها مقاطعته. كانت قد مضت خطوة في الاتّجاه المعاكس، حين سمعت صوته.

- ليلى!

رغم التزامها الحذر، كان قد انتبه إلى وجودها. عادت أدراجها، حتّى صارت على بعد بضع خطوات من مجلسه. وقفت عاقدة ذراعيها أمام صدرها، وفكّرت أنّ عليها مواساته. لكنّها كلّما همّت بالحديث، شعرت بالاختناق، وبالعبرات تحرق مقلتيها.

استمرّ الصّمت الكئيب دقائق أخرى، قبل أن يقول فراس أخيرا في

مـرارة:

ـ لم أكن أعرف أنّ غيابه سيكون بهذه القسوة.

كتمـت أنفاسـها، وقـد صـارت دموعهـا تسـيل دون صـوت عـلى وجنتيها، بينمـا تابـع فراس:

ـ إنّـه أخـي الـذي لـم أعرفـه إلا منـذ شـهور! وكيـف لي أن أدّعـي أنّـني عرفتـه في المـاضي؟ لـم يكـن أحدنـا يهتـمّ للآخـر، ولا يعـرف شـيئا عـن حيـاة الآخـر.. مـا يحزنـه ومـا يفرحـه، مـا يشـغل تفكـيره ومـا يطمـح إليـه. كانـت أوّل مـرّة يسـألني فيهـا عـن رأيي في شيء يخصّـه، منـذ ثلاثـة أشـهر، تخيّـلي! كان ذلـك حـين فكّـر في الانضمـام إلى الجيـش. قبـل ذلـك، لـم يكـن حـتّى يطلـب رأيي في لـون قميـص أو علامـة تجاريّـة لحـذاء. لقـد كنّـا نعيـش في عالمـين منفصلـين تمامـا. أضعنـا سـنوات ثمينـة مـن طفولتنـا وشـبابنا.. ولـم ننتبـه إلّا متأخّريـن، متأخّريـن جـدّا. حـين عرفـت أمـين أخـيرا، وحـين استشـعرت معـنى أن يكـون لي أخ أشـاركه كلّ شيء.. رحـل فجـأة!

أغمضـت عينيهـا. كان فـراس قـد استسـلم للبـكاء الآن، بينمـا سرحـت هـي في أفكارهـا. لقـد وصلـت هـي متأخّـرة جـدّا للتعـرّف إلى حنـان. في الحقيقـة، لقـد فاتهـا القطـار تمامـا. فـراس عـلى الأقـلّ صنـع ذكريـات جميلـة مـع أمـين، في الشّـهور الأخـيرة، سيسـتحضرها كلّمـا اسـتبدّ بـه الحـزن، لتكـون لـه خـير عـزاء. لكنّهـا لـم تجـرؤ عـلى الجهـر بأفكارهـا أمامـه. كان موضـوع حنـان قـد غـدا مـن الممنوعـات في حديثهـا معـه. باغتهـا صوتـه، وهـو يصبـح أقـرب بشـكل مفاجـئ.

ـ ليلى.

فتحـت عينيهـا لتجـده قـد وقـف قبالتهـا، عـلى مسـافة متريـن، ورغـم الظّلمـة، كان بإمكانهـا أن تميّز بريـق عينيـه. قـال بصـوت متعـب:

ـ هل أكون قد وصلت متأخّرا.. مرّتين؟

ازدردت لعابهـا، وقـد شـعرت بجفـاف مفاجـئ في حلقهـا. إنّهـا تـدرك مـا يرمـي إليـه. ارتجفـت شـفتاها، لكنّهـا لـم تنطـق. هـل تـراه وصـل متأخّـرا.. إليهـا؟

أنقذهـا رنـين هاتفهـا. حدّقـت في الشّاشـة. كان والدهـا يتّصـل. قالـت بسرعـة:

ـ عليّ المغادرة الآن.

ثـمّ اسـتدارت لتسـير بسرعــة في اتّجــاه البوّابــة، حيــث كان نجيــب ينتظرهــا.

ركبـا السـيّارة في صمـت. أسـندت ليـلى رأسـها إلى النّافـذة، واسـتغرقها التّفكـير مـن جديـد. هـل تصـل متأخّـرة هـي الأخـرى.. مرّتـين؟ لقـد تأخّـرت مـرّة، لتلتقـي بعائلتهـا، بعـد أن فقـدت مـن فقـدت. فهـل تتأخّـر مـرّة ثانيـة، وتـولّي واجباتهـا ظهرهـا؟ زفـرت وأغمضـت عينيهـا، فظهـر في الظّـلام بريـق عيـني فـراس الحزينتـين. ضمّـت ذراعيهـا إليهـا، وانخرطـت في البـكاء مـن جديـد.

***

في التّأبـين الرّسـميّ، وضعـت توابيـت العسـكريّين الثمانيـة مغطـاة بعلـم البـلاد المفـدى، في سـاحة الثّكنـة العسـكريّة في القصريـن. وقـف رئيـس البـلاد، وجملـة مـن الـوزراء والمسـؤولين العسـكريّين، تعلـو وجوههـم نظـرة إبـاء مشـوبة بالحـزن، تليـق بالحـدث العظيـم، وتـردّد النّشـيد الرّسـميّ في خشـوع مهيـب:

حماة الحمى يا حماة الحمى   هلمّوا، هلمّوا لمجد الزّمن

لقد صرخت في عروقنا الدّماء   نموت، نموت، ويحيا الوطن!

ثـمّ ألقـى الرّئيـس كلمـة مؤثّـرة، عـن النّخـوة والاعـتزاز، والإرهـاب والصّمـود، وهـدّد وتوعّـد، ثـمّ شـكر ومجّـد، ثـمّ هنّـأ وعـزّى. بعـد ذلـك، تـلا شـيخ بجبّـة وعمامـة آيـات مـن ذكـر الله الحكيـم، ودعـا وأمّنـوا. ثـمّ صدحـت موسـيقى عسـكريّة جنائزيّـة، بينمـا انحـنى الرّئيـس أمـام التّوابيـت واحـدا إثـر الآخـر، وقلّدهـا أوسـمة شرفيّـة. أخـيرا، حُملـت النّعـوش إلى الشّـاحنات المصفّحـة، لتنطلـق كلّ منهـا في موكـب مهيـب إلى وجهتهـا، حيـث تنتظـر كلّ شـهيد عائلتـه.

عـصر ذلـك اليـوم، وصـل جثمـان أمـين إلى العاصمـة. خـارج مـنزل الجـدّة، تزاحـم المشـيّعون والمعـزّون، الوطنيّـون والفضوليّـون، المعـارف والجـيران والمتعاطفـون، وكلّ مـن وصلـه الخـبر مـن المـارّة. كان الزّقـاق غاصّـا بالخلـق، بعـد أن فاضـت بهـم غـرف المـنزل وسـاحته وحديقتـه الواسـعة. وحـين نـزل الجنـود بزيّهـم الرّسـميّ بالنّعـش هرولـت الحاجّـة فريـدة إلى الفنـاء، بعـد أن تناهـى إليهـا اللّغـط، تسـندها كلّ مـن ليـلى ومنـال. تطوّعـت بعـض النّسـوة للولولـة والعويـل، فنهرتهـن السـيّدة الكبـيرة بلهجـة حاسـمة:

ـ ولدي عريس، لا يزفّ إلّا بالزّغاريد!

ارتفعــت الزّغاريــد والتّكبــيرات مــن كلّ حــدب وصــوب، بينمــا رفــع الجثمـان فـوق الـرّؤوس، وسـار في تيّـار هائـل مـن البـشر، يشـيّعونه إلى مثـواه الأخـير.

-٣١-

خــلال الأيّــام الــتي تلــت، فقــدت ليــلى شــهيّتها لــكلّ شيء. غــدت معالـم الحيـاة باهتـة وجافّـة. أينمـا حلّـت، كانـت تقـرأ عـلى الوجـوه خيبة وبـرودا. تشـعر بالأحـلام المـوؤودة تفـارق أصحابهـا، مثـل أرواح هائمـة لا تجـد لهـا مسـتقرّا. تشـعر بالهزيمـة وقـد عشّشـت في القلـوب والـرّؤوس، معلنـة انحسـار ا لأمـل الـذي جـاءت بـه الثّـورة وعـزّزه الجيـش، فكيـف وقـد انتكـس الاثنـان؟

لقــد كانــت الانتصــارات في البدايــة مدوّيّــة، لــكلّ القيــم المثاليّــة والمبـادئ الطّوباويّـة الـتي ظلّلـت الشـعب تحـت سـقف واحـد زمـن الهبّـة الهـادرة. وقـد كانـت الهزائـم مدوّيـة أيضـا، فمـا عـاد هنـاك إيمـان بـشيء ولا تعلّـق بـشيء. كلّ مـن وضـع أمـل نجاحـه وارتباطـه وتحسّـن وضعـه بالثّـورة، وجـد نفسـه مكانـه لـم يتحـرّك إنشـا واحـدا. لقـد كانـت أحـلام العامّـة وآمالهـم تسـتند عـلى دعامـة واحـدة، حـين انهـارت الدّعامـة، سـقط السّـقف عـلى رؤوس الـكلّ.

لازمتها في تلك الأيّام أسئلة وجوديّة مؤرقة.

هـل يجـب أن نمـوت ليحيـا الوطـن؟ ألا يمكـن أن نحيـا، ويحيـا معنـا الوطـن؟

لماذا يموت الأوفياء والصّادقون، ويحيا الخونة والفاسدون؟

كان سراح خالهـا قـد أطلـق، خـلال أيّـام، بقـرار عفـو خـاصّ طـال أهــالي شــهداء الوطــن، تكريمــا لهــم.

وكانـت العناويـن الـتي تغطّيهـا مقـالات ركنهـا بالجريـدة تـكاد تقتصر عـلى موضوعـين اثنـين: عنـف الدّولـة، وغـلاء المعيشـة! كانـت ظاهـرة

العنف البوليسيّ تجاه كلّ من تسوّل له نفسه التّظاهر والاحتجاج قد استشرت من جديد، وكأنّ حرّيّة التّعبير والتّظاهر لم تعد مكفولة بالقانون. وكأنّ إنجاز الثّورة الوحيد قد صودر بكلّ وقاحة. في المقابل، تواصل الأسعار ارتفاعها بنسق جنونيّ، لتكبّل أصحاب الدّخل المتواضع.

لكنّ والدها، محترف التّفاؤل، حافظ على ابتسامته الدّائمة، في بلد كانت تسمّى في زمن المخلوع «بلد الفرح الدّائم»! يقول مهوّنا كلّما واجهته بسحنتها الكئيبة:

ـ لا تنسي أنّ الثّورة أفرزت تعدّديّة حزبيّة، ومنابر إعلاميّة حرّة، ومكّنت من كتابة دستور جديد، وسمحت بحريّة التّعبير للقاصي والدّاني! لولا الثّورة، لما كنت تدخلين المصالح الحكوميّة والمؤسّسات العامّة، ولا حتّى تتجوّلين في الشّوارع آمنة بحجابك! منذ ثلاث سنوات لم تكن حتّى حريّة اللّباس مكفولة.. فما بالك بالحريّات السّياسيّة! انظري إلى ما تكتبينه في صفحة التّحقيقات. أنت لا تقدّرين ما تنعم به الصّحافة اليوم من طول ذراع ولسان! اليوم، يمكنك الكتابة في أيّ موضوع وكلّ شأن، دون خوف من رقابة أمنيّة وتكميم أفواه! عزيزتي، علينا أن ننظر إلى الجزء الملآن من الكأس، ونعمل على مواصلة ملء الجزء الآخر.. بصبر ويقين، ودون استعجال.

تذكر الآن نظرتها للمتظاهرين، منذ سنتين ونصف، وهي تقف أمام محلّ السّتائر مع سحر. لقد قالت الكلمات نفسها آنذاك. «الدّيمقراطيّة طبخة تحضّر على نار هادئة، ولا ينبغي استعجالها». وهي تستمع إلى والدها، لم تعد واثقة، كم ينبغي على المرء الانتظار حتّى تُجنى ثمار الثّورة ناضجة وحلوة، فلا يتّهم بالاستعجال؟

رغما عنها، كانت موجة اليأس قد وصلت إليها، وغمرتها حتّى قمّة

رأسـها. لأوّل مـرّة منـذ عودتهـا، شرعـت تفكّـر في عـرض باورمـان بجدّيّـة. كان يهـيّئ لهـا فرصـة الفـرار المناسبة، مـن كـمّ الكآبـة الـتي تحيـق بهـا. إنّـه يمثّـل بوّابـة الخـروج مـن «لعبـة الثّـورة» قبـل أن تتكبّـد خسـارة فادحـة في مراحلهـا الأخـيرة.

انتشلتها زيارة نسرين لها في المكتب، ذات صباح.

لـم تكـن قـد التقتهـا منـذ الرّحلـة الخلويّـة الـتي جمعتهمـا في جزيـرة جالطـة. لمحتهـا بشـكل خاطـف أثنـاء مراسـم العـزاء، لكنّهمـا لـم تتحدّثـا باسـتفاضة. عانقتهـا وبكـت كلتاهمـا، وكأنّ ذكـرى الرّجـل الـذي كان السـبب في اجتمـاع شـملهما عـادت حيّـة في الوجـدان المنهـك. بعـد أن اسـترجعت نسريـن أنفاسـها، شرحـت سـبب مجيئهـا:

ـ نريـد في فـوج الكشّـافة أن نفعـل شـيئا مـن أجـل أمـين، حـتّى لا يُمحـى أثـره. جمعنـا الصّـور الـتي احتفـظ بهـا كلّ منّـا مـن الرّحـلات والأنشـطة الـتي شـارك بهـا.. وقـد فكّـرت فيـك، ربّمـا تكـون بحوزتـك متعلّقـات شـخصيّة أو صـور خاصّـة يمكنـك المسـاهمة بهـا؟

خمّنـت ليـلى أنّ نسريـن قـد تكـون مـن أشـدّ النّـاس وجعـا لرحيـل أمين. لقـد كانـا عـلى أبـواب الخطبـة والارتبـاط، لذلـك لـم تفاجئهـا المبـادرة. لكنّهـا انتبهـت إلى أنّهـا لا تملـك أيّ ذكـرى مـن أمـين يمكنهـا أن تفيـد بهـا. قالـت بعـد تفكـير:

ـ سأحاول إيجاد شيء من أجلك.

بعـد أن غـادرت نسريـن، لبثـت ليـلى تحـدّق في الهاتـف لدقائـق. لـم تكـن قـد رأت فـراس بعـد ذلـك اللّقـاء اللّيـلي، في حديقـة منـزل الجـدّة، يـوم تلقّـي الخـبر القاتـل. والآن، عليهـا أن تتّصـل بـه، فهـو الوحيـد الـذي بإمكانـه أن يجيـب طلبهـا. تعـرف مصـدر تردّدهـا. إنّهـا لـم تـردّ أبـدا عـلى سـؤاله ليلتهـا، ولـم تكـن قـد حسـمت أمرهـا بخصوصـه. اسـتجمعت

شـجاعتها أخـيرا، واتّصلـت. بعـد رنّتـين، جاءهـا صوتـه. شرحـت لـه بسرعـة مـا طلبتـه نسريـن، فقـال ببسـاطة:

ـ سـأمرّ عليـك غـدا بالجريـدة، وأتـرك لـك مفتـاح الشّـقة. أغـراض أمـين مازالـت في غرفتـه، يمكنـك أخـذ مـا ترينـه مناسـبا منهـا، قبـل أن نتـبرع بمـا تبقـى.. ثـمّ اتـركي المفتـاح في صنـدوق البريـد.

فكّرت وهي تنهي المكالمة، لقد بدا متماسكا أكثر ممّا توقّعت.

في الغـد، حـين رجعـت مـن مقابلاتهـا، أخبرتهـا زبيـدة أنّ فـراس قـد مـرّ بهـا، وتـرك المفتـاح كمـا وعـد. انتابهـا الشـكّ، هـل يحـاول تجنّبهـا الآن؟ إنّـه يعـرف بالتّأكيـد أنّهـا لا تتواجـد في المكتـب صباحـا.

تناولـت غداءهـا في مقـرّ الجريـدة كالعـادة، ثـمّ اعتـذرت لقضـاء حاجـة خاصّـة، وخرجـت باتّجـاه شـقّة فـراس. حـين فتحـت البـاب، فاجأتهـا أناقـة المفروشـات ورائحـة النّظافـة. كانـت تلـك زيارتهـا الأولى لهـا. هـل نسـيت أنّـه مهنـدس معمـاريّ؟ كان مـن البديهـيّ أن تكـون شـقّته بتلـك المواصفـات. بيـد أنّهـا رسـمت في ذهنهـا صـورة لمـا تكـون عليـه شـقّة شـابّ أعـزب عـادة، فمـا بالـك بشـابّ أعـزب منهـار وفي حـداد! تسـاءلت حينهـا، هـل هـو كذلـك حقّـا، منهـار وفي حـداد؟ لـم تكـن غرفـة المعيشـة المرتّبـة بنوافذهـا الواسـعة والمطبـخ اللاّمـع المطـلّ عليهـا تعكـس شـيئا مـن ذلـك.

فتحـت البـاب الثّـاني عـلى يمينهـا، كمـا أوصى فـراس. كانـت تلـك غرفـة أمـين. وجدتهـا مرتّبـة هـي الأخـرى. بـدا أنّ يـد فـراس قـد مـرّت مـن هنـا منـذ وقـت قريـب. لـم تتوقّـع أن يكـون قـد اهتـمّ بتوضيـب حاجيـات أمـين وفرزهـا بتلـك السّرعـة. حسـبت أنّـه سـيحتاج فـترة نقاهـة طويلـة مـن حزنـه المزمـن. لكنّهـا كانـت مخطئـة.

كانـت هنـاك صناديـق معبّـأة، فيهـا ملابـس وكتـب وأحذيـة. انتبهـت

إلى صندوق منفرد، قرب الباب، تعلوه قصاصة بخطّ يد فراس، كان قد وضعها من أجلها: «أظنّ هذا يفي بالغرض». أخذت تتفحّص محتويات الصّندوق. كانت هناك عدسة تصوير رقميّة وألبومات صور، بالإضافة إلى حاجات أمين الكشفيّة، زيّه الرّسميّ، شاراته وأوسمته، ثمّ أوراق ملفوفة. فتحتها، لتجد لافتات الشّعارات التي كانت تُرفع في المظاهرات. كان هناك الكثير منها. وضعتها جانبا، ثمّ تناولت عدسة التّصوير، وأخذت تتفرّج على الصور.

استغرقتها الصّور، فلم تشعر بالوقت يمرّ. أمضت ساعة أو نحوها تتأمّل المشاهد التي التقطتها عدسة أمين على مرّ السّنوات الماضية. كان هناك القليل من صوره الشّخصيّة، والكثير من صور المظاهرات والاعتصامات والوقفات الاحتجاجيّة والرّسومات الحائطيّة المتمرّدة! كيف نسيت ذلك! لقد كان أمين «شاهدا على الثّورة» بامتياز. يمكنه أن ينال اللّقب دون منافسة! لم تكن تفوته حركة احتجاجيّة واحدة في العاصمة وأحوازها.

أعادت ترتيب الأغراض في الصندوق، ثمّ حملته وانصرفت. سيفي ذلك بالغرض فعلا.

ركبت سيّارة أجرة، فلم يكن حملها مناسبا لركوب المترو. طوال رحلة الإياب، لازمتها فكرة ملحّة. يجب أن تفعل شيئا بإرث أمين الثّوري. الصّندوق الذي يستقرّ على المقعد إلى جوارها يلخّص تاريخ الثّورة، منذ اندلاعها وحتّى شهور قليلة خلت. يمكنها أن تعيد رسم الأحداث بدقّة، بالاستناد إلى ما خلّفه أمين. لكن ما الذي بوسعها عمله بها؟

حين خطت باتّجاه بنايتها، شاهدت سيّارة فراس متوقّفة عند رأس الشّارع. لم تكن قد وصلت إلى المدخل بعد، حين لمحته يظهر

مـن هنـاك، ويتّجـه إلى سـيّارته مولّيـا إيّاهـا ظهـره. لـم يرهـا. وقفـت تراقبـه في شـكّ، وهـو يديـر المحـرّك وينطلـق. لقـد تأكّـد لديهـا إحسـاس الصّبـاح الآن. إنّـه يتعمّـد تجنّبهـا! لقـد عـرف أنّهـا سـتذهب بعـد الظّهـر إلى شـقّته، فاسـتغلّ فرصـة غيابهـا لزيـارة والدهـا!

صعـدت بصندوقهـا حـتّى الطّابـق الثّـاني. اسـتقبلها والدهـا بابتسـامة باشّـة، سـألها عمّـا تحملـه، ثـمّ أخـذ يحدّثهـا عـن نباتاتـه. كان اهتمامـه الحديـث برعايـة النّباتـات قـد بـات تسـليته المفضّلـة. كانـت الشرفـة قـد غـدت حديقـة معلّقـة مليئـة بالأصـص الـتي تحـوي مختلـف مزروعـات نجيـب. وفي ذلـك اليـوم، كانـت بـوادر الجفـاف قـد ظهـرت عـلى نبتـة الأكاسـيا ومـال جذعهـا.

خمّنت، لم تبد عليه أدنى نيّة بإثارة زيارة فراس أمامها.

دلفت إلى غرفتها واتّصلت بنسرين.

ـ لقـد أحـضرت الأغـراض الـتي طلبتهـا. لكنّـني أفكّـر بـشيء آخـر، غـير التّكريـم العـادي...

ـ ماذا تقصدين؟

ـ مـا لـديّ هنـا يكفـي لإقامـة معـرض صـور فوتوغرافيّـة محورهـا تاريـخ الثّـورة!

ـ هذه فكرة لامعة!

ـ هل تظنّين؟ إنّها مجرّد فكرة، ولا أعرف كيف يمكن تنفيذها.

ـ سنفكّر معا في الأمر.

في الأيّـام التّاليـة، التقـت نسريـن بضـع مـرّات. عرضـت عليهـا محتويـات الصّنـدوق الدّسـم، فعكفتـا عـلى فرزهـا وفكّرتـا معـا طويـلا في فكـرة المعـرض. كانتـا تحتاجـان قاعـة عـرض بمسـاحة كافيـة، ويمكنهمـا

تقاسم مصاريف طباعة الصّور بحجم مناسب وتأطيرها. فكّرت ليلى أنّ بوسع فراس مدّ يد المساعدة. قد تعهد إليه بتصميم ديكور القاعة الدّاخليّ، وربّما أمكنه تدبّر أمر حجز القاعة أيضا، بحكم علاقاته في كليّة الفنون الجميلة. لا شكّ أنّه قد حضر أو نظّم عروضا فنيّة مشابهة في وقت سابق.

حين حدّثت نسرين باقتراحها، أيّدتها بحماس. كان من الجيّد إشراك أفراد العائلة وكلّ المقرّبين من أمين في المشروع. هذا ليس مشروعهما الخاصّ. إنّ الغرض منه أكبر من مجرّد تثمين علاقات شخصيّة أو ملكيّة فكريّة. كان ذلك واجبهما في زمن الفتور وانخفاض الهمّة، التّذكير بتضحيات الشّهداء ومواقف الشّجعان.

ـ سأخبر جدّتي وأبي أيضا، ربّما يرغبان في المشاركة!

أجرت اتّصالات عدّة ذلك اليوم، وأخّرت اتّصالها بفراس. كانت تشعر بثقل في صدرها، كلّما فكّرت أنّه قد صار يحاول تلافيها. لكنّه كان يردّ على اتّصالاتها ببساطة. لا يبادرها بشيء، وينتظر حتّى تشرح حاجتها. لم يختلف الأمر ذلك المساء. استمع إليها في صمت، ثمّ قال في اهتمام:

ـ سأجرّب الاتّصال بوزارة الثّقافة.. قد يهمّهم الحدث.

وهي تستلقي في سريرها تلك اللّيلة، كانت تشعر بشيء من الضّيق. هل تكون قد تأخّرت في الرّدّ حتّى ما عاد ينتظرها؟ لقد بدا مختلفا مؤخّرا، متباعدا وجافّا. ألم تكن كذلك تجاهه أيضا؟ ممّ الشكوى إذن؟ لقد حقّق رغبتها وتوقّف عن مطاردتها بنظراته وأسئلته الملحّة. فما الذي تريده الآن؟ تساءلت، هل كانت تلك رغبتها حقّا؟ هل يراودها النّدم الآن؟

***

هل كان ينتظر رحيل أمين ليدرك معنى الحياة أخيرا؟

كان قـد اتّخـذ قـرارات، منـذ ثـلاث سـنوات، ثـمّ جمّـد تنفيذهـا. لقـد احتـاج أن يعـبر كلّ تلـك الدّهالـيز الملتويّـة، فيتـوه عـن نفسـه سـنتين مغتربـا ووحيـدا، ثـمّ يرجـع منتكسـا ومقهـورا، ثـم يهـذّب شـعث قلبـه ويكتشـف معـاني الأخـوّة، قبـل أن يهـوي مـن ارتفـاع سـاحق، ويتلقّـف نفسـه بمعجـزة قبـل الارتطـام المـدوّي! أيّ هاتـف جـاءه في نومـه وهمـس: هـذه ليسـت النّهايـة؟ ليـس واثقـا. لا يذكـر أحلامـه منـذ زمـن، منـذ غادرتـه الكوابيـس لـم يعـد يحلـم. وتلـك راحـة في حـدّ ذاتهـا. لكنّـه اسـتيقظ مـن سـباته ذات صبـاح وقـد أدرك أنّ هـذه لا يمكـن أن تكـون النّهايـة!

لقـد خـسر الكثـير حـتّى الآن مـن الالتفـات إلى المـاضي، كأنّ في قدميـه ثقـلا يشـدّ خطواتهمـا إلى الـوراء. وقـد اتّخـذ قـرار الإفـلات مـن قبضـة الذّكريـات المؤلمـة بفضلهـا. ليـلى. لكنّهـا تـأبى أن تكـون جـزءا مـن مسـتقبله. هـل يمكنـه الآن أن يسـتأنف مشـوار الحيـاة رغـم جناحيـه منتـوفي الرّيـش؟ لقـد كانـا جناحيـه.. ليـلى وأمـين. وقـد فقـد كليهمـا خـلال السّـنة الأخـيرة. وهـل كان قـد امتلـك أحدهمـا فيمـا مـضى؟

كانت ليلى حلما جميلا. وكان أمين اكتشافا متأخّرا.

ذلـك الصّبـاح، منـذ أسـبوعين، اتّخـذ قـرارا آخـر، وهـو يفتـح عينيـه صباحـا عـلى رؤيـا لـم يرهـا في الحلـم، لكنّهـا تجسّـدت إيمانـا في قلبـه ويقينـا في عقلـه. هـذه حياتـه هـو، وليسـت حيـاة أيّ كيـان آخـر. سـيدخلها أنـاس كـثر، يعـبرون ويرحلـون. وسـيأتي يـوم رحيلـه أيضـا، في وقـت مـا. وليـس يليـق بتلـك الحيـاة الـتي وهبـت لـه أن تضيـع هبـاء، لأنّـه خُلّـف وحيـدا مثـل صـبيّ تائـه!

ذلـك الصّبـاح، فتـح غرفـة أمـين الـتي لـم يجـرؤ عـلى ولوجهـا منـذ

غادرها صاحبها. اتّخذ جملة من القرارات السّريعة تباعا. لن تكون حياته بعد الآن شبح حياة. ستكون حياة حقيقيّة، مشبعة بذاتها، مستقلّة ومتصالحة مع واقعها. بدأ بتنظيف الغرفة وترتيبها. لم يبك مرّة أخرى وهو يمرّ بعينيه وأصابعه على أشياء أمين. كان يفكّر بشكل مختلف الآن. إنّه يغبط أمين، لأنّه كان قادرا على فعل ما يريد على الدّوام. لقد كانت قيمه التي آمن بها نصب عينيه حتّى النّهاية. إذن تلك حياة قد عاشها صاحبها كما يجب، ولا شكّ لديه أنّ النّدم لم ينازعه حتّى الرّمق الأخير. هنيئا له.

ذلك الأسبوع، ذهب لزيارة والده. لم تكن زياراته متواترة، خشية أن يلتقي ياسين عنده. لم يعد يخشى لقاءه بعد الآن. لقد تواجها أثناء العزاء، وكادا يتشاجران. لم تعد رؤيته تعني له شيئا. لقد تباعدت طرقهما منذ ثلاث سنوات، وقد افترقت إلى الأبد بعد رحيل أمين.

بدا نبيل منهكا، رغم خبر اقتراب حريّته السّعيد. فكّر فراس، لقد فقد ولده في نهاية الأمر، وهذا سبب كافٍ للانهيار. قال نبيل في مرارة:

- هل كان عليه التطوّع مع الجيش؟ لقد ضيّع حياته هباءً. عاش مغفّلا ومات كذلك!

ردّ فراس في برود:

- لقد كان بطلا، صادقا مع نفسه ووفيّا لمبادئه. لا أظنّك قد عرفته يوما. لقد كان معدنه أصليّا، ونحن المزيّفون!

حدّق فيه نبيل غير مصدّق. لكنّ فراس لم يعد يأبه. سيلقي كلماته في وجوههم، ولن يسكت أمام قدحهم في الشّهيد!

لقي ياسين، وهو يغادر قاعة الزّيارة. تبادلا نظرة طويلة لاذعة، تلخّص ما آلت إليه العلاقة بينهما، ثمّ سارا كلّ في طريقه دون أن

ينطـق أحدهمـا بكلمـة.

جـاءه اتّصالهـا، مثـل إشـارة ربّانيّـة. سـيفعل شـيئا مـن أجـل أمـين. فكرة المعـرض كانـت ملهمـة. بخوضـه التّجربـة كان يعلـن انتهـاء حـداد قلبـه عـلى فقيديـه. سـيكرّم أمـين كمـا يليـق بـه وبثورتـه، ويطلـق سراح ليـلى مـن قفـص مشـاعره. لقـد حسـب فيمـا مـضى أنّ خلاصـه في النّسـيان، لكنّـه اليـوم يؤمـن أنّ الذّكـرى بعـض منـه ومـن وجدانـه. لا يمكنـه أن يمسـحها ويمحوهـا، لكنّـه سـيحاول أن يعيدهـا إلى حجمهـا وموقعهـا الطّبيعيّـين عـلى سـلّم أولويّاتـه. لـن تطغـى ذكرياتـه عـلى حـاضره بعـد الآن، وسـتبقى حيـث يجـب أن تكـون، عـلى سـلّم الزّمـن، جـزءًا مـن خبراتـه الماضيـة.

أولـم يكـن يعـتزّ بذكرياتـه في وقـت مـضى؟ تلـك المفكّـرة الـتي ظهـرت فجـأة بـين يـدي ليـلى أعـادت إليـه وعيـه بذاتـه القديمـة. كان يكتـب، حـتّى لا ينـسى. لقـد كان كلّ حـدث يمـرّ بـه قيّمـا لذاتـه. كان يعيـش بتلـك الطّريقـة. وكان عليـه أن يمسـك المفكّـرة بـين يديـه بعـد ثمـاني سـنوات من اختفائهـا حـتّى يـدرك كلّ ذلـك! الآن، لـم يعـد يريـد أن يكـون عـلى أحـد النّقيضـين، متطرّفـا في التشـبّث بالذكّريـات أو متطرّفـا في نبذهـا. سـيعيد للأشـياء حجمهـا الطّبيعـيّ، ولـن ينجـرف وراء مشـاعر غـير منضبطـة.

تذكّـر، تلـك المفكّـرة، لقـد اختفـت مـن درج مكتبـه فجـأة. تزامـن ذلـك مـع انهيـار حنـان وإمعانهـا في الجنـون. لقـد كان منشـغلا في تلـك الأيّـام، فلـم ينتبـه لغيابهـا. كيـف انتهـت إلى غرفـة حنـان؟ هـل كانـت هـي مـن سرقهـا؟

***

جاءها اتّصال فراس بعد يومين. قال على الفور:

ـ لقد فكّرت في الأمر، لا نحتاج قاعة مغلقة لا يرتادها إلّا المهتمّون بالفنّ.. بل مكانا مفتوحا. ساحة أو حديقة، يمرّ بها عدد كبير من النّاس كلّ يوم!

بدا لها الاقتراح منطقيّا. كان هناك عدد من المواقع الممكنة، حديقة الحبيب ثامر، قرب محطّة الحافلات المركزيّة بالعاصمة، شارع الحبيب البورقيبة، أو ساحة القصبة، حيث عدد من الوزارات والدّوائر الحكوميّة والمؤسّسات العامّة. لدواعٍ أمنيّة، ولضمان استقرار المعرض أطول فترة ممكنة، وقع الاختيار على الحديقة. لم تكن تأمن تدخّل الشّرطة لتقويض المعرض كما تدخّلت بالقوّة مع المعتصمين.

ذهبت مع نسرين لمعاينة المكان. كان هناك بعض الباعة المتجوّلين المتفرّقين على امتداد الطّريق الذي يشقّ الحديقة ويصل بين مدخليها الرّئيسيّين. بين البابين، ينساب التيّار البشريّ في مختلف ساعات النّهار. ألهمهما توزّع الباعة ومواقعهم. كان هناك من سبقهما بتحرّي المراكز الاستراتيجيّة لاقتناص أكبر عدد من الزّبائن. اختارتا الموقع المناسب قرب المدخل الجنوبيّ، ساحة مستطيلة ذات مساحة كافية، في خلفيّتها أشجار وارفة الظّلال. كان تيّار العابرين الأهمّ يمرّ من هناك، وهناك أيضا يتجمّع أكبر عدد من الباعة.

بعد أسبوعين، كان كلّ شيء جاهزا. نصب سرادق ضخم قرب مدخل الحديقة، تحسّبا للأيام الممطرة والمشمسة على السّواء، وعملت أياد كثيرة على ترتيب اللّوحات الفوتوغرافيّة في فضاء المعرض. كان عدد من الكشّافين قد انظمّ إلى الفريق ليتداول الجميع على الاهتمام

بالمعـرض منـذ الصّبـاح وحـتّى غـروب الشّـمس.

لـم تسـتطع ليـلى أن تتغيّـب كثـيرا عـن عملهـا، لكنّهـا كانـت تمـرّ بالسّـاحة كلّمـا سـنحت الفرصـة، لتراقـب سـير العمـل. أمّـا نسريـن، فقـد تفرّغـت للمعـرض تمامـا، وكأنّـه مشروعهـا الخـاصّ. كان فـراس قـد وضـع مخطّطـا دقيقـا لمـا يجـب أن يكـون عليـه المعـرض، محـدّدا موقـع كلّ لوحـة وكلّ لافتـة. وعـلى مدخـل الخيمـة، علّقـت لافتـة تحمـل شـعار العـرض «كي لا ننـسى».

ومنــذ شرع الفريــق في الإعــداد للمعــرض، كان النّــاس يتوقّفــون في فضـول، أثنـاء مرورهـم بالحديقـة، يلقـون نظـرة عـلى الصّـور واللّافتـات، وتظهـر علامـات التأثّـر عـلى وجوههـم. كان البعـض يجهـش بالبـكاء أمـام صـورة بعينهـا، تعيـد إليـه ذكـرى خاصّـة. وكان البعـض الآخـر يبتسـم بمـرارة، مسـترجعا مواقـف مضـت، وصـارت في طـيّ النّسـيان. وكانـت العيـون تعانـق اللّوحـات في حـبّ أحيانـا، وفي حنـين، وكثـيرا في أمـل. تمـرّ في مُقلهـا حيـاة كاملـة، صاخبـة ومزدحمـة بالمشـاعر. تلـك الصّـور لـم تكـن قـطّ خاصّـة بصاحبهـا، ولقـد كانـت مشـاركتها واجبـا.

كانـت اللّوحـات قـد اسـتقرّت في مواقعهـا ذلـك العـصر، حـين مـرّت ليـلى عـلى المعـرض، تلقـي نظـرة تفقّديّـة. سـارت بـين الصّـور المعلّقـة تتأمّلهـا واحـدة واحـدة، تمـلأ منهـا عينيهـا. كانـت تعـرف كلّ واحـدة منهـا، بعــد أن أمضــت ســاعات طويلــة في فرزهــا وانتقــاء الــتي تصلــح منهــا للعـرض. لكنّهـا كانـت مذهلـة بحجمهـا الكبـير، وقـد صـارت جـزءا مـن إخـراج مسرحـيّ يـروي قصّـة شـعب وجـلّاد ووطـن.

توقّفـت فجـأة أمـام لوحـة تعـرض مسـيرة احتجاجيّـة مـا. كانـت هنـاك الكثـير مـن القبضـات الملوّحـة في الهـواء، والأفـواه المنشّـقة عـن صرخـات غضـب وثـورة. كانـت الأجسـاد في الصّـورة تبـدو وكأنّهـا تتحـرّك بشـكل

متزامـن ومتناسـق، مثـل هبّـة رجـل واحـد. لبثـت تحـدّق في الوجـوه، تتعـرّف إلى هـؤلاء الغربـاء الذيـن التحمـوا في سـاحة المعركـة، فمـا عـاد يمكـن تمييـز أحدهـم عـن الآخـر. فجـأة شـهقت، وغطّـت فمهـا بكفّهـا. بـلى، كان بإمكانهـا تمييـز وجـه هنـا. وجههـا هـي! تسـمّرت في صدمـة. كيـف يمكـن أن تكـون ملامحهـا في تلـك الصّـورة الـتي التقطهـا أمـين عرضـا لمجموعـة مـن المتظاهريـن؟ لا يمكـن أن يكـون قـد ميّزها في ذلـك الزّحام! لكـن هـا هـي ذي، صورتهـا وسـط المشـهد، في خضـم المسرحيّـة، شـاهدة عـلى أنّهـا كانـت جـزءا مـن التّاريـخ الـذي تخلّـده الصّـور!

سـالت دمعـة صامتـة عـلى وجنتهـا. لـم تصـدّق أنّهـا مثـل الآخريـن، وجـدت قصّتهـا الشـخصيّة في حكايـة الوطـن الكبـير. تتذكّـر الآن، حاجتهـا إلى الذّوبـان في هـمّ أكـبر، فـرارا مـن همومهـا الذّاتيّـة. تتذكّـر هتافهـا المـرّ، لتغطّـي عـلى صـوت عذابهـا الباطـنيّ. لقـد عرفـت عـلى امتـداد الرّحلـة، أنّ عليهـا أن تبـدأ بنفسـها، ترمّـم صدعهـا الدّاخـليّ لتكـون لبنـة صلبـة في بنيـان الوطـن. لقـد اكتشـفت في لحظـة تجـلٍ، أنّ قطـع الآجـر الهشّـة والمحطّمـة لا تصلـح لإقامـة صرح شـامخ، فمصـيره إلى الانهيـار مهمـا ارتفـع!

تتأمّـل مـن جديـد في تلـك الوجـوه الـتي تحيـط بذاتهـا القديمـة في الصّـورة. هـؤلاء مثلهـا تمامـا، ذوات مهشّـمة وأرواح ممزّقـة، تعذّبهـم همـوم شـخصيّة متباينـة، وقـد حسـبوا لوهلـة أنّ قضيّـة الوطـن تجمعهـم. وقفـوا في وجـه جلّادهـم المشـترك، صرخـوا وهـدّدوا، ينفّسـون عـن غضـب مكبـوت وغيـظ مكتـوم. فلمّـا رحـل الجـلّاد، تفرّقـت بهـم السّـبل. اكتشـفوا أنّهـم لـم يكونـوا يومـا عـلى قلـب رجـل واحـد. تحسـبهم جميعـا وقلوبهـم شـتّى، مشـغولة بهمـوم شـخصيّة. لقـد كانـت لحمتهـم التّلقائيّـة مؤقّتـة. لقـد كان بنيانهـم المرصـوص ظاهـرا ينخـره السّـوس داخـلا.

زفرت بقوّة. إنّها تعرف الآن ما عليها فعله.

شعرت فجأة، بخطوات تتوقّف خلفها. خطوات متسلّلة بلا وقع. رغم السّنوات التي انقضت، ورغم الحركة المستمرّة من حولها في أرجاء المعرض، إلّا أنّه مازال بإمكانها الإحساس بوجوده. اضطرب تنفّسها، وهي تنتظر ردّة فعله. حين طال الصّمت، قالت بهدوء:

ـ هل أعجبتك الصّورة؟

خطا فراس إلى الأمام، حتّى صار في مستواها، وقال:

ـ هذه الصّورة تقول الكثير، لمن يستطيع أن يقرأ لغتها.

التفتت إليه في فضول. هل تراه ميّز ملامحها بين الجماهير؟ وهل يكون قد وقف على الاستنتاج نفسه؟ هل قرأ كلاهما مفردات اللّغة نفسها، أم يتوهّم أحدهما أو كلاهما أنّه قد حاز الفهم؟

وضع فراس كفّه على صدره وتنهّد، ثمّ قال:

ـ الثّورة، يجب أن تبدأ ها هنا.

ابتسمت، واعتراها إحساس لذيذ بأنّهما – أخيرا – على نفس الموجة، ينظران في الاتّجاه ذاته، ويفكّان شيفرة لغة لوحة صامتة بالدّقّة ذاتها! انتبهت في تلك اللّحظة إلى أنّ فراس كان قد سبقها بأشواط. كلّ شيء فيه كان ينطق بالثّقة والعزيمة، صوته، شكله ولغة جسده. لقد كان تجاوزه للأزمة سريعا وفعّالا، وكأنّه يراقب هدفا واضحا أمام عينيه. يمكنها أن تجزم بأنّ الرّجل الذي أمامها الآن ليس ذات الرّجل الذي ظلّ يبكي على الأطلال سنوات أربع بعد رحيل زوجته الأولى! سرى القلق داخلها عند ذلك الخاطر. هل تراه يحسبها الآن جزءا من الماضي الذي خلّفه وراء ظهره؟

جاءها صوته فجأة:

ـ هل ستسافرين مرّة أخرى؟

لمعت عيناها ببريق الإثارة، وابتسمت وهي تقول في ثقة:

ـ سوف أبقى هنا.

في الخلفيّة، كانت نغمات نشيد شجيّ تتصاعد من مسجّل نسرين:

سوف نبقى هنا   كي يزول الألم
سوف نحيا هنا   سوف يحلو النغم
موطني موطني   موطني ذا الإباء
موطني موطني   موطني يا أنا!

تمّت بحمد الله

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كل إنتـاج إبداعـي، جـودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسالتنا في كيان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتَّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنـا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing